التدبر والبيان

في

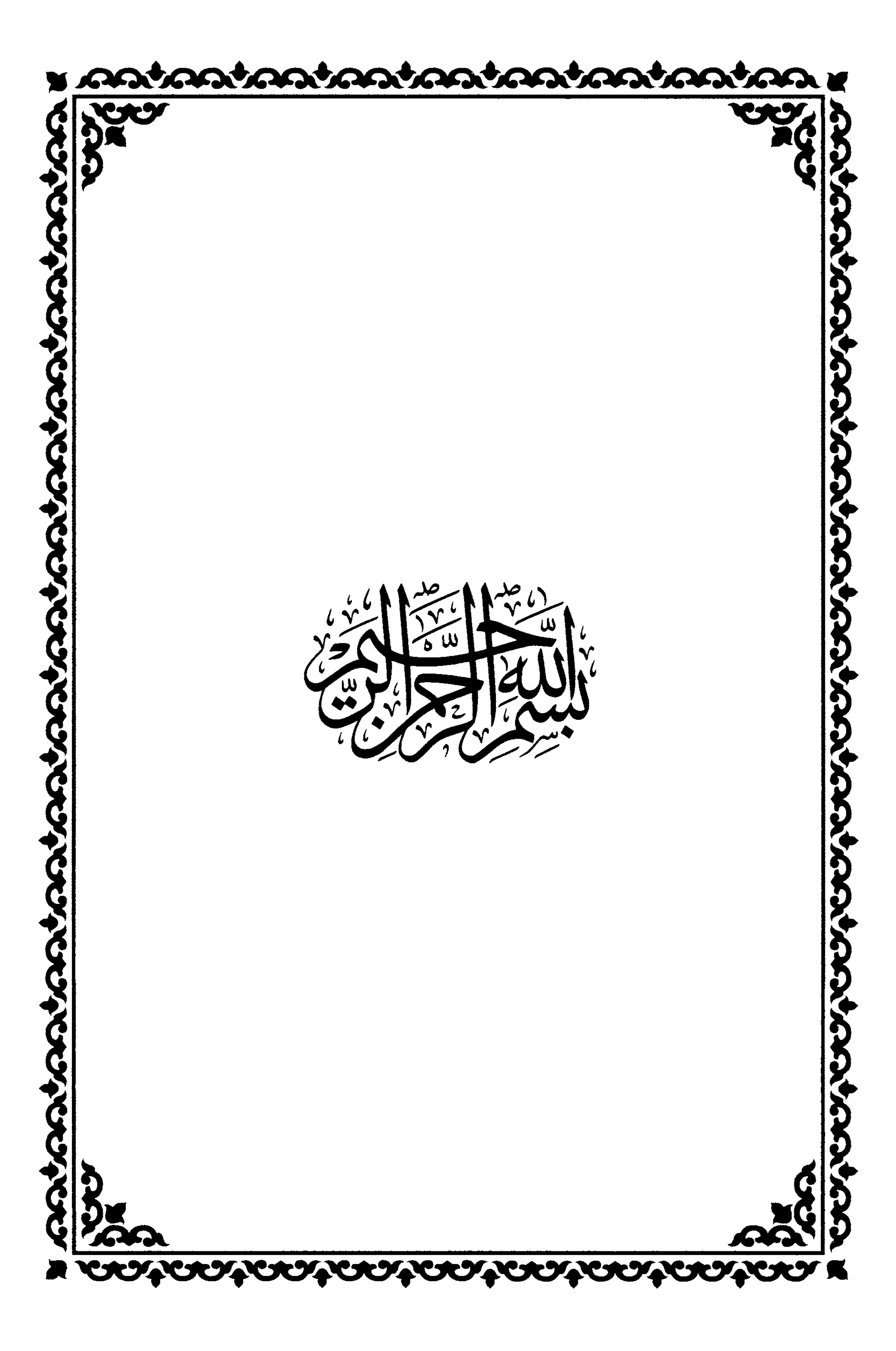
تفسير القرآن بصحيح السنن

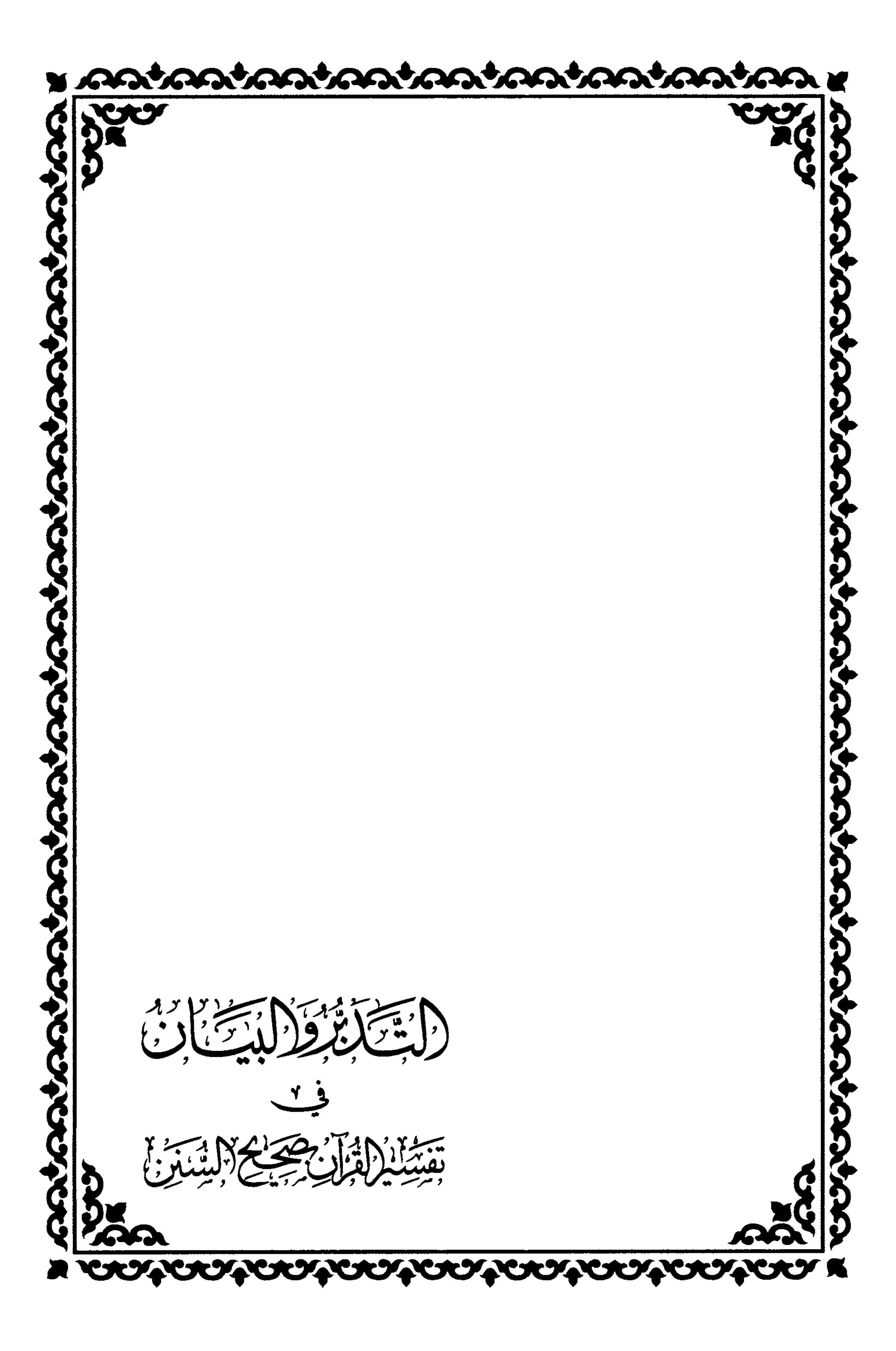
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

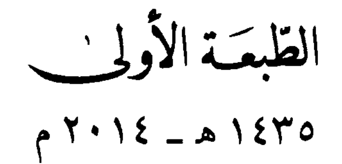
المجلد السابع والثلاثون

التكوير - الشرح


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن





الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — **التصنيف** : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 **عدد الصفحات** (40 مجلداً)

Size 17 x 24 cm **قياس الصفحات**

Year 2014 A.D - 1435 H. **سنة الطباعة**

Printed in : Lebanon **بلد الطباعة** : لبنـــان

Edition : 1st **الطبعة** : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨



سورة التكوير

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل السورة ودقة وصفها ليوم القيامة

* عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[1] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[2] »[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وإنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها، وتكور شمسها، وانكدار نجومها، وتناثر كواكبها، إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم بعد نشر صحايفهم، وقراءة كتبهم، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم أو من وراء ظهورهم في موقفهم»[4].

وقال في الفتح الرباني: «وإنما خص هذه السور بالذكر لاشتمالها على أحوال

---

(١) سورة (الانفطار).

(٢) سورة (الانشقاق).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧)، والترمذي (٥/ ٤٠٣/ ٣٣٣٣) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والحاكم (٢/ ٥١٥) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وذكره الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٨٩٩) وقال: «حديث جيد».

(٤) التذكرة (ص: ٢١١).

يوم القيامة وأهواله، ففي قراءتها عبرة وعظة وتخويف من هذه الأهوال يرجع العبد إلا ربه، ويعمل للنجاة من أهوال هذا اليوم»[(١)].

* عن عمرو بن حريث أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في الفجر: «﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾[(٢)]»[(٣)].

★ غريب الحديث:

عسعس: قال جمهور أهل اللغة: معنى عسعس الليل: أدبر، كذا نقله صاحب «المحكم» عن الأكثرين ونقل الفراء إجماع المفسرين عليه، قال: وقال آخرون: معناه: أقبل، وقال آخرون: هو من الأضداد؛ يقال إذا أقبل وإذا أدبر.[(٤)]

★ فوائد الحديث:

في حديث عمرو بن حريث أن النبي ﷺ كان يقرأ بسورة (التكوير) في الفجر.

قال ابن القيم: «وكان يقرأ في الفجر بنحو ستين آية إلى مائة آية، وصلاها بسورة (ق)، وصلاها بـ(الروم)، وصلاها بـ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾»[(٥)].

قال النووي: «قوله: سمع النبي ﷺ يقرأ في الفجر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾ أي: يقرأ بالسورة التي فيها: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾»[(٦)].

* * *

---

(١) الفتح الرباني (١٨/ ١٧٨). (٢) التكوير: الآية (١٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٦)، ومسلم (١/ ٣٣٦/ ٤٥٦) واللفظ له، وأبو داود (١/ ٥١١/ ٨١٧)، وابن ماجه (١/ ٢٦٨/ ٨١٧)، والنسائي (٢/ ٤٩٥-٤٩٦/ ٩٥٠) وفي الكبرى (٦/ ٥٠٧-٥٠٨/ ١١٦٥١).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٤٩).

(٥) زاد المعاد (١/ ٢٠٩).

(٦) شرح صحيح مسلم (٤/ ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾

★ **غريب الآية:**

كوّرت: كور الشيء: إدارته وضم بعضه إلى بعض، ككور العمامة، أي: لُفَّتْ كالكرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: إذا الشمس ذهب ضوؤها.. وقال آخرون: معنى ذلك: رمي بها..

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: ﴿كُوِّرَتْ﴾ كما قال اللَّه -جل ثناؤه-؛ والتكوير في كلام العرب: جمع بعض الشيء إلى بعض، وذلك كتكوير العمامة، وهو لفها على الرأس، وكتكوير الكارة، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض ولفها، وكذلك قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ إنما معناه: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرُمي بها، وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوؤها. فعلى التأويل الذي تأوّلناه وبيّنّاه لكلا القولين اللذين ذكرت عن أهل التأويل، وجه صحيح؛ وذلك أنها إذا كُوِّرت ورُمي بها، ذهب ضوؤها»[(١)].

قال عطية سالم: «والذي يشهد له القرآن أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها؛ لأن اللَّه تعالى جعل لها أجلًا مسمى، ومعنى ذلك أنها تنتهي إليه على الوجه الذي يعلمه ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٦٣-٦٥).

(٢) الرعد: الآية (٢).

فمفهومه: أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها»[١].

قلت: وعند حلول أجلها وبعد محوها والرمي بها، يصار بها إلى نار جهنم؛ تبكيتًا لمن كان يعبدها، وزيادة في عذابه، وتسعيرًا للنار عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾[٢]، وكما يدل عليه الحديث الآتي.

قال ابن القيم: «واجتمع جماعة من الكبراء والفضلاء يومًا، فقرأ قارئ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ حتى بلغ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾[٣]، وفي الجماعة أبو الوفاء بن عقيل، فقال له قائل: يا سيدي! هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوّج النفوس بقرنائها للثواب والعقاب، فما الحكمة في هدم الأبنية، وتسيير الجبال، ودكّ الأرض، وفَطْر السماء، ونثر النجوم، وتخريب هذا العالم، وتكوير شمسه، وخسف قمره؟! فقال ابن عقيل على البديهة: إنما بنى لهم هذه الدار للسكنى والتمتّع، وجعلها وما فيها للاعتبار والتفكّر، والاستدلال عليه بحسن التأمّل والتذكّر، فلما انقضت مدّة السكنى وأجلاهم عن الدار خرّبها لانتقال الساكن منها، فأراد أن يُعلِمهم بأن في إحالة الأحوال وإظهار تلك الأهوال وإبداء ذلك الصنع العظيم بيانًا لكمال قدرته ونهاية حكمته وعظمة ربوبيّته وعزّ جلاله وعظم شأنه، وتكذيبًا لأهل الإلحاد وزنادقة المنجّمين وعبّاد الكواكب والشمس والقمر والأوثان؛ ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا أنّ منار آلهتهم قد انهدم، وأن معبوداتهم قد انتثرت، والأفلاك التي زعموا أنها وما حوته هي الأرباب المستولية على هذا العالم قد تشقّقت وانفطرت؛ ظهرت حينئذ فضائحهم، وتبيّن كذبهم، وظهر أنّ العالم مربوب محدَث مدبَّر، له ربّ يصرّفه كيف يشاء؛ تكذيبًا لملاحدة الفلاسفة القائلين بقدمه.

فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار! ودلالة على عظيم قدرته وعزّته وسلطانه وانفراده بالربوبيّة وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله

---

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ٦١-٦٢).

(٢) الأنبياء: الآيتان (٩٨و٩٩).

(٣) التكوير: الآيات (١-١٤).

رب العالمين»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تكوير الشمس والقمر يوم القيامة

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «مكوران» «زاد في رواية البزار ومن ذكر معه [يعني: الإسماعيلي والخطابي]: «في النار. فقال الحسن: وما ذنبهما؟ فقال أبو سلمة: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: ما ذنبهما؟»[٣].

قال الطحاوي: «فكان ما كان من الحسن في هذا الحديث إنكارًا على أبي سلمة، إنما كان والله أعلم لما وقع في قلبه أنهما يلقيان في النار ليعذبا بذلك، فلم يكن من أبي سلمة له عن ذلك جواب.

وجوابنا له في ذلك عن أبي سلمة أن الشمس والقمر إنما يكوران في النار ليعذبا أهل النار، لا أن يكونا معذبين في النار، وأن يكونا في تعذيب من في النار كسائر ملائكة الله الذين يعذبون أهلها، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾[٤] أي: من تعذيب أهل النار، ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾. وكذلك الشمس والقمر هما فيها بهذه المنزلة معذبان لأهل النار بذنوبهم لا معذبان فيها إذ لا ذنوب لهما»[٥].

قال الشيخ الألباني: «وليس المراد من الحديث ما تبادر إلى ذهن الحسن البصري أن الشمس والقمر في النار يعذبان فيها عقوبة لهما، كلا فإن الله ﷻ لا يعذب من أطاعه من خلقه، ومن ذلك الشمس والقمر؛ كما يشير إليه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾[٦]، فأخبر

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٢١-١٢٢).
(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣٢٠٠).
(٣) فتح الباري (٦/ ٣٦٩).
(٤) التحريم: الآية (٦).
(٥) شرح مشكل الآثار (١/ ١٧٠-١٧١).
(٦) الحج: الآية (١٨).

تعالى أن عذابه إنما يحق على غير من كان يسجد له تعالى في الدنيا، كما قال الطحاوي وغيره فإلقاؤهما في النار يحتمل أمرين:

الأول: أنهما من وقود النار، قال الإسماعيلي: لا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما فإن لله في النار ملائكة وحجارة وغيرها لتكون لأهل النار عذابًا وآلة من آلات العذاب وما شاء اللَّه من ذلك، فلا تكون هي معذبة.

والثاني: أنهما يلقيان فيها تبكيتًا لعبّادهما»[١].

قال الخطابي: «ليس كونهما في النار عقوبة لهما ولكنه تعيير وتبكيت لعبدتهما الذين عبدوهما في الدنيا، ليعلموا أن عبادتهم إياهما كانت باطلًا ورأيهم في ذلك رأيًا فائلًا»[٢].

قال الشيخ الألباني: «وهذا هو الأقرب إلى لفظ الحديث»[٣].

* * *

(١) السلسلة الصحيحة (١/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٢) أعلام الحديث (٢/ ١٤٧٦-١٤٧٧).

(٣) السلسلة الصحيحة (١/ ٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾

★ غريب الآية:

انكدرت: تناثرت. أصله من الكدر، وهو خلاف الصفا. والمراد: تغيرت بالتناثر.

العشار: واحدها عشراء، وهي الناقة التي مر على حملها عشرة أشهر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾:

قال القرطبي: «أي: تهافتت وتناثرت، وقال أبو عبيدة: انصبّت كما تنصبّ العُقاب إذا انكسرت.. ويحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها؛ وسميت النجوم نجومًا لظهورها في السماء بضوئها. وعن ابن عباس أيضًا: ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾: تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها. والمعنى متقارب»[١].

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾:

قال القرطبي: «يعني: قُلعت من الأرض، وسيرت في الهواء؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[٢]. وقيل: سيرُها: تحوّلها عن منزلة الحجارة، فتكون كثيبًا مهيلًا، أي: رملًا سائلًا، وتكون كالعِهن، وتكون هباءً منثورًا، وتكون سرابًا، مثل السراب الذي ليس بشيء. وعادت الأرض قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا. وقد تقدم في غير موضع، والحمد لله»[٣].

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٨-١٤٩).

(٢) الكهف: الآية (٤٧).

(٣) المصدر السابق (١٩/ ١٤٩).

قال ابن كثير: «قال عكرمة ومجاهد: عشار الإبل. قال مجاهد: ﴿عُطِّلَتْ﴾: تُركت وسُيّبت. وقال أبي بن كعب والضحاك: أهملها أهلها. وقال الربيع بن خُثَيم: لم تحلب ولم تُصَرّ، تخلّى منها أربابها. وقال الضحاك: تركت لا راعي لها.

والمعنى في هذا كله متقارب. والمقصود أن العشار من الإبل -وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وَصَلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدها: عُشَراء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع- قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها؛ بما دَهَمهم من الأمر العظيم المُفظع الهائل، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها، ووقوع مقدماتها.

وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها. وقد قيل في العشار: إنها السحاب يُعطَّل عن المسير بين السماء والأرض، لخراب الدنيا. وقيل: إنها الأرض التي تُعشَّر. وقيل: إنها الديار التي كانت تسكن تُعَطَّل لذهاب أهلها. حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد اللّه القرطبي في كتابه «التذكرة»، ورجّح أنها الإبل، وعزاه إلى أكثر الناس.

قلت: بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه، واللّه أعلم»[١].

قال الرازي: «والغرض من ذلك: ذهاب الأموال، وبطلان الأملاك، واشتغال الناس بأنفسهم؛ كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾[٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٣]»[٤].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٥٣).

(٢) الشعراء: الآيتان (٨٨و٨٩).

(٣) الأنعام: الآية (٩٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: ماتت.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وإذا الوحوش اختلطت.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: جُمعت..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى ﴿حُشِرَتْ﴾: جُمعت فأميتت؛ لأن المعروف في كلام العرب من معنى الحشر: الجمع؛ ومنه قول الله: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾[1]، يعني: مجموعة، وقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣﴾[2]. وإنما يحمل تأويل القرآن على الأغلب الظاهر من تأويله، لا على الأنكر المجهول»[3].

قال القرطبي: «واختلف الناس في باب حشر البهائم وفي قصاص بعضها من بعض، فروي عن ابن عباس أن حشر الدواب والطير موتها، وقاله الضحاك، وروي عن ابن عباس في رواية أخرى أن البهائم تحشر، وقاله أبو ذر وأبو هريرة وعمرو بن العاص والحسن البصري وغيرهم، وهو الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[4]، قال أبو هريرة: «يحشر اللَّه الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والطير والدواب وكل شيء، فيبلغ من عدل اللَّه يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابًا، فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾»[5]، ونحوه عن ابن عمر وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص»[6].

وقال أيضًا: «وعن ابن عباس أيضًا قال: «يحشر كل شيء حتى الذباب»، قال

---

(١) ص: الآية (١٩).
(٢) النازعات: الآية (٢٣).
(٣) جامع البيان (١٥/ ٦٧).
(٤) الأنعام: الآية (٣٨).
(٥) انظر تخريجه في تفسير سورة (النبأ) عند قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾: الآية (٤٠).
(٦) التذكرة (ص: ٢٧٣).

ابن عباس: «تحشر الوحوش غدًا، أي: تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء، ثم يقال لها: كوني ترابًا، فتموت»، وهذا أصح مما رواه عنه عكرمة. . أي: إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم»[1].

قال صديق حسن خان: «والحق الذي تشتفي به الصدور أن لا تؤول الآية والحديث بما هو خلاف الظاهر، والشبهة الداعية له بأنها غير عاقلة ولا مكلفة، والحشر والحساب مبني على ذلك، فإذا سقط الأساس سقط ما بني عليه.

فالجواب عنها: أن نسلم أنها غير مكلفة؛ لأنها لا تعقل، والنزاع فيه مكابرة إلا أنها لما كانت في المشيئة يفعل اللَّه بها ما يريد، وهو لا يسأل عما يفعل باتفاق أهل السنة، بل العقلاء، فنقول: إن اللَّه تعالى يعيدها وينصف بعضها من بعض بما فعلته بإرادتها لإدراكها للجزئيات، وليس هذا بتكليف ولا مبني عليه؛ لأن جزاء التكليف إنما يكون في داري الخلود والنار، وهي تعود ترابًا قبل دخول أهليهما فيهما.

وأما فعل الحكيم القدير لذلك فليعرف أهل المحشر أنه ﷻ لا يترك مثقال ذرة من العدل، ليتحقق أهل النعيم ما لهم من النعيم المقيم، وأهل الجحيم ما أعد لهم من العذاب الأليم؛ تنويرًا لهم وإرشادًا لأن يعلموا عظمة كبريائه، وتساوي جميع مخلوقاته عنده بالنسبة لذلك.

ولك أن تقول: قول ابن عباس: حشرها: موتها؛ معناه: أن حشرها لأجل أن يفنيها ويقول لها: كوني ترابًا، ولولا بعد كلام الأشعري بتصريحه بما ينافيه حملنا أنه تمثيل على ما ذكر، أو قلنا: إنه إنما أنكر الوجوب، ولكن الحق أحق أن يتبع، وهذا مما ينبغي أن يكتب بالنور، على صفحات خدود الحور، وإنما ذكرنا هذا مع طوله وعدم مناسبته لموضوع التفسير تصدقًا على من طالعه بجواهر الفرائد»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ قال: «حشر البهائم: موتها، وحشر كل شيء: الموت، غير الجن والإنس»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٥٠). (٢) فتح البيان (١٥/ ٩٧).

(٣) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٦٧)، والحاكم (٢/ ٥١٥) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝﴾

★ غريب الآية:

سجرت: أي: ملئت نارًا. من قولك: سجرت التنور: إذا أوقدته وهَيَّجْتُ نارَهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، وفيه وجوه:

أحدها: أن أصل الكلمة من سجرت التنور: إذا أوقدتها، والشيء إذا وقد فيه نشف ما فيه من الرطوبة، فحينئذ لا يبقى في البحار شيء من المياه ألبتة، ثم إن الجبال قد سيرت على ما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾[1]، وحينئذ تصير البحار والأرض شيئًا واحدًا في غاية الحرارة والإحراق، ويحتمل أن تكون الأرض لما نشفت مياه البحار ربت فارتفعت فاستوت برؤوس الجبال، ويحتمل أن الجبال لما اندكت وتفرقت أجزاؤها وصارت كالتراب وقع ذلك التراب في أسفل الجبال، فصار وجه الأرض مستويًا مع البحار، ويصير الكل بحرًا مسجورًا.

وثانيها: أن يكون ﴿سُجِّرَتْ﴾ بمعنى: فُجِّرت؛ وذلك لأن بين البحار حاجزًا على ما قال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝﴾[2]، فإذا رفع الله ذلك الحاجز فاض البعض في البعض، وصارت البحار بحرًا واحدًا، وهو قول الكلبي.

وثالثها: ﴿سُجِّرَتْ﴾: أوقدت؛ قال القفال: وهذا التأويل يحتمل وجوهًا،

الأول: أن تكون جهنم في قعور البحار، فهي الآن غير مسجورة لقيام الدنيا، فإذا انتهت مدة الدنيا أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار، فصارت بالكلية

---

(١) النبأ: الآية (٢٠).

(٢) الرحمن: الآيتان (١٩و٢٠).

مسجورة بسبب ذلك.

والثاني: أن اللَّه تعالى يلقي الشمس والقمر والكواكب في البحار، فتصير البحار مسجورة بسبب ذلك.

والثالث: أن يخلق اللَّه تعالى بالبحار نيرانًا عظيمة حتى تتسخن تلك المياه.

وأقول: هذه الوجوه متكلفة لا حاجة إلى شيء منها؛ لأن القادر على تخريب الدنيا وإقامة القيامة لا بد وأن يكون قادرًا على أن يفعل بالبحار ما شاء من تسخين، ومن قلب مياهها نيرانًا من غير حاجة منه إلى أن يلقي فيها الشمس والقمر، أو يكون تحتها نار جهنم»[1].

قلت: أرجح هذه الأقوال أولها، وهو الموافق لظاهر لفظ الآية.

قال الشوكاني: «أي: أوقدت فصارت نارًا تضطرم»[2].

قال ابن القيم: «وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته، رأيت اللفظة تدل على ذلك كله؛ فإن البحر محبوس بقدرة اللَّه، ومملوء ماءً، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارًا»[3].

* * *

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٩).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٥٣).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: ألحق كل إنسان بشكله وقرن بين الضرباء والأمثال..».

ثم ساق بسنده إلى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ قال: «هما الرجلان يعملان العمل الواحد يدخلان به الجنة ويدخلان به النار»[(١)]، وفي رواية عنه: «يُقرَن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار».

ثم قال: «وقال آخرون: بل عني بذلك أن الأرواح ردت إلى الأجساد، فزوجت بها، أي: جعلت لها زوجًا»[(٢)].

قلت: وفيها أقوال أخر ذكرها غيره، منها: يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك أو شيطان، كما قال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[(٣)].

ومنها: قرن كل امرئ بشيعته؛ اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني.

ومنها: قال الزجاج: قرنت النفوس بأعمالها.[(٤)]

قلت: أرجح هذه الأقوال هو القول الأول.

قال ابن جرير: «وأولى التأويلين في ذلك بالصحة الذي تأوله عمر بن الخطاب رضي الله عنه للعلة التي اعتل بها، وذلك قول اللّه -تعالى ذكره-: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[(٥)]

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة (٧/ ٩٩/ ٣٤٤٩٢)، وعبد الرزاق في التفسير (٢/ ٣٥٠)، وابن جرير (٣٠/ ٦٩)، وابن أبي حاتم كما في تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٥٥)، والحاكم (٢/ ٥١٥-٥١٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وذكره الحافظ في «الفتح» (٨/ ٨٩٩) وقال: «وهذا إسناد متصل صحيح».

(٢) جامع البيان (٣٠/ ٦٩-٧٠).

(٣) الصافات: الآية (٢٢).

(٤) أفاده الرازي في تفسيره (٣١/ ٧٠).

(٥) الواقعة: الآية (٧).

وقوله: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾[(١)]، وذلك لا شك الأمثال والأشكال في الخير والشر، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ بالقرناء والأمثال في الخير والشر»[(٢)].

قال ابن كثير معلقًا على اختيار ابن جرير: «وهو الصحيح»[(٣)].

قلت: وهو اختيار ابن القيم رحمه الله في كتابه «طريق الهجرتين»[(٤)].

قال ابن عطية: «وفي الآية على هذا حض على خليل الخير؛ فقد قال ﷺ: «المرء مع من أحبّ»[(٥)]، وقال: «فلينظر أحدكم من يخالل»[(٦)]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾[(٧)]»[(٨)].

* * *

(١) الصافات: الآية (٢٢).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٧٠-٧١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٥٥).
(٤) (ص: ٤٢٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٢)، والبخاري (١٠/ ٦٨٢/ ٦١٧٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٤/ ٢٦٤١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود (٥/ ١٦٨/ ٤٨٣٣)، والترمذي (٤/ ٥٠٩/ ٢٣٧٨) وقال: «حسن غريب»، والحاكم (٤/ ١٧١) وقال: «صحيح إن شاء الله» ووافقه الذهبي، وتعقب الحافظ ابن حجر الحاكمَ فقال: «كلاّ، فصدقة ضعيف، وشيخه مجهول» (إتحاف المهرة، ١٥/ ١٥)، وهو في «الصحيحة» (رقم: ٩٢٧).
(٧) الزخرف: الآية (٦٧).
(٨) المحرر الوجيز (٥/ ٤٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾

★ غريب الآية:

الموءودة: البنت المدفونة حية في التراب إما دفعًا للعار، وإما خشية الفقر.
مأخوذ من الوَأد، وهو الثقل؛ لأنها إذا دفنت ثقلت بالتراب. قال الفرزدق:

ومنا الذي منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم توأد

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «الموءودة: المقتولة؛ وهي الجارية تدفن وهي حية، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤودها، أي: يثقلها حتى تموت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾[1]، أي: لا يثقله؛ وقال متمم بن نويرة:

وموءودة مقبورة في مفازة بآمتها موسودة لم تمهد

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به.

الثانية: إما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفًا من السبي والاسترقاق.

وقد مضى في سورة (النحل) هذا المعنى، عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾[2] مستوفىً.

وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا، ويمنعون منه، حتى افتخر به الفرزدق، فقال:

ومنّا الذي منع الوائداتِ فأحيا الوئيد فلم يُوأَدِ

يعني جدّه صعصعة كان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة.

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٥). (٢) النحل: الآية (٥٩).

وقال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردت التراب عليها، وإن ولدت غلامًا حبسته، ومنه قول الراجز:

سمّيتها إذ وُلِدتْ تموتُ والقبرُ صِهرٌ ضامنٌ زِمِّيتُ

الزِّميت الوقور، والزميت مثال الفِسّيق أوقر من الزِّميت، وفلان أزمت الناس، أي: أوقرهم، وما أشدّ تزمّته، عن الفراء.

وقال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاتبهم اللَّه على ذلك، وتوعدهم بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾»[1].

قال الألوسي: «والحاصل أن هذا الفعل الشنيع على اختلاف أنواعه قد أبطلته الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأبلغ النصوص الواردة في ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ حيث دل على أن السؤال إنما توجه إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كأنه لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد بصرف الخطاب عنه وإسقاطه عن درجة الاعتبار؛ فإن المجني عليه إذا سئل بمحضر الجاني ونسبت إليه الجناية دون الجاني؛ كان ذلك بعثًا للجاني على التفكر في حال نفسه وحال المجني عليه، فيرى براءة ساحته، وأنه هو المستحق للعتاب والعقاب. وهذا نوع من الاستدراج واقع على طريق التعريض؛ كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]، وهذه الطريقة أفظع في ظهور جناية القاتل وإلزام الحجة عليه»[3].

قال ابن عاشور: «وقد توارثت هذا الجهل أكثر الأمم على تفاوت بينهم فيه، ومن كلام بعضهم وقد ماتت ابنته: (نِعم الصهر القبر).

ومن آثار هذا الشعورُ حرمان البنات من أموال آبائهن بأنواع من الحيل مثل وقف أموالهم على الذكور دون الإناث وقد قال مالك: إن ذلك من سنة الجاهلية، ورأى ذلك الحُبس باطلًا، وكان كثير من أقرباء الميت يلجئون بناته إلى إسقاط حقهنّ في

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٥٢).
(٢) المائدة: الآية (١١٦).
(٣) بلوغ الأرب (٣/ ٥٢-٥٣).

ميراث أيهن لإخوتهن في فور الأسف على موت أبيهنّ، فلا يمتنعن من ذلك، ويرين الامتناع من ذلك عارًا عليهن، فإن لم يفعلن قطَعَهن أقرباؤهنّ.

وتعرف هذه المسألة في الفقه بهبة بنات القبائل. وبعضهم يعدها من الإكراه»(١).

وقال أيضًا: «وإذ قد فشا فيهم كراهية ولادة الأنثى، فقد نما في نفوسهم بغضها، فتحركت فيها الخواطر الإجرامية، فالرجل يكره أن تولد له أنثى لذلك، وامرأته تكره أن تولد لها أنثى خشية من فراق زوجها إياها، وقد يهجر الرجل امرأته إذا ولدت أنثى»(٢).

قال القاسمي: «وبالجملة، فكان الوأد عادة من أشنع العوائد في الجاهلية، مما يدل على نهاية القسوة وتمام الجفاء والغلظة.

قال الإمام: انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار، كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الإسلام قلوب العرب؟ فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها بمحوه هذه العادة القبيحة، انتهى.

ومن أثر نعمته أن سار أدباء الصدر الأول يصوغون في مدحهن ما هو أبهى من عقود الجمان؛ فمن ذلك قول معن بن أوس:

رأيت رجالًا يكرهون بناتهم ... وفيهن، لا نُكذَب، نساء صوالحُ

وفيهنّ والأيام يعثرن بالفتى ... خوادمُ لا يمللنه ونوائحُ

وقال العلوي الجمانيّ، في صديق له ولدت له بنت فسخطها، شعرًا:

قالوا له ماذا رُزِقْتا ... فأصاخ ثُمّتَ قال: بنتا

وأجلّ من ولد النساء ... أبو البنات، فلمْ جزعتا

إن الذين تودّ من ... بين الخلائق ما استطعتا

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤٥-١٤٦).

(٢) المصدر السابق (٣٠/ ١٤٥).

نالوا بفضل البنت ما كَبَتوا به الأعداء كبتا

.. وفي رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت: أهلًا وسهلًا بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، والمبشرة بإخوة يتناسقون، ونجباء يتلاحقون.

فلو كان النساء كمن وَجَدنا لفُضِّلت النساء على الرجالِ
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ وما التذكير فخرٌ للهلالِ

واللَّه تعالى يعرفك البركة في مطلعها، والسعادة بموقعها، فادّرع اغتباطًا، واستأنف نشاطًا؛ فالدنيا مؤنثة، والرجال يخدمونها، والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية. والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب. والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان وملاك الحيوان. والحياة مؤنثة، ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام. والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها ينعم المرسلون. فهنيئًا لك هنيئًا بما أوتيت، وأوزعك اللَّه شكر ما أعطيت.

ونسختُ رقعة لأبي الفرج الببغاء: اتصل بي خبر المولودة المسعودة كرم اللَّه عرقها، وأنبتها نباتًا حسنًا، وما كان من تغيرك عند اتصال الخبر وإنكارك ما اختاره اللَّه لك في سابق القدر، وقد علمت أنهن أقرب من القلوب، وأن اللَّه بدأ بهن في الترتيب فقال عز من قائل: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾[1]، وما سمّاه اللَّه تعالى هبة، فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى. فهنأك اللَّه بورود الكريمة عليك، وثمرتها إعداد النسل الطيب لديك.

والنوادر في هذا لا تحصى، وكلها من بركة الإسلام وفضله»[2].

وفي هذه الآية من الفوائد -**يقول الألوسي**- دليل على عظم جناية الوأد[3].

وفيها -**يقول القرطبي**-: «دليل بيّن على أن أطفال المشركين لا يعذبون، وعلى

---

(١) الشورى: الآية (٤٩).

(٢) محاسن التأويل (١٧/ ٧٠-٧٢).

(٣) روح المعاني (٣٠/ ٥٣).

أن التعذيب لا يستحق إلا بذنب»[1].

وفيها -يقول شيخ الإسلام- «دليل على أنه لا يجوز قتل النفس إلا بذنب منها، فلا يجوز قتل الصبي والمجنون؛ لأن القلم مرفوع عنهما، فلا ذنب لهما، وهذه العلة لا ينبغي أن يشك فيها في النهي عن قتل صبيان أهل الحرب، وأما العلة المشتركة بينهم وبين النساء فكونهم ليسوا من أهل القتال على الصحيح الذي هو قول الجمهور، أو كونهم يصيرون للمسلمين.

فأما التعليل بهذا وحده في الصبي فلا، والآية تقتضي ذم قتل كل من لا ذنب له من صغير وكبير، وسؤالها توبيخ قاتلها»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حكم الوأد والموءودة والعزل

* عن سلمة بن زيد الجعفي عن رسول الله ﷺ قال: «**الوائدة والموءودة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها**»[3].

* عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**الوائدة والموءودة في النار**»[4].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الطيبي: «قال القاضي: كانت العرب في جاهليتهم يدفنون البنات حية»[5].

قال المناوي: «والوائدة: فاعلة ذلك؛ كان من ديدنهم أن المرأة إذا أخذها الطلق حُفِر لها حفرة عميقة فجلست عليها، والقابلة تحتها ترقب الولد، فإن انفصل ذكرًا أمسكته، أو أنثى ألقتها في الحفرة، وأهالت عليها التراب، وكانت الجاهلية تفعله خوف إملاق أو عار»[6].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٥٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٠).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٧٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٧/ ١١٦٤٩)، والطبراني (٧/ ٣٩-٤٠/ ٦٣١٩)، وأخرجه أيضًا (٧/ ٤٠/ ٦٣٢٠) مختصرًا. وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١١٩) وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، والطبراني في الكبير بنحوه».
(٤) أخرجه: أبو داود (٥/ ٨٩-٩٠/ ٤٧١٧)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٥٢١-٥٢٢/ ٧٤٨٠).
(٥) شرح الطيبي (٢/ ٥٧٥).
(٦) فيض القدير (٦/ ٣٧٠-٣٧١).

قال الشيخ الألباني: «إن ظاهر الحديث أن الموءودة في النار ولو لم تكن بالغة، وهذا خلاف ما تقتضيه نصوص الشريعة أنه لا تكليف قبل البلوغ، وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أقربها عندي إلى الصواب أن الحديث خاص بموءودة معينة، وحينئذ فـ(ال) في (الموءودة) ليست للاستغراق بل للعهد، ويؤيده قصة ابني مليكة، وعليه فجائز أن تلك الموءودة كانت بالغة فلا إشكال، والله أعلم»[1].

قال في «عون المعبود»: «وقال في «السراج المنير» ما محصله: إن سبب هذا الحديث أن النبي ﷺ سئل عن امرأة وأدت بنتًا لها، فقال: «الوائدة والموءودة في النار»، فلا يجوز الحكم على أطفال الكفار بأن يكونوا من أهل النار بهذا الحديث؛ لأن هذه واقعة عين في شخص معين»[2].

قال المناوي: «والموءودة قيل: أراد بها هنا المفعولة لها ذلك، وهي أم الطفل؛ لقوله: «في النار»، ولو أريد البنت المدفونة لما اتضح ذلك، وهذا أولى من ادعاء أنه وارد على سبب خاص وواقعة معينة لا يجوز إجراؤه في غيره؛ لأنه وإن ورد على ذلك لا ينجع في التخلص عن الإشكال كما لا يخفى على أهل الكمال»[3].

* عن جذامة بنت وهب قالت: سمعت رسول الله ﷺ وسئل عن العزل، فقال: **«ذلك الوأد الخفي»**[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وإنما جعله وأدًا من جهة اشتراكهما في قطع الولادة، وقال بعضهم: قوله: «الوأد الخفي» ورد على طريق التشبيه؛ لأنه قطع طريق الولادة قبل مجيئه، فأشبه قتل الولد بعد مجيئه»[5].

قال ابن القيم: «أخبر أنه لو أراد الله خلقه ما صرفه أحد. وأما تسميته وأدًا خفيًّا فلأن الرجل إنما يعزل عن امرأته هربًا من الولد وحرصًا على أن لا يكون، فجرى قصده ونيته وحرصه على ذلك مجرى من أعدم الولد بوأده، لكن ذاك وأد ظاهر من

---

(١) المشكاة (١/ ٤٠).

(٢) عون المعبود (١٢/ ٤٩١-٤٩٢).

(٣) فيض القدير (٦/ ٣٧١).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٦١)، ومسلم (٢/ ١٠٦٧/ ١٤٤٢[١٤١])، وابن ماجه (١/ ٦٤٨/ ٢٠١١).

(٥) فتح الباري (٩/ ٣٨٦).

العبد فعلًا وقصدًا، وهذا وأد خفي له إنما أراده ونواه عزمًا ونية فكان خفيًّا»[١].

قال المناوي: «وذهب ابن حزم إلى تحريم العزل مطلقًا تمسكًا بقوله في خبر: «ذلك الوأد الخفي» ورد بأنه لا يلزم من تسميته وأدًا على طريق التشبيه كونه حرامًا، وأما بأنه مخصوص بالعزل عن المرضع لإضرار الحبل بالولد بالتجربة»[٢].

وقد تقدم حكم العزل وما للعلماء فيه من الأقوال في سورة (البقرة) عند قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ الآية (٢٢٣).

* * *

---

(١) تهذيب السنن (حاشية العون) (٦/ ٢١٤-٢١٥).

(٢) فيض القدير (١/ ٥٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾

★ غريب الآية:

كشطت: الكشط: القلع والنزع. تقول: كشطت جلد الناقة، أي: سلخته ونزعته عنها.

سعرت: أي: أججت نارها وهيجت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾:

قال القرطبي: «أي: فتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تُطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[(١)]»[(٢)].

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾:

قال القرطبي: «فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء. وقيل: تطوى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[(٣)] فكأن المعنى: قلعت فطويت، والله أعلم»[(٤)].

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾:

قال القرطبي: «أي: أوقدت فأضرمت للكفار، وزيد في إحمائها»[(٥)].

---

(١) الكهف: الآية (٤٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٥٣).

(٣) الأنبياء: الآية (١٠٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٥٣).

(٥) المصدر السابق (١٩/ ١٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ أي: قربت إلى المتقين وأدنيت منهم.. وقال ابن زيد: معنى ﴿أُزْلِفَتْ﴾: تزينت. والأول أولى؛ لأن الزلفى في كلام العرب: القرب»[(١)].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾[(٢)].[(٣)]

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾:

قال القاسمي: «أي: علمت كل نفس عند ذلك ما قدمت من خير، فتصير به إلى الجنة، أو شر فتصير به إلى النار، أي: تبين لها عند ذلك ما كانت جاهلة به، وما الذي كان فيه صلاحها من غيره»[(٤)].

قال ابن عاشور: «وجعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها حاصلة عند حصول مجموع الشروط التي ذكرت في الجمل الثنتي عشرة؛ لأن بعض الأحوال التي تضمنتها الشروط مقارن لحصول علم النفوس بأعمالها، وهي الأحوال الستة المذكورة أخيرًا، وبعض الأحوال حاصل من قبل بقليل، وهي الأحوال الستة المذكورة أولًا. فنزل القريب منزلة المقارن، فلذلك جعل الجميع شروطًا لـ(إذا)»[(٥)].

قال أبو السعود: «فإسناد إحضارها إلى النفس مع أنها تحضر بأمر اللَّه تعالى كما ينطق به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[(٦)] الآية؛ لأنها لما عملتها في الدنيا فكأنها أحضرتها في الموقف، ومعنى علمها بها حينئذ أنها

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٥٥).
(٢) ق: الآية (٣١).
(٣) أفاده أبو السعود في تفسيره (٩/ ١١٦).
(٤) محاسن التأويل (١٧/ ٧٣).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥١).
(٦) آل عمران: الآية (٣٠).

تشاهدها على ما هي عليه في الحقيقة، فإن كانت صالحة تشاهدها على صور أحسن مما كانت تشاهدها عليه في الدنيا؛ لأن الطاعات لا تخلو فيها عن نوع مشقة، وإن كانت سيئة تشاهدها على خلاف ما كانت تشاهدها عليه ههنا؛ لأنها كانت مزينة لها موافقة لهواها. وتنكير النفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة من الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة اشتباه»[١].

«وذلك -**يقول أبو السعود**: - للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت، وجب على كل نفس إصلاح عملها؛ مخافة أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت، فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه: لعلك ستندم على ما فعلت، وربما ندم الإنسان على ما فعل؛ فإنك لا تقصد بذلك أن ندمه مرجو الوجود لا متيقن به، أو نادر الوقوع، بل تريد أن العاقل يجب عليه أن يجتنب أمرًا يرجى فيه الندم، أو قلما يقع فيه، فكيف به إذا كان قطعي الوجود كثير الوجود»[٢].

قال ابن عطية: «و﴿نَفْسٌ﴾ هنا: اسم جنس، أي: علمت النفوس؛ ووقع الإفراد لتنبيه الذهن على حقارة المرء الواحد، وقلة دفاعه عن نفسه»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن زيد بن أسلم عن أبيه: لما نزلت: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ قال عمر لما بلغ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ قال: «لهذا أجري الحديث»[٤].

★ **فوائد الأثر:**

قال القرطبي: «فالمعنى على هذا: إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء، علمت نفس ما أحضرت من عملها»[٥].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١١٧). (٢) المصدر السابق.

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٤٣).

(٤) أخرجه: ابن أبي حاتم كما في تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٥٨)، وابن جرير (٣/ ٧٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٢٨) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٥٤).

قال الشيخ ابن ناصر السعدي: «وهذه الأوصاف التي وصف بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين، فليتدبر سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾»[1].

قلت: بل هو حديث نبوي مرفوع إلى المصطفى ﷺ، وقد تقدم ذكره في أول هذه السورة.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾

★ **غريب الآية:**

الخنس: جمع خانس، وهي الكواكب المضيئة؛ لأنها تخنس بالنهار، أي: تختفي فلا ترى.

الكنس: جمع كانس، وهي النجوم التي تغيب. والكانس من الوحش: ما دخل كِنَاسَهُ؛ كالظباء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في (الخنّس الجوار الكنّس)، فقال بعضهم: هي النجوم الدراري الخمسة تخنس في مجراها، فترجع فتكنس، فتستتر في بيوتها.. والنجوم الخمسة: بَهرام وزُحل وعُطارد والزُّهَرة والمشتري.

-ثم ساق بسنده إلى علي ﷺ وقد سئل عن قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾- قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتكنس بالليل»[1] »[2].

وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان كما **قال القرطبي**: «أحدهما: لأنها تستقبل الشمس، قاله بكر بن عبد الله المزني. الثاني: لأنها تقطع المجرة، قاله ابن عباس»[3].

قال ابن جرير: «وقال آخرون: هي بقر الوحش التي تكنس في كناسها. ثم ساق

---

(١) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٧٤) واللفظ له، وابن أبي حاتم كما في تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٥٩)، والحاكم (٢/ ٥١٦) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وذكره ابن كثير في التفسير (٨/ ٣٥٩) وقال: «وهذا إسناد جيد صحيح إلى خالد بن عرعرة، وهو السهمي الكوفي، قال أبو حاتم الرازي: «روى عن علي وروى عنه سماك والقاسم بن عوف الشيباني»، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، والله أعلم» اهـ. وذكره الحافظ في «الفتح» (٨/ ٨٩٨) وقال: وروى سعيد بن منصور بإسناد حسن عن علي فذكره.

(٢) جامع البيان (٣٠/ ٧٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٣٤).

بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال في قوله: ﴿بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ قال: «هي بقر الوحش»[1].

وقال آخرون: هي الظباء..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله --تعالى ذكره-- أقسم بأشياء تخنس أحيانًا، أي: تغيب وتجري أحيانًا، وتكنس أخرى، وكنوسها أن تأوي في مكانسها، والمكانس عند العرب هي المواضع التي تأوي إليها بقر الوحش والظباء، واحدها: مكنس وكناس، كما قال الأعشى:

فلما لحقنا الحي أتلع أنس   كما أتلعت تحت المكانس ربرب

فهذه جمع مكنس، وكما قال في الكناس طرفة بن العبد:

كأن كناسي ضالة يكنفانها   وأطر قسي تحت صلب مؤيد

وأما الدلالة على أن الكناس قد يكون للظباء فقول أوس بن حجر:

ألم تر أن الله أنزل مزنة   وعفر الظباء في الكناس تقمع

فالكناس في كلام العرب ما وصفت، وغير منكر أن يستعار ذلك في المواضع التي تكون بها النجوم من السماء، فإذا كان ذلك كذلك ولم يكن في الآية دلالة على أن المراد بذلك النجوم دون البقر، ولا البقر دون الظباء، فالصواب أن يعم بذلك كل ما كانت صفته الخنوس أحيانًا والجري أخرى والكنوس بآنات على ما وصف -جل ثناؤه- من صفتها»[2].

غير أن القرطبي رحمه الله رجح حملها على النجوم فقال: «والأصح الحمل على

---

(١) أخرجه: عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٣٥١-٣٥٢)، وابن جرير (٣٠/ ٧٥)، وابن سعد في الطبقات (٦/ ١٠٦)، والطبراني (٩/ ٢١٩/ ٩٠٦٣).

وذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٥٢٩) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، والحاكم (٢/ ٥١٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣٤) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». وذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٨٩٨) وقال: وروى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن أبي ميسرة عن عمرو بن شرحبيل قال: فذكره. كلهم من طرق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) جامع البيان (٣٠/ ٧٥-٧٧).

النجوم؛ لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك»[١].

قال ابن القيم: «أقسم سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة من طلوعها وجريانها وغروبها، هذا قول علي وابن عباس وعامة المفسرين، وهو الصواب.

والخنس: جمع خانس، والخنس: الانقباض والاختفاء، ومنه سمي الشيطان خناسًا؛ لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه، ومنه قول أبي هريرة: «فانخنست»[٢]، والكُنَّس: جمع كانس، وهو الداخل في كناسه، أي: في بيته، ومنه تكنست المرأة: إذا دخلت في هودجها، ومنه كنست الظباء: إذا أوت إلى أكناسها.

والجواري: أي: جمع جارية، كغاشية وغواش؛ قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل»، وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم، قالوا: الكواكب تخنس بالنهار فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها. ومعنى تخنس على هذا القول: تتأخر عن البصر وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها. وفيه قول آخر: وهو أن خنوسها رجوعها، وهي حركتها الشرقية، فإن لها حركتين: حركة بفعلها، وحركة بنفسها، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة، وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب وهي السيارة، وهذا قول الفراء، وفيه قول ثالث: وهو أن خنوسها وكنوسها اختفاؤها وقت مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجاج.

ولما كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان، وحال غروب، أقسم سبحانه بها في أحوالها كلها، ونبه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفيًا: أنه قد خنس، فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحًا، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع، فالطلوع أول جريانها، فتضمن القسم طلوعها وغروبها وجريانها واختفاءها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر؛ لوجوه:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٥)، والبخاري (١/ ٥١٣/ ٢٨٣)، ومسلم (١/ ٢٨٢/ ٣٧١)، وأبو داود (١/ ١٥٦/ ٢٣١)، والترمذي (١/ ٢٠٧-٢٠٨/ ١٢١)، والنسائي (١/ ١٥٨/ ٢٦٧)، وابن ماجه (١/ ١٧٨/ ٥٣٤).

أحدها: أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة.

الثاني: اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان.

الثالث: أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقًا، بل لا تزال ظاهرة في الفلوات.

الرابع: إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء، قال الواحدي: هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس، ومنه سميت الخنساء؛ لخنس أنفها، ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل، وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر.

الخامس: أن كنوسها في أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوي فيه ولا أظهر منه حتى يتعين للقسم.

السادس: أنه لو كان جمعًا للظبي لقال: الخُنْس، بالتسكين؛ لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر وحُمْر، ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضًا، كحمراء وحمر، فلما جاء جمعه على فُعَّل، بالتشديد، استحال أن يكون جمعًا لواحد من الظباء والبقر، وتعين أن يكون جمعًا لخانس، كشاهد وشُهَّد، وصائم وصُوَّم، وقائم وقُوَّم، ونظائرها.

السابع: أنه ليس بالبين إقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية، ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله، وهو القرآن، ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها، وهي السماء وشمسها وقمرها ونجومها، ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو الليالي العشر، وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩﴾[1]، وقوله: (الذكر والأنثى) في قراءة رسول الله ﷺ ونحو ذلك.

---

(١) الحاقة: الآيتان (٣٨و٣٩).

الثامن: أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد، وبهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش.

التاسع: أنه لو أراد ذلك سبحانه لبينه وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجواري السفن قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾[1]، وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل على أنها البقر والظباء، وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها.

العاشر: أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوم للشياطين، وبين المقسم عليه وهو القرآن الذي هو هدى للعالمين وزينة للقلوب وداحض لشبهات الشيطان، أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن، والله أعلم»[2].

وفي هذه الآية دليل على أن لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد.[3]

«وذلك -**يقول شيخ الإسلام**- يقتضي تعظيم قدر المقسم به، والتنبيه على ما فيه من الآيات والعبرة والمنفعة للناس والإنعام عليهم، وغير ذلك. ولا يوجب ذلك أن تتعلق القلوب به، أو يظن أنه هو المسعد المنحس»[4].

قال ابن القيم: «فغايته أن يكون الله ﷻ قد أقسم بها كما أقسم بالليل والنهار والضحى، والوالد وولده، والفجر وليال عشر والشفع والوتر، والسماء والأرض، واليوم الموعود وشاهد ومشهود، والنفس والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات، والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات، وما نبصره وما لا نبصره من كل غائب عنّا وحاضر مما فيه التنبيه على كمال ربوبيته وعزته وحكمته وقدرته وتدبيره وتنوّع مخلوقاته الدالّة عليه المرشدة إليه بما تضمّنته من عجائب الصنعة وبديع الخِلقة وتشهد لفاطرها وبارئها بأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له، وأنه الكامل في علمه وقدرته ومشيئته وحكمته وربوبيته وملكه، وأنها مسخرة مذللة

(١) الشورى: الآية (٣٢).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٤-٧٦).
(٣) أفاده القرطبي (١٩/ ١٥٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٧).

منقادة لأمره، مطيعة لمراده منها.

ففي الإقسام بها تعظيم لخالقها -تبارك وتعالى-، وتنزيه له عمّا نسبه إليه أعداؤه الجاحدون المعطّلون لربوبيّته وقدرته ومشيئته ووحدانيّته، وإنّ من هذه عبيده ومماليكه وخلقه وصنعه وإبداعه فكيف تُجحد ربوبيته وإلهيّته؟! وكيف تُنكر صفات كماله ونعوت جلاله؟! وكيف يسوغ لذي حسّ سليم وفطرة مستقيمة تعطيلها عن صانعها أو تعطيل صانعها عن نعوت جلاله وأوصاف كماله وعن أفعاله؟!

فإقسامه بها أكبر دليل على فساد قول نوعي المعطّلة والمشركين الذين جعلوها آلهة تُعبد مع دلائل الحدوث والعبودية والتسخير والافتقار عليها، وأنها أدلة على بارئها وفاطرها وعلى وحدانيته، وأنه لا تنبغي الربوبية والإلهية لها بوجه ما، بل لا تنبغي إلا لمن فطرها وبرأها، كما قال القائل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملإ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خُطّ فيها لو تأمّلتَ خطّها ... ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ

وقال آخر:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يجحده جاحدُ
ولله في كل تحريكةٍ ... وتسكينة أبدًا شاهدُ
وفي كل شيء له آيةٌ ... تدلُّ على أنّه واحدُ

فلم يكن إقسامه بها سبحانه مقرّرًا بذلكَ علمَ الأحكام النجوميّة كما يقوله الكاذبون المفترون، بل مقرّرًا لكمال ربوبيّته ووحدانيّته، وتفرّده بالخلق والإبداع، وكمال حكمته وعلمه وعظمته»[1].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٧٧-١٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾

★ **غريب الآية:**

عسعس: أقبل وأدبر بظلامه. فهو من الأضداد. قال الشاعر:

حتى إذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

تنفّس: تنفُّسُ النهار: عبارة عن توسّعه وانتشاره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «واختلف في عسعسة الليل هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثرون على أن (عسعس) بمعنى ولى وذهب وأدبر، هذا قول علي وابن عباس وأصحابه، قال الحسن: أقبل بظلامه، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد. فمن رجح الإقبال قال: أقسم اللَّه ﷻ بإقبال الليل وإقبال النهار، فقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ مقابل ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾، قالوا: ولهذا أقسم اللَّه ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾[1]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾[2]، قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلي النهار نظير تنفس الصبح؛ إذ هو مبدؤه وأوله.

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤﴾[3]، فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح، وذلك نظير عسعسة الليل وتنفس الصبح، قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل وإقبال النهار؛ فإنه عقيبه من غير فصل، فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمنًا طويلًا، فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ، فذكر سبحانه حالة ضعف هذا وإدباره، وحالة

---

(١) الليل: الآيتان (١و٢).

(٢) الضحى: الآية (١).

(٣) المدثر: الآيات (٣٢-٣٤).

قوة هذا وتنفسه وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وهذا هو القول، والله أعلم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن علي رضي الله عنه أنه خرج حيث طلع الفجر فقال: «نعم ساعة الوتر هذه»، ثم تلا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾»[٢].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٦-٧٧).

(٢) أخرجه: الطيالسي (١٧٤)، والبيهقي (٢/ ٤٧٩)، وابن جرير (٣٠/ ٧٨)، والحاكم (٢/ ٥١٦) واللفظ له وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾

★ **غريب الآية:**

مكين: متمكّن ذي قدر ومنزلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعني أن هذا القرآن لَتبليغُ رسول كريم، أي: ملَك شريف حسن الخلق، بهيّ المنظر، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-؛ قاله ابن عباس والشعبي وميمون بن مهران والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم»(١).

وهذه الآية -**يقول السعدي**:- «كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾(٢). ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه وخصاله الحميدة؛ فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه»(٣).

قال ابن عطية: «وقال آخرون: هو محمد ﷺ في الآية، والقول الأول أصح»(٤).

قال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية يتوهم منه الجاهل أن القرآن كلام جبريل، مع أن الآيات القرآنية مصرّحة بكثرة بأنه كلام الله؛ كقوله: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾(٥)، وكقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٦).

والجواب واضح من نفس الآية؛ لأن الإيهام الحاصل من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ﴾ يدفعه ذكر الرسول؛ لأنه يدل على أن الكلام لغيره؛ لكنه أُرسل بتبليغه، فمعنى قوله: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾، أي: تبليغه عمّن أرسله، من غير زيادة ولا نقص»(٧).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦١).
(٢) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٧٨).
(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٤٤٤).
(٥) التوبة: الآية (٦).
(٦) هود: الآية (١).
(٧) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٦٠-٢٦١).

قال شيخ الإسلام: «وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾، فهذا قد ذكره في موضعين، فقال في (الحاقة): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[١]، فالرسول هنا محمد ﷺ، وقال في (التكوير): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾، فالرسول هنا جبريل، فأضافه إلى الرسول من البشر تارة، وإلى الرسول من الملائكة تارة باسم الرسول، ولم يقل: إنه لقول ملك ولا نبي؛ لأن لفظ (الرسول) يبين أنه مبلغ عن غيره، لا منشئ له من عنده، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢]، فكان قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ بمنزلة قوله: لتبليغُ رسول، أو مبلغ من رسول كريم، أو جاء به رسول كريم، أو مسموع عن رسول كريم؛ وليس معناه أنه أنشأه أو أحدثه أو أنشأ شيئًا منه أو أحدثه رسول كريم؛ إذ لو كان منشئًا لم يكن رسولًا فيما أنشأه وابتداه، وإنما يكون رسولًا فيما بلّغه وأدّاه؛ ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقًا.

وأيضًا فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه، امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشئ المؤلف لها، فبطل أن تكون إضافته إلى الرسول لأجل إحداث لفظه ونظمه. ولو جاز أن تكون الإضافة هنا لأجل إحداث الرسول له أو لشيء منه، لجاز أن نقول: إنه قول البشر؛ وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سقر»[٣].

قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾:

قال ابن كثير: «كقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾[٤] أي: شديد الخلق، شديد البطش والفعل، ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة»[٥].

قال ابن عاشور: «وتوسيط قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ بين ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ و﴿مَكِينٍ﴾ ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز، أي: هو ذو قوة عند الله، أي: جعل الله مقدرة جبريل تخوّله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة

---

(١) الحاقة: الآيات (٤٠-٤٢).
(٢) النور: الآية (٥٤)، العنكبوت: الآية (١٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٦٥-٢٦٦).
(٤) النجم: الآيتان (٥و٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦١).

التدبير، وهو ذو مكانة عند اللَّه وزلفى»[١].

قال ابن القيم: «وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئًا، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومواد له وناصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[٢]، ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه، فهو المهدي المنصور، واللَّه هاديه، وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤدّ له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة أو ولاية أو وكالة أو غيرها، فإنما ينتدب لها القوي عليه، الأمين على فعله، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قويًا أمينًا معظمًا ذا مكانة عنده، مطاعًا في الناس، كما وصف اللَّه عبده جبريل بهذه الصفات. وهذا يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول، والرسالة، والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملإ الأعلى، الأمين حق الأمين؛ فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية.

وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة ووجاهة عنده، وهو أقرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارة إلى علو منزلة جبريل؛ إذ كان قريبًا من ذي العرش سبحانه.

وفي قوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ. وفيه إشارة أيضًا إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعًا في الأرض، كما أن جبريل مطاع في السماء، وأن كلًّا من الرسولين

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٦).

(٢) التحريم: الآية (٤).

مطاع في محله وقومه. وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملَك المطاع»[١].

قال ابن كثير: «وهذا عظيم جدًّا أن الرب ﷻ يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾[٢]»[٣].

قال ابن القيم: «ووصف رسول الملكي في هذه السورة بأنه كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السموات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علوًّا وجلالة: قول الله سبحانه بنفسه تزكيته»[٤].

قال الألوسي: «والمقام يقتضي تعظيم الأمانة؛ لأن دفع كون القرآن افتراءً منوط بأمانة الرسول»[٥].

قال عطية سالم: «في وصف جبريل ﷺ بتلك الأوصاف نص في تمكينه من حفظ ما أرسل به، وصيانته عن التغيير والتبديل؛ لأنه مكين، فلا يصل إليه ما يخل برسالته، ولأنه مطاع ثَمَّ؛ والمطاع لا يؤثر عليه غيره، والأمين لا يخون ولا يبدّل؛ فكان القرآن الذي جاء به مصونًا من أن يتسلط أحد عليه فيغيره، ومن أن يغيره الذي جاء به، وهذا كله بمثابة الترجمة لسند تلقّي القرآن الكريم»[٦].

* * *

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٨).

(٢) التكوير: الآية (٢٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦١).

(٤) التبيان (ص: ٧٧).

(٥) روح المعاني (٣٠/ ٦٠).

(٦) تتمة أضواء البيان (٩/ ٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾:

قال ابن عاشور: «بعد أن أثنى اللَّه على القرآن بأنه قول رسول مرسَل من اللَّه، وكان قد تضمن ذلك ثناءً على النبي ﷺ بأنه صادق فيما بلغه عن اللَّه تعالى، أعقبه بإبطال بهتان المشركين فيما اختلقوه على النبي ﷺ من قولهم: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾[1] وقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾[2]، فأبطل قولهم إبطالًا مؤكدًا ومؤيدًا، فتأكيده بالقسم وبزيادة (الباء) بعد النفي، وتأييده بما أومأ إليه وصفه بأن الذي بلّغه صاحِبُهم، فإن وصف (صاحب) كناية عن كونهم يعلمون خُلقه وعقلَه ويعلمون أنه ليس بمجنون؛ إذ شأن الصاحب أن لا تَخفى دقائقُ أحواله على أصحابه»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما صاحبكم أيها الناس محمد بمجنون فيتكلم عن جنة، ويهذي هذيان المجانين؛ بل جاء بالحق وصدق المرسلين»[4].

قال الألوسي: «وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم بألطف وجه؛ إذ هو إيماء إلى أنه -عليه الصلاة والسلام- نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن، فأنتم أعرف به، وبأنه صلى اللَّه تعالى عليه وسلم أتم الخلق عقلًا، وأرجحهم قيلًا، وأكملهم وصفًا، وأصفاهم ذهنًا، فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون»[5].

قال شيخ الإسلام: «فقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ تنبيه على نعمته على البشر وإحسانه إليهم؛ إذ بعث إليهم من يصحبهم ويصحبونه، بشرًا مثلهم؛ فإنهم لا يطيقون الأخذ عن الملَك؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا

---

(١) الدخان: الآية (١٤).
(٢) سبأ: الآية (٨).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٧).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ٨٠).
(٥) روح المعاني (٣٠/ ٦٠).

يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[1] »[2].

قال ابن عاشور: «والمعنى: نفي أن يكون القرآن من وساوس المجانين؛ فسلامة مبلّغه من الجنون تقتضي سلامة قوله من أن يكون وسوسة»[3].

وقال أيضًا: «فهذا موقع هذه الجملة مع ما قبلها وما بعدها، والقصد من ذلك إثبات صدق محمد ﷺ، ولا يخطر بالبال أنها مسوقة في معرض الموازنة والمفاضلة بين جبريل ومحمد عليهما السلام والشهادة لهما بمزاياهما حتى يشم من وفرة الصفات المجراة على جبريل أنه أفضل من محمد ﷺ.

ولا أن المبالغة في أوصاف جبريل مع الاقتصاد في أوصاف محمد ﷺ تؤذن بتفضيل أولهما على الثاني.

ومن أسمج الكلام وأضعف الاستدلال قول صاحب «الكشاف»: وناهيك بهذا دليلًا على جلالة مكانة جبريل عليه السلام، ومباينة منزلته لمنزلة أفضل الإنس محمد ﷺ إذا وازنت بين الذِّكرين، وقايست بين قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ وبين قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾، اهـ.

وكيف انصرف نظرُه عن سياق الآية في الرد على أقوال المشركين في النبي ﷺ ولم يقولوا في جبريل شيئًا؛ لأن الزمخشري رام أن ينتزع من الآية دليلًا لمذهب أصحاب الاعتزال من تفضيل الملائكة على الأنبياء، وهي مسألة لها مجال آخر»[4].

قال شيخ الإسلام: «والجواب أولًا: أين هو من قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ إلى آخرها؟ وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾؟ وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ الآيات؟ و﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[5].

وأين هو عن قصة المعراج التي تأخر فيها جبرائيل عن مقامه؟ ثم أين هو عن الخلة؟ وهو التقريب؛ فهذا نزاع من لم يقدر النبي ﷺ قدره.

ثم نقول ثانيًا: لما كان جبرائيل هو الذي جاء بالرسالة، وهو صاحب الوحي وهو غيب عن الناس؛ لم يروه بأبصارهم، ولم يسمعوا كلامه بآذانهم، وزعم

---

(١) الأنعام: الآيتان (٨و٩).

(٢) الرد على المنطقيين (ص: ٥٣٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٧).

(٤) المصدر السابق (٣٠/ ١٥٨).

(٥) الإسراء: الآية (٧٩).

زاعمون أن الذي يأتيه شيطان يعلمه ما يقول، أو أنه إنما يعلمه إياه بعض الإنس.

أخبر اللَّه العباد أن الرسول الذي جاء به، ونعته أحسن النعت، وبين حاله أحسن البيان، وذلك كله إنما هو تشريف لمحمد ﷺ، ونفي عنه ما زعموه، وتقرير للرسالة؛ إذ كان هو صاحبه الذي يأتيه بالوحي، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾، أي: إن الرسول البشري لم ينطق به من عند نفسه، وإنما هو مبلّغ يقول ما قيل له؛ فكان في اسم (الرسول) إشارة إلى محض التوسط والسعاية.

ثم وصفه بالصفات التي تنفي كل عيب؛ من القوة والمكنة، والأمانة والقرب من اللَّه سبحانه، فلما استقر حال الرسول الملكي، بين أنه من جهته، وأنه لا يجيء إلا بالخير.

وكان الرسول البشري معلوم ظاهره عندهم، وهو الذي يبلغهم الرسالة، ولولا هؤلاء لما أطاقوا الأخذ عن الرسول الملكي؛ وإنما قال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة إلى أنه قد صحبكم سنين قبل ذلك، ولا سابقة له بما تقولون فيه وترمونه من الجنون والسحر وغير ذلك، وأنه لولا سابقته وصحبته إياكم لما استطعتم الأخذ عنه؛ ألا تسمعه يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾[1] -تمييزًا- من المرسلين؛ ثم حقق رسالته بأنه رأى جبرائيل، وأنه مؤتمن على ما يأخذه عنه، فقام أمر الرسالة بهاتين الصفتين، وجاء على الوجه الأبلغ والأكمل والأصلح»[2].

قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾:

قال ابن كثير: «يعني: ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن اللَّه ﷻ، على الصورة التي خلقه اللَّه عليها له ستمائة جناح، ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾[3]، كما تقدم تفسير ذلك وتقريره، والدليل أن المراد بذلك جبريل عليه السلام.

---

(١) الأنعام: الآية (٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٨٨-٣٩٠).

(٣) النجم: الآيات (٥-١٠).

والظاهر -والله أعلم- أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾[1]، فتلك إنما ذكرت في سورة (النجم)، وقد نزلت بعد الإسراء»[2].

قال ابن القيم: «وهذا يتضمن أنه [أي: جبريل] ملك موجود في الخارج يرى بالعيان، ويدركه البصر، لا كما يقول المتفلسفة، ومن قلدهم: إنه العقل الفعال، وأنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان. وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل. ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى. فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها. ومن أنكرها كفر قطعًا. وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره، وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك؛ فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه؛ فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة»[3].

* * *

---

(١) النجم: الآيات (١٣-١٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦١-٣٦٢).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ضنين: أي: ما هو ببخيل. والضِّنَّة: هو البخل بالشيء النفيس؛ ولهذا قيل: عِلْقٌ مَضَنّة ومَضِنّة، وفلان ضِنّي بين أصحابه، أي: هو النفيس الذي أَضِنّ به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: وما هو على ما أوحاه اللَّه إليه، بشحيح، يكتم بعضه؛ بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه عن غني ولا فقير ولا رئيس ولا مرؤوس ولا ذكر ولا أنثى ولا حضري ولا بدوي؛ ولذلك بعثه اللَّه في أمة أمّيّة جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربّانيّين، وأحبارًا متفرّسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم»[1].

قال ابن جرير: «اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والكوفة: (بضنين) بالضاد، بمعنى أنه غير بخيل عليهم بتعليمهم ما علمه اللَّه وأنزل إليه من كتابه، وقرأ ذلك بعض المكيين وبعض البصريين وبعض الكوفيين: (بظنين) بالظاء، بمعنى أنه غير متهم فيما يخبرهم عن اللَّه من الأنباء..

-ثم ذكر الروايات بسنده عن السلف في كلا القراءتين ثم قال: - وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب ما عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة، وإن اختلفت قراءتهم به، وذلك (بضنين) بالضاد؛ لأن ذلك كله كذلك في خطوطها. فإذا كان ذلك كذلك فأولى التأويلين بالصواب في ذلك تأويل من تأوله: وما محمد على ما علمه اللَّه من وحيه وتنزيله ببخيل بتعليمكموه أيها الناس، بل هو حريص

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٧٩).

على أن تؤمنوا به وتتعلموه»[١].

وأقرّ ابن كثير القراءتين وقال: «وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح»[٢].

قال ابن القيم: «ثم نزه رسوليه كليهما أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم، عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾؛ فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين فتضمنت إحداهما -وهي قراءة الضاد- تنزيهه عن البخل، فإن الضنين هو البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن بخلت به أبخل ومعناه، ومنه قول جميل بن معمر:

أجود بمضنون التلاد وإنني ... بسرك عمن سألني لضنين

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس بخيلًا بما أنزل الله»، وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم. وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا: القرآن والوحي، وقال الفراء: يقول تعالى: يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم. وهذا معنى حسن جدًا؛ فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولاسيما عمن لا يعرف قدره ويذمه ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله. وقال أبو علي الفارسي: المعنى: يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانًا. وفيه معنى آخر: وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به، فلا يخاف أن ينتقض ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به، كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب، فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب، واثقًا به، مقيمًا عليه، مبديًا له في كل مجمع ومعيدًا مناديًا به على صدقه، مجلبًا به على أعدائه، من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ: (بظنين) بالظاء، فمعناه المتهم، يقال: ظننت زيدًا بمعنى

(١) جامع البيان (٣٠/ ٨١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٢).

اتهمته، وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك؛ فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

أما وكتاب اللَّه لا عن شناءة هجرت ولكن المحب ظنين

والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص. وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد ﷺ؛ لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة»[١].

* عن مجاهد قال: «سمعت ابن الزبير يقرؤها: (وما هو على الغيب بظنين)»[٢].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما «أنه كان يقرأ: (بضنين)»[٣].

* عن ابن مسعود رضي الله عنه «أنه قرأها: (وما هو على الغيب بظنين)»[٤].

* قال المغيرة، وقال إبراهيم: «الظنين: المتهم، والضنين: البخيل»[٥].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٩-٨٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٣٥٣).

(٣) الطحاوي في شرح المشكل (١٤/ ٢٣٩)، وذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٥٣١) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. وذكره الحافظ في «الفتح» (٨/ ٨٩٩) وقال: «رواه ابن أبي حاتم بسند صحيح».

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٣٥٣).

(٥) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٨٣)، وعبد الرزاق في التفسير (٢/ ٣٥٣) واللفظ له، وذكره ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٨٩٩) وقال: «رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح».

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾:

قال ابن كثير: «أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: لا يقدر على حمله، ولا يريده، ولا ينبغي له، كما قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾[١]»[٢].

قال ابن عاشور: «وهذا إبطال لقول المشركين فيه: إنه كاهن؛ فإنهم كانوا يزعمون أن الكهان تأتيهم الشياطين بأخبار الغيب، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾[٣]، وقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾[٤]، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢﴾[٥]، وهم كانوا يزعمون أن الكاهن يتلقى عن شيطانه ويُسمون شيطانَه رَئِيًّا. وفي حديث فترة الوحي ونزول سورة (الضحى): أن حمالة الحطب امرأة أبي لهب، وهي أم جميل بنت حرب، قالت للنبي ﷺ: «أرى شيطانك قد قلاك»[٦].

و(رجيم): (فعيل) بمعنى (مفعول)، أي: مرجوم. والمرجوم: المبعد الذي يتباعد الناس من شره، فإذا أقبل عليهم رجموه، فهو وصف كاشف للشيطان؛ لأنه لا يكون إلا متبرَّأً منه»[٧].

قال ابن القيم: «وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين،

---

(١) الشعراء: الآيات (٢١٠-٢١٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٢).
(٣) الحاقة: الآيتان (٤١و٤٢).
(٤) الشعراء: الآيتان (٢١٠و٢١١).
(٥) الشعراء: الآيتان (٢٢١و٢٢٢).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٣١٢-٣١٣)، والبخاري (٨/ ٧١٠/ ٤٩٥٠)، ومسلم (٣/ ١٤٢١-١٤٢٢/ ١٧٩٧[١١٥]) كلهم من طرق عن الأسود بن قيس عن جندب البجلي به.
(٧) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٤).

وأحوال الرسل؛ يعلم علمًا لا يماري فيه ولا يشك، بل علمًا ضروريًا، كسائر الضروريات، منافاة أحدهما للآخر، ومضادته له، كمنافاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر»[1].

وقوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾:

قال ابن كثير: «أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله ﷻ، كما قال الصديق ﷺ لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهذيان والركاكة، فقال: «ويحكم! أين يُذهب بعقولكم؟! والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ» أي: من إله.

وقال قتادة: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾ أي: عن كتاب الله وعن طاعته»[2].

قال ابن القيم: «قال أبو إسحاق: فأيّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟

قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[3]، وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[4]، فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق فأين العدول وأين المذهب؟

ونظير هذا قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾[5]، أي: إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم، ونظيره قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾[6]، لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٢).
(٣) المرسلات: الآية (٥٠).
(٤) الجاثية: الآية (٦).
(٥) محمد: الآية (٢٢).
(٦) ق: الآية (٥).

باطلًا، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[1]، وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله ﷻ: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2]»[3].

* * *

---

(١) القصص: الآية (٥٠).

(٢) يونس: الآية (٣٢).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يتذكّرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والرذائل والأمثال، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية. وبالجملة، يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين»[1].

قال ابن القيم: «أخبر تعالى عن القرآن بأنه ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي موضع آخر: تذكرة للمتقين، وفي موضع آخر: لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق، وفي موضع آخر ذكر مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرًا عامًّا وخاصًّا، وكونه ذا ذكر فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم، ويذكرهم بالمبدإ والمعاد، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه، ويذكرهم بنفوسهم وأحوالها وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أيّ الأبواب والطرق يأتي إليهم، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا، ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله، ويذكرهم بثوابه وعقابه.

ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه كما قال: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]. وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكرًا له

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٨٠-٥٨١).

(٢) البقرة: الآية (٦٣).

من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه ذو الذكر، فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة»[1].

وقال: «وقوله سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ بدل من العالمين؛ وهو بدل بعض من كل؛ وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين؛ فإن جهة كونه ذكرًا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكرًا لأهل الاستقامة؛ فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة، وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع؛ فكما أن البدل أخص من المبدل منه، فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه؛ ولا بدّ من هذا، فتأمله»[2].

قال ابن عاشور: «وفائدة هذا الإبدال التنبيه على أن الذين تذكروا بالقرآن -وهم المسلمون- قد شاؤوا الاستقامة لأنفسهم فنصحوا أنفسهم، وهو ثناء عليهم.

وفي مفهوم الصلة تعريض بأن الذين لم يتذكروا بالقرآن ما حال بينهم وبين التذكر به إلا أنهم لم يشاؤوا أن يستقيموا، بل رضوا لأنفسهم بالاعوجاج، أي: سوء العمل والاعتقاد، ليعلم السامعون أن دوام أولئك على الضلال ليس لقصور القرآن عن هديهم، بل لأنهم أبوا أن يهتدوا به، إما للمكابرة فقد كانوا يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[3]، وإما للإعراض عن تلقيه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[4].

والاستقامة مستعارة لصلاح العمل الباطني وهو الاعتقاد، والظاهري وهو الأفعال والأقوال؛ تشبيهًا للعمل بخط مستقيم تشبيه معقول بمحسوس. ثم إن الذين لم يشاؤوا أن يستقيموا هم الكافرون بالقرآن، وهم المسوق لهم الكلام،

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨١-٨٢).
(٢) المصدر السابق (ص: ٨٢).
(٣) فصلت: الآية (٥).
(٤) فصلت: الآية (٢٦).

ويلحق بهم على مقادير متفاوتة كل من فرط في الاهتداء بشيء من القرآن من المسلمين؛ فإنه ما شاء أن يستقيم لما فَرَط منه في أحوال أو أزمان أو أمكنة.

وفي هذه الآية إشارة بينة على أن من الخطإ أن يوزن حال الدين الإسلامي بميزان أحوال بعض المسلمين أو معظمهم، كما يفعله بعض أهل الأنظار القاصرة من الغربيين وغيرهم، إذ يجعلون وجهة نظرهم التأمل في حالة الأمم الإسلامية، ويستخلصون من استقرائها أحكامًا كلية يجعلونها قضايا لفلسفتهم في كنه الديانة الإسلامية»[1].

قال ابن القيم: «قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ ردّ على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سببًا فيه.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ردّ على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة اللَّه، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة اللَّه بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة اللَّه.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين.

فإن قال الجبري: هو سبحانه لم يقل: إن الفعل واقع بمشيئة العبد؛ بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة، ونحن قائلون بذلك، وقال القدري قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ مختلفة؛ فمشيئة العبد هي الموجبة للفعل التي بها يقع، ومشيئة اللَّه لفعله هو أمره بذلك، ونحن لا ننكر ذلك.

فالجواب أن هذا من تحريف الطائفتين: أما الجبري، فيقال له: اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أغراضه التي لا تأثير لها في الفعل؛ فإن نسبة جميع أغراضه إلى الفعل في عدم التأثير نسبة إرادية عندك، والاقتران حاصل بجميع أغراضه، فما الذي أوجب تخصيص المشيئة سوى اللَّه سبحانه في فطر الناس أو عقولهم أو شرائعهم بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل ونسبة سائر أغراض الحي إذا كان عندك ليس إلا مجرد الاقتران عادة؟ والاقتران

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٦-١٦٧).

العادي حاصل مع الجميع.

وأما القدري، فتحريفه أشدّ؛ لأنه حمل المشيئة على الأمر وقال: المعنى: وما تشاؤون إلا بأمر اللَّه، وهذا باطل قطعًا؛ فإن المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك، وإنما استعملت في مشيئة التكوين، كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[3]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[4]، ونظائر ذلك، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر ألبتة.

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح: أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة اللَّه ﷻ، فما لم يشأ لم يكن ألبتة، كما أن ما شاء كان ولا بدّ.

ولكن ههنا أمرًا يجب التنبيه عليه، وهو أن مشيئة اللَّه سبحانه تارة تتعلق بفعله، وتارة تتعلق بفعل العبد، فتعلقها بفعله وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة اللَّه لمشيئة عبده دون أن يشاء فعله؛ فإنه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئة وحدها فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله؛ لأنه لم يشأ من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

وقد دل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[5].

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختص بها: فعبودية الآية الأولى: الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي. وعبودية الثانية: الاستعانة باللَّه والتوكل عليه، واللجإ إليه، واستنزال التوفيق والعون منه، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله اللَّه كذلك.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ينتظم ذلك كله ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين فقد

---

(١) الأنعام: الآية (١١٢).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٣).
(٣) السجدة: الآية (١٣).
(٤) الرعد: الآية (٣١).
(٥) المدثر: الآية (٥٦).

جحد كمال الربوبية وعطلها، وبالله التوفيق»[١].

قال الشيخ عطية سالم: «إذا كان الكثيرون يستدلون في قضية القضاء والقدر بهذه الآية، فإنه ينبغي ألا تغفل أهميتها في جانب الضراعة إلى الله دائمًا، بطلب التفضل من الله تعالى علينا بالمشيئة بالاستقامة فضلًا من عنده، كما أمرنا في الصلاة في كل ركعة منها أن نطلبه هذا الطلب: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[٢]»[٣].

قال ابن عاشور: «وفي هذه الآية إفصاح عن شرف أهل الاستقامة بكونهم بمحل العناية من ربهم إذا شاء لهم الاستقامة وهيّأهم لها»[٤].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨٢-٨٤).

(٢) الفاتحة: الآية (٦).

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٧٧-٧٨).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٨).



سورة الانفطار

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استحباب القراءة بسورة (الانفطار) ونحوها في صلاة العشاء

* عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول، فقال النبي ﷺ: «أفتّان يا معاذ؟ أفتّان يا معاذ؟ أين كنت عن ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾؟»[1].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث استحباب القراءة بهذه السورة ونحوها في صلاة العشاء، وأنها من أوساط (المفصل)، قال بدر الدين العيني: «فيه دليل على أن أوساط (المفصل) إلى ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾؛ لأن هذه الصلاة صلاة العشاء، والسنة فيها القراءة من أوساط (المفصل) لا من قصاره، ثم ذكر هذه السور الثلاث ليس للتخصيص بعينها؛ لأن المراد هذه الثلاث أو نحوها من القصار، كما جاء في بعض الروايات لفظ: «ونحوها»»[2].

* * *

(١) أخرجه بهذا اللفظ: النسائي (٢/ ٥١٣/ ٩٩٦) من طريق الأعمش عن محارب بن دثار عن جابر. وأخرجه من طرق أخرى عن جابر: أحمد (٣/ ٢٩٩)، والبخاري (٢/ ٢٤٥/ ٧٠١)، ومسلم (١/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٤٦٥)، وأبو داود (١/ ٥٠٠-٥٠١/ ٧٩٠)، والنسائي (٢/ ٤٣٧/ ٨٣٤)، وابن ماجه (١/ ٢٧٣/ ٨٣٦) إلا أنه ليس في حديثهم ذكر: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾.

(٢) عمدة القاري (٤/ ٣٤٠).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

انفطرت: انشقّت. والفطر: الشقّ طولًا. ومنه: فَطَرَ نابُ البعير، أي: طلع.

انتثرت: نثر الشيء: نشره وتفريقه؛ يقال: نثرتُهُ فانتثر، والمعنى: تساقطت وتهاوت.

فُجّرت: الفَجْر: شقّ الشيء شقًّا واسعًا؛ يقال: فجرتُهُ فانفجر، وفجّرتُهُ فتفجّر. والمعنى: فتح بعضها إلى بعض فاختلط عذبها بمالحها.

بعثرت: أصل البعثرة: قلب الشيء وإثارته ظهرًا لبطن. والمعنى: قُلِب ترابها، وأثير ما فيها. وقيل: إن (بعثر) مركّب من (بُعِث) و(أُثيرَ)، وهذا لا يبعد في هذا الحرف؛ فإن البعثرة تتضمن معنى (بُعث) و(أُثير).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم، وفناء الدنيا، وانقطاع التكاليف؛ والسماء كالسقف، والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار فإنه يبدأ أولًا بتخريب السقف، وذلك هو قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾»[1].

قال البقاعي: «لما ختمت (التكوير) بأنه سبحانه لا يخرج شيء عن مشيئته، وأنه موجد الخلق ومدبرهم، وكان من الناس من يعتقد أن هذا العالم هكذا بهذا الوصف لا آخر له (أرحام تدفع، وأرض تبلع، ومن مات فات، وصار إلى الرفات، ولا عود بعد الفوات)؛ افتتح اللّه سبحانه هذه بما يكون مقدمة لمقصود التي قبلها

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٨).

من أنه لا بد من نقضه لهذا العالم وإخرابه؛ ليحاسب الناس، فيجزي كلًّا منهم من المحسن والمسيء بما عمل، فقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: على شدة إحكامها واتساقها وانتظامها ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ أي: انشقت شقوقًا؛ أفهم سياق التهويل أنه صار لبابها أطراف كثيرة، فزال ما كان لها من الكريّة الجامعة للهواء الذي الناس فيه كالسمك في الماء، فكما أن الماء إذا انكشف عن الحيوانات البحرية هلكت، كذلك يكون الهواء مع الحيوانات البرية، فلا تكون حياة إلا ببعث جديد ونقل عن هذه الأسباب؛ ليكون الحساب بالثواب والعقاب»[1].

قال الرازي: «وهو كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[2]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾[3]، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾[4]، ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾[5]، و﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾[6]»[7].

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ﴾:

قال برهان الدين البقاعي: «ولما كان يلزم من انفطارها وهيها وعدم إمساكها لما أثبت بها ليكون ذلك أشد تخويفًا لمن تحتها بأنهم يترقبون كل وقت سقوطها أو سقوط طائفة منها فوقهم، فيكونون بحيث لا يقر لهم قرار؛ قال: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ﴾ أي: النجوم الصغار والكبار كلها الغراء الزاهرة المتوقدة توقد النار، المرصعة ترصيع المسامير في الأشياء المتماسكة، التي دبر اللَّه في دار الأسباب بها الفصول الأربعة والليل والنهار، وغير ذلك من المقاصد الكبار، وكانت محفوظة بانتظام السماء ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تساقطت متفرقة كما يتساقط الدر من السلك إذا انقطع تساقطًا كأنه لسرعته لا يحتاج إلى فعل فاعل لقوة تداعيه إلى التساقط»[8].

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾:

قال أبو السعود: «فتح بعضها إلى بعض، فاختلط العذب بالأجاج، وزال ما بينهما من البرزخ الحاجز، وصارت البحار بحرًا واحدًا، وروي أن الأرض تنشف

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٨-٢٩٩).
(٢) الفرقان: الآية (٢٥).
(٣) الانشقاق: الآية (١).
(٤) الرحمن: الآية (٣٧).
(٥) النبأ: الآية (١٩).
(٦) المزمل: الآية (١٨).
(٧) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٧).
(٨) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٩).

الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية، وهو معنى التسجير عند الحسن رضي الله عنه، وقيل: إن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة، فإذا فجرت تفرقت وذهبت، وقرئ: (فُجِرَتْ) بالتخفيف مبنيًّا للمفعول ومبنيًّا للفاعل أيضًا؛ بمعنى: بغت؛ من الفجور؛ نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾[1] »[2].

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾:

قال الرازي: «المعنى: أثيرت وقلب أسفلها أعلاها، وباطنها ظاهرها، ثم ههنا وجهان: أحدهما: أن القبور تبعثر بأن يخرج ما فيها من الموتى أحياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾[3]. والثاني: أنها تبعثر لإخراج ما في بطنها من الذهب والفضة؛ وذلك لأن من أشراط الساعة أن تخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها، ثم يكون بعد ذلك خروج الموتى، والأول أقرب؛ لأن دلالة القبور على الأول أتم»[4].

* * *

(١) الرحمن: الآية (٢٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢٠).

(٣) الزلزلة: الآية (٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٨).

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «يقول: إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة، ختمت الأعمال، فعلمت كل نفس ما كسبت؛ فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك. وقيل: أي: إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة، فحوسبت كل نفس بما عملت، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها. وقيل: هو خبر، وليس بقسم، وهو الصحيح إن شاء اللّه تعالى»[1].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة يوهم ظاهرها أن الذي يعلم يوم القيامة ما قدّم وما أخّر، نفس واحدة. وقد جاءت آيات أخر تدل على أن كل نفس تعلم ما قدمت وأخرت؛ كقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾[2]، وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات.

والجواب: أن المراد بقوله: ﴿نَفْسٌ﴾ كل نفس. والنكرة وإن كانت لا تعمّ إلا في سياق النفي أو الشرط أو الامتنان، كما تقرر في الأصول، فإن التحقيق أنها ربما أفادت العموم بقرينة السياق، من غير نفي أو شرط أو امتنان، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، في (التكوير) و(الانفطار)، وقوله: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾[4]، وقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾[5]. والعلم عند اللّه تعالى»[6].

قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾:

قال البقاعي: «أي: جميع النفوس بالإنباء بالحساب، وبما يجعل لها سبحانه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٦٠).
(٢) يونس: الآية (٣٠).
(٣) الإسراء: الآية (١٣).
(٤) الأنعام: الآية (٧٠).
(٥) الزمر: الآية (٥٦).
(٦) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٦١).

بقوة التركيب من ملكة للاستحضار كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾[١]، والدال على إرادة العموم التعبير بالتنكير في سياق التخويف والتحذير مع العلم بأن النفوس كلها في علم مثل هذا وجهله على حد سواء، فمهما ثبت للبعض ثبت للكل، ولعله نكر إشارة إلى أنه ينبغي لمن وهبه اللَّه عقلًا أن يجوّز أنه هو المراد فيخاف»[٢].

قال الرازي: «فإن قيل: وفي أيّ موقف من مواقف القيامة يحصل هذا العلم؟ قلنا: أما العلم الإجمالي فيحصل في أول زمان الحشر؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة، والعاصي يرى آثار الشقاوة في أول الأمر. وأما العلم التفصيلي فإنما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة»[٣].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ يقول -تعالى ذكره-: علمت كل نفس ما قدمت لذلك اليوم من عمل صالح ينفعه، وأخرت وراءه من شيء سنّه فعمل به.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم بنحو الذي قلنا في ذلك.. عن القرظي أنه قال في ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ قال: ما قدمت مما عملت، وأما ما أخرت فالسنة يسنها الرجل يعمل بها من بعده.

وقال آخرون: عني بذلك ما قدمت من الفرائض التي أدتها، وما أخرت من الفرائض التي ضيعتها.. عن عكرمة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ قال: ما افترض عليها، وما أخرت: قال: مما افترض عليها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ما قدمت من خير أو شر، وأخرت من خير أو شر.. عن إبراهيم التيمي قال: ذكروا عنده هذه الآية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ قال: أنا مما أخّر الحجاج.

وإنما اخترنا القول الذي ذكرناه؛ لأن كل ما عمل العبد من خير أو شر فهو مما قدمه، وأن ما ضيع من حق اللَّه عليه وفرط فيه فلم يعمله فهو مما قد قدم من شر، وليس ذلك مما أخر من العمل؛ لأن العمل هو ما عمله، فأما ما لم يعمله فإنما هو سيئة قدمها، فلذلك قلنا: ما أخر: هو ما سنه من سنة حسنة وسيئة مما إذا عمل به العامل كان له مثل أجر العامل بها أو وزره»[٤].

---

(١) ق: الآية (٢٢).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٠١).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٨-٧٩).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ٨٥-٨٦).

ما ورد في السنة الصحيحة في فضل سن الأمور الحسنة وقبح سن الأمور السيئة

* عن عبد اللَّه بن مسعود، في قول اللَّه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ قال: «ما قدمت من خير، وأخرت من سنة استُنّ بها بعده، فله أجر مثل من اتبعه من غير أن يُنقص من أجورهم شيء أو سنة سيئة عُمل بها بعده، فعليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»[1].

* عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قام سائل على عهد النبي ﷺ فسأل فسكت القوم، ثم إن رجلا أعطاه فأعطاه القوم، فقال النبي ﷺ: «**من استنّ خيرًا فاستُنّ به فله أجره ومثل أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئًا، ومن استنّ شرًّا، فاستُنّ به فعليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منتقص من أوزارهم شيئًا**». قال: وتلا حذيفة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾»[2].

⋆ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين حث على الابتداء بالخيرات، وسنّ السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات. وفيهما الفضل العظيم للبادئ بالخير والفاتح لباب الإحسان[3].

* * *

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢/ ٨٥٠-٨٥١/ ١١٣١) عن معمر عن عبد الكريم الجزري عن زياد بن أبي مريم عن ابن مسعود. وهذا إسناد صحيح.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٧)، والبزار (كشف الأستار ١/ ٨٩/ ١٥٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤/ ٤٢١/ ٣٧٠٥)، والحاكم (٢/ ٥١٦-٥١٧) واللفظ له، وقال: «حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذا اللفظ، إنما اتفقا على حديث جرير بن عبد اللَّه ﷺ»، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٦٧) وقال: «ورجاله رجال الصحيح، إلا أبا عبيدة بن حذيفة، وقد وثقه ابن حبان». ويشهد لهذا الحديث: حديث جرير بن عبد اللَّه ﷺ أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٧، ٣٥٨-٣٥٩، ٣٦٠)، ومسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧) مطوّلًا -وقول الحاكم السابق: «إنما اتفقا على حديث جرير..» وهم؛ وإنما تفرد به مسلم-، والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣)، وابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٣). ويشهد له أيضًا حديث أبي هريرة أخرجه: أحمد (٢/ ٥٢٠-٥٢١)، وابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٤) وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح».

(٣) أفاده النووي في شرح صحيح مسلم (٧/ ٩٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

★ غريب الآية:

غَرَّكَ: خدعك واستهواك. وأصل الغرور: كل ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «ثم خاطب تعالى جنس ابن آدم على جهة التوبيخ والتنبيه: على أي شيء أوجب أن يغتر بربه الكريم فيعصيه، ويجعل له ندًّا وغير ذلك من أنواع الكفر، وهو الخالق الموجد بعد العدم؟!»[١].

قال الرازي: «أما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه الكافر؛ لقوله من بعد ذلك: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾[٢].. والقول الثاني: أنه يتناول جميع العصاة، وهو الأقرب»[٣].

قال الشوكاني: «أي: ما الذي غرّك وخدعك حتى كفرت بربك الكريم، الذي تفضل عليك في الدنيا بإكمال خلقك وحواسك، وجعلك عاقلًا فاهمًا، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التي لا تقدر على جحد شيء منها. قال قتادة: غرّه شيطانه المسلط عليه. وقال الحسن: غرّه شيطانه الخبيث، وقيل: حمقه وجهله. وقيل: غرّه عفو اللَّه إذ لم يعاجله بالعقوبة أوّل مرّة، كذا قال مقاتل»[٤].

قال القرطبي: «قال ابن السماك:

يا كاتم الذنب أما تستحي   واللهُ في الخلوة ثانيكا

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٤٦).
(٢) الانفطار: الآية (٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨٠).
(٤) فتح القدير (٥/ ٥٦٣).

غـرَّكَ مـن ربـك إمـهـالُـهُ وسـتـرهُ طـولَ مـسـاويـكـا

وقال ذو النون المصري: كم من مغرور تحت الستر وهو لا يشعر.

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهري:

يـا مـن غـلا فـي الـعُـجـب والـتـيـهِ وغـرّه طـولُ تـمـاديـهِ

أمـلـى لـك الـلّـه فـبـارزتـه ولـم تـخـف غِـبّ مـعـاصـيـهِ»[1].

قال الغزالي: «وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف، فيخوف نفسه بغضب اللَّه وعظيم عقابه، ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد، مع أنه لم يضره كفرهم، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها، فمن هذه سنته في عباده وقد خوّفني عقابه، فكيف لا أخافه؟! وكيف أغترّ به؟!

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمنّ وغرور. ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن اللَّه تعالى، وإهمالهم السعي للآخرة.. فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة اللَّه، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي، وانهماكهم في الدنيا، وإعراضهم عن اللَّه تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم اللَّه تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينى، فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟! والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه، ويعظم خوفه إن كان مؤمنًا بما فيه. وترى الناس يهذّونه هذًّا، يخرجون الحروف من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٦١).

مخارجها، ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها، وكأنهم يقرؤون شعرًا من أشعار العرب، لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه. وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟!»[1].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾:

قال الشوكاني: «أي: خلقك من نطفة ولم تك شيئًا، فسوّاك رجلًا تسمع وتبصر وتعقل، ﴿فَعَدَلَكَ﴾: جعلك معتدلًا. قال عطاء: جعلك قائمًا معتدلًا حسن الصورة. وقال مقاتل: عدّل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين، والمعنى: عدل بين ما خلق لك من الأعضاء. قرأ الجمهور: (فَعَدَّلَكَ) مشدّدًا، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتخفيف، واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الأولى. قال الفراء وأبو عبيد: يدلّ عليها قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[2]، ومعنى القراءة الأولى: أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها، ومعنى القراءة الثانية: أنه صرفه وأماله إلى أيّ صورة شاء، إما حسنًا وإما قبيحًا، وإما طويلًا وإما قصيرًا»[3].

وقوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾:

قال ابن كثير: «قال مجاهد: في أي شبه أب أو أمّ أو خال أو عم..

وقد قال عكرمة في قوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير.

وقال قتادة: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ قال: قادر -والله- ربنا على ذلك. ومعنى هذا القول عند هؤلاء: أن اللَّه ﷻ قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق؛ ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تامّ، حسن المنظر والهيئة»[4].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٨٦-٣٨٧).
(٢) التين: الآية (٤).
(٣) فتح القدير (٥/ ٥٦٣-٥٦٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عظيم قدرة الله في تصوير المخلوقات

* عن بُسر بن جِحاش القرشي: أن رسول اللَّه ﷺ بصق يومًا في كفّه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: «**قال الله: بنيَّ آدم! أنّى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سوّيتك وعدلتك، مشيتَ بين بُردين وللأرض منك وئيد، فجمعتَ منعتَ، حتى إذا بلغَتِ التراقيَ قلتَ: أتصدّقُ، وأنّى أوان الصدقة**»[1].

★ فوائد الحديث:

تقدم في سورة (النحل) عند قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾ الآية (٤).

* عن أبي هريرة: «أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ولد لي غلام أسود، فقال: **هل لك من إبل؟** قال: نعم، قال: **ما ألوانها؟** قال: حمر، قال: **هل فيها من أورق؟** قال: نعم، قال: **فأنى ذلك؟** قال: لعل نزعه عرق، قال: **فلعل ابنك هذا نزعه**»[2].

★ غريب الحديث:

أورق: الأورق: الذي فيه سواد ليس بحالك بل يميل إلى الغبرة؛ ومنه قيل للحمامة: ورقاء.

العرق: المراد به في الحديث: الأصل من النسب تشبيهًا بعرق التمرة. ومنه قولهم: فلان معرق في النسب والحسب وفي اللؤم والكرم.

نزعه: أشبهه واجتذبه إليه وأظهر لونه عليه، وأصل النزاع: الجذب؛ فكأنه جذبه إليه لشبهه.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٣/ ٢٧٠٧)، وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح»، والحاكم (٢/ ٥٠٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣-٢٣٤)، والبخاري (٩/ ٥٥٢/ ٥٣٠٥)، ومسلم (٢/ ١١٣٧/ ١٥٠٠)، وأبو داود (٢/ ٦٩٤-٦٩٥/ ٢٢٦٠)، والترمذي (٤/ ٣٨٢-٣٨٣/ ٢١٢٨)، والنسائي (٦/ ٤٨٩/ ٣٤٧٨)، وابن ماجه (١/ ٦٤٥/ ٢٠٠٢).

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث دليل على عظيم قدرة اللَّه تعالى حيث خلق من زوجين أبيضين غلامًا أسود يرجع شبهه إلى أحد عمودي النسب الذي قد مضى في غابر الدهر.
يقول الرازي: «ودلالة هذه الحالة على الصانع القادر في غاية الظهور؛ لأن النطفة جسم متشابه الأجزاء وتأثير طبع الأبوين فيه على السوية، فالفاعل المؤثر بالطبيعة في القابل المتشابه لا يفعل إلا فعلًا واحدًا، فلما اختلفت الآثار والصفات دل ذلك الاختلاف على أن المدبر هو القادر المختار، قال القفال: اختلاف الخلق والألوان كاختلاف الأحوال في الغنى والفقر والصحة والسقم، فكما أنا نقطع أنه سبحانه إنما ميز البعض عن البعض في الغنى والفقر، وطول العمر وقصره، بحكمة بالغة لا يحيط بكنهها إلا هو؛ فكذلك نعلم أنه إنما جعل البعض مخالفًا للبعض في الخلق والألوان بحكمة بالغة؛ وذلك لأن بسبب هذا الاختلاف يتميز المحسن عن المسيء والقريب عن الأجنبي، ثم قال: ونحن نشهد شهادة لا شك فيها أنه سبحانه لم يفرق بين المناظر والهيئات إلا لما علم من صلاح عباده فيه وإن كنا جاهلين بعين الصلاح»[1].

قال النووي: «وفي هذا الحديث أن الولد يلحق الزوج وإن خالف لونه لونه، حتى لو كان الأب أبيض والولد أسود أو عكسه لحقه، ولا يحل له نفيه بمجرد المخالفة في اللون. وكذا لو كان الزوجان أبيضين فجاء الولد أسود أو عكسه؛ لاحتمال أنه نزعه عرق من أسلافه»[2].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨٢).
(٢) شرح صحيح مسلم (١٠/ ١١٣).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب»[١].

قال القرطبي: «يجوز أن تكون (كلاّ) بمعنى: (حقًّا) و(ألاَ) فيبتدأ بها. ويجوز أن تكون بمعنى (لا)، على أن يكون المعنى: ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير اللَّه محقّون. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾[٢]، وكذلك يقول الفراء: يصير المعنى: ليس كما غُررت به. وقيل: أي: ليس الأمر كما يقولون من أنه لا بعث. وقيل: هو بمعنى الردع والزجر، أي: لا تغتروا بحلم اللَّه وكرمه، فتتركوا التفكر في آياته. ابن الأنباري: الوقف الجيّد على (الدين)، وعلى (ركّبك)، والوقف على (كلاّ) قبيح. ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ يا أهل مكة ﴿بِالدِّينِ﴾ أي: بالحساب، و(بل) لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره. وإنكارهم للبعث كان معلومًا، وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة»[٣].

قال ابن عطية: «وهذا الخطاب عامّ، ومعناه الخصوص في الكفار»[٤].

وقوله: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝﴾:

قال ابن كثير: «يعني: وإن عليكم لملائكة حفظة كرامًا، فلا تقابلوهم بالقبائح؛ فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم»[٥].

قال الرازي: «والمعنى التعجب من حالهم، كأنه سبحانه قال: إنكم تكذبون

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٥).
(٢) الانفطار: الآية (٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٦٢).
(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٤٤٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٥).

بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء، وملائكة اللَّه موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[2] »[3].

قال ابن القيم: «قال بعض الصحابة ﷺ: إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم، ولا ألأم ممن لا يستحيي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾، أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه وإن كان قد يعمل مثله عمله؛ فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين، واللَّه المستعان»[4].

قال القرطبي: «واختلف الناس في الكفار هل عليهم حفظة أم لا؟ فقال بعضهم: لا؛ لأن أمرهم ظاهر، وعملهم واحد؛ قال اللَّه تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾[5]. وقيل: بل عليهم حفظة؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾[6]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾[7]، فأخبر أن الكفار يكون لهم كتّاب، ويكون عليهم حفظة»[8].

قال شيخ الإسلام: «والملائكة، وإن كان اللَّه قد وصفهم بأنهم يكتبون.. فلا يجب أن تكون حروفهم المكتوبة مثل الحروف التي يكتبها الآدميون»[9].

قال القاسمي: «ولا يخفى أن الحفظة الكرام وعملهم، من الغيب الذي لا يمكن اكتناهه. فيجب الإيمان به كما ورد، مع تفويض كنهه إلى بارئه تعالى.

---

(١) ق: الآيتان (١٧و١٨).
(٢) الأنعام: الآية (٦١).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨٣).
(٤) الداء والدواء (ص: ١٩٩-٢٠٠).
(٥) الرحمن: الآية (٤١).
(٦) الحاقة: الآية (٢٥).
(٧) الانشقاق: الآية (١٠).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٦٢).
(٩) الاستقامة (١/ ٢٠٤).

ومن الفضول في العلم التوسع فيما لا يدرك بالنظر، وتسويد وجوه الصحف بها. وبالله سبحانه التوفيق»[١].

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾:

قال ابن جرير: «يقول: يعلم هؤلاء الحافظون ما تفعلون من خير أو شر، يحصون ذلك عليكم»[٢].

قال في شرح الطحاوية: «إن الملائكة تكتب القول والفعل، وكذلك النية؛ لأنها فعل القلب، فدخلت في عموم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾»[٣].

قال الرازي: «واعلم أن وصف الله إياهم بهذه الصفات الخمسة يدل على أنه تعالى أثنى عليهم وعظم شأنهم، وفي تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله تعالى من جلائل الأمور، ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه هؤلاء العظماء الأكابر، قال أبو عثمان: من لم يزجره من المعاصي مراقبة الله إياه، كيف يرده عنها كتابة الكرام الكاتبين؟»[٤].

قال ابن عاشور: «واعلم أنه ينتزع من هذه الآية أن هذه الصفات الأربع هي عماد الصفات المشروطة في كل من يقوم بعمل للأمة في الإسلام من الولاة وغيرهم؛ فإنهم حافظون لمصالح ما استحفظوا عليه، وأول الحفظ الأمانة وعدم التفريط. فلا بد فيهم من الكرم، وهو زكاء الفطرة، أي: طهارة النفس، ومن الضبط فيما يجري على يديه؛ بحيث لا تضيع المصالح العامة ولا الخاصة؛ بأن يكون ما يصدره مكتوبًا، أو كالمكتوب مضبوطًا لا يستطاع تغييره، ويمكن لكل من يقوم بذلك العمل بعد القائم به، أو في مغيبه، أن يعرف ماذا أجري فيه من الأعمال، وهذا أصل عظيم في وضع الملفات للنوازل والتراتيب، ومنه نشأت دواوين القضاة، ودفاتر الشُّهود، والخِطاب على الرسوم، وإخراج نسخ الأحكام والأحباس وعقود النكاح، ومن إحاطة العلم بما يتعلق بالأحوال التي تسند إلى المؤتمن عليها بحيث لا يستطيع أحد من المخالطين لوظيفه أن يموّه عليه شيئًا، أو

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٨٤).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٨٨).
(٣) شرح الطحاوية (ص: ٤٤٠). وانظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٣).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨٤-٨٥).

أن يلبس عليه حقيقة بحيث ينتفي عنه الغلط والخطأ في تمييز الأمور بأقصى ما يمكن، ويختلف العلم المطلوب باختلاف الأعمال، فيقدم في كل ولاية من هو أعلم بما تقتضيه ولايته من الأعمال، وما تتوقف عليه من المواهب والدراية، فليس ما يشترط في القاضي يشترط في أمير الجيش مثلًا، وبمقدار التفاوت في الخصال التي تقتضيها إحدى الولايات يكون ترجيح من تسند إليه الولاية على غيره حرصًا على حفظ مصالح الأمة، فيقدم في كل ولاية من هو أقوى كفاءة لإتقان أعمالها، وأشدّ اضطلاعًا بممارستها»[1].

قال صديق حسن خان: «في الآية دلالة على أن الشاهد لا يشهد إلا بعد العلم؛ لوصف الملائكة بكونهم حافظين كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون، فدل على أنهم يكونون عالمين بها حتى إنهم يكتبونها، فإذا كتبوها يكونون عالمين عند أداء الشهادة»[2].

*   *   *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٨٠-١٨١).

(٢) فتح البيان (١٥/ ١١٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «المراد بالأبرار هم القائمون بحقوق اللَّه وحقوق عباده، الملازمون للبر في أعمال القلوب، وأعمال الجوارح؛ فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا، وفي دار البرزخ، وفي دار القرار.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ الذين قصروا في حقوق اللَّه، وحقوق عباده، الذين فجرت قلوبهم ففجرت أعمالهم، ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي: عذاب أليم في دار الدنيا، ودار البرزخ، وفي دار القرار»[1].

قال ابن القيم: «لا تحسب أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار-؛ فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم.

وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأيّ عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن اللَّه والدار الآخرة، وتعلّقه بغير اللَّه، وانقطاعه عن اللَّه، بكلّ وادٍ منه شعبة؟

وكل شيء تعلّق به وأحبّه من دون اللَّه فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئًا غير اللَّه عُذّب به ثلاث مرّات في هذه الدار؛ فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذّب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سُلِبَهُ اشتدّ عليه عذابه؛ فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ؛ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عَوْدَهُ، وألمُ فوات ما

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٨٤).

فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألمُ الحجاب عن اللَّه، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهمّ والغمّ والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوامّ والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمرّ، حتى يردّها اللَّه إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمرّ؛ فأين هذا من نعيم مَنْ يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربّه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبّه، وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه! ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال، إنهم لفي عيش طيب! ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها! ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف. ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة مَنْ لم يدخلها، لم يدخل جنة الآخرة.

فيا مَنْ باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغُبن كلّ الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غُبن! إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فَسَل المقوّمين!»[(١)].

وقال أيضًا وهو يتحدث عن أسباب انشراح الصدر: «ومنها ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل، والنوم؛ فإن هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا، وهمومًا في القلب، تحصره، وتحبسه، وتضيّقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا اللَّه ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم! وما أنكد عيشه! وما أسوأ حاله! وما أشد حصر قلبه! ولا إله إلا اللَّه ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها! فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾، ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا اللَّه -تبارك وتعالى-»[(٢)].

وقال أيضًا: «وأيّ لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته، والعمل على موافقته؟! وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟!..

---

(١) الداء والدواء (ص: ١٤٦-١٤٧).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٢٧).

ولا تتم سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوىً يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن اللَّه، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادًا لا تنحصر»[١].

قال الرازي: «فيه تهديد عظيم للعصاة؛ حكي أن سليمان بن عبد الملك مرّ بالمدينة وهو يريد مكة، فقال لأبي حازم: كيف القدوم على اللَّه غدًا؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، قال: فبكى، ثم قال: ليت شعري ما لنا عند الله! فقال أبو حازم: اعرض عملك على كتاب اللَّه، قال: في أيّ مكان من كتاب الله؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾»[٢].

قال صديق حسن خان: «ولفظ (الفجار) عائد على الكفار الذين تقدم ذكرهم، وليس شاملًا للعصاة المؤمنين؛ لأنّا لا نسلمُ أن مرتكب الكبيرة من المؤمنين فاجر على الإطلاق؛ فـ(ال) في (الفجار) للعهد الذكري؛ بدليل قوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾[٣]»[٤].

قال ابن عاشور: «والمراد بالفاجر هنا: المشركون؛ لأنهم الذين لا يغيبون عن النار طرفة عين، وذلك هو الخلود، ونحن أهل السنة لا نعتقد الخلود في النار لغير الكافر. فأما عصاة المؤمنين فلا يخلدون في النار، وإلا لبطلت فائدة الإيمان»[٥].

قال الشوكاني: «وقوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ صفة لـ﴿جَحِيمٍ﴾؛ ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في متعلق الجار والمجرور،؛ أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما حالهم؟ فقيل: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ أي: يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به، ومعنى ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها وحرّها يومئذ»[٦].

---

(١) الداء والدواء (ص: ٢١٨-٢١٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨٦).
(٣) الانفطار: الآية (٩).
(٤) فتح البيان (١٥/ ١١٩).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٨٢).
(٦) فتح القدير (٥/ ٥٦٤-٥٦٥).

قال شيخ الإسلام: «واللَّه سبحانه قد سمّى يوم القيامة (يوم الدين). . وهو كما روي عن ابن عباس وغيره من السلف: يوم يدين اللَّه العباد بأعمالهم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ؛ وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم؛ فلهذا من قال: هو يوم الحساب، ويوم الجزاء، فقد ذكر بعض صفات الدين»[1].

قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾:

قال ابن كثير: «أي: لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يومًا واحدًا»[2].

* * *

(١) قاعدة في المحبة (ص: ٣٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما علم أن الوعيد الأعظم يوم الدين، هول أمره بالسؤال عنه؛ إعلامًا بأنه أهل لأن يصرف العمر إلى الاعتناء بأمره، والسؤال عن حقيقة حاله سؤال إيمان وإذعان، لا سؤال كفران وطغيان؛ ليكون أقعد في الوعيد به، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أي: أعلمك وإن اجتهدت في طلب الدراية به ﴿مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: أيّ شيء هو في طوله وأهواله وفظاعته وزلزاله. ولما كانت أهواله زائدة على الحد، كرّر ذلك السؤال لذلك الحال، فقال معبّرًا بأداة التراخي زيادة في التهويل: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أي كذلك ﴿مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾»[1].

قال الإشبيلي: «واعلم -رحمك الله- أن هذا اليوم ليس عظمه مما يوصف ولا هوله مما يكيف ولا يجري على مقدار مما يعلم في الدنيا ويعرف، بل لا يعلم عظمه ولا مقداره ولا هوله إلا اللَّه -تبارك وتعالى-، وما ظنك بيوم عبر اللَّه -تبارك وتعالى- عن بعض ما يكون فيه بشيء عظيم؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾[2]، وماذا عسى أن يقول القائل فيه؟ وماذا عسى أن يصفه الواصف به؟ الأمر أعظم، والخطب أكبر، والهول أشنع، كما قال القائل:

وما عسى أن أقول أو أقوم به ... الأمر أعظم مما قيل أو وصفا

وقال أيضًا:

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٨).

(٢) الحج: الآيتان (١و٢).

والأمر مهما قد نظرت له ألفيته الأعظم الألقاء

يوم القيامة، وما أدراك ما يوم القيامة؟ ثم ما أدراك ما يوم القيامة؟ يوم الحسرة والندامة، يوم يجد كل عامل عمله أمامه»[(١)].

قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ «: قال ابن جرير: «ذلك اليوم، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾: يقول: يوم لا تغني نفس عن نفس شيئًا، فتدفع عنها بليّة نزلت بها، ولا تنفعها بنافعة، وقد كانت في الدنيا تحميها، وتدفع عنها من بغاها سوءًا، فبطل ذلك يومئذ؛ لأن الأمر صار لله الذي لا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر، واضمحلت هنالك الممالك، وذهبت الرياسات، وحصل الملك للملك الجبار»[(٢)].

قال ابن القيم: «قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية اللَّه وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من اللَّه شيئًا، قال اللَّه تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[(٤)]، وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن من تعلقوا به من دون اللَّه من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة، أو يجيرهم من عذاب اللَّه، أو هو يشفع لهم عند اللَّه، وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم، وهو الشرك الذي لا يغفره اللَّه، وهو الذي بعث اللَّه جميع رسله وأنزل جميع كتبه بإبطاله، ومحاربة أهله ومعاداتهم»[(٥)].

استدل بالآية وما شابهها كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾[(٦)] الخوارج والمعتزلة على نفي الشفاعة. وفي الجواب عن ذلك يقول شيخ الإسلام: «احتجّ بكثير منه الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر؛ إذ منعوا أن

---

(١) العاقبة (ص: ١٦٣-١٦٤).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٨٩).
(٣) الممتحنة: الآية (٣).
(٤) لقمان: الآية (٣٣).
(٥) إعلام الموقعين (١/ ١٨٨-١٨٩).
(٦) البقرة: الآية (٤٨).

يشفع لمن يستحق العذاب، أو أن يخرج من النار من يدخلها، ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب في زيادة الثواب.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة: إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأيضًا فالأحاديث المستفيضة عن النبي ﷺ في الشفاعة فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم، وفيهم المؤمن والكافر، وهذا فيه نوع شفاعة للكفار.. فالشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق، وهي أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداءً فيقبل شفاعته، فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع؛ لم يكن مستقلًا بالشفاعة، بل يكون مطيعًا له، أي: تابعًا له في الشفاعة، وتكون شفاعته مقبولة، ويكون الأمر كله للآمر المسؤول.

وقد ثبت بنص القرآن في غير آية: أن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[3]، وأمثال ذلك. والذي يبين أن هذه هي الشفاعة المنفية أنه قال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[5]، فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع.

وأما نفي الشفاعة بدون إذنه، فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه، كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[6].

وأيضًا فقد قال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[7]، فذم الذين

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٢) سبأ: الآية (٢٣).
(٣) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٤) الأنعام: الآية (٥١).
(٥) السجدة: الآية (٤).
(٦) المائدة: الآيتان (٥٥و٥٦).
(٧) الزمر: الآيتان (٤٣و٤٤).

اتخذوا من دون اللَّه شفعاء، وأخبر أن لله الشفاعة جميعًا، فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره؛ إذ لا يشفع أحد إلا بإذنه، وتلك فهي له.

وقد قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾[١].

ومما يوضح ذلك: أنه نفى يومئذ الخلة بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢]، ومعلوم أنه إنما نفى الخلة المعروفة، ونفعها المعروف، كما ينفع الصديق الصديق في الدنيا، كما قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾، وقال: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٣].

لم ينف أن يكون في الآخرة خلة نافعة بإذنه؛ فإنه قد قال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾[٤]، وقد قال النبي ﷺ: «**يقول اللَّه تعالى: حقّت محبّتي للمتحابّين فيّ**»[٥]، ويقول اللَّه تعالى: «**أين المتحابّون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»[٦].

فتعين أن الأمر كله عائد إلى تحقيق التوحيد، وأنه لا ينفع أحد ولا يضر إلا بإذن اللَّه، وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير اللَّه، ولا يستعان به من دون اللَّه، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله، ويتبرأ كل مدّعٍ من دعواه الباطلة، فلا يبقى من يدعي لنفسه معه شركًا في ربوبيته، أو إلهيته، ولا من يدعي ذلك لغيره،

---

(١) يونس: الآية (١٨).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٣) غافر: الآيتان (١٥و١٦).
(٤) الزخرف: الآيتان (٦٧و٦٨).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣٣)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٣-٩٥٤)، والطحاوي في شرح المشكل (١٠/ ٣٣/ ٣٨٩٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٠/ ١٥٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٢٢-٣٢٣/ ١٤٤٩)، وابن حبان (٥/ ٣٣٥/ ٥٧٥) وصححه، والحاكم (٤/ ١٦٨-١٦٩)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٧)، ومسلم (٤/ ١٩٨٨/ ٢٥٦٦).

بخلاف الدنيا؛ فإنه وإن لم يكن رب ولا إله إلا هو؛ فقد اتخذ غيره ربًا وإلهًا، وادّعى ذلك مدّعون.

وفي الدنيا يشفع الشافع عند غيره، وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له في الشفاعة، ويكون خليله، فيعينه ويفتدي نفسه من الشر، فقد ينتفع بالنفوس والأموال في الدنيا، النفوس ينتفع بها تارة بالاستقلال، وتارة بالإعانة وهي الشفاعة، والأموال بالفداء، فنفى الله هذه الأقسام الثلاثة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[1]، وقال: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[2]، كما قال: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾[3]، فهذا هذا والله أعلم.

وعاد ما نفاه الله من الشفاعة إلى تحقيق أصلي الإيمان، وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر، التوحيد والمعاد، كما قرن بينهما في مواضع كثيرة»[4].

وقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾:

قال ابن جرير: «يقول: والأمر كله يومئذ، يعني الدين، لله دون سائر خلقه؛ ليس لأحد من خلقه معه يومئذ أمر ولا نهي»[5].

وهذه الآية -يقول **ابن كثير**- «كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[6]، وكقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[7]، وكقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[8]»[9].

قال ابن عاشور: «وفي هذا الختام رد العجز على الصدر؛ لأن أول السورة ابتدئ بالخبر عن بعض أحوال يوم الجزاء، وختمت السورة ببعض أحواله»[10].

---

(١) البقرة: الآية (٤٨).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٣) لقمان: الآية (٣٣).
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١١٦-١٢٠).
(٥) جامع البيان (٣٠/ ٨٩).
(٦) غافر: الآية (١٦).
(٧) الفرقان: الآية (٢٦).
(٨) الفاتحة: الآية (٤).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٧).
(١٠) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٨٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الانتفاع يوم القيامة يكون بالإيمان والعمل الصالح لا بالقرابة

* عن أبي هريرة قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1] دعا رسول اللَّه ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعم وخص فقال: «**يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة! أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من اللَّه شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها**»[2].

⋆ غريب الحديث:

سأبلها ببلالها: قال النووي: «ضبطناه بفتح الباء الثانية وكسرها، وهما وجهان مشهوران ذكرهما جماعات من العلماء، قال القاضي عياض: رويناه بالكسر، قال: ورأيت للخطابي أنه بالفتح، وقال صاحب «المطالع»: رويناه بكسر الباء وفتحها، من بله يبله، والبلال: الماء، ومعنى الحديث: سأصلها، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة».

⋆ فوائد الحديث:

«**فإني لا أملك لكم من اللَّه شيئًا**»: «معناه: لا تتكلوا على قرابتي؛ فإني لا أقدر على دفع مكروه يريده اللَّه تعالى بكم»[3].

قال ابن العربي: «بين ﷺ بما قال لهم أنه لا يكون له وليًّا، ولا يقبل في القيامة إلا على من أعرض عن الدنيا وأقبل على المولى، وأن القرابة لا تنفع إلا إذا اقترن بها العمل الصالح»[4].

---

(١) الشعراء: الآية (٢١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٣و٣٦٠-٣٦١)، والبخاري (٥/ ٤٨٠/ ٢٧٥٣)، ومسلم (١/ ١٩٢/ ٢٠٤) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣١٦-٣١٧/ ٣١٨٥)، والنسائي (٦/ ٥٥٨-٥٥٩/ ٣٦٤٦)، وفي الكبرى (٦/ ٤٢٣/ ١١٣٧٧).

(٣) شرح صحيح مسلم (٣/ ٦٧).

(٤) عارضة الأحوذي (١٢/ ٦٠).

وقال: «قوله: «إن لهم رحمًا سأبلها ببلالها» يعني: في الدعاء لهم والشفاعة عند اللَّه كما فعل بأبي طالب وهو كافر، فكيف بالمؤمنين من ذريته»(١).

وقال أيضًا: «قوله: «يا فاطمة! أنقذي نفسك من النار» كلام بديع، هذا نوح ﷺ لما كفر ابنه لم تنفعه بنوته، وهذا إبراهيم لما كفر أبوه لم تنفعه أبوته، كذلك أبو طالب لم تنفعه من النجاة من العذاب، ولا ابن نوح؛ بيانًا أن العصمة بالعمل لا بالقرابة، وكذلك سبب الصلة وهو النكاح لم ينفعه لعدم الإيمان، وقد بينه سبحانه في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾(٢) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾(٣) لم تنتفع زوجتا نوح ولوط بإيمان زوجيهما، ولم يضر امرأة فرعون كفر زوجها فرعون»(٤).

قال شيخ الإسلام: «من ادعى أن شيخًا من المشايخ يخلص مريديه يوم القيامة من العذاب، فقد ادّعى أن شيخه أفضل من محمد بن عبد اللَّه ﷺ، ومن قال هذا فإنه يستتاب؛ فإن تاب وإلا قتل.

فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «يا فاطمة بنت محمد! لا أغني عنك من اللَّه شيئًا، يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من اللَّه شيئًا، يا عباس عم رسول الله! لا أغني عنك من اللَّه شيئًا، سلوني ما شئتم من مالي»، وثبت عنه في الصحيح أنه قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة وعلى رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله! أغثني، فأقول: لا أغني عنك من اللَّه شيئًا؛ قد بلغتك»(٥) الحديث بتمامه. وذكر مثل ذلك في غير ذلك من الأقوال.

فإذا كان رسول اللَّه ﷺ يقول مثل هذا لأهل بيته، وأصحابه الذين آمنوا به، وعزروه ونصروه؛ من المهاجرين والأنصار، يقول: إنه ليس يغني عنهم من اللَّه شيئًا، فكيف يقال في شيخ غايته أن يكون من التابعين لهم بإحسان، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ

(١) المصدر السابق (١٢/ ٦١).
(٢) التحريم: الآية (١٠). (٣) التحريم: الآية (١١).
(٤) عارضة الأحوذي (١٢/ ٦١-٦٢).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٦)، والبخاري (٦/ ٢٢٨/ ٣٠٧٣)، ومسلم (٣/ ١٤٦١-١٤٦٢/ ١٨٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾[١]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾[٢]، وأمثال ذلك من نصوص القرآن والسنة.

وقد علم أنه ليس للأنبياء وغيرهم يوم القيامة إلا الشفاعة. وقد ثبت في الصحيح أن الناس يأتون آدم ليشفع فيقول: نفسي نفسي، وكذلك يقول نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل، وهم أفضل الخلق، ويقول لهم عيسى: اذهبوا إلى محمد؛ عبد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فإذا رأيت ربي خررت له ساجدًا، فيقول: أي محمد! ارفع رأسك، وقل يسمع، واسأل تعط، واشفع تشفع، فيحد لي حدًّا فأدخلهم الجنة، وذكر مثل ذلك في المرة الثانية[٣].

فهذا خير الخلق وأكرمهم على اللّه، إذا رأى ربه لا يشفع حتى يسجد له ويحمده، ثم يأذن له في الشفاعة فيحدّ له حدًّا يدخلهم الجنة، وهذا تصديق قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات»[٥].

* * *

---

(١) الانفطار: الآيات (١٧-١٩).

(٢) البقرة: الآية (٤٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥-٤٣٦)، والبخاري (٦/ ٤٥٧-٤٥٨/ ٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤)، والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦)، وابن ماجه مختصرًا (٢/ ١٠٩٩/ ٣٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٥) مجموع الفتاوى (٢/ ١٠٥-١٠٦).



سورة المطففين

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ
أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③﴾

★ غريب الآية:

المطففين: واحدها: مطفف، وهو الذي ينقص في الكيل والوزن. والتطفيف: النقصان. والطفيف: الشيء اليسير الذي لا يعتد.

اكتالوا، كالوا: الكَيْل: كيل الطعام؛ يقال: كِلْتُ له الطعامَ: إذا توليتُ ذلك له، وكِلْتُهُ الطعامَ: إذا أعطيته كيلًا، واكتلْتُ عليه: أخذتُ منه كيلًا. وهذا حث على تحرّي العدل في كل ما وقع فيه أخذ ودفع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «المراد بالتطفيف ههنا: البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم، ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك، وهو الويل، بقوله تعالى: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾، أي: من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③﴾ أي: ينقصون، والأحسن أن يجعل (كالوا) و(وزنوا) متعديًا ويكون (هم) في محل نصب، ومنهم من يجعلها ضميرًا مؤكدًا للمستتر في

قوله: (كالوا) و(وزنوا) ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وكلاهما متقارب. وقد أمر اللَّه تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾[3]، وأهلك اللَّه قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان»[4].

قال الرازي: «واعلم أن أمر المكيال والميزان عظيم، وذلك أن عامة الخلق يحتاجون إلى المعاملات، وهي مبنية على أمر المكيال والميزان، فلهذا السبب عظم اللَّه أمره فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾[5]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[6]، وعن قتادة: أوفِ -يا بن آدم- الكيل كما تحب أن يوفى لك، واعدل كما تحب أن يعدل لك. وعن الفضيل: بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة»[7].

قال عطية سالم: «والتقديم في افتتاحية هذه السورة بالويل للمطففين، يشعر بشدة خطر هذا العمل، وهو فعلًا خطير؛ لأنه مقياس اقتصاد العالم وميزان التعامل، فإذا اختل أحدث خللًا في اقتصاده، وبالتالي اختلال في التعامل، وهو فساد كبير.

وأكبر من هذا كله، وجود الربا إذا بيع جنس بجنسه، وحصل تفاوت في الكيل أو الوزن»[8].

قال السعدي: «فهذا سرقة لأموال الناس، وعدم إنصاف لهم منهم، وإذا كان هذا وعيدًا على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهرًا وسرقة أولى بهذا الوعيد من المطففين»[9].

---

(١) الإسراء: الآية (٣٥).
(٢) الأنعام: الآية (١٥٢).
(٣) الرحمن: الآية (٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٨-٣٦٩).
(٥) الرحمن: الآيات (٧-٩).
(٦) الحديد: الآية (٢٥).
(٧) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩٠).
(٨) تتمة أضواء البيان (٩/ ٩١).
(٩) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٨٦).

قال الغزالي في معرض كلامه على آداب المعامَل: «الثالث: أن لا يكتم في المقدار شيئًا، وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل، فينبغي أن يكيل كما يكتال؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ؛ إذ العدل الحقيقي قلما يتصور، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان، فإن من استقصى حقه بكامله يوشك أن يتعداه. وكان بعضهم يقول: لا أشتري الويل من اللَّه بحبة، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة، وإذا أعطى زاد حبة، وكان يقول: ويل لمن باع بحبة جنة عرضها السموات والأرض؛ وما أخسر من باع طوبى بويل. وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه؛ لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها؛ إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدي حقوقهم..

وكل من خلط بالطعام ترابًا أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل، وكل قصاب وزن مع اللحم عظمًا لم تجر العادة بمثله، فهو من المطففين في الوزن، وقس على هذا سائر التقديرات، حتى في الذرع الذي يتعاطاه البزاز، فإنه إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يمده مدًّا، وإذا باعه مده في الذرع ليظهر تفاوتًا في القدر، فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل»[١].

قال السيوطي: «فيها ذم التطفيف والخيانة في الكيل والوزن»[٢].

قال القاسمي: «أي: لأنه من المنكر، فهو من المحظورات أشد الحظر؛ لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل في الأخذ والدفع، ولو في القليل؛ لأن من دَنُؤت نفسه إلى القليل؛ دل على فساد طويته، وخبث ملكته، وأنه لا يقعده عن التوثب إلى الكثير إلا عجز أو رقابة»[٣].

وقال أيضًا نقلًا عن المهايمي: «فيها دلالة على أن من أخل بأدنى حقوق الخلق استحق أعظم الويل من الحق، فكيف من أخل بأعظم حقوق الحق من الإيمان به وبآياته ورسله؟»[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٧٧-٧٨).
(٢) الإكليل (ص: ٢٨٤). (٣) محاسن التأويل (١٧/ ٨٨-٨٩).
(٤) المصدر السابق (١٧/ ٨٧). وانظر بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام (٢/ ٢٥٤).

قال الغزالي: «واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة، والسكوت على المساوئ والعيوب، ولو ظهر له منه نقيض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه، فما أبعده إذا كان ينتظر منه ما لا يضمره له ولا يعزم عليه لأجله، وويل له في نص كتاب اللَّه تعالى حيث قال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾، وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية»[1].

وقال أيضًا: «وبالجملة، كل من ينتصف لنفسه من غيره، ولو في كلمة، ولا ينصف بمثل ما ينتصف، فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝﴾ الآيات؛ فإن تحريم ذلك في المكيل ليس لكونه مكيلًا، بل لكونه أمرًا مقصودًا تُرِك العدل والنصفة فيه، فهو جار في جميع الأعمال، فصاحب الميزان في خطر الويل، وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته، فالويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة»[2].

قال الشيخ ابن عثيمين: «وهذه الآية وإن كانت وردت في المكيال والميزان إلا أن العامل حتى الموظف إذا كان يريد أن يعطى راتبه كاملًا، لكنه يتأخر في الحضور أو يتقدم في الخروج، فإنه من المطففين الذي توعدهم اللَّه بالويل؛ لأنه لا فرق بين إنسان يكيل أو يزن للناس وبين إنسان موظف عليه أن يحضر في الساعة الفلانية ولا يخرج إلا في الساعة الفلانية، ثم يتأخر في الحضور، ويتقدم في الخروج، هذا مطفف، وهذا المطفف في الوظيفة لو نقص من راتبه ريال واحد من عشرة آلاف، لقال: لماذا تنقص؟ هذا مطفف يدخل في هذا الوعيد»[3].

قال السعدي: «إن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجة التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل اللَّه

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٨). (٢) المصدر السابق (٢/ ٧٨).
(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣١٦-٣١٧).

التوفيق لكل خير»[١].

قال الرازي: «قال أعرابي لعبد الملك بن مروان: قد سمعت ما قال اللَّه تعالى في المطففين؟ أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم في أخذ القليل، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ الكثير، وتأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول السورة

* عن ابن عباس قال: «لما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة، كانوا من أبخس الناس كيلًا، فأنزل اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك»[٣].

* عن أبي هريرة: «أن رسول اللَّه ﷺ استعمل سباع بن عرفطة على المدينة فقرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝﴾، فقلت: هلك فلان له صاعان، صاع يعطي به، وصاع يأخذ به»[٤].

★ فوائد الحديثين:

أفاد الحديثان أن التطفيف كان متفشيًا في المدينة في أول مدة الهجرة واختلاط المسلمين بالمنافقين بسبب ذلك، واجتمعت كلمة المفسرين على أن أهل يثرب كانوا من أخبث الناس كيلًا، وكان ممن اشتهر بالتطفيف في المدينة رجل يكنى أبا جهينة واسمه عمرو؛ كان له صاعان؛ يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٨٧). (٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٩٠).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٨/ ١١٦٥٤)، وابن ماجه (٢/ ٧٤٨/ ٢٢٢٣)، وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده حسن؛ لأن محمد بن عقيل وعلي بن الحسين مختلف فيهما، وباقي رجال الإسناد ثقات»، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٧١/ ١٢٠٤١)، وابن حبان (الإحسان ١١/ ٢٨٦/ ٤٩١٩)، والحاكم (٢/ ٣٣) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه: البزار (كشف الأستار ٣/ ٧٩/ ٢٢٨١) عن إسماعيل بن مسعود الجحدري عن فضيل بن سليمان عن خثيم بن عراك بن مالك به. وأخرجه: ابن سعد في الطبقات (٤/ ٣٢٧-٣٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ١٩٨-١٩٩) كلاهما من طرق عن وهيب عن خثيم بن عراك به. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣٥) ونسبه للبزار وقال: «ورجاله رجال الصحيح غير إسماعيل بن مسعود الجحدري وهو ثقة».

(٥) أفاده ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩٠).

قال القرطبي: «قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلًا إلى يومهم هذا.

وعن ابن عباس أيضًا قال: هي أول سورة نزلت على رسول اللَّه ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم؛ كانوا إذا اشتروا استوفَوا بكيل راجح، فإذا باعوا بَخَسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة انتهوا، فهم أوفى الناس كيلًا إلى يومهم هذا.

وقال قوم: نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة، واسمه عمرو؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما، ويعطي بالآخر؛ قاله أبو هريرة رضي الله عنه»[١].

قال ابن عاشور: «وقد اختلف في كونها مكية، أو مدنية، أو بعضها مكي وبعضها مدني. فعن ابن مسعود والضحاك ومقاتل في رواية عنه: أنها مكية، وعن ابن عباس في الأصح عنه وعكرمة والحسن والسدي ومقاتل في رواية أخرى عنه: أنها مدنية، قال: وهي أول سورة نزلت بالمدينة، وعن ابن عباس في رواية عنه وقتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات من آخرها من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾[٢] إلى آخرها.

وقال الكلبي وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة فهي لذلك مكية؛ لأن العبرة في المدني بما نزل بعد الهجرة على المختار من الأقوال لأهل علم القرآن.

قال ابن عطية: احتج جماعة من المفسرين على أنها مكية بذكر الأساطير فيها، أي: قوله: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾[٣]، والذي نختاره: أنها نزلت قبل الهجرة؛ لأن معظم ما اشتملت عليه التعريض بمنكري البعث»[٤].

قال القاسمي: «وهي مكية على الأظهر؛ فإن سياقها يؤيد أنها كأخواتها اللائي نزلن بمكة، لاسيما خاتمتها؛ فإنها صفات المستهزئين الذين كانوا بمكة. وحملُها على المنافقين بالمدينة بعيد؛ إذ لم يبلغ بهم الحال ذلك. وأما ما رواه النسائي وابن ماجه - كما في ابن كثير عن ابن عباس، لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل الله: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فأحسنوا الكيل- فقد ذكرنا مرارًا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٥٠).

(٢) المطففين: الآية (٢٩).

(٣) المطففين: الآية (١٣).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٨٧).

أن معنى الإنزال، في إطلاق السلف، لا يكون مقصورًا على أن كذا سبب النزول. بل إن كذا مما نزل فيه ذلك. كأنّ أهل المدينة تلي عليهم ما سبق إنزاله في مكة. وقيل لهم: أنزل اللّه حظر ما أنتم عليه والوعيد فيه، فأقلعوا. وهذا ظاهر لمن له أنس بعلم الآثار وملكة فيه. ومنه يعلم أن قول بعضهم: نزلت بمكة إلا قصة التطفيف، وقول آخر: إن كل نوع من المكي والمدني منه آيات مستثناة - منشؤه الحيرة في المطابقة بين ظاهر ما يتبادر من المأثور في سبب النزول، وبين ما يدل عليه السياق من خلافه. وبالوقوف على عرف السلف يزول الإشكال، ويتضح الحال»[١].

* عن ابن عباس ﷺ: قال رسول الله: «**خمس بخمس**»، قالوا: يا رسول الله! وما خمس بخمس؟ قال: «**ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل اللّه إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر**»[٢].

★ غريب الحديث:

السنين: جمع سنة، وهي العام المقحط الذي لم تنبت الأرض فيها شيئًا، سواء وقع قطر أو لم يقع.

★ فوائد الحديث:

قال الشوكاني: «فيه أن نقص المكيال والميزان سبب للجدب وشدة المؤنة»[٣].

قلت: ما تقدم من كلام العلماء ومن نصوص القرآن والسنة يبين لنا أن القرآن لو اهتدت به الأمة لكانت في القمة، فهذه القضية -أي: قضية التطفيف في الكيل والوزن- قضية عامة لا تختص بكيل الحبوب ووزن ما يوزن منها، ولكن أيضًا

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٨٧).

(٢) أخرجه الطبراني (١١/ ٤٥/ ١٠٩٩٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٥) بعد عزوه للطبراني: وفيه إسحق بن عبد اللّه بن كيسان المروزي لينه الحاكم وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٤٤) بعد عزوه للطبراني: «سنده قريب من الحسن وله شواهد».

(٣) نيل الأوطار (٤/ ٢).

تشمل كل عدل وكل ظلم، فيجب على الإنسان أن ينصف من نفسه لغيره ولا يظلم أحدًا في قول أو فعل، وواقع العالم مع الأسف في كل أقاليمه الشرقية والغربية وعلى كل مستوياته تجد هذه الظاهرة فاشية فيهم، فمهما زعموا أنهم يطبقون القانون -على حد تعبيرهم- تجد هذا القانون المطبق هو لصالح المدعي فقط، وأما الجانب الآخر -ولاسيما إن كان من عموم الناس- فالقانون لا يخدم مصالحه ولا حق له فيه، فالقانون هو لخدمة فئة معينة تستعمله متى أرادت.

وهكذا الكثير ممن انتسب إلى العلم تجده في ردوده على مخالفيه ينحاز فيها لمصلحته، فيحاول أن يجلب من الحجج والأدلة ما يقوي به مذهبه ولو كانت لا أصل لها، أو أوهى من بيت العنكبوت، أو لا دلالة فيها على المقصود، ولاسيما الذين ينظرون إلى التصوف وإلى القبورية وإلى علم الكلام وهو ما يسمى بالأشعرية والماتريدية عمومًا والجهمية وفروعها، أو التعصب المذهبي المقيت، أو الرفض الذي وقع أصحابه في خيار الأمة زورًا وبهتانًا، وهكذا المرجئة الجدد الذين يتبنون مذهب الإرجاء والاعتذار لكل زنديق مارق، وكذلك الخوارج الجدد الذي يكفرون عموم الأمة، ويكفرون بأقل المعاصي، وكل هذه الفئات تدخل تحت هذه الآية، ويشملها ما شمل المطففين للكيل، فالآية شاملة لكل ظالم في السياسة والاقتصاد أو الحرب أو السلم أو المتزعمين للقوانين الوضعية الذين يستعملونها لمصالحهم وأغراضهم، وينزلونها على الآخرين بكل ثقل يرجح مصالحهم، واللَّه المستعان.



قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخطرون التطفيف ببالهم، ولا يُخمِّنون تخمينًا ﴿أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ فمسؤولون عما يفعلون. والظن هنا بمعنى اليقين، أي: ألا يوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن.

وقيل: الظن بمعنى التردد، أي: إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلاّ ظنُّوه، حتى يتدبروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوط»[1].

قال الشوكاني: «المعنى: ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة؟ ومعنى ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾: يوم يقومون من قبورهم لأمر ربّ العالمين، أو لجزائه، أو لحسابه، أو لحكمه وقضائه. وفي وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه، ووصفه سبحانه بكونه ربّ العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف، ومزيد إثمه، وفظاعة عقابه. وقيل: المراد بقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ قيامهم في رشحهم إلى أنصاف آذانهم، وقيل: المراد: قيامهم بما عليهم من حقوق العباد، وقيل: المراد: قيام الرسل بين يدي اللَّه للقضاء، والأوّل أولى»[2].

قال الشيخ ابن عثيمين: «يعني: هل هؤلاء نسوا يوم الحساب، نسوا يوم القيامة الذي ما أقرب منه.

فالإنسان في هذه الدنيا ليس معه ضمان أن يعيش ولا لحظة واحدة، يموت الإنسان وهو يتغذى أو يتعشى، يموت وهو نائم، يموت وهو على مكتبه، يموت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٦٧).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٦٩).

وهو ذاهب لحاجته، أو راجع منها، ثم يأتي اليوم العظيم، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ استعظمه الله ﷻ، بين أنه عظيم، فيدل على عِظمه، وقد وصف الله هذا اليوم في آيات كثيرة، كلها تزعج وتروع وتخوف. هؤلاء سوف يتعرضون لعقوبة الله في ذلك اليوم، هؤلاء المطففون سيتعرضون لعقوبة الله في ذلك اليوم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ يقوم الناس كلهم لرب العالمين، من في مشارق الأرض ومغاربها يبعثون على صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، الداعي يسمعهم كلهم؛ لأن الأرض مبسوطة غير كروية يغيب بعض الناس فيها عن بعض، بل هي سطح واحد، إذا تكلم أحد في أولهم سمعه آخرهم، وينفذهم البصر، يراهم الرائي بخلاف الدنيا، الأرض منعطفة كروية، لكن في الآخرة الأرض سطح واحد؛ كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾[1]، تمدّ كما يمدّ الجلد، هذا اليوم العظيم يقوم الناس فيه لله ﷻ للحساب والمعاقبة، ومقدار هذا اليوم خمسون ألف سنة، والشمس من فوقهم بقدر ميل، ولا شجر يستظلون به ولا بناء، ولا شيء إلا من يظله الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم. فهذا اليوم العظيم سيجد هؤلاء المطففون عقوبتهم في ذلك اليوم، لا فيه ولد ينفع ولا أب ولا أم ولا زوجة ولا أحد، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾[2]، فليحذر هؤلاء المطففون، وليتقوا الله ﷻ ويؤدوا الحق كاملًا، وإن زادوا فضلة فهو أفضل، ولهم أن يأخذوا حقهم كاملًا، وإن تسامحوا فهو أفضل، والله الموفق»[3].

قال الشهاب: «وعنوان رب العالمين للمالكية والتربية الدالة على أنه لا يفوته ظالم قوي، ولا يترك حق مظلوم ضعيف، وفي تعظيم أمر التطفيف إيماء إلى العدل وميزانه، وأن من لا يهمل مثل هذا كيف يهمل تعطيل قانون عدله في عباده؟!.. وناهيك بأنه وصفهم بصفات الكفرة تغليظًا وتشديدًا، فتأمل هذا المقام؛ ففيه ما تتحير فيه الأفهام»[4].

قال السيوطي: «قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ استدل به من منع القيام للناس؛ لاختصاصه بالله. وجوابه أنه خاص بالقيام بين يديه، أما القيام له إذا قدم

---

(١) الانشقاق: الآيتان (٣و٤).
(٢) عبس: الآية (٣٧).
(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣١٧).
(٤) حاشية الشهاب على البيضاوي (٨/ ٣٣٦).

ثم جلس؛ فلا»[١].

وقد مر تحرير هذه المسألة وما يتعلق بها من أحكام في تفسير سورة (يوسف) عند قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ الآية (١٠٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أهوال يوم القيامة

* عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ **حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه**»[٢].

* عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل**». قال سليم بن عامر: فواللَّه ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين. قال: «**فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا**» وأشار رسول اللَّه ﷺ بيده إلى فيه[٣].

* عن أبي أمامة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، يغلي منها الهام كما يغلي القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق**»[٤].

* عن عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**تدنو الشمس من**

---

(١) الإكليل (ص: ٢٨٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣)، والبخاري (٨/ ٩٠٢/ ٤٩٣٨)، ومسلم (٤/ ٢١٩٥-٢١٩٦/ ٢٨٦٢)، والترمذي (٥/ ٤٠٤-٤٠٥/ ٣٣٣٥-٣٣٣٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٩/ ١١٦٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٠/ ٤٢٧٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣-٤)، ومسلم (٤/ ٢١٩٦/ ٢٨٦٤)، والترمذي (٤/ ٥٣١/ ٢٤٢١).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٥٤)، والطبراني (٨/ ١٨٨-١٨٩/ ٧٧٧٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٥) وقال: «رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح غير القاسم بن عبد الرحمن، وقد وثقه غير واحد».

قلت: ويشهد له حديث المقداد بن الأسود المتقدم وأيضًا حديث عقبة بن عامر الآتي إن شاء اللَّه، واللَّه أعلم.

الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ عنقه، ومنهم من يبلغ وسط فيه» - وأشار بيده فألجمها فاه، رأيت رسول اللَّه ﷺ يشير هكذا- «ومنهم من يغطيه عرقه» -وضرب بيده إشارة-[1].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقض بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**»[2].

★ غريب الأحاديث:

رشحه: بفتحتين، أي: عرقه؛ لأنه يخرج من البدن شيئًا فشيئًا كما يرشح الإناء.

حقويه: الواحد حقو، والحقو: الخصر ومشد الإزار.

الهوام: جمع هامة، والهامة: الرأس.

★ فوائد الأحاديث:

قال القاضي عياض: «وقوله: «يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»، وقوله: «يكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه»، إلى قوله: «ومنهم من يلجمه إلجامًا»: يحتمل أن يريد عرقه نفسه، لحذره وخوفه وما يشاهده من تلك الأهوال أو يؤمله ويرجيه، فيكون عرقه بقدر ذلك. ويحتمل أن يكون عرقه وعرق غيره، فيخفف عن بعض ويشدد على آخرين بحسب أعمالهم كما قال، وهذا كله بتزاحم الناس وانضمام بعضهم لبعض حتى صار العرق بينهم سائحًا في وجه الأرض كالماء في الأواني»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٧) واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٠٦/ ٨٤٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٥) وقال: «رواه أحمد والطبراني، وإسناد الطبراني جيد». وأخرجه: الطبراني (١٧/ ٣٠٢/ ٨٣٤) وصححه، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٣٢٤/ ٧٣٢٩)، والحاكم (٤/ ٥٧١) ووافقه الذهبي.

(٢) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٢-٣٨٣)، ومسلم (٢/ ٦٨٠-٦٨٢/ ٩٨٧)، وأبو داود (٢/ ٣٠٢-٣٠٣/ ١٦٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٨/ ١١٦٢١) مختصرًا.

(٣) الإكمال (٨/ ٣٩٢-٣٩٣).

قال القرطبي: «فإن قيل: فعلى هذا يكون الناس في مثل البحر من العرق، فيلزم أن يسبح الكل فيها سبحًا واحدًا، فكيف يكونون متفاضلين بعضهم إلى عقبيه، وبعضهم إلى فمه، وما بينهما؟

قلنا: يزول هذا الاستبعاد بأوجه؛ أقربها وجهان:

أحدهما: أن يخلق اللَّه تعالى ارتفاعًا في الأرض التي تحت قدم كل إنسان بحسب عمله، فيرتفع عن الأرض بحسب ارتفاع ما تحته.

وثانيهما: أن يحشر الناس جماعات في تفرقة، فيحشر كل من يبلغ عرقه إلى كعبيه في جهة، وكل من يبلغ حقويه في جهة، وهكذا. والقدرة صالحة لأن تمسك عرق كل إنسان عليه بحسب عمله، فلا يتصل بغيره، وإن كان بإزائه كما قد أمسك.. البحر.. لبني إسرائيل حين اتبعهم فرعون، واللَّه تعالى أعلم بالواقع من هذه الأوجه. والحاصل أن هذا المقام مقام هائل لا تفي بهوله العبارات، ولا تحيط به الأوهام ولا الإشارات، وأبلغ ما نطق به في ذلك الناطقون ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1]»[2].

قال ابن العربي: «إن كل أحد يغرق في عرقه على مقدار ذنوبه، والموقف واحد، وعرق كل أحد يصعد معه، ولا يتعدى إلى جاره في الموقف، بخلاف الماء في الدنيا، فإنه إذا أخذ الناس أخذهم على السواء عادة، وهذا الذي يكون في القيامة كما بيّنّا قدرة وآية»[3].

وقال ابن أبي جمرة: «فتأمل كيف يكون هذا القدر من اجتماع وتلاصق وهم متفاوتون في العرق ومتفاضلون في الآلام، هذا ما يبهر العقول ويدل على عظم قدرة اللَّه تعالى، وإن أمور الآخرة ليس للعقل فيها مجال، وإنما تؤخذ بالقبول والتصديق الذي لا شك يدخله ولا ريب، ولا يعترض عليها بعقل، ولا قياس، ولا عادة جارية، ولا حكمة، ولا بشيء من الأشياء، ومن وقع له شيء من ذلك، فهو دليل على حرمانه وخسرانه، إلا أن يتداركه اللَّه بالتوبة قبل الممات. وفائدة

---

(١) ص: الآيتان (٦٧و٦٨).

(٢) المفهم (٧/ ١٥٦-١٥٧).

(٣) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٣٥).

الإخبار بهذا الحديث وأشباهه أن يتنبه السامع لها لنفسه، ويأخذ في الأمور التي تخلصه من هذه الأهوال على نحو ما شرع له، ويلجأ إلى المولى الكريم بالصدق والضراعة الدائمة عساه يمن عليه بالعون على ذلك، وينجيه من تلك الأهوال، وإلا كانت الفائدة عليه معكوسة، وظهرت إقامة الحجة عليه ببيان الأمر الذي هو سائر إليه، وتبيين الطرق المنجية له من ذلك، يشهد لذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1]؛ لأن الرسل ﷺ بينوا ما ذكرناه، فمن لم يفعل قامت الحجة عليه بالهلاك، ولا دافع له، ولا واق منه، أعاذنا اللَّه من ذلك بمنه وفضله»[2].

وقال **عبد الحق الإشبيلي**: «ثم تفكر في.. اجتماع الإنس والجان ومن يجمع من سائر أصناف الحيوان وانصفافهم وتدافعهم واختلاطهم، ولا فرار ولا انتصار ولا ملاذ ولا انتقاذ، وقربت الشمس منهم قبل تكويرها، وكانت كمقدار ميل، وزيد في حرها، وضوعف وهجها، ولا ظل إلا ظل عرش ربك بما قدمته من كسبك، وقد انضاف إلى حر الشمس حر الأنفاس لتزاحم الناس، واحتراق القلوب لما غشيتها من الكروب، واشتد العرق، وعظم القلق، وسال من الأجسام العرق، وانبعث من كل موضع من الجسد وانبثق، وكان الناس فيه على قدر أعمالهم كما تقدم.

فتفكر في نفسك -أيها المسكين- وقد ضاق نفسك، وزاد قلقك، وسال عرقك، وجرى من جميع بدنك من قدك إلى قدمك، ووصل منك إلى حيث أوصلته بعملك، إما إلى كعبك أو صاعدًا حتى أذنك، فانظر إلى هذا الحال، وتفكر في هذا الوبال، وهو هذا المآل، واعلم أنه لو سال عرقك في الدنيا طول عمرك وأضعاف عمرك في طاعة ربك، وفي التعب في رضى سيدك، على أن لا تغرق في ذلك اليوم، لكان ذلك يسيرًا، ولكنت به جديرًا، ولكانت سلامتك منه غنمًا كثيرًا، وفوزًا كبيرًا»[3].

* عن عاصم بن حميد قال: «سألت عائشة: بأي شيء كان يفتتح رسول اللَّه ﷺ قيام الليل؟ فقالت: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، كان إذا قام كبّر

---

(١) الإسراء: الآية (١٥).

(٢) بهجة النفوس (٤/ ٢١٨).

(٣) كتاب العاقبة (ص: ١٩٩).

عشرًا، وحمد اللَّه عشرًا، وسبّح عشرًا، وهلّل عشرًا، واستغفر عشرًا، وقال: **اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني، ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة»**[1].

★ فوائد الحديث:

قال في «العون»: «قولها: «ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة»، أي: شدائد أحوالها وسكرات أهوالها»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٤٣)، وأبو داود (١/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٧٦٦)، والنسائي (٣/ ٢٣٠/ ١٦١٦)، وابن ماجه (١/ ٤٣١/ ١٣٥٦)، وصححه ابن حبان (٦/ ٣٣٧/ ٢٦٠٢).

(٢) عون المعبود (٢/ ٤٧١).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

مرقوم: مكتوب؛ من الرَّقْم، وهو الكَتْبُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول: حقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، أي: إن مصيرهم ومأواهم لفي سجّين؛ (فِعِّيل) من السَّجن، وهو الضيق؛ كما يقال: فِسِّيق وشِرِّيب وخِمِّير وسِكِّير، ونحو ذلك. ولهذا عظم أمره فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾، أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم، وعذاب أليم.

ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب، في حديثه الطويل: يقول الله ﷻ في روح الكافر: «اكتبوا كتابه في سجين».

و«سجّين»: هي تحت الأرض السابعة. وقيل: صخرة تحت السابعة خضراء. وقيل: بئر في جهنم..

والصحيح أن «سجّينًا» مأخوذ من السَّجن، وهو الضيق؛ فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع؛ فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1]، وقال ههنا: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾، وهو يجمع الضيق والسفول؛ كما قال: ﴿وَإِذَآ

---

(١) التين: الآيتان (٥و٦).

أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾[1].

وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ ﴾ ليس تفسيرًا لقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ ﴾، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد؛ قاله محمد بن كعب القرظي»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان محل كتاب الفجار

* عن البراء بن عازب في حديثه الطويل: يقول اللَّه ﷻ في روح الكافر: «اكتبوا كتابه في سِجّين»[3].

* * *

(١) الفرقان: الآية (١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧١-٣٧٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، والحاكم (١/ ٣٧-٣٨)، وصححه ووافقه الذهبي. وأخرجه دون ذكر موضع الشاهد: أبو داود (٥/ ١١٤-١١٦/ ٤٧٥٣)، والنسائي (٤/ ٣٨١/ ٢٠٠٠)، وابن ماجه (١/ ٤٩٤/ ١٥٤٨-١٥٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾، أي: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم اللَّه من السجن والعذاب المهين. وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿وَيْلٌ﴾.. وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار؛ كما يقال: ويل لفلان»[1].

قال ابن عاشور: «وبَيْن المكذبين بيوم الدين والمطففين عموم وخصوص وجهيّ؛ فمن المكذبين من هم مطففون، ومن المطففين مسلمون وأهل كتاب لا يكذبون بيوم الدين، فتكون هذه الجملة إدماجًا لتهديد المشركين المكذبين بيوم الدين وإن لم يكونوا من المطففين.

وقد ذُكر المكذبون مجملًا في قوله: ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم أعيد مفصلًا ببيان متعلق التكذيب، وهو ﴿بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ لزيادة تقرير تكذيبهم أذهان السامعين منهم ومن غيرهم من المسلمين وأهل الكتاب، فالصفة هنا للتهديد وتحذير المطففين المسلمين من أن يستخفوا بالتطفيف فيكونوا بمنزلة المكذبين بالجزاء عليه»[2].

قال ابن كثير: «ثم قال تعالى مفسرًا للمكذبين الفجار الكفرة: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١﴾، أي: لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره. قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾، أي: معتد في أفعاله؛ من تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح، والأثيم في أقواله: إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر.

وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾، أي: إذا سمع كلام اللَّه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩٦).

من الرسول، يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[١]، وقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾[٢]، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا»[٣].

قال ابن عاشور: «فالتكذيب بيوم الجزاء هو منشأ الإقدام على السيئات والجرائم، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾، أي: أن تكذيبهم به جهل بحكمة الله تعالى في خلق الناس وتكليفهم؛ إذ الحكمة من خلق الناس تقتضي تحسين أعمالهم وحفظ نظامهم. فلذلك جاءتهم الشرائع آمرة بالصلاح، وناهية عن الفساد. ورتب لهم الجزاء على أعمالهم الصالحة بالثواب والكرامة، وعلى أعمالهم السيئة بالعذاب والإهانة، كل على حسب عمله، فلو أهمل الخالق تقويم مخلوقاته وأهمل جزاء الصالحين والمفسدين، لم يكن ذلك من حكمة الخلق؛ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[٤]»[٥].

قال السعدي: «وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم الدين؛ لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشمس للأبصار، بخلاف من ران على قلبه كسبه، وغطته معاصيه، فإنه محجوب عن الحق»[٦].

* * *

---

(١) النحل: الآية (٢٤).

(٢) الفرقان: الآية (٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٢).

(٤) المؤمنون: الآيتان (١١٥و١١٦).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩٦-١٩٧).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٨٩).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾

★ **غريب الآية:**

ران: غطى وغشى حتى صار مثل الران، وهو صدأ يعلو الشيء. والمعنى: أن ما كسبوا غلب على قلوبهم فغطاها عن معرفة الخير من الشر. وأصله الغلبة؛ يقال: رانه وران به النعاس، أي: غلبه. قال علقمة:

أوردْتُهُ القومَ إذْ رَانَ النعاسُ بِهِمْ فقلتُ إِذْ نهلوا من مائِهِ: قِيلُوا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما كان هذا قد صار كالأنعام في عدم النظر، بل هو أضل سبيلًا؛ لأنه قادر على النظر دونها، قال رادعًا له ومكذبًا ومبينًا لما أدى به إلى هذا القول وهو لا يعتقده: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليرتدع ارتداعًا عظيمًا، ولينزجر انزجارًا شديدًا، فليس الأمر كما قال في المتلو، ولا هو معتقد له اعتقادًا جازمًا؛ لأنه لم يقله عن بصيرة، ﴿بَلْ رَانَ﴾، أي: غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم للسماء والصدأ للمرآة، وجمع اعتبارًا بمعنى (كل) لئلاً يتعنت متعنت، فقال معبرًا بجمع الكثرة إشارة إلى كثرتهم: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، أي: كل من قال هذا القول، ﴿مَّا كَانُوا﴾ أي: بجبلاتهم الفاسدة ﴿يَكْسِبُونَ﴾، أي: يجددون كسبه مستمرين عليه من الأعمال الردية؛ فإن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا، فيتراكم الذنب على القلب فيسودّ»[1].

قال القرطبي: «قال مجاهد: هو الرجل يذنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، حتى تغشّي الذنوب قلبه. قال مجاهد: هي مثل الآية التي في سورة (البقرة): ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾[2] الآية. ونحوه عن الفراء؛ قال: يقول: كثرت المعاصي منهم والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرَّين عليها.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٢١).

(٢) البقرة: الآية (٨١).

ورُوي عن مجاهد أيضًا قال: القلب مثل الكف، ورفع كفه، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض، وضم إصبعه، فإذا أذنب الذنب انقبض، وضم أخرى، حتى ضم أصابعه كلها، حتى يُطبَع على قلبه. قال: وكانوا يرون أن ذلك هو الرَّين، ثم قرأ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾. ومثله عن حذيفة ﷺ سواء.

وقال بكر بن عبد الله: إن العبد إذا أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانيًا صار كذلك، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنخُل، أو كالغِربال، حتى لا يعي خيرًا، ولا يثبُت فيه صلاح..

وقد روى عبد الغني بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس شيئًا اللَّه أعلم بصحته؛ قال: هو الرّان الذي يكون على الفخذين والساق والقدم، وهو الذي يُلبس في الحرب. قال: وقال آخرون: الرّان: الخاطر الذي يخطر بقلب الرجل. وهذا مما لا يُضمن عُهدة صحته، فاللَّه أعلم. فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا. وكذلك أهل اللغة عليه..

قال أبو زيد: يقال: قد رِينَ بالرجل رَيْنًا: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، ولا قبل له. وقال أبو معاذ النحوي: الرَّين: أن يسودّ القلب من الذنوب، والطّبع أن يُطبع على القلب، وهذا أشد من الرّين، والإقفال أشد من الطبع. الزّجّاج: الرّين: هو كالصدأ يغشّي القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين، يقال: غِين على قلبه: غُطّي. والغَين: شجر ملتف، الواحدة: غيناء، أي: خضراء، كثيرة الورق، ملتفة الأغصان. وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب. وذكر الثعلبي عن ابن عباس: ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: أي غطى عليها. وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله»[1].

قال السعدي: «وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئًا فشيئًا، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًّا، والحق باطلًا، وهذا من بعض عقوبات الذنوب»[2].

قال ابن القيم: «وههنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٧٠-١٧١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٠).

لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسى ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك، وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يغبر حائط في وقوعه فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان اللَّه، كم أهلكت هذه النكتة من الخلق! وكم أزالت من نعمة! وكم جلبت من نقمة! وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلًا عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السهم، وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل، وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء: «اعبدوا اللَّه كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتى، واعلموا أن قليلًا يكفيكم خير من كثير يطغيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم لا ينسى»، ونظر بعض العبّاد إلى صبي، فتأمل محاسنه، فأتي في منامه وقيل له: لتجدن غبها بعد أربعين سنة. هذا مع أن للذنب نقدًا معجلًا لا يتأخر عنه؛ قال سليمان التيمي: «إن الرجل ليصيب الذنب في السرّ، فيصبح وعليه مذلته»، وقال يحيى بن معاذ الرازي: «عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تشمت بي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له! قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي اللَّه فيشمت به في القيامة كل عدو»؛ قال ذو النون: «من خان اللَّه في السر، هتك اللَّه ستره في العلانية»»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الران بالذنوب والمعاصي

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها، فإن عاد زيد فيها؛ حتى تعلو فيه، فهو الران الذي ذكر الله**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾»[2].

---

(١) الداء والدواء (ص: ١٠٢-١٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٧)، والترمذي (٥/ ٤٠٤/ ٣٣٣٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٩/ ١١٦٥٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٨/ ٤٢٤٤)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ٢١٠/ ٩٣٠) واللفظ له، والحاكم (٢/ ٥١٧) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «إن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾، قال: هو الذنب بعد الذنب. وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب. وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زاد غلب عليه الصدأ حتى يصير رانًا، ثم غلب حتى يصير طبقًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس، فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه، ويسوقه حيث أراد»[1].

قال ابن العربي: «وحقيقة الحال أن الجهل يقوم بالقلب، فيسري إلى الجوارح أثره، فإذا قامت الجهالة بالقلب فهو نكتته التي أثرها المعصية الظاهرة على الجوارح، فالمعصية دلالة على النكت التي كانت سبب المعصية، فهكذا تنزيلها، والله أعلم».

ثم قال: «إذا كان في القلب نكتة من نفاق فهو رين، فإذا كان في غفلة أو ذهول أو نسيان فهو غين، ونفح هذا هو الذي يعرو الأنبياء، قال النبي ﷺ: **«إنه ليغان على قلبي فأتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»**[2] »[3].

* * *

(١) الداء والدواء (ص: ١١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١١)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٥/ ٢٧٠٢)، وأبو داود (٢/ ١٧٧-١٧٨/ ١٥١٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٦/ ١٠٢٧٦) من حديث الأغر المزني ﷺ.

(٣) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٣٥).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما الأمر كما يقول هؤلاء المكذّبون بيوم الدين من أن لهم عند اللَّه زلفة؛ إنهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون، فلا يرونه، ولا يرون شيئًا من كرامته يصل إليهم»[(١)].

قال القرطبي: «قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن اللَّه ﷻ يُرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون. وقال -جل ثناؤه-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[(٢)]، فأعلم اللَّه -جل ثناؤه- أن المؤمنين ينظرون إليه، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه، وقال مالك بن أنس في هذه الآية: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي: لما حجب قومًا بالسخط، دل على أن قومًا يرونه بالرضا. ثم قال: أما واللَّه لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا. وقال الحسين بن الفضل: لما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾، أي: عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو أن اللَّه لا ينظر إليهم برحمته، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. وعلى الأول الجمهور، وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه»[(٣)].

وقد تنازع الناس في الكفار: هل يرون ربهم مرة ثم يحتجب عنهم، أم لا يرونه بحال؛ تمسكًا بظاهر الآية، ولأن الرؤية أعظم الكرامة والنعيم، والكفار لا حظ لهم في ذلك؛ يقول شيخ الإسلام نقلًا عن القاضي أبي يعلى: «أهل الحق والسلف من هذه الأمة متفقون على أن المؤمنين يرون اللَّه في المعاد، وأن الكافرين

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٠٠).
(٢) القيامة: الآيتان (٢٢و٢٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٧١).

لا يرونه، فثبت بهذا إجماع الأمة -ممن يقول بجواز الرؤية وممن ينكرها- على منع رؤية الكافرين لله، وكل قول حادث بعد الإجماع فهو باطل مردود.

وقال هو وغيره أيضًا: الأخبار الواردة في رؤية المؤمنين لله إنما هي على طريق البشارة، فلو شاركهم الكفار في ذلك بطلت البشارة، ولا خلاف بين القائلين بالرؤية في أن رؤيته من أعظم كرامات أهل الجنة.

قال: وقول من قال: إنما يُرِي نفسه عقوبة لهم وتحسيرًا على فوات دوام رؤيته؛ ومنعهم من ذلك -بعد علمهم بما فيها من الكرامة والسرور- يوجب أن يدخل الجنة الكفار، ويريهم ما فيها من الحور والولدان، ويطعمهم من ثمارها، ويسقيهم من شرابها، ثم يمنعهم من ذلك ليعرفهم قدر ما منعوا منه، ويكثر تحسرهم وتلهفهم على منع ذلك بعد العلم بفضيلته.

والعمدة قوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾؛ فإنه يعم حجبهم عن ربهم في جميع ذلك اليوم، وذلك اليوم يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهو يوم القيامة، فلو قيل: إنه يحجبهم في حال دون حال لكان تخصيصًا للفظ بغير موجب، ولكان فيه تسوية بينهم وبين المؤمنين؛ فإن الرؤية لا تكون دائمة للمؤمنين، والكلام خرج مخرج بيان عقوبتهم بالحجب وجزائهم به؛ فلا يجوز أن يساويهم المؤمنون في عقاب ولا جزاء سواه؛ فعلم أن الكافر محجوب على الإطلاق بخلاف المؤمن، وإذا كانوا في عرصة القيامة محجوبين فمعلوم أنهم في النار أعظم حجبًا، وقد قال ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾[1]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2]، وإطلاق وصفهم بالعمى ينافي الرؤية التي هي أفضل أنواع الرؤية»[3].

قال القاسمي: «قال ابن القيم: جمع لهم سبحانه بين العذابين؛ عذاب الحجاب، وعذاب النار. فألم الحجاب يفعل في قلوبهم وأرواحهم نظير ما تفعله النار في أجسامهم. كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في الدنيا، وأخذ بأشد العذاب. فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه، وهي

---

(١) الإسراء: الآية (٧٢). (٢) طه: الآية (١٢٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٠-٥٠٢).

ممنوعة من الوصول إليه. فكيف إن حصل لها، مع تواري المحبوب عنها وطول احتجابه، بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها؟ فأيّ نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بُلي به أو بشيء منه؟ فلو توهمت النفوس ما في احتجاب اللَّه سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب. وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة، منتهى حسنها إلى ما يعلم، كيف يضجّون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم، وإعراضه وهجره؟ ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة؛ كما قال:

وكنتُ أرى كالموت من بينِ ليلةٍ فكيف بِبَيْنٍ كان ميعادَهُ الحشرُ

وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه، وما لا سعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه.

فاعلم أن اللَّه سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة، فكماله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له، فخلق العين للإبصار، والأذن للسمع، والأنف للشم، واللسان للنطق، واليد للبطش، والرجل للمشي، والروح لمعرفته ومحبته والابتهاج بقربه والتنعم بذكره. وجعل هذا كمالها وغايتها. فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالًا من العين والأذن واللسان واليد والرجل، التي تعطلت عما خلقت له، وحيل بينها وبينه. بل لا نسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة. بل ألمها أشد الألم. وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها، وحيل بينها وبينه، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه. والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون اللَّه وحده هو معبودها وإلهها ومرادها، الذي لا تقرّ عينها إلا بقربه والأنس به، والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه. فهذا غاية كمالها، وأعظم نعيمها، وجنتها العاجلة في الدنيا. فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب الذي كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه. وفي حديث الرؤية: «**فواللَّه ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إلى وجهه**»[1].

---

(١) أخرجه من حديث صهيب: أحمد (٤/ ٣٣٢-٣٣٣)، ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨١)، والترمذي (٥/ ٢٦٧/ ٣١٠٥)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٢-٣٦٣/ ١١٢٣٤).

ثم قال: وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين، وهما ألم الحجاب وألم العذاب، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم: نعيم القرب والنظر، ونعيم الأكل والشرب والنكاح والتمتع بما في الجنة، في قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[1] الآيات، انتهى»[2].

قال ابن القيم وهو يتحدث عن القلب ويقظته من غفلته: «وعذاب حجابه عنه [أي: عن الله] أعظم من العذاب الآخر، كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب أعظم من النعيم بالأكل والشرب والتمتع بالحور العين. فهكذا عذاب الحجاب أعظم من عذاب الجحيم. ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: رؤية وجهه الكريم في جنات عدن. وجمع لأعدائه بين العذابين في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦﴾.

والمقصود: أن الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة، وهي حجاب عليه، فإن كُشف هذا الحجاب بالذكر، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب واشتغال بما لا يفيد، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاصٍ وذنوب صغار تبعده عن الله، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب كبائر توجب مَقْتَ الرب تعالى له وغضبه ولعنته، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عمليّة يعذب العامل فيها نفسه، ولا تجدي عليه شيئًا، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية تتضمن الكذب على الله ورسوله، والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب يقدح في أصول الإيمان الخمسة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه. فلغلظ حجابه، وكثافته، وظلمته، وسواده؛ لا يرى حقائق الإيمان، ويتمكن منه الشيطان؛ يَعِده ويمنّيه، والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهي، وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان، فأسره وسجنه، إن لم يهلكه، وتولى تدبير المملكة، واستخدام جنود الشهوات،

---

(١) الإنسان: الآية (١١).

(٢) محاسن التأويل (١٧/ ٩٣-٩٥). وانظر مفتاح دار السعادة (٣/ ٣٥) فما بعدها.

(٣) يونس: الآية (٢٦).

وأقطعها العوائد التي جرى عليها العمل، وأغلق باب اليقظة، وأقام عليه بواب الغفلة، وقال: إياك أن نؤتى من قِبَلك، واتخذ حاجبًا من الهوى، وقال: إياك أن تمكن أحدًا يدخل عليّ إلا معك، فأمرُ هذه المملكة قد صار إليك وإلى البواب، فيا بواب الغفلة! ويا حاجب الهوى! ليلزم كل منكما ثغره، فإن أخليتما فسَدَ أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شر الخزي والهوان، ولا نفرح بهذه المدينة أبدًا!

فلا إله إلا الله! إذا اجتمعت على القلب هذه العساكر، مع رقّة الإيمان، وقلة الأعوان، والإعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط في سلك أبناء الزمان، وطول الأمل المفسد للإنسان - أن آثر العاجل الحاضر على الغائب الموعود به بعد طَيّ هذه الأكوان، فاللّه المستعان، وعليه التكلان»[١].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦﴾:

قال القرطبي: «أي: ملازموها، ومحترقون فيها، غير خارجين منها، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[٢] و﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[٣] »[٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾:

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: يقال لهؤلاء المكذبين بيوم الدين: هذا العذاب الذي أنتم فيه اليوم هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تخبَرون أنكم ذائقوه فتكذبون به وتنكرونه، فذوقوه الآن، فقد صليتم به»[٥].

قال ابن كثير: «يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتصغير والتحقير»[٦].

قال السعدي: «فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن رب العالمين؛ المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار»[٧].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٨٦-٢٨٧).
(٢) النساء: الآية (٥٦).
(٣) الإسراء: الآية (٩٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٧١).
(٥) جامع البيان (٣٠/ ١٠١).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧٣).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٠).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عليين: أي: درجات عالية في الجنة، مأخوذ من العلو: وهو الارتفاع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الفجار المطففين، أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لا يطففون، فقال: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث، ومن أن كتاب اللَّه أساطير الأولين»(١).

قال ابن عاشور: «إن هذه الجملة بحذافرها تشبه جملة: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾(٢) إلخ، أسلوبًا ومقابلةً. فالوجه أن يكون مضمونها قسيمًا لمضمون شبيهها فتحصُل مقابلة وعيد الفجار بوعد الأبرار، ومن عادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير والعكس؛ لأن الناس راهب وراغب، فالتعرضُ لنعيم الأبرار إدماج اقتضته المناسبة وإن كان المقام من أول السورة مقام إنذار.

ويكون المتكلم بالوعد والوعيد واحدًا وجَّه كلامه للفجار الذين لا يظنون أنهم مبعوثون، وأعقبه بتوجيه كلام للأبرار الذين هم بضد ذلك»(٣).

قال البقاعي: «فالآية مع الأولى من الاحتباك: ذكْرُ سجين أولًا دال على الاتساع ثانيًا، وذكرُ عليين والمقربين ثانيًا دالّ على أسفل سافلين والمبعدين أولًا»(٤).

قال ابن جرير: «الأبرار جمع برّ، وهم الذين برّوا اللَّه بأداء فرائضه، واجتناب

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩٧). (٢) المطففين: الآية (٧).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٠٢-٢٠٣).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٧).

محارمه. وقد كان الحسن يقول: هم الذين لا يؤذون شيئًا حتى الذَّرّ. .

وقوله: ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾: اختلف أهل التأويل في معنى ﴿عِلِّيِّينَ﴾، فقال بعضهم: هي السماء السابعة. .

وقال آخرون: بل العليون: قائمة العرش اليمنى. .

وقال آخرون: عنى بالعليين الجنة. .

وقال آخرون: عند سدرة المنتهى. .

وقال آخرون: بل عني بالعليين: في السماء عند الله»[1].

قال الرازي: «وقال آخرون: عند كتاب أعمال الملائكة، وظاهر القرآن يشهد لهذا القول الأخير؛ لأنه تعالى قال لرسوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ تنبيهًا له على أنه معلوم له، وأنه سيعرفه، ثم قال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾، فبيّن أن كتابهم في هذا الكتاب المرقوم الذي يشهده المقربون من الملائكة، فكأنه تعالى كما وكلهم باللوح المحفوظ، فكذلك يوكلهم بحفظ كتب الأبرار في جملة ذلك الكتاب، الذي هو أم الكتاب، على وجه الإعظام له، ولا يمتنع أن الحفظة إذا صعدت بكتب الأبرار فإنهم يسلمونها إلى هؤلاء المقربين فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم، أو ينقلون ما في تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذي وكلوا بحفظه، ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار، فلذلك يحاسبون حسابًا يسيرًا؛ لأن هؤلاء المقربين يشهدون لهم بما حفظوه من أعمالهم، وإذا كان هذا الكتاب في السماء صح قول من تأول ذلك على أنه في السماء العالية، فتتقارب الأقوال في ذلك، وإذا كان الذي ذكرناه أولى.

واعلم أن المعتمد في تفسير هذه الآية ما بينا أن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين، وفي أضيق المواضع: إذلال الفجار وتحقير شأنهم؛ كان المقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين، وشهادة الملائكة لهم بذلك: إجلالهم وتعظيم شأنهم»[2].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٠١-١٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩٨).

وقال ابن جرير: «والصواب أن يقال في ذلك كما قال -جل ثناؤه-: إن كتاب أعمال الأبرار لفي ارتفاع إلى حد قد علم اللَّه جل وعز منتهاه، ولا علم عندنا بغايته غير أن ذلك لا يقصر عن السماء السابعة؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك»(١).

وهذا هو الذي استظهره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره(٢).

وفي هذه الآية أنه على الإنسان أن يجتهد في الطاعات ليكون من الأبرار المقربين ليكون في عليين.(٣)

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أخبر تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم؛ تحقيقًا لكونه** مكتوبًا حقيقة، وخصّ تعالى كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار؛ تنويهًا بكتاب الأبرار، وما وقع لهم به، وإشهارًا له، وإظهارًا بين خواص خلقه؛ كما يكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء، وخواص أهل المملكة تنويهًا باسم المكتوب له، وإشادة بذكره. وهذا نوع من صلاة اللَّه ﷻ وملائكته على عبده»(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير (عليين)

* عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**صلاة في إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب مرقوم في علّيّين**»(٥).

★ **غريب الحديث:**

على إثر صلاة: بكسر الهمزة ثم السكون أو بفتحتين، أي: عقبها.

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٠٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٤).

(٣) أفاده القرطبي في التذكرة (ص: ٤٦٤).

(٤) حادي الأرواح (ص: ٤٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٣-٢٦٤)، وأبو داود (١/ ٣٧٧-٣٧٨/ ٥٥٨) مطولًا، و(٢/ ٦٢/ ١٢٨٨) مختصرًا، واللفظ له.

★ **فوائد الحديث:**

قال في «العون»: «أي: عمل مكتوب في عليين، فيه إشارة إلى رفع درجتها وقبولها، قال علي القاري: وهو عَلَم لديوان الخير الذي دون فيه أعمال الأبرار، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ منقول من جمع على فِعِّيل من العلو، سمي به لأنه مرفوع إلى السماء السابعة تكريمًا، ولأنه سبب الارتفاع إلى أعلى الدرجات، والعلية بتشديد اللام والياء: الغرفة، كذا قاله بعضهم، وقيل: أراد أعلى الأمكنة وأشرف المراتب، أي: مداومة الصلاة من غير تخلل ما ينافيها، لا شيء من الأعمال أعلى منها، فكنى عن ذلك بعليين، انتهى. وقال في «مرقاة الصعود»: هو اسم للسماء السابعة، وقيل: لديوان الحفظة ترفع إليه أعمال الصالحين، وكتاب: بمعنى مكتوب»[1].

* * *

---

(١) عون المعبود (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِى وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾

★ غريب الآية:

الأرائك: واحدها: أريكة، وهي السرير في الحجلة.

رحيق: الرحيق: أجود الخمر، الذي لا غش فيه. قال حسان رضي الله عنه:

يَسقُون من وَرَدَ البَريصَ عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفِّقُ بالرحيقِ السَّلْسَلِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الأبرار الذين برّوا باتّقاء اللّه وأداء فرائضه لفي نعيم دائم لا يزول يوم القيامة، وذلك نعيم في الجنان»[1].

قال السعدي: «ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن»[2].

وقوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

قال الرازي: «قال القفال: الأرائك: الأسرّة في الحجال، ولا تسمى أريكة فيما زعموا إلا إذا كانت كذلك، وعن الحسن: كنا لا ندري ما الأريكة حتى لقينا رجلًا من أهل اليمن أخبرنا أن الأريكة عندهم ذلك.

أما قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ ففيه ثلاثة أوجه:

أحدها: ينظرون إلى أنواع نعمهم في الجنة من الحور العين والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها..

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٠٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٠).

والثاني: قال مقاتل: ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون في النار.

والثالث: إذا اشتهوا شيئًا نظروا إليه فيحضرهم ذلك الشيء في الحال.

واعلم أن هذه الأوجه الثلاثة من باب أنواع جنس واحد، وهو المنظور إليه، فوجب حمل اللفظ على الكل، ويخطر ببالي تفسير رابع، وهو أشرف من الكل: وهو أنهم ينظرون إلى ربهم. ويتأكد هذا التأويل بما أنه قال بعد هذه الآية: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾، والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية اللَّه تعالى على ما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[١]، ومما يؤكد هذا التأويل: أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللذات، وما هو إلا رؤية اللَّه تعالى»[٢].

قال ابن القيم: «وهضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم محجوبون»[٣].

وقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾:

قال ابن كثير: «أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم، أي: صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة؛ مما هم فيه من النعيم العظيم»[٤].

قال السعدي: «فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح يكسب الوجه نورًا وحسنًا وبهجة»[٥].

وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾:

قال السعدي: «وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها، (مختوم) ذلك الشراب، ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك.

ويحتمل أن المراد أنه الذي يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق

---

(١) القيامة: الآيتان (٢٢و٢٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩٩).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٥٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٤).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩١).

حثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة»[١].

قال ابن جرير بعد ذكره الخلاف في معنى الختام: «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: آخره وعاقبته مسك، أي: هي طيبة الريح، إن ريحها في آخر شربهم يختم لها بريح المسك.

وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصحة؛ لأنه لا وجه للختم في كلام العرب إلا الطبع والفراغ، كقولهم: ختم فلان القرآن: إذا أتى على آخره، فإذا كان لا وجه للطبع على شراب أهل الجنة، يفهم إذا كان شرابهم جاريًا جري الماء في الأنهار، ولم يكن معتقًا في الدنان فيُطَيَّن عليها وتختم، تعين أن الصحيح من ذلك الوجه الآخر، وهو العاقبة والمشروب آخرًا، وهو الذي ختم به الشراب. وأما الختم بمعنى المزج، فلا نعلمه مسموعًا من كلام العرب»[٢].

قال ابن عاشور: «وعبر بـ﴿يُسْقَوْنَ﴾ دون (يشربون) للدلالة على أنهم مخدومون يخدمهم مخلوقات لأجل ذلك في الجنة، وذلك من تمام الترفه ولذة الراحة»[٣].

قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وفي هذا النعيم الذي وصف -جل ثناؤه- أنه أعطى هؤلاء الأبرار في القيامة، فليتنافس المتنافسون. والتنافس: أن يَنفِس الرجل على الرجل بالشيء يكون له، ويتمنى أن يكون له دونه، وهو مأخوذ من الشيء النفيس، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس، وتطلبه وتشتهيه، وكان معناه في ذلك: فليجدّ الناس فيه، وإليه فليستبقوا في طلبه، ولتحرص عليه نفوسهم»[٤].

قال الرازي: «واعلم أن مبالغة اللَّه في الترغيب فيه تدل على علو شأنه، وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم، لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء»[٥].

قال الغزالي: «فإن كنت تطلب أعلى الدرجات، فاجتهد أن لا يسبقك أحد

---

(١) المصدر السابق.
(٢) جامع البيان (٣٠/ ١٠٧).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٠٥).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ١٠٨).
(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠١).

بطاعة اللَّه تعالى؛ فقد أمرك اللَّه بالمسابقة والمنافسة فيها، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾. والعجب أنه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم، أو بعلوّ بناء؛ ثقل عليك ذلك، وضاق به صدرك، وتنغص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها»[١].

قال ابن القيم: «والفرق بين المنافسة والحسد: أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهد من غيرك، فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه، فهي من شرف النفس، وعلو الهمة، وكبر القدر؛ قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾. وأصلها: من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلبًا ورغبة، فينافس فيه كل من النفسين الأخرى، وربما فرحت إذا شاركتها فيه، كما كان أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم يتنافسون في الخير، ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه، وهي نوع من المسابقة، وقد قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ﴾[٣]، وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضي الله عنهما، فلم يظفر بسبقه أبدًا، فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال: «واللَّه لا أسابقك إلى شيء أبدًا»[٤]، وقال: «واللَّه ما سبقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه»[٥]. والمتنافسان كعبدين بين يدي سيدهما؛ يتباريان ويتنافسان في مرضاته، ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما، ويحثهما عليه، وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده.

والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة، ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد، ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم؛ كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٣٧). (٢) البقرة: الآية (١٤٨).
(٣) الحديد: الآية (٢١).
(٤) أخرجه: أبو داود (٢/ ٣١٢-٣١٣/ ١٦٧٨)، والترمذي (٥/ ٥٧٤/ ٣٦٧٥) وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (١/ ٤١٤) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦)، وابن خزيمة (٢/ ١٨٦-١٨٧/ ١١٥٦)، والحاكم (٢/ ٢٢٧) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[(٢)]، فالحسود عدو النعمة، متمنٍّ زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو، والمنافس مسابق النعمة، متمنٍّ تمامها عليه وعلى من ينافسه، فهو ينافس غيره أن يعلو عليه، ويحب لحاقه به، أو مجاوزته له في الفضل، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة، فمن جعل نصب عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه؛ انتفع به كثيرًا؛ فإنه يتشبه به، ويطلب اللحاق به والتقدم عليه، وهذا لا نذمه. وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة؛ كما في الصحيح عن النبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللّٰه القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه اللّٰه مالًا فسلطه على هلكته في الحق»[(٣)]، فهذا حسد منافسة وغبطة، يدل على علو همة صاحبه، وكبر نفسه، وطلبها للتشبه بأهل الفضل»[(٤)].

* * *

(١) النساء: الآية (٨٩).

(٢) البقرة: الآية (١٠٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٨-٩)، والبخاري (٩/ ٨٩/ ٥٠٢٥)، ومسلم (١/ ٥٥٨/ ٨١٥)، والترمذي (٤/ ٢٩١-١٩٣٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧/ ٨٠٧٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨/ ٤٢٠٩) من حديث عبد اللّٰه بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) الروح (ص: ٢٥١-٢٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾

★ **غريب الآية:**

مزاجه: المزاج: ما يمزج به الشراب. وأصل المزج: الخلط، ومنه مزج اللبن بالماء. قال حسان رضي الله عنه:

كأن خبيئةً من بيتِ رأسٍ يكونُ مزاجَها عسلٌ وماءُ

تسنيم: أي: ماء يأتيهم من علو يَسنم عليهم من الغرف. والتسنيم: العلو؛ ومنه: سنام البعير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وهذا الشراب ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ صِرْفًا، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين، أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة»[(١)].

قال ابن القيم: «فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾، كما قال تعالى في سورة (الإنسان) سواء، قال ابن عباس وغيره: «يشرب بها المقربون صرفًا، ويمزج لأصحاب اليمين مزجًا». وهذا لأن الجزاء وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله؛ خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات؛ مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أخلص شرابه، ومن مزج مزج شرابه»[(٢)].

قال شيخ الإسلام: «إنه تعالى قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، ولم يقل: (يشرب منها)؛

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٢).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ١٩٤).

لأنه ضمن ذلك قوله: ﴿يَشْرَبُ﴾ يعني: يروى بها؛ فإن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل: يشربون منها، لم يدل على الري، فإذا قيل: يشربون بها، كان المعنى: يروون بها، فالمقربون يروون بها، فلا يحتاجون معها إلى ما دونها؛ فلهذا يشربون منها صرفًا، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجًا، وهو كما قال تعالى في سورة (الإنسان): ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[1]»[2].

«يا لاهيًا في غمرة الجهل والهوى ... صريعًا على فرش الردى يتقلبُ
تأمل -هداك الله- ما ثم وانتبه ... فهذا شراب القوم حقًّا يركبُ
وتركيبه في هذه الدار إن تفت ... فليس له بعد المنية مطلبُ
فيا عجبًا من معرض عن حياته ... وعن حظه العالي ويلهو ويلعبُ
ولو علم المحروم أيَّ بضاعة ... أضاع لأمسى قلبُهُ يتلهّبُ
فإن كان لا يدري فتلك مصيبةٌ ... وإن كان يدري فالمصيبة أصعبُ
بلى سوف يدري حين ينكشف الغطا ... ويصبح مسلوبًا ينوح ويندبُ
ويعجب ممن باع شيئًا بدون ما ... يساوي بلا علم وأمرك أعجبُ
لأنك قد بعت الحياة وطيبها ... بلذة حلم عن قليل سيذهبُ
فهلاّ عكست الأمر إن كنت حازمًا ... ولكن أضعت الحزم والحكم يغلبُ
تصد وتنأى عن حبيبك دائمًا ... فأين عن الأحباب ويحك تذهبُ
ستعلم يوم الحشر أيّ تجارة ... أضعتَ إذا تلك الموازين تنصبُ»[3]

* * *

(١) الإنسان: الآيتان (٥و٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٧٨).
(٣) طريق الهجرتين (ص: ١٩٤-١٩٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يتغامزون: يشيرون إليهم بالأعين استهزاء وسخرية. وأصل الغمز: الإشارة بالجفن.

فكهين: مرحين متلذذين. والفَكِهُ: الأشِر البطِر. والفاكِهُ: الناعم المتنعِّم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وجزاء المحسنين، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم، ويضحكون منهم، ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم؛ احتقارًا لهم وازدراءً، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف على بالهم»[١].

والحكمة في التعبير عن ضحكهم بالفعل المضارع: أنهم -يقول البقاعي- «يجددون الضحك كلما رأوهم أو ذكروهم؛ استهزاءً بهم وبحالاتهم التي هم عليها من علامات الإيمان في رثاثة أحوالهم، وقلة أموالهم، واحتقار الناس لهم، مع ادعائهم أن اللّه تعالى لا بد أن ينصرهم ويعلي أمرهم»[٢].

قال القاسمي نقلًا عن الإمام: «الذين أجرموا هم المعتدون الأئمة الذين شَرِيَتْ نفوسهم في الشر، وصمّت آذانهم عن سماع دعوة الحق. هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا؛ ذلك لأنه حين رحم اللّه هذا العالم ببعثة النبي ﷺ، كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأي الدهماء، وفي ضلال العامة. وكانت دعوة الحق خافتة،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٣١).

لا يرتفع بها إلا صوته ﷺ، ثم يهمس بها بعض من يليه. ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيلَ الحق إلى قلوبهم فيُسِرّ بها إلى من يرجوه، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه. ومن شأن القوي المستعزّ بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه في المنزع ويدعوه إلى غير ما يعرفه، وهو أضعف منه قوة وأقلّ عددًا. كذلك كان شأن جماعة من قريش، كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم. وهكذا يكون شأن أمثالهم في كل زمان متى عمّت البدع، وتفرّقت الشيع، وخفي الطريق الحق بين طرق الباطل، وجهل معنى الدين، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه، ولم يبق إلا ظواهر لا تطابقها البواطن، وحركات أركان لا تشايعها السرائر، وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل، إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب، وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب، وأحب كل واحد أن يحمد بما لم يفعل، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل، واستوى في ذلك الكبير والصغير، والأمير والمأمور، والجاهل والملقب بلقب العالم. إذا سار الناس إلى هذه الحال، ضعف صوت الحق، وازدرى السامعون منهم بالداعي إليه، وانطبق عليهم نص الآية الكريمة»[(١)].

قال السيوطي: «فيه تحريم السخرية بالمؤمنين، والضحك منهم، والتغامز عليهم»[(٢)].

قال الشيخ عطية سالم: «ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه الحالة ليست خاصة بهذه الأمة، بل تقدم التنبيه على أنها في غيرها ممن تقدم من الأمم.

ففي قوم نوح: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾[(٣)].

وكان نفس الجواب عليهم: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[(٤)].

وجاء بما يفيد أكثر من ذلك حتى بالرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٩٨-٩٩).
(٢) الإكليل (ص: ٢٨٤).
(٣) هود: الآية (٣٨).
(٤) هود: الآيتان (٣٨و٣٩).

قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[١].

ومثلها في سورة (الأنبياء) بنص الآية المذكورة.

تنبيه: إذا كان هذا حال بعض الذين أجرموا مع بعض ضعفة المؤمنين، وكذلك حال بعض الأمم مع رسلها؛ فإن الداعية إلى اللَّه تعالى يجب عليه ألا يتأثر بسخرية أحد منه، ويعلم أنه على سنن غيره من الدعاة إلى اللَّه تعالى، وأن اللَّه تعالى سينتصر له إما عاجلًا وإما آجلًا، كما في نهاية كل سياق من هذه الآيات»[٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾:

قال ابن كثير: «أي: إذا انقلب -أي: رجع- هؤلاء المجرمون إلى منازلهم؛ انقلبوا إليها فكهين، أي: مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة اللَّه عليهم؛ بل اشتغلوا بالمؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم»[٣].

قال السعدي: «وهذا من أعظم ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من اللَّه وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراءً على اللَّه، وتجرّؤًا على القول عليه بلا علم»[٤].

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾:

قال الشوكاني: «أي: إذا رأى الكفار المسلمين في أيّ مكان ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ في اتّباعهم محمدًا، وتمسكهم بما جاء به، وتركهم التنعم الحاضر، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول، والأول أولى»[٥].

فقد جمعوا -**يقول ابن عاشور**- «بين الأذى بالإشارات وبالهيئة وبسوء القول في غيبتهم وسوء القول إعلانًا به على مسامع المؤمنين لعلهم يرجعون عن الإسلام إلى الكفر، أم كان قولًا يقوله بعضهم لبعض إذا رأوا المؤمنين كما يفكهون بالحديث عن المؤمنين في خلواتهم»[٦].

---

(١) الأنعام: الآية (١٠) والأنبياء: الآية (٤١).
(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٠٦-١٠٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٣).
(٥) فتح القدير (٥/ ٥٧٦).
(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢١٣).

وقوله: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾:

قال ابن كثير: «أي: وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[1] »[2].

قال أبو السعود: «وهذا تهكم بهم، وإشعار بأن ما اجترؤوا عليه من القول من وظائف من أرسل من جهته تعالى، وقد جوز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين، كأنهم قالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾؛ إنكارًا لصدهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام، وإنما قيل عليهم نقلًا له بالمعنى؛ كما في قولك: حلف ليفعلن، لا بالعبارة كما في قولك: حلف لأفعلنّ»[3].

* * *

(١) المؤمنون: الآيات (١٠٨-١١١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٥).
(٣) تفسير أبي السعود (٩/ ١٣٠).

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾

★ غريب الآية:

ثُوِّبَ: أي: أُثيبَ وجُوزِيَ. وهو من ثابَ يثُوبُ: إذا رجع، فالثواب: ما يرجع على العبد في مقابلة عمله. ويُستعمل في الخير والشر. والتثويب في القرآن لم يجئ إلا في المكروه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «إن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا بسبب ما هم فيه من الضر والبؤس، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء، ولأنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء، وأنهم قد باعوا باقيًا بفانٍ، ويرون أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم، ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد، ودخلوا الجنة، فأجلسوا على الأرائك ينظرون إليهم كيف يعذبون في النار، وكيف يصطرخون فيها، ويدعون بالويل والثبور، ويلعن بعضهم بعضًا»[1].

قال البقاعي: «ويا لها من خيبة وخجلة وسواد وجه وتعب قلب وتقريع نفس من العذاب بالنار، وبالشماتة والعار، حال كون الذين آمنوا ملوكًا ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾، أي: الأسرّة العالية المزينة التي هي من حسنها أهل لأن يقيم المتكئ بها ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: يجددون تحديق العيون إليهم كلما أرادوا فيرون ما هم فيه من الهوان والذل والعذاب بعد العزة والنعيم»[2].

وقوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥﴾:

قال ابن كثير: «أي: إلى الله ﷻ؛ في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون. ليسوا

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ١٠٣).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٣-٣٣٤).

بضالين، بل هم من أولياء اللَّه المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته»[١].

قال ابن القيم: «فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجلُّه وأعظمُه هو اللَّه سبحانه، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾[٢]، فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين النوعين ولا بد، إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد النوعين يحتملان غير ذلك خصوصًا أو عمومًا.

وكما أنه لا نسبة لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النظر إلى وجهه الأعلى سبحانه؛ فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأنس به، بل لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به، ومحبتهم له؛ فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة؛ فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له؛ كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم»[٣].

وقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

قال ابن كثير: «أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا، يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمّه وأكمله»[٤].

قال الرازي: «والأولى أن يحمل ذلك على سبيل التهكم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[٥]، والمعنى: كأنه تعالى يقول للمؤمنين: هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم، واستهزاؤهم بطريقتكم، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة؟ فيكون هذا القول زائدًا في سرورهم؛ لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم، والمقصود منها أحوال القيامة، واللَّه أعلم»[٦].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٦).
(٢) المطففين: الآية (٣٢).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٥٢-٥٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٦).
(٥) الدخان: الآية (٤٩).
(٦) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠٣).



سورة الانشقاق

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مشروعية السجود في هذه السورة

* عن أبي رافع قال: «صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ فسجد، فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه»[1].

* عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: «أن أبا هريرة قرأ لهم: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها»[2].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن بطال: «من قال بالسجود في (المفصل) يرى السجود في هذه السورة.. واحتج بهذا الحديث من قال بالسجود في (المفصل)، وقالوا: هذا الحديث يرد على ما روي عن النبي ﷺ أنه لم يسجد في (المفصل) منذ تحول إلى المدينة؛ لأن أبا هريرة كان إسلامه بالمدينة، وروى أن النبي ﷺ سجد في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾، فكيف يقال: إنه بعدما هاجر لم يسجد في (المفصل)؟ واحتج الكوفيون وقالوا: النظر أن يكون في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ سجود؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ۝٢١﴾[3] إخبار لا أمر، وسجود

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٩)، والبخاري (٢/ ٧١٢/ ١٠٧٨)، ومسلم (١/ ٤٠٧/ ٥٧٨[١١٠-١١١])، وأبو داود (٢/ ١٢٣/ ١٤٠٨)، والنسائي (٢/ ٥٠١-٥٠٢/ ٩٦٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٣)، والبخاري (٢/ ٧٠٧/ ١٠٧٤)، ومسلم (١/ ٤٠٦/ ٥٧٨[١٠٧]) واللفظ له، والنسائي (٢/ ٤٩٩-٥٠٠/ ٩٦٠).

(٣) الانشقاق: الآيتان (٢٠و٢١).

التلاوة إنما هو في موضع الإخبار، وموضع الأمر إنما هو تعليم، فلا سجود فيه، وهذا قول الطحاوي»[١].

وقال ابن عبد البر: «احتج من أنكر السجود في (المفصل) بقول أبي سلمة لأبي هريرة: «لقد سجدت في سورة ما رأيت الناس يسجدون فيها»، قالوا: فهذا دليل على أن السجود في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ كان قد تركه الناس، وجرى العمل بتركه في المدينة، فلهذا ما كان اعتراض أبي سلمة لأبي هريرة في ذلك، واحتج من رأى السجود في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ وفي سائر (المفصل) بأن أبا هريرة رأى الحجة في السنة، لا فيما خالفها، ورأى أن من خالفها محجوج بها، وكذلك أبو سلمة لما أخبره أبو هريرة بما أخبره به عن رسول اللَّه ﷺ سكت لما لزمه من الحجة، ولم يقل له: الحجة في عمل الناس، لا فيما تحكي أنت عن رسول اللَّه ﷺ، بل علم أن الحجة فيما نزع به أبو هريرة فسلم وسكت، وقد ثبت عن أبي بكر وعمر والخلفاء بعدهما السجود في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ فأيّ عمل يدعى في خلاف رسول اللَّه ﷺ والخلفاء الراشدين بعده»[٢].

قلت: رحم اللَّه أبا عمر يوسف بن عبد البر على هذا الترجيح الذي دلت عليه السنة، ولم يتأثر بالمذهب الذي لا يرى السجود في المفصل، وكما قال رحمه الله: الحجة في قول اللَّه وقول رسوله ﷺ، أما العمل إذا خالف السنة فلا عبرة به، واللَّه الموفق.

* * *

---

(١) شرح صحيح البخاري (٣/ ٥٨-٥٩).

(٢) فتح البر (٤/ ٧٠٦-٧٠٧).

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

أَذِنَتْ: استمعت. والإذن: الاستماع. قال الشاعر:

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكرتُ بهِ ... وإن ذُكرتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

حُقَّت: أي: جُعِلَت حقيقةً وجديرةً وخليقةً بالاستماع والانقياد؛ يقال: حَقَّ بكذا، فهو محقوق وحَقِيقٌ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يقول تعالى مبيِّنًا لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾، أي: انفطرت، وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف شمسها وقمرها»[(١)].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾[(٢)]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦﴾[(٤)]، وهذه أوصاف يوم القيامة.[(٥)]

قوله: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾:

قال ابن كثير: «أي: استمعت لربها، وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق، ﴿وَحُقَّتۡ﴾ أي: وحُقّ لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب؛ بل قد قهر كل شيء، وذل له كل شيء»[(٦)].

قال الرازي: «والمعنى أنه لم يوجد في جرم السماء ما يمنع من تأثير قدرة الله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٥).
(٢) الفرقان: الآية (٢٥).
(٣) الانفطار: الآية (١).
(٤) الحاقة: الآية (١٦).
(٥) أفاده القرطبي (١٩/ ١٧٧)، وابن عطية (٥/ ٤٥٦).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٧).

تعالى في شقها وتفريق أجزائها، فكانت في قبول ذلك التأثير كالعبد الطائع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المالك أنصت له وأذعن، ولم يمتنع، فقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾(١) يدل على نفاذ القدرة في الإيجاد والإبداع من غير ممانعة أصلًا، وقوله ههنا: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ يدل على نفوذ القدرة في التفريق والإعدام والإفناء من غير ممانعة أصلًا»(٢).

قال البقاعي: «وهي الآن وإن كانت منقادة فانقيادها ظاهر لأكثر الخلق وهم المثبتة، وأما المعطلة فربما نسبوا تأثيراتها إلى الطبائع والكواكب، وأما عند الانشقاق فيحصل الكشف التام فلا يبقى لأحد شبهة. ﴿وَحُقَّتۡ﴾ بالبناء للمفعول بمعنى أنها مجبولة على أن ذلك حق عليها ثابت لها، فهي حقيقة به لأنها مربوبة له سبحانه، وكل مربوب فهو حقيق بالانقياد لربه، وهي لم تزل مطيعة له في ابتدائها وانتهائها، لكن هناك يكون الكشف التام لجميع الأنام»(٣).

* * *

---

(١) فصلت: الآية (١١).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠٤).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝﴾:

قال السعدي: «رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدها اللَّه تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جدًّا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا»(١).

وقوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝﴾:

قال القرطبي: «أي: أخرجت أمواتها، وتخلت عنهم. وقال ابن جبير: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء. وقيل: ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها، وتخلت منها. أي: خلا جوفها، فليس في بطنها شيء، وذلك يؤذن بعظم الأمر، كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة. وقيل: تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها. وقيل: ألقت ما استودعت، وتخلت مما استحفظت، لأن اللَّه تعالى استودعها عباده أحياءً وأمواتًا، واستحفظها بلاده مزارعة وأقواتًا»(٢).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝﴾(٣)، وكقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝﴾(٤)، وكقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝﴾(٥)، وكقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝﴾(٦)»(٧).

قال الشيخ عطية سالم: «وهذا ما يزيد في رهبة الموقف، وشدته، والتضييق

(١) تفسير السعدي (٧/ ٥٩٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٧٧-١٧٨).
(٣) الزلزلة: الآية (٢).
(٤) الانفطار: الآية (٤).
(٥) العاديات: الآية (٩).
(٦) المرسلات: الآيتان (٢٥و٢٦).
(٧) أفاده الرازي في تفسيره (٣١/ ١٠٥).

على العباد، وأن لا ملجأ لهم ولا منجى إلا إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾[(١)] »[(٢)].

وقوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾:

قال ابن جرير: «يقول: وسمعت الأرض -في إلقائها ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها أحياءً- أمر ربها، وأطاعت، ﴿وَحُقَّتْ﴾ يقول: وحققها الله للاستماع لأمره في ذلك، والانتهاء إلى طاعته»[(٣)].

قال صديق حسن خان: «وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك، والانقياد له؛ إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى»[(٤)].

قال القاسمي: «وإعادة الآية للتنبيه على أن ذلك تحت سلطان الجلال الإلهي، وقهره، ومشيئته»[(٥)].

لم يذكر الله ﷻ جوابًا لهذا الشرط، واختلف المفسرون في تقديره على أقوال، أظهرها ما **قاله ابن جرير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد سرده الخلاف في المسألة: «والصواب من القول في ذلك عندنا: أن جوابه محذوف ترك استغناء بمعرفة المخاطبين به بمعناه. ومعنى الكلام: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ رأى الإنسان ما قدّم من خير أو شرّ، وقد بين ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾[(٦)] والآياتُ بعدها»[(٧)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في امتداد الأرض يوم القيامة

* عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله ﷻ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ قال: سمعت، ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ قال: يوم القيامة، ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ قال: أخرجت ما فيها من الموتى»[(٨)].

* عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**تمد الأرض يوم القيامة مدًّا لعظمة**

---

(١) القيامة: الآيتان (١١و١٢).
(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ١١٤).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ١١٤).
(٤) فتح البيان (١٥/ ١٤٥).
(٥) محاسن التأويل (١٧/ ١٠٣).
(٦) الانشقاق: الآية (٦).
(٧) جامع البيان (٣٠/ ١١٤).
(٨) الحاكم (٢/ ٥١٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

الرحمن، ثم لا يكون لبشر من بني آدم منها إلا موضع قدميه، ثم أدعى أول الناس فأخر ساجدًا، ثم يؤذن لي فأقوم، فأقول: يا رب! أخبرني هذا لجبريل وهو عن يمين الرحمن، والله ما رآه جبريل قبلها قط إنك أرسلته إلي قال: وجبريل ساكت لا يتكلم حتى يقول الله صدق، ثم يؤذن لي في الشفاعة فأقول: يا رب! عبادك عبدوك في أطراف الأرض، فذلك المقام المحمود»[(١)].

★ **فوائد الحديثين:**

أفاد الحديثان أن الأرض تُمَدّ يوم القيامة، وفي معنى هذا المدّ يقول الرازي: «فيه وجهان:

الأول: أنه مأخوذ من مَدَّ الشيء فامتدّ، وهو أن تزال جبالها بالنسف كما قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾[(٢)] يسوي ظهرها كما قال: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾[(٣)]، وعن ابن عباس: «مدت مد الأديم الكاظمي»؛ لأن الأديم إذا مُدّ زال كل انثناء فيه واستوى.

والثاني: أنه مأخوذ من (مده) بمعنى: أمده، أي: يزاد في سعتها يوم القيامة لوقوف الخلائق عليها للحساب، واعلم أنه لا بد من الزيادة في وجه الأرض سواء كان ذلك بتمديدها أو بإمدادها؛ لأن خلق الأولين والآخرين لما كانوا واقفين يوم القيامة على ظهرها، فلا بد من الزيادة في طولها وعرضها»[(٤)].

* * *

(١) أخرجه: الحاكم (٤/ ٥٧٠-٥٧١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٥٤٧) وجود إسناده.

(٢) طه: الآية (١٠٥).

(٣) طه: الآيتان (١٠٦و١٠٧).

(٤) التفسير الكبير (١٦/ ١٠٤-١٠٥).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

كادح: الكدح: السعي الشديد، والدأب في العمل. قال ابن مقبل:

وما الدهر إلا تارتانِ: فمنهما أموتُ وأخرى أبتغي العيش أكدح

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الإنسان إنك عامل إلى ربك عملًا فملاقيه به خيرًا كان عملك ذلك أو شرًّا، يقول: فليكن عملك مما ينجيك من سخطه، ويوجب لك رضاه، ولا يكن مما يسخطه عليك فتهلك»[(١)].

قال الرازي: «أما قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ﴾، ففيه قولان:

الأول: أن المراد: جنس الناس، كما يقال: أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، فكذا ههنا. وكأنه خطاب خص به كل واحد من الناس، قال القفال: وهو أبلغ من العموم؛ لأنه قائم مقام التخصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين، بخلاف اللفظ العام؛ فإنه لا يكون كذلك.

والثاني: أن المراد منه: رجل بعينه، وههنا فيه قولان: الأول: أن المراد به محمد ﷺ، والمعنى: أنك تكدح في إبلاغ رسالات اللّه وإرشاد عباده، وتحمل الضرر من الكفار، فأبشر فإنك تلقى اللّه بهذا العمل وهو غير ضائع عنده. الثاني: قال ابن عباس: هو أُبيّ بن خلف، وكدحه: جده واجتهاده في طلب الدنيا، وإيذاء الرسول ﷺ، والإصرار على الكفر، والأقرب أنه محمول على الجنس؛ لأنه أكثر فائدة. ولأن قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[(٢)] ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠﴾[(٣)] كالنوعين له، وذلك لا يتم إلا إذا كان جنسًا»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١١٥).
(٢) الانشقاق: الآية (٧).
(٣) الانشقاق: الآية (١٠).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠٦).

قال ابن القيم: «لا تغتر بقول كثير من المفسرين في لفظ (الإنسان) في القرآن، الإنسان ههنا أبو جهل، والإنسان ههنا عقبة بن أبي معيط، والإنسان ههنا الوليد بن المغيرة، فالقرآن أجل من ذلك؛ بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾[1] و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾[2] و﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾[3] و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[4] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[5] ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[6]، فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه، وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه لا من ذاته، فليس له من ذاته إلا هذه الصفات، وما به من نعمة فمن اللَّه وحده، فهو الذي حبب إلى عبده الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وهو الذي كتب في قلبه الإيمان، وهو الذي يثبت أنبياءه ورسله وأولياءه على دينه، وهو الذي يصرف عنهم السوء والفحشاء، وكان يرتجز بين يدي النبي ﷺ:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[7] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[8] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾[9] فهو رب جميع العالم ربوبية شاملة لجميع ما في العالم من ذوات وأفعال وأحوال»[10].

قال ابن عاشور: «والمقصود الأول من هذا: وعيد المشركين الذين كذبوا بالبعث، فالخطاب بالنسبة إليهم زيادة للإنذار، وهو بالنسبة إلى المؤمنين تذكير وتبشير»[11].

قال عطية سالم: «من هذا العرض القرآني الكريم من مقدمة تغيير أوضاع الكون سماءً وأرضًا، ووضع الإنسان فيه يكدح إلى ربه كدحًا فملاقيه، أي: بعمله الذي

---

(١) العصر: الآية (٢).
(٢) العاديات: الآية (٦).
(٣) المعارج: الآية (١٩).
(٤) العلق: الآيتان (٦و٧).
(٥) إبراهيم: الآية (٣٤).
(٦) الأحزاب: الآية (٧٢).
(٧) يونس: الآية (١٠٠).
(٨) المدثر: الآية (٥٦).
(٩) التكوير: الآية (٢٩).
(١٠) الروح (ص: ١٢٥-١٢٦).
(١١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢١).

يحصل عليه من خلال كدحه، فإن العاقل المتبصر لا يجعل كدحه إلاّ فيما يرضي اللَّه ويرضى هو به، إذا لقي ربه ما دام أنه كادح، لا محالة كما هو مشاهد. . ومما هو جدير بالتنبيه عليه: هو أنه إذا كانت السماء مع عظم جرمها، والأرض مع مساحة أصلها أذنت لربها وحقت، مع أنها لم تتحمل أمانة، ولن تسأل عن واجب، فكيف بالإنسان على ضعفه، ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾[١]، وقد تحمل أمانة التكليف فأشفقن منها وحملها الإنسان، فكان أحق بالسمع والطاعة في كدحه، إلى أن يلقى ربه لما يرضيه»[٢].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾: ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر. . ومن الناس من يعيد الضمير على قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، أي: فملاقٍ ربَّكَ، ومعناه: فيجازيك بعملك، ويكافئك على سعيك، وعلى هذا فكلا القولين متلازم»[٣].

قال البقاعي: «وهذا أمر أنت ساع فيه غاية السعي؛ لأن من كان الليل والنهار مطيتيه؛ أوصلاه بلا شك إلى منتهى سفره شاء أو أبى، فذكر هذا على هذا النمط حث على الاجتهاد في الإحسان في العمل؛ لأن من أيقن بأنه لا بد له من العرض على الملك أفرغ جهده في العمل بما يحمده عليه عند لقائه»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التأهب للموت والاستعداد لما بعده

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قال لي جبريل عليه السلام: يا محمد! عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه**»[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «(**قال لي جبريل: يا محمد! عش ما شئت**): قال بعضهم: هذا وعظ وزجر وتهديد، والمعنى: فليتأهب من غايته للموت بالاستعداد لما بعده،

---

(١) النازعات: الآية (٢٧).
(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ١١٥-١١٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٨).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٩).
(٥) أخرجه الطيالسي (١٧٥٥)، ومن طريقه البيهقي في الشعب (٧/ ٣٤٨-٣٤٩/ ١٠٥٤٠) واللفظ له، وحسنه الشيخ الألباني (انظر صحيح الجامع ٤٣٥٥).

ومن هو راحل عن الدنيا كيف يطمئن إليها فيخرب آخرته التي هو قادم عليها، وقال ابن الحاجب: هذا تسمية للشيء بعاقبته نحو: لدوا للموت وابنوا للخراب.
«وأحبب من شئت فإنك مفارقه» أي: تأمل من تصاحب من الإخوان عالمًا بأنه لا بد من مفارقته، فلا تسكن إليه بقلبك، ولا تطعه فيما يعصي ربك، فإنه لا بد من فرقة الأخلاء كلهم إلى يوم قيل فيه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾[1]، فإن كان ولا بد فأحبب في اللَّه من يعينك على طاعة الحق تعالى، ولا تعلق قلبًا عرف مولاه بمحبة سواه.. «واعمل ما شئت»: مبالغة في التقريع والتهديد من قبيل ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[2] يجازيكم به، فإن كان العمل حسنًا سرّك جزاؤه، أو سيئًا ساءك لقاؤه. «فإنك ملاقيه»: قال الغزالي: هذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو اللَّه، ولا تحب من يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء اللَّه، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوبًا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وأنسه، وأنس الواجد للدنيا أكثر من أنس فاقدها وأنشدوا:

يا فرقة الأحباب لا بد لي منك ... ويا دار دنيا إنني راحل عنك
ويا قصر الأيام ما لي وللمنى ... ويا سكرة الموت ما لي وللضحك
وما لي لا أبكي لنفسي بعبرة ... إذا كنت لا أبكي لنفسي فمن يبك
ألا أي حي ليس للموت موقنًا ... وأي يقين منه أشبه بالشك»[3].

* * *

(١) الزخرف: الآية (٦٧).
(٢) فصلت: الآية (٤٠).
(٣) فيض القدير (٤/ ٥٠٠-٥٠١).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «هذا تفصيل الإجمال الذي في قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1] أي: رجوع جميع الناس أولئك إلى اللَّه، فمن أوتي كتابه بيمينه فريق من الناس هم المؤمنون، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فريق آخر وهم المشركون، كما دلّ عليه قوله: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾[2]، وبين منتهاهما مراتب. وإنما جاءت هذه الآية على اعتبار تقسيم الناس يومئذ بين أتقياء ومشركين.

والكِتاب: صحيفة الأعمال، وجعل إيتاؤه إياه بيمينه شعارًا للسعادة لِما هو متعارف من أن اليد اليمنى تتناول الأشياء الزكية، وهذا في غريزة البشر نشأ عن كون الجانب الأيمن من الجسد أقدر وأبدر للفعل الذي يتعلق العزم بعمله، فارتكز في النفوس أن البركة في الجانب الأيمن حتى سَموا البركة والسعادة يُمنًا، ووسموا ضدها بالشؤم فكانت بركة اليمين مما وضعه اللَّه تعالى في أصل فطرة الإنسان، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝٢٨﴾[3] في سورة (الصافات)، وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧﴾[4]، وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾[5] في سورة (الواقعة)، وقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾[6] في سورة (الواقعة)»[7].

قال الرازي: «والحساب اليسير: هو أن تعرض عليه أعماله، ويعرف أن الطاعة منها هذه، والمعصية هذه، ثم يثاب على الطاعة ويتجاوز عن المعصية، فهذا هو

(١) الانشقاق: الآية (٦).
(٢) الانشقاق: الآية (١٤).
(٣) الصافات: الآية (٢٨).
(٤) الواقعة: الآية (٢٧).
(٥) الواقعة: الآية (٤١).
(٦) الواقعة: الآيتان (٨و٩).
(٧) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢٢).

الحساب اليسير؛ لأنه لا شدة على صاحبه ولا مناقشة، ولا يقال له: لم فعلت هذا؟ ولا يطالب بالعذر فيه، ولا بالحجة عليه؛ فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذرًا ولا حجة فيفتضح»[(١)].

قال القرطبي: «فدل على أن المحاسبة تكون عند إتيان الكتب؛ لأن الناس إذا بعثوا لا يكونون ذاكرين لأعمالهم، قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[(٢)]. . فإذا بعثوا من قبورهم إلى الموقف، وقاموا فيه ما شاء تعالى على ما تقدم حفاة عراة، وجاء وقت الحساب الذي يريد اللَّه أن يحاسبهم فيه؛ أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأوتوها، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه فأولئك هم السعداء، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره، وهم الأشقياء، فعند ذلك يقرأ كل كتابه، وأنشدوا:

مثل وقوفك يوم العرض عريانا ... مستوحشًا قلق الأحشاء حيرانا

والنار تلهب من غيظ ومن حنق ... على العصاة ورب العرش غضبانا

اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... فهل ترى فيه حرفًا غير ما كانا

لما قرأت ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا

نادى الجليل: خذوه يا ملائكتي ... وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا

المشركون غدًا في النار يلتهبوا ... والمؤمنون بدار الخلد سكانا»[(٣)].

قال ابن جرير: «فإن قال قائل: وكيف قيل: فسوف يحاسب، والمحاسبة لا تكون إلا من اثنين، واللَّه القائم بأعمالهم ولا أحد له قِبَل ربه طَلِبة فيحاسبه؟ قيل: إن ذلك تقرير من اللَّه للعبد بذنوبه، وإقرار من العبد بها وبما أحصاه كتاب عمله، فذلك المحاسبة على ما وصفنا، ولذلك قيل: يحاسب»[(٤)].

وقوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾:

قال الشوكاني: «أي: وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم في الجنة من عشيرته، أو إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد، وقد

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠٧).
(٢) المجادلة: الآية (٦).
(٣) التذكرة (ص: ٢٥٥-٢٥٦).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ١١٦).

سبقوه إلى الجنة، أو إلى من أعدّه اللّه له في الجنة من الحور العين، والولدان المخلدين، أو إلى جميع هؤلاء مسرورًا مبتهجًا بما أوتي من الخير والكرامة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مناقشة الحساب يوم القيامة

* عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**من نوقش الحساب عُذِّب**»، قالت: قلت: أليس يقول اللّه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾؟ قال: «**ذلك العرض**»[٢].

* عن عائشة: «سمعت رسول اللّه ﷺ يقول في بعض صلاته: **اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا**، فلما انصرف قلت: يا رسول الله! ما الحساب اليسير؟ قال: **ينظر في كتابه ويتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب -يا عائشة- يومئذ هلك، وكل ما يصيب المؤمن كفر اللّه عنه، حتى الشوكة تشوكه**»[٣].

⋆ غريب الحديثين:

نوقش: قال أبو عبيد: المناقشة: الاستقصاء في الحساب حتى لا يترك منه شيء، ومنه قولهم: انتقشت منه جميع حقي، وأحسب نقش الشوكة من هذا، وهو استخراجها حتى لا يترك في الجسد منها شيء.

⋆ فوائد الحديثين:

قال القاضي: «**(من نوقش الحساب عُذِّب)**: أي من استقصى عليه.. ولقوله: «**عُذِّب**» معنيان: أحدهما: أن نفس مناقشة الحساب، وعرض الذنوب، والتوقيف على قبيح ما سلف له تعذيب وتوبيخ. والثاني: أنه مفضٍ إلى استحقاق العذاب؛ إذ لا حسنة للعبد يعملها إلا من عند اللّه وتفضله، وإقراره له عليها، وهدايته لها، وأن الخالص لوجهه تعالى من الأعمال قليل. ويؤيد هذا التأويل قوله في الرواية

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٨٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٧)، والبخاري (١١/ ٤٨٧/ ٦٥٣٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٤/ ٢٨٧٦)، وأبو داود (٣/ ٤٧١-٤٧٢/ ٣٠٩٣)، والترمذي (٥/ ٤٠٥/ ٣٣٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٠/ ١١٦٥٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٨)، وابن جرير (٣٠/ ١١٥)، والحاكم (١/ ٥٧و٢٥٥) و(٤/ ٢٤٩و٥٨٠) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه أيضًا ابن حبان (١٦/ ٣٧٢/ ٧٣٧٢)، ويشهد له أيضًا الحديث الذي قبله.

الأخرى: «هلك» مكان «عُذِّب»»[١].

قال النووي: «وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد، فمن استقصى عليه، ولم يسامح هلك ودخل النار، ولكن اللَّه تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء»[٢].

وقال القرطبي: «واعتراض عائشة ﵂ بقول اللَّه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ إنما حملها عليه أنها تمسكت بظاهر لفظ الحساب؛ لأنه يتناول القليل والكثير، ولو سمعت لفظ المناقشة لما وقع لها ذلك، واللَّه تعالى أعلم.

وقوله: «**إنما ذلك العرض**» يعني أن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه، ويوقف عليها تفصيلًا حتى يعرف منة اللَّه تعالى عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة»[٣].

* * *

---

(١) الإكمال (٨/ ٤٠٧).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٧١).

(٣) المفهم (٧/ ١٥٧-١٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾

★ غريب الآية:

ثبورًا: الثُّبور: الهلاك والفساد. والمثابرة على الشيء: المواظبة عليه.

يحور: حار يحور حَورًا، أي: رجع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأما من أعطي كتابه منكم أيها الناس يومئذ وراء ظهره، وذلك أن جعل يده اليمنى إلى عنقه وجعل الشمال من يديه وراء ظهره، فيتناول كتابه بشماله من وراء ظهره، ولذلك وصفهم -جل ثناؤه- أحيانًا أنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم، وأحيانًا أنهم يؤتونها من وراء ظهورهم»(١).

قال الرازي: «فإن قيل: أليس أنه قال في سورة (الحاقة): ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾(٢) ولم يذكر الظهر؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: يحتمل أن يؤتى بشماله وراء ظهره؛ على ما حكيناه عن الكلبي.

وثانيها: أن يكون بعضهم يعطى بشماله، وبعضهم من وراء ظهره»(٣).

قال الشيخ العثيمين: «الظاهر أن الاختلاف اختلاف صفات؛ فالذي يأخذ كتابه من وراء ظهره هو الذي يأخذ كتابه بشماله، فيأخذ بالشمال، وتجعل يده من

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١١٧).

(٢) الحاقة: الآية (٢٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠٧).

الخلف؛ فكونه يأخذ بالشمال لأنه من أهل الشمال، وكونه من وراء ظهره لأنه لما استدبر كتاب الله؛ وولى ظهره إياه في الدنيا؛ صار من العدل أن يجعل كتاب أعماله يوم القيامة خلف ظهره، فعلى هذا تخلع اليد الشمال حتى تكون من الخلف، والله أعلم»[١].

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١﴾:

قال الرازي: «اعلم أن الثبور هو الهلاك. والمعنى: أنه لما أوتي كتابه من غير يمينه علم أنه من أهل النار، فيقول: واثبوراه! قال الفراء: العرب تقول: فلان يدعو لهفه، إذا قال: والهفاه!

وفيه وجه آخر ذكره القفال، فقال: الثبور مشتق من المثابرة على شيء، وهي المواظبة عليه، فسمى هلاك الآخرة ثبورًا؛ لأنه لازم لا يزول؛ كما قال: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[٢]، وأصل الغرام: اللزوم والولوع»[٣].

قوله: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾: قال الرازي: «يقال: صلى الكافر النار، قال الله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٤]، وقال: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾[٥]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾[٦]، وقال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾[٧]، والمعنى: أنه إذا أعطي كتابه بشماله من وراء ظهره فإنه يدعو الثبور ثم يدخل النار، وهو في النار أيضًا يدعو ثبورًا، كما قال: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[٨]، وأحدهما لا ينفي الآخر، وإنما هو على اجتماعهما قبل دخول النار وبعد دخولها، نعوذ بالله منها ومما قرب إليها من قول أو عمل»[٩].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾:

قال الرازي: «ذكر القفال فيه وجهين:

أحدهما: أنه كان في أهله مسرورًا، أي: منعمًا مستريحًا من التعب بأداء العبادات، واحتمال مشقة الفرائض من الصلاة، والصوم، والجهاد، مقدمًا على

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٥٠-١٥١).
(٢) الفرقان: الآية (٦٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠٧).
(٤) النساء: الآية (١٠).
(٥) النساء: الآية (١١٥).
(٦) الصافات: الآية (١٦٣).
(٧) الليل: الآيتان (١٥و١٦).
(٨) الفرقان: الآية (١٣).
(٩) المصدر السابق (٣١/ ١٠٨).

المعاصي، آمنًا من الحساب والثواب والعقاب، لا يخاف اللَّه، ولا يرجوه، فأبدله اللَّه بذلك السرور الفاني غمًّا باقيًا لا ينقطع، وكان المؤمن الذي أوتي كتابه بيمينه متقيًا من المعاصي، غير آمن من العذاب، ولم يكن في دنياه مسرورًا في أهله، فجعله اللَّه في الآخرة مسرورًا، فأبدله اللَّه تعالى بالغمّ الفاني سرورًا دائمًا لا ينفد.

الثاني: أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾[1]، أي: متنعمين في الدنيا، معجبين بما هم عليه من الكفر، فكذلك ههنا يحتمل أن يكون المعنى أنه كان في أهله مسرورًا بما هم عليه من الكفر باللَّه، والتكذيب بالبعث، يضحك ممن آمن به وصدق بالحساب»[2].

قال القرطبي: «قال ابن زيد: وصف اللَّه أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[3]. قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه. فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾»[4].

قال عطية سالم: «بين هنا نتيجة سرور أولئك في الدنيا، بأنهم يصلون سعيرًا، ولم يبين سبب سرور الآخرين، ولكن بينه في موضع آخر وهو خوفهم من اللَّه في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾[5]. وهنا يقال: إن اللَّه سبحانه لم يجمع على عبده خوفين، ولم يعطه الأمنين معًا، فمن خافه في الدنيا أمنه في الآخرة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[6]. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[7]. ومن أمن مكر اللَّه وقضى كل شهواته وكان لا يبالي فيؤتى كتابه بشماله ويصلى سعيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا

---

(١) المطففين: الآية (٣١).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠٨).
(٣) الطور: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٧٩).
(٥) الطور: الآيات (٢٦-٢٨).
(٦) الرحمن: الآية (٤٦).
(٧) النازعات: الآيتان (٤٠و٤١).

أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1]، تكذيبًا للبعث. وقوله هذا هو بعينه المذكور في الآيات: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾»[2].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنّ هذا الذي أُوتي كتابه وراء ظهره يوم القيامة؛ ظنّ في الدنيا أن لن يرجع إلينا، ولن يُبعث بعد مماته، فلم يكن يبالي ما ركب من المآثم؛ لأنه لم يكن يرجو ثوابًا، ولم يكن يخشى عقابًا»[3].

قال عطية سالم: «هذا الظن مثل ما تقدم في حق المطففين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾[4]، مما يشعر أن عدم الإيمان بالبعث أو الشك فيه هو الدافع لكل سوء والمضيع لكل خير، وأن الإيمان باليوم الآخر هو المنطلق لكل خير والمانع لكل شر، والإيمان بالبعث هو منطلق جميع الأعمال الصالحة كما في مستهل المصحف ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[5] الآيات»[6].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾:

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: إن رب هذا الذي ظن أن لن يحور؛ كان به بصيرًا إذ هو في الدنيا بما كان يعمل فيها بالمعاصي، وما إليه يصير أمره في الآخرة، عالم بذلك كله»[7].

قال الرازي: «وهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصي»[8].

قال ابن عاشور: «وفيه إشارة إلى حكمة البعث للجزاء؛ لأن رب الناس عليم بأحوالهم فمنهم المصلح ومنهم المفسد، والكل متفاوتون في ذلك، فليس من الحكمة أن يذهب المفسد بفساده وما ألحَقَهُ بالموجودات من مضار، وأن يهمل صلاح المصلح، فجَعَل اللَّه الحياة الأبدية وجعلها للجزاء على ما قدّم صاحبها في حياته الأولى»[9].

---

(١) الواقعة: الآيات (٤١-٤٧).
(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ١١٨).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ١١٨).
(٤) المطففين: الآيتان (٤و٥).
(٥) البقرة: الآية (٢).
(٦) تتمة أضواء البيان (٩/ ١١٩).
(٧) جامع البيان (٣٠/ ١١٩).
(٨) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠٩).
(٩) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حال الكافر في الدنيا

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «إنما كانت الدنيا كذلك لأن المؤمن فيها مقيّد بقيود التكاليف، فلا يقدر على حركة ولا سكون إلا أن يفسح له الشرع، فيفكّ قيده، ويمكنّه من الفعل أو الترك، مع ما هو فيه من توالي أنواع البلايا والمحن والمكابدات من الهموم، والغموم، والأسقام، والآلام، ومكابدة الأنداد، والأضداد، والعيال، والأولاد. وعلى الجملة: «**وأشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل. يبتلى الرجل بحسب دينه**»[٢] كما قاله ﷺ. وأيّ سجن أعظم من هذا؟! ثم هو في هذا السجن على غاية الخوف والوجل، إذ لا يدري بماذا يُختم له من عمل. كيف وهو يتوقع أمرًا لا شيء أعظم منه، ويخاف هلاكًا لا هلاك فوقه؟! فلولا أنه يرتجي الخلاص من هذا السجن لهلك مكانه، لكنه لطف به، فهوّن عليه ذلك كله بما وعد على صبره، وبما كُشف له من حميد عاقبة أمره. والكافر منفكّ عن تلك الحالات بالتكاليف، آمنٌ من تلك المخاويف، مقبل على لذّاته، منهمك في شهواته، معتزّ بمساعدة الأيام، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، وعن قريب يستيقظ من هذه الأحلام، ويحصل في السجن الذي لا يُرام، فنسأل اللَّه السلامة من أهوال يوم القيامة»[٣].

قال المناوي: «ذكروا أن الحافظ ابن حجر لما كان قاضي القضاة مرّ يومًا بالسوق في موكب عظيم وهيئة جميلة، فهجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار، وأثوابه ملطخة بالزيت، وهو في غاية الرثاثة والشناعة، فقبض على لجام بغلته

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٢/ ٢٩٥٦)، والترمذي (٤/ ٤٨٦/ ٢٣٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٨٥)، والترمذي (٤/ ٥٢٠/ ٢٣٩٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤/ ٤٠٢٣)، وصححه ابن حبان (٧/ ١٦١/ ٢٩٠١)، والحاكم (١/ ٤٠-٤١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، من حديث مصعب بن سعد عن أبيه.

(٣) المفهم (٧/ ١٠٩-١١٠).

وقال: يا شيخ الإسلام! تزعم أن نبيكم قال: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» فأيّ سجن أنت فيه؟ وأي جنة أنا فيها؟ فقال: أنا بالنسبة لما أعد اللَّه لي في الآخرة من النعيم كأني الآن في السجن، وأنت بالنسبة لما أعد لك في الآخرة من العذاب الأليم كأنك في جنة، فأسلم اليهودي»[١].

ولا يفهم من هذا الحديث أن المؤمن لا يعيش نعيمًا أبدًا في الدنيا، بل نعيم المؤمن في الدنيا أرجح من نعيم الكافر؛ يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا مما يظهر به حسن حال المؤمن وجنة الكافر، فأما ما وعد به المؤمن بعد الموت من كرامة اللَّه فإنه تكون الدنيا بالنسبة إليه سجنًا، وما للكافر بعد الموت من عذاب اللَّه فإنه تكون الدنيا جنة بالنسبة إلى ذلك.

وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما عاجز وإما قادر، فإن كان عاجزًا تعارضت إرادته وقدرته حتى لا يمكنه الجمع بينهما، وإن كان قادرًا أقبل على الشهوات وأسرف في التذاذه بها ولا يمكنه تركها.

ولهذا تجد القوم من الظالمين أعظم الناس فجورًا وفسادًا وطلبًا لما يروحون به أنفسهم من مسموع ومنظور ومشموم ومأكول ومشروب، ومع هذا فلا تطمئن قلوبهم بشيء من ذلك، هذا فيما ينالونه من اللذة، وأما ما يخافونه من الأعداء فهو أعظم الناس خوفًا، ولا عيشة لخائف، وأما العاجز منهم فهو في عذاب عظيم لا يزال في أسف على ما فاته وعلى ما أصابه.

وأما المؤمن فهو مع مقدرته له من الإرادة الصالحة والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه وانشراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة، وله من الطمأنينة وقرة العين ما لا يمكن وصفه، وهو مع عجزه أيضًا له من أنواع الإرادات الصالحة والعلوم النافعة التي يتنعم بها ما لا يمكن وصفه.

وكل هذا محسوس مجرب، وإنما يقع غلط أكثر الناس أنه قد أحس بظاهر من لذات أهل الفجور وذاقها، ولم يذق لذّات أهل البر ولم يخبرها، ولكن أكثر الناس جهال كما لا يسمعون ولا يعقلون، وهذا الجهل لعدم شهود حقيقة الإيمان ووجود حلاوته وذوق طعمه، انضم إليه أيضًا جهل كثير من المتكلمين في العلم بحقيقة ما

---

(١) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).

في أمر اللَّه من المصلحة والمنفعة، وما في خلقه أيضًا لعبده المؤمن من المنفعة والمصلحة، فاجتمع الجهل بما أخبر اللَّه به من خلقه وأمره وما أشهده عباده من حقيقة الإيمان ووجود حلاوته، مع ما في النفوس من الظلم مانعًا للنفوس من عظيم نعمة اللَّه وكرامته ورضوانه، موقعًا لها في بأسه وعذابه وسخطه»[١].

* * *

(١) قاعدة في المحبة (ص: ١٧٥-١٧٧).

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾

★ **غريب الآية:**

الشفق: الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: فأقسم و(لا) صلة. ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ أي: بالحمرة التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة. قال أشهب وعبد اللَّه بن الحكم ويحيى بن يحيى وغيرهم كثير عددهم عن مالك: الشفق الحمرة التي في المغرب، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجت من وقت المغرب ووجبت صلاة العشاء.

وروى ابن وهب قال: أخبرني غير واحد عن علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس وأبي هريرة: أن الشفق الحمرة، وبه قال مالك ابن أنس.

وذكر غير ابن وهب من الصحابة: عمر وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنسًا وأبا قتادة وجابر بن عبد اللَّه وابن الزبير، ومن التابعين: سعيد بن جبير، وابن المسيب وطاوس، وعبد اللَّه بن دينار، والزهري، وقال به من الفقهاء الأوزاعي ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيدة وأحمد وإسحاق، وقيل: هو البياض، روى ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة أيضًا وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وأبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه. وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه.

وروي عن ابن عمر أيضًا أنه البياض والاختيار الأول؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه، ولأن شواهد كلام العرب والاشتقاق والسنة تشهد له»[1].

قال ابن عطية: «وقسمُ اللَّه تعالى بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها، وتعريفها للعبرة؛ إذ القسم بها منبه منها»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٨٠-١٨١). (٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٥٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الشفق

* عن عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**وقت الظهر ما لم يحضر العصر، ووقت العصر ما لم تصفر الشمس، ووقت المغرب ما لم يسقط ثور الشفق، ووقت العشاء إلى نصف الليل، ووقت الفجر ما لم تطلع الشمس**»[١].

★ **غريب الحديث:**

ثور الشفق: ثوران حمرته.

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث دليل على أن الشفق هو كما قال الجوهري والخليل: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق[٢].

قال ابن القيم: «ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقتُ العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة؛ فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حدًّا لوقت المغرب، فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق، فدخل وقت العشاء. وأما البياض فإنه يمتد وقتُه بطول لبثه، ويكون حاصلًا مع بعد الشمس عن الأفق، ولهذا صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «الشفق الحمرة»»[٣].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٠)، ومسلم (١/ ٤٢٧/ ٦١٢[١٧٢])، وأبو داود (١/ ٢٨٠-٢٨١/ ٣٩٦)، والنسائي (١/ ٢٨١-٢٨٢/ ٥٢١).

(٢) أفاده ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٨٠).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾

★ **غريب الآية:**

وسق: ضم وجمع؛ من الوَسْقِ: وهو جمع الأشياء المتفرقة. ووسقت الطعام أَسِقُهُ: إذا جمعته.

اتسق: اجتمع وتكامل ضوؤه. والاتساق: الاجتماع والاطراد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي جمع وضم ولف، وأصله من سورة السلطان وغضبه، فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه، ولكن خرج من باب الرحمة فمزح بها، فسكن الخلق إليه ثم ابْذَعَرُّوا والتفوا وانقبضوا، ورجع كل إلى مأواه فسكن فيه من هوله وحشًا، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: بالليل، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[1] أي: بالنهار على ما تقدم. فالليل يجمع ويضم ما كان منتشرًا بالنهار في تصرفه. هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل وغيرهم، قال القشيري: والليل يجلل بظلمته كل شئ فإذا جللها فقد وسقها. ويكون هذا القسم قسمًا بجميع المخلوقات؛ لاشتمال الليل عليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩﴾[2]»[3].

وقوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾:

قال ابن عطية: «واتساق القمر: كماله وتمامه بدرًا. فالمعنى: امتلأ من النور»[4].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومسروق، وأبو صالح، والضحاك، وابن زيد.

---

(١) القصص: الآية (٧٣).

(٢) الحاقة: الآيتان (٣٨-٣٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٨٢).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٤٥٨).

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾ إذا استوى. وقال الحسن: إذا اجتمع، إذا امتلأ. وقال قتادة: إذا استدار.

ومعنى كلامهم: أنه إذا تكامل نوره وأبدر، جعله مقابلًا لليل وما وسق»[١].

قال ابن القيم في معرض كلامه على هذه الآيات الثلاث: «والليل وما ضمه وحواه آية أخرى والقمر آية واتساقه آية أخرى، والشفق يتضمن إدبار النهار، وهو آية وإقبال الليل، وهو آية أخرى، فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر يتعاقبان لمصالح الخلق، فإدبار النهار آية وإقبال الليل آية، وتعقب أحدهما الآخر آية، والشفق الذي هو متضمن الأمرين آية، والليل آية وما حواه آية، والهلال آية وتزايده كل ليلة آية، واتساقه -وهو امتلاؤه نورًا آية، ثم أخذه في النقص آية وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله، ولهذا شرع -عند إقبال الليل وإدبار النهار- ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب.. كما شرع ذكر اللَّه بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار، ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤﴾[٢]، وهو يقابل إقسامه بالشفق، ونظيره إقسامه بـ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾[٣].

ولما كان الرب -تبارك وتعالى- يحدث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه ويبث من خلقه ما شاء، فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره، شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحداهما اتصال الأخرى بها مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال، ومن حكم إلى حكم، وذلك مبدأ ومعاد يومي مشهود للخليقة كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩﴾[٤]»[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٨١).
(٢) المدثر: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٣) التكوير: الآيتان (١٧و١٨).
(٤) العنكبوت: الآية (١٩).
(٥) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧١-٧٢).

قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾

★ غريب الآية:

طبقًا عن طبق: أي: حالًا بعد حال. قال الشاعر:

الصبر أحمد والدنيا مفجعة   من ذا الذي لم يذق من عيشه رنقا

إذا صفا لك من مسرورها طبق   هدى لك الدهر من مكروهها طبقا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «عن مجاهد قال: قال ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾: حالًا بعد حال. قال هذا نبيكم ﷺ»[1] هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ كأنه قال: سمعت هذا من نبيكم ﷺ، فيكون قوله: «نبيكم» مرفوعًا على الفاعلية من (قال)، وهو الأظهر، والله أعلم، كما قال أنس: «**لا يأتي عام إلا والذي بعده شر منه**»[2]، سمعته من نبيكم ﷺ. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم أخبرنا أبو بشر عن مجاهد أن ابن عباس كان يقول: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ قال يعني نبيكم ﷺ يقول: حالًا بعد حال»، هذا لفظه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: حالًا بعد حال، وكذا قال عكرمة ومرة الطيب ومجاهد والحسن والضحاك ومسروق وأبو صالح، ويحتمل أن يكون المراد: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾: حالًا بعد حال، قال: «هذا -يعني المراد- نبيكم ﷺ»، فيكون مرفوعًا على أن (هذا) و(نبيكم) يكونان مبتدأ وخبرًا، والله أعلم. ولعل هذا أن يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة، كما قال أبو داود الطيالسي وغندر: حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ قال:

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٩٠٤/ ٤٩٤٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٢)، والبخاري (١٣/ ٢٤/ ٧٠٦٨)، والترمذي (٤/ ٤٢٦/ ٢٢٠٦).

«محمد ﷺ»، ويؤيد هذا المعنى قراءة عمر وابن مسعود وابن عباس وعامة أهل مكة والكوفة: (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح التاء والباء، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة عن إسماعيل عن الشعبي: (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) قال: لتركبَنَّ -يا محمد- سماءً بعد سماء، وهكذا روي عن ابن مسعود ومسروق وأبي العالية: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: «سماء بعد سماء»، قلت: يعنون ليلة الإسراء، وقال ابن إسحاق والسدي عن رجل عن ابن عباس: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: «منزلًا على منزل»، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس مثله، وزاد: ويقال: «أمرًا بعد أمر، وحالًا بعد حال»، وقال السدي نفسه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾: أعمال من قبلكم منزلًا بعد منزل. قلت: كأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «**لتركبُنّ سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة؛ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**. قالوا: يا رسول اللَّه، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[١] وهذا محتمل»[٢].

وقال الرازي: «والمعنى: لتركبنّ أحوالًا بعد أحوال، هي طبقات في الشدة، بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من أهوال القيامة، ولنذكر الآن وجوه المفسرين فنقول: أما القراءة برفع (الباء)، وهو خطاب الجمع، فتحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون المعنى: لتركبُنَّ -أيها الإنسان- أمورًا وأحوالًا، أمرًا بعد أمر، وحالًا بعد حال، ومنزلًا بعد منزل، إلى أن يستقر الأمر على ما يقضى به على الإنسان أول من جنة أو نار، فحينئذ يحصل الدوام والخلود، إما في دار الثواب أو في دار العقاب، ويدخل في هذه الجملة أحوال الإنسان من يكون نطفة إلى أن يصير شخصًا، ثم يموت، فيكون في البرزخ، ثم يحشر، ثم ينقل إما إلى جنة، وإما إلى نار.

وثانيها: أن معنى الآية: أن الناس يلقون يوم القيامة أحوالًا وشدائد، حالًا بعد حال، وشدة بعد شدة، كأنهم لما أنكروا البعث أقسم اللَّه أن البعث كائن، وأن الناس يلقون فيها الشدائد والأهوال إلى أن يفرغ من حسابهم، فيصير كل أحد إلى ما أعد له من جنة أو نار، وهو نحو قوله: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾[٣] وقوله:

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٤)، والبخاري (٦/ ٦١٣/ ٣٤٥٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٤/ ٢٦٦٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٨١-٣٨٢).

(٣) التغابن: الآية (٧).

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[1] وقوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[2].

وثالثها: أن يكون المعنى أن الناس تنتقل أحوالهم يوم القيامة عما كانوا عليه في الدنيا فمن وضيع في الدنيا يصير رفيعًا في الآخرة، ومن رفيع يتضع، ومن متنعم يشقى، ومن شقي يتنعم، وهو كقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾[3]، وهذا التأويل مناسب لما قبل هذه الآية؛ لأنه تعالى لما ذكر حال من يؤتى كتابه وراء ظهره، أنه كان في أهله مسرورًا، وكان يظن أن لن يحور، أخبر اللَّه أنه يحور، ثم أقسم على الناس أنهم يركبون في الآخرة طبقًا عن طبق، أي: حالًا بعد حالهم في الدنيا.

ورابعها: أن يكون المعنى: لتركبُنّ سنة الأولين ممن كان قبلكم في التكذيب بالنبوة والقيامة»[4].

وقال القاسمي: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾.. والمعني بالحال الأولى: البعث للجزاء على الأعمال، وبالثانية: الحياة الأولى. وفيه تنبيه على مطابقة كل واحدة لأختها، فإن الحياة الثانية تماثل الأولى وتطابقها من حيث الحس والإدراك والألم واللذة، وإن خفي اكتناهها»[5].

قال الرازي: «أما القراءة بنَصْب (الباء)، ففيها قولان:

الأول: قول من قال: إنه خطاب مع محمد ﷺ، وعلى هذا التقدير ذكروا وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك بشارة للنبي ﷺ بالظفر والغلبة على المشركين المكذبين بالبعث، كأنه يقول: أقسم يا محمد لتركبَنَّ حالًا بعد حال حتى يختم لك بجميل العافية، فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم. وفي هذا الوجه احتمال آخر يقرب مما ذكرنا، وهو أن يكون المعنى: أنه يركب حال ظفر وغلبة بعد حال خوف وشدة. واحتمال ثالث: وهو يكون المعنى: أن اللَّه تعالى يبدله بالمشركين أنصارًا من المسلمين، ويكون مجاز ذلك من قولهم: طبقات الناس، وقد يصلح هذا التأويل على قراءة من قرأ بضم (الباء)، كأنه خطاب للمسلمين بتعريف تنقل الأحوال بهم، وتصييرهم إلى الظفر بعدوهم بعد الشدة التي يلقونها منهم؛ كما

(١) القلم: الآية (٤٢).
(٢) المزمل: الآية (١٧).
(٣) الواقعة: الآية (٣).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١١٠-١١١).
(٥) محاسن التأويل (١٧/ ١٠٦).

قال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[١] الآية. وثانيهما: أن يكون ذلك بشارة لمحمد ﷺ بصعوده إلى السماء لمشاهدة ملكوتها، وإجلال الملائكة إياه فيها، والمعنى: لتركبَنَّ يا محمد السموات طبقًا عن طبق، وقد قال تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾[٢]، وقد فعل اللَّه ذلك ليلة الإسراء، وهذا الوجه مروي عن ابن عباس وابن مسعود. وثالثها: لتركبَنَّ يا محمد درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من اللَّه تعالى.

القول الثاني في هذه القراءة: أن هذه الآية في السماء وتغيرها من حال إلى حال، والمعنى: لتركبَنَّ السماء يوم القيامة حالة بعد حالة، وذلك لأنها أولًا تنشق كما قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ①﴾[٣]، ثم تنفطر كما قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ①﴾[٤]، ثم تصير: ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[٥]، وتارة: ﴿كَالْمُهْلِ﴾[٦]، على ما ذكر اللَّه تعالى هذه الأشياء في آيات من القرآن، فكأنه تعالى لما ذكر في أول السورة أنها تنشق؛ أقسم في آخر السورة أنها تنتقل من أحوال إلى أحوال، وهذا الوجه مروي عن ابن مسعود»[٧].

قال ابن القيم: «واختار أبو عبيدة قراءة الضم وقال: المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ فإنه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمينه ومن يؤتى كتابه بشماله، ثم ذكر بعدها قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑳﴾ فذكر كونهم طبقًا بعد طبق، قال الواحدي: وهذا قول أكثر المفسرين قالوا: لتركبن حالًا بعد حال، ومنزلًا بعد منزل، وأمرًا بعد أمر، قال سعيد بن جبير وابن زيد: لتكونُنّ في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرُنّ أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى. وقال عطاء: شدة بعد شدة»[٨].

قال القرطبي: «وكله مراد»[٩].

وقال السعدي: «فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد؛ دالة على أن اللَّه وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم»[١٠].

(١) آل عمران: الآية (١٨٦).
(٢) الملك: الآية (٣).
(٣) الانشقاق: الآية (١).
(٤) الانفطار: الآية (١).
(٥) الرحمن: الآية (٣٧).
(٦) المعارج: الآية (٨).
(٧) مفاتيح الغيب (٣١/ ١١١).
(٨) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٣).
(٩) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٨٣).
(١٠) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٨).

قال القرطبي: «قالت الحكماء: من كان اليوم على حالة، وغدًا على حالة أخرى؛ فليعلم أن تدبيره إلى سواه. وقيل لأبي بكر الوراق: ما الدليل على أن لهذا العالم صانعًا؟ فقال: تحويل الحالات، وعجز القوة، وضعف الأركان، وقهر النية، ونسخ العزيمة»[1].

قال ابن القيم مقررًا المعنى نفسه: «وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه؛ وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية، وتغيير اللّه سبحانه للعالم، وتصريفه له كيف أراد، ونقله إياه من حال إلى حال، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له، ومحال أن يكون فاعله غير قادر ولا حي ولا مريد ولا حكيم ولا عليم، وكلاهما في الامتناع سواء. فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته وتوحيده، وصفات كماله وصدقه وصدق رسله، وعلى المعاد»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بعض وجوه تفسير الآية

* عن سنان بن أبي سنان الدؤلي أنه سمع أبا واقد الليثي يقول -وكان من أصحاب رسول اللّه ﷺ-: «لما افتتح رسول اللّه مكة خرج بنا معه قبل هوازن، حتى مررنا على سدرة الكفار، سدرة يعكفون حولها ويدعونها ذات أنواط، قلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال رسول اللّه ﷺ: **اللّه أكبر! إنها السنن، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**[3]، ثم قال رسول اللّه ﷺ: **إنكم لتركبنّ سنن من قبلكم**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث حجة لمن ذهب من العلماء إلى أن معنى الآية: لتركبنّ سنة الأولين ممّن كان قبلكم في التكذيب بالنبوة وغيرها. وقد مر الخلاف في المسألة في تفسير الآية مع بيان الراجح من ذلك، فلا معنى لإعادته ههنا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٨٤). (٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٤).

(٣) الأعراف: الآية (١٣٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٤/ ٤١٢-٤١٣/ ٢١٨٠)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٦/ ١١١٨٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٩٤/ ٦٧٠٢) واللفظ له.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «يعني: أيّ شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات. وهذا استفهام إنكار. وقيل: تعجب، أي: اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات»[١].

قال الرازي: «الأقرب أن المراد: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ بصحة البعث والقيامة؛ لأنه تعالى حكى عن الكافر: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝﴾[٢]، ثم أفتى سبحانه بأنه يحور، فلما قال بعد ذلك: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ دل على أن المراد: فما لهم لا يؤمنون بالبعث والقيامة. ثم اعلم أن قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ استفهام بمعنى الإنكار، وهذا إنما يحسن عند ظهور الحجة وزوال الشبهات، الأمر ههنا كذلك؛ وذلك لأنه سبحانه أقسم بتغييرات واقعة في الأفلاك والعناصر، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها وهو ضوء النهار، ولما بعدها وهو ظلمة الليل، وكذا قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝﴾[٣]، فإنه يدل على حدوث ظلمة بعد نور، وعلى تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم، وكذا قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝﴾[٤]، فإنه يدل على حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصًا، إنه تعالى أقسم بهذه الأحوال المتغيرة على تغير أحوال الخلق، وهذا يدل قطعًا على صحة القول بالبعث؛ لأن القادر على تغيير الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال وصفة إلى صفة بحسب المصالح، لا بد وأن يكون.. قادرًا على البعث والقيامة، فلما كان ما قبل هذه الآية كالدلالة العقلية القاطعة على صحة البعث والقيامة؛ لا جرم قال على سبيل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٨٤).

(٢) الانشقاق: الآية (١٤).

(٣) الانشقاق: الآية (١٧).

(٤) الانشقاق: الآية (١٨).

الاستبعاد: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾»[1].

وقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾:

قال السعدي: «أي: لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه»[2].

قال شيخ الإسلام: «قال أبو الفرج: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾ فيه قولان:

أحدهما: لا يصلون، قاله عطاء بن السائب.

والثاني: لا يخضعون له ولا يستكينون له، قاله ابن جرير واختاره القاضي أبو يعلى. قال: واحتج بها قوم على وجوب سجود التلاوة وليس فيها دلالة على ذلك. وإنما المعنى: لا يخشعون؛ ألا ترى أنه أضاف السجود إلى جميع القرآن، والسجود يختص بمواضع منه.

قلت: القول الأول هو الذي يذكره كثير من المفسرين لا يذكرون غيره: كالثعلبي والبغوي وحكوه عن مقاتل والكلبي، وهو المنقول عن مفسري السلف وعليه عامة العلماء.

وأما القول الثاني: فما علمت أحدًا نقله عن أحد من السلف، والذين قالوه إنما قالوه لما رأوا أنه لا يجب على كل من سمع شيئًا من القرآن أن يسجد، فأرادوا أن يفسروا الآية بمعنى يجب في كل حال. فقالوا: يخضعون ويستكينون. فإن هذا يؤمر به كل من قرئ عليه القرآن. ولفظ السجود يراد به مطلق الخضوع والاستكانة؛ كما قد بسط هذا في مواضع، لكن يقال لهم: الخضوع مأمور به، وخضوع الإنسان وخشوعه لا يتم إلا بالسجود المعروف، وهو فرض في الجملة على كل أحد، وهو المراد من السجود المضاف إلى بني آدم حيث ذكر في القرآن؛ إذ هو خضوع الآدمي للرب، والرب لا يرضى من الناس بدون هذا الخضوع؛ إذ هو غاية خضوع العبد، ولكل مخلوق خضوع بحسبه هو سجوده. وأما أن يكون سجود الإنسان لا يراد به إلا خضوع ليس فيه سجود الوجه: فهذا لا يعرف؛ بل يقال: هم مأمورون: إذا قرئ

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٨).

عليهم القرآن بالسجود وإن لم يكن السجود التام عقب استماع القرآن، فإنه لا بد أن يكون بين صلاتين، فإذا قاموا إلى الصلاة فقد أتوا بالسجود الواجب عليهم، وهم لما قرئ عليهم حصل لهم نوع من الخضوع والخشوع باعتقاد الوجوب والعزم على الامتثال. فإذا اعتقدوا وجوب الصلاة وعزموا على الامتثال فهذا مبدأ السجود المأمور به، ثم إذا صلوا فهذا تمامه؛ كما قال في المشركين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾[1]، فهم إذا تابوا والتزموا الصلاة كف عن قتالهم. فهذا مبدأ إقامتها ثم إذا فعلوها فقد أتموا إقامتها. وأما إذا التزموها بالكلام ولم يفعلوا فإنهم يقاتلون. ومما يدل على ذلك ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سجد بها في الصلاة؛ ففي الصحيحين عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ فسجد فقلت: ما هذه؟ قال: «سجدت بها خلف أبي القاسم، ولا أزال أسجد بها حتى ألقاه». وهذا الحديث قد اتفق العلماء على صحته. وأما سجوده فيها فرواه مسلم دون البخاري. والسجود فيها قول جمهور العلماء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم. وهو قول ابن وهب وغيره من أصحاب مالك، فكيف يقال: إن لفظ السجود فيها لم يرد به إلا مطلق الخضوع والاستكانة؟ وأما السجود المعروف فلم يدل عليه اللفظ، ولو كان هذا صحيحًا لم يكن السجود الخاص مشروعًا إذا تليت لاسيما في الصلاة، وبهذا يظهر جواب من أجاب من احتج بها على وجوب سجود التلاوة: بأن المراد الخضوع.

فإن قيل: فإذا فسر السجود بالصلاة -كما قاله الأكثرون-؛ لم يجب سجود التلاوة. قيل: الصلاة مرادة من جنس قراءة القرآن. كما تقدم. وهذه الآية توجب على من قرئ عليه القرآن أن يسجد، فإن قرئ عليه خارج الصلاة فعليه أن يسجد قريبًا إذا حضر وقت الصلاة، فإنه ما من ساعة يقرأ عليه فيها القرآن إلا هو وقت صلاة مفروضة فعليه أن يصليها؛ إذ بينه وبين وقت الصلاة المفروضة أقل من نصف يوم، فإذا لم يصل فهو ممن إذا قرئ عليه القرآن لا يسجد، فإن قرئ عليه القرآن في الصلاة فعليه أن يسجد سجدة يخر فيها من قيام وسجدة يخر فيها من قعود، وكل منهما بعد ركوع، كما بينه الرسول ﷺ. وأما السجود عند تلاوة هذه الآية: فهو

---

(١) التوبة: الآية (٥).

السجود الخاص وهو سجود التلاوة، وهذا سجود مبادر إليه عند سماع هذه الآية، فإنها أمرته أن يسجد إذا قرئ عليه القرآن، فمن تمام المبادرة أن يسجد عند سماعها سجود التلاوة. ثم يسجد عند تلاوة غيرها كما تقدم، فإن هذه الآية تأمر بالسجود إذا قرئ عليه هي أو غيرها، فهي الآمرة بالسجود عند قراءة القرآن دون سائر الآيات التي لا يسجد عندها، فكان لها حض من الأمر بالسجود مع عموم كونها من القرآن فتخص بالسجود لها، ويسجد في الصلاة إذا قرئت كما يسجد إذا قرئ غيرها.

وبهذا فسرها النبي ﷺ. فإنه سجد بها في الصلاة وفعله إذا خرج امتثالًا لأمر أو تفسيرًا لمجمل كان حكمه حكمه، فدل ذلك على وجوب السجود الذي سجده عند قراءة هذه السورة لاسيما وهو في الصلاة، والصلاة مفروضة وإتمامها مفروض، فلا تقطع إلا بعمل هو أفضل من إتمامها، فعلم أن سجود التلاوة فيها أفضل من إتمامها بلا سجود، ولو زاد في الصلاة فعلًا من جنسها عمدًا بطلت صلاته. وهنا سجود التلاوة مشروع فيها»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٥١-١٥٥).

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يوعون: أي: يضمرونه في أنفسهم، ويكتمونه من أفعالهم؛ مأخوذ من الوعاء الذي يجمع ما فيه؛ يقال: أوعَيْتُ الزادَ والمتاعَ: إذا جعلته في الوعاء. قال الشاعر:

الخيرُ أبقى وإن طال الزمان بِهِ والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ

غير ممنون: غير مقطوع ولا منقوص. وقيل: غير معدود. ومنه قيل المنونُ للمنيّة؛ لأنها تنقص العدد وتقطع المدد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي: يكذبون بمحمد ﷺ، وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد، والبعث، والثواب والعقاب»[(١)].

قال القاسمي: «قال الإمام: لا تظن أن قرع القرآن لم يكسر إغلاق قلوبهم، ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم بلى، قد بلغ وأقنع فيما بلغ، ولكن العناد هو الذي يمنعهم عن الإيمان، ويصدهم عن الإذعان، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل، وإنما هو تقصير المستدل وإعراضه عن هدايته»[(٢)].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

قال القرطبي: «أي: بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب. كذا روى الضحاك عن ابن عباس. وقال مجاهد: يكتمون من أفعالهم. ابن زيد: يجمعون من الأعمال

(١) فتح القدير (٥/ ٥٨٣).
(٢) محاسن التأويل (١٧/ ١٠٧).

الصالحة والسيئة»[١].

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: فبشر -يا محمد- هؤلاء المكذبين بآيات اللَّه بعذاب أليم لهم عند اللَّه موجع»[٢].

قال الشوكاني: «والكلام خارج مخرج التهكم بهم»[٣].

قال السعدي: «وسميت البشارة بشارة؛ لأنها تؤثر في البشرة سرورًا أو غمًّا. فهذه حال أكثر الناس: التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان به»[٤].

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾:

قال ابن كثير: «هذا استثناء منقطع، يعني لكن الذين آمنوا -أي: بقلوبهم- وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير منقوص. وقال مجاهد، والضحاك: غير محسوب. وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[٥]. وقال السدي: قال بعضهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: غير منقوص. وقال بعضهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد؛ فإن اللَّه ﷻ له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائمًا سرمدًا، والحمد لله وحده أبدًا؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَّفَس: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٦]»[٧].

قال الشيخ عطية سالم: «ومما يشهد لقول (غير محسوب): عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٨] وخصوصه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٩]،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٨٥).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ١٢٦).
(٣) فتح القدير (٥/ ٥٨٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩٨).
(٥) هود: الآية (١٠٨).
(٦) يونس: الآية (١٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٨٣).
(٨) آل عمران: الآية (٣٧).
(٩) غافر: الآية (٤٠).

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[(١)]، فهو بمعنى كافيًا من قولك: حسبي بمعنى كافيني.

والذي يظهر -واللَّه تعالى أعلم- أن كلًّا من المعنيين مقصود ولا مانع منه، وما ذهب إليه ابن كثير لا يتعارض مع قول الآخرين؛ لأن المن الممنوع هو ما فيه أذى وتنقيص، كما في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾[(٢)]، أما المن من اللَّه تعالى على عبده، فهو عين الإكرام والزلفى إليه سبحانه. والعلم عند اللَّه تعالى»[(٣)].

وهو ما رجحه **الرازي بقوله**: «والأولى أن يحمل اللفظ على الكل؛ لأن من شرط الثواب حصول الكل، فكأنه تعالى وعدهم بأجر خالص من الشوائب، دائم لا انقطاع فيه، ولا نقص، ولا بخس؛ وهذا نهاية الوعد. فصار ذلك ترغيبًا في العبادات، كما أن الذي تقدم هو زجر عن المعاصي، واللَّه ﷻ أعلم، والحمد لله رب العالمين»[(٤)].

* * *

(١) النبأ: الآية (٣٦).
(٢) البقرة: الآية (٢٦٢).
(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٢٤-١٢٥).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١١٣).



سورة البروج

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة رسول الله ﷺ بسورة (البروج) ومثيلاتها في المغرب

* عن جابر بن سمرة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، ونحوهما من السور»[1].

★ فوائد الحديث:

قوله: «كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾»: «أي: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين الأوليين من هاتين الصلاتين بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ و﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ففي العبارة تقديم وتأخير، أو أن (الواو) لا تقتضي ترتيبًا كما يؤيده ما في رواية الترمذي: «كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ وشبههما». و﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ أي: صاحبة الطرق والمنازل التي تسير فيها الكواكب السبعة، وسميت بروجًا لظهورها؛ لأن البرج في الأصل: الأمر الظاهر، مأخوذ من التبرج، ثم صار حقيقة عرفية للقصر العالي لظهوره، وقيل: البرج منزلة القمر، وقيل: الكوكب العظيم»[2].

وقال في «عون المعبود»: «قد تقرر في الأصول أن (كان) تفيد الاستمرار وعموم الأزمان، فينبغي أن يحمل قوله: «كان يقرأ في الظهر» على الغالب من

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠٣)، وأبو داود (١/ ٥٠٦/ ٨٠٥)، والترمذي (٢/ ١١٠-١١١/ ٣٠٧) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٥٠٦/ ٩٧٨)، وابن حبان (الإحسان ٥/ ١٣٥/ ١٨٢٧).

(٢) المنهل العذب (٥/ ٢٢٩).

حاله ﷺ، أو تحمل على أنها لمجرد وقوع الفعل؛ لأنها قد تستعمل لذلك كما قال ابن دقيق العيد لأنه قد ثبت أنه ﷺ: «كان يقرأ في الظهر بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾»[١] أخرجه مسلم، وأنه «قرأ في سورة (لقمان) و(الذاريات) في صلاة الظهر»[٢] أخرجه النسائي، وأنه «قرأ في الأولى من الظهر بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾» أخرجه النسائي[٣]، وثبت أنه كان يقرأ في الأوليين من صلاة الظهر بفاتحة الكتاب وسورتين، يطول في الأولى ويقصر في الثانية[٤] عند البخاري، ولم يعين السورتين، وثبت أنه كان يقرأ في الظهر في الركعتين الأوليين في كل ركعة قدر ثلاثين آية، وفي الأخريين قدر خمس عشرة آية[٥]، انتهى بتغيير واختصار. قلت: وقد ثبت «أن صلاة الظهر كانت تقام فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ثم يأتي أهله فيتوضأ ويدرك النبي ﷺ في الركعة الأولى مما يطيلها»[٦] أخرجه مسلم، وكذا ورد أحاديث مختلفة في قراءته ﷺ في سائر الصلوات، قال الحافظ: وجمع بينها بوقوع ذلك في أحوال متغايرة، إما لبيان الجواز أو لغير ذلك من الأسباب، واستدل ابن العربي باختلافها على عدم مشروعية سورة معينة في صلاة معينة، وهو واضح فيما اختلف لا فيما لم يختلف، كـ(تنزيل) و(هل أتى) في صبح الجمعة، انتهى»[٧].

وقال السندي: «قوله: «بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾» إلخ، ما جاء في اختلاف القراءة يحمل على اختلاف الأوقات والأحوال، فلا تنافي في أحاديث القراءة»[٨].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٦)، ومسلم (١/ ٢٩٨/ ٣٩٨)، وأبو داود (١/ ٥١٩-٥٢٠/ ٨٢٨-٨٢٩)، والنسائي (٢/ ٤٧٨/ ٩١٦-٩١٧)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: النسائي (٢/ ٥٠٢-٥٠٣/ ٩٧٠)، وابن ماجه (١/ ٢٧١/ ٨٣٠)، وانظر «الضعيفة» (رقم: ٤١٢٠)، من حديث البراء رضي الله عنه.

(٣) (٢/ ٥٠٣/ ٩٧١).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٨٣)، والبخاري (٢/ ٣١٢/ ٧٦٢)، ومسلم (١/ ٣٣٣/ ٤٥١)، وأبو داود (١/ ٥٠٣-٥٠٤/ ٧٩٨)، والنسائي (٢/ ٥٠٥-٥٠٦/ ٩٧٧)، وابن ماجه (١/ ٢٧١/ ٨٢٩) مختصرًا، من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

(٥) أخرجه: ابن ماجه (١/ ٢٧١/ ٨٢٨). قال البوصيري في الزوائد: «إسناده ضعيف؛ زيد العمي ضعيف، والمسعودي اختلط بآخر عمره، وأبو داود سمع منه بعد الاختلاط»، وبنحوه أخرجه: أحمد (٣/ ٢)، ومسلم (١/ ٤٣٤/ ٤٥٢)، والنسائي (١/ ٢٥٦/ ٤٧٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٥) مطولًا، ومسلم (١/ ٣٣٥/ ٤٥٤)، وابن ماجه (١/ ٢٧٠/ ٨٢٥)، والنسائي (٢/ ٥٠٣/ ٩٧٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٧) عون المعبود (٣/ ٢١-٢٢).

(٨) حاشية السندي على سنن النسائي (٢/ ٥٠٦).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢﴾

★ غريب الآية:

البروج: البروج في كلام العرب: القصور، واحدها: بُرْجٌ، وبه سمي بروج السماء لمنازلها المختصة بها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «في افتتاح السورة بهذا القسم تشويق إلى ما يرد بعده، وإشعار بأهمية المقسم عليه، وهو مع ذلك يَلفت ألبابَ السّامعين إلى الأمور المقسم بها؛ لأن بعضها من دلائل عظيم القدرة الإلهية المقتضية تفرد اللَّه تعالى بالإلهية وإبطالَ الشريك، وبعضها مذكِّر بيوم البعث الموعود، ورمز إلى تحقيق وقوعه، إذ القسم لا يكون إلا بشيء ثابت الوقوع، وبعضها بما فيه من الإبهام يوجِّه أنفُس السامعين إلى تطلب بيانه»[١].

قال ابن جرير: «واختلف أهل التأويل في معنى البروج في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُنِي بذلك: والسماء ذات القصور. قالوا: والبروج: القصور.. وقال آخرون: عني بذلك: والسماء ذات النجوم، وقالوا: نجومها بروجها.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: والسماء ذات الرمل والماء..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج: جمع بُرج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة، ومن ذلك قول الله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٢] هي منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجًا، فمسير القمر في كلّ برج منها يومان وثلث، فذلك

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣٧).

(٢) النساء: الآية (٧٨).

ثمانية وعشرون منزلًا ثم يستسرّ ليلتين، ومسير الشمس في كلّ برج منها شهر»[(١)].

قال الغزالي: «انظر كيف عظم اللَّه أمر السموات في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾[(٢)] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧﴾[(٣)] ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾[(٤)] وكقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾[(٥)] وكقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾[(٦)] وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾[(٧)] ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾[(٨)] فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون وما أقسم اللَّه بها، فما ظنك بما أقسم اللَّه تعالى به، وأحال الأرزاق عليه، وأضافها إليه فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾[(٩)] وأثنى على المفكرين فيه فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[(١٠)].. وذم المعرضين عنها فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ۝٣٢﴾[(١١)] فأيّ نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء، وهي متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سماه اللَّه تعالى محفوظًا فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ۝١٢﴾[(١٢)]، وقال: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾[(١٣)]، فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت. ولا تظننّ أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء، وضوء الكواكب وتفرقها، فإن البهائم تشاركك في هذا النظر. فإن كان هذا هو المراد فلم مدح اللَّه تعالى إبراهيم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[(١٤)]..»[(١٥)].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٢٧-١٢٨).
(٢) الطارق: الآية (١).
(٣) الذاريات: الآية (٧).
(٤) الشمس: الآية (٥).
(٥) الشمس: الآيتان (١و٢).
(٦) التكوير: الآيتان (١٥و١٦).
(٧) النجم: الآية (١).
(٨) الواقعة: الآيتان (٧٥و٧٦).
(٩) الذاريات: الآية (٢٢).
(١٠) آل عمران: الآية (١٩١).
(١١) الأنبياء: الآية (٣٢).
(١٢) النبأ: الآية (١٢).
(١٣) النازعات: الآيتان (٢٧و٢٨).
(١٤) الأنعام: الآية (٧٥).
(١٥) الإحياء (٤/ ٤٤٤-٤٤٥).

قال ابن القيم: «وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته؛ فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكري لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع؛ بل هو متساوي الجوانب، فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ولا عالم، ولا مريد ولا حي ولا حكيم ولا مباين للمفعول، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة، الذين لا يثبتون للعالم ربًّا بائنًا قادرًا فاعلًا بالاختيار، عالمًا بتفاصيله، حكيمًا مدبّرًا له.

فبروج السماء هي منازلها، أو منازل السيارة التي فيها من أعظم آياته سبحانه، فلهذا أقسم بها مع السماء»[١].

وفي الآية دلالة على عظيم القدرة وسعة العلم الإلهي إذ خلقها على تلك المقادير المضبوطة لينتفع بها الناس في مواقيت الأشهر والفصل؛ كما قال تعالى في نحو هذا: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢][٣].

قال ابن القيم: «ولم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر، وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره، ولهذا يعظم سبحانه هذا القسم كقوله: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء، فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها.. والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته»[٤].

وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾﴾:

يقول السعدي: «هو يوم القيامة الذي وعد اللَّه الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم الذي لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف اللَّه الميعاد»[٥].

---

(١) التبيان (ص: ٥٨-٥٩).

(٢) المائدة: الآية (٩٧).

(٣) أفاده ابن عاشور (٣٠/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٠٠).

قال عطية سالم: «فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين، كما قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1]، وفي حق الكفار: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾[2]، وسيعترفون بذلك عند البعث حينما يقولون: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾[3]، فاليوم الموعود هو يوم القيامة الموعود به لمجازاة كلا الفريقين على عملهم»[4].

قال ابن القيم: «وهو المقسم به وعليه، كما أن القرآن يقسم به وعليه، ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبى أن يتركهم سدى ويخلقهم عبثًا، وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة، وعلى وقوعه تارة، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة، فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان»[5].

* * *

---

(١) الأنبياء: الآية (١٠٣).

(٢) الزخرف: الآية (٨٣).

(٣) يس: الآية (٥٢).

(٤) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٣٠).

(٥) التبيان (ص: ٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «المراد بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق، أي: يحضر فيه، والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب، وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه، والمشهود يوم عرفة؛ لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج، وتحضره الملائكة. قال الواحدي: وهذا قول الأكثر. وحكى القشيري عن ابن عمر، وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى. وقال سعيد بن المسيب: الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة. وقال النخعي: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر. وقيل: الشاهد هو اللَّه سبحانه. وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[(١)] وقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[(٢)]. وقيل: الشاهد محمد ﷺ لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾[(٣)]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(٥)]. وقيل: الشاهد جميع الأنبياء لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾. وقيل: هو عيسى بن مريم لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[(٦)]. والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة: إما أمة محمد، أو أمم الأنبياء، أو أمة عيسى. وقيل: الشاهد آدم، والمشهود ذريته. وقال محمد بن كعب: الشاهد الإنسان؛ لقوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[(٧)]. وقال مقاتل: أعضاؤه؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾[(٨)].

---

(١) الفتح: الآية (٢٨).
(٢) الأنعام: الآية (١٩).
(٣) النساء: الآية (٤١).
(٤) الأحزاب: الآية (٤٥).
(٥) البقرة: الآية (١٤٣).
(٦) المائدة: الآية (١١٧).
(٧) الإسراء: الآية (١٤).
(٨) النور: الآية (٢٤).

وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم؛ لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1]. وقيل: الشاهد: الحفظة، والمشهود: بنو آدم. وقيل: الأيام والليالي. وقيل: الشاهد الخلق؛ يشهدون لله ﷻ بالوحدانية، والمشهود له بالوحدانية هو اللَّه سبحانه»[2].

وقال أيضًا: «وهذه التفاسير عن الصحابة ﭫ قد اختلفت كما ترى، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم، واستدلّ من استدلّ منهم بآيات ذكر اللَّه فيها أن ذلك الشيء شاهد أو مشهود، فجعله دليلًا على أنه المراد بالشاهد والمشهود في هذه الآية المطلقة، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين في هذا المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذي ذكر في آية أخرى، وإلا لزم أن يكون قوله هنا: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز، أو السنة المطهرة أنه يشهد، أو أنه مشهود، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض، ولم يقل قائل بذلك»[3].

قال ابن القيم: «أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المدرك والمدرك والعالم والمعلوم والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص.

فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟ قيل: هي بحمد اللَّه في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته، فأقسم بالعالم العلوي وهي السماء وما فيها من البروج التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرًا الذي هو مظهر ملكه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله وهو الشاهد والمشهود، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه وهم

---

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٨٨-٥٨٩).

(٣) فتح القدير (٥/ ٥٩٤-٥٩٥).

شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم، وأيضًا فالشاهد هو المطلع والرقيب والمخبر، والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد، فمن نوع الخليقة إلى شاهد ومشهود، وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي، كما قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝﴾[1] كما نوعها إلى أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه؛ كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود. وفيه سر آخر: وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهدًا رقيبًا حفيظًا على غيره، ولا يكون الخالق -تبارك وتعالى- شاهدًا على عباده مطلعًا عليهم رقيبًا؟ وأيضًا فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون على العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه، كما أقسم باليوم الموعود، وهو المقسم به وعليه، وأيضًا فيوم القيامة مشهود كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[2]، يشهده الله وملائكته والإنس والجن والوحش من آياته، والمشهود من آياته، وأيضًا فكلامه مشهود، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[3] تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فالمشهود من أعظم آياته، وكذلك الشاهد، فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل.

وأيضًا فكتاب الأبرار في عليين، يشهده المقربون، فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون، والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب؛ لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة، ويبعد أن يكون الجواب: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝﴾ الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود»[4].

قال عطية سالم: «في هذا العرض إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة، وهو إذا

---

(١) الحاقة: الآيتان (٣٨و٣٩).

(٢) هود: الآية (١٠٣). (٣) الإسراء: الآية (٧٨).

(٤) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٩-٦٠).

كان رب العزة ﷻ، وهو على كل شيء شهيد، وبكل شيء عليم، وموكل حفظة يكتبون أعمال العباد، ومع ذلك لم يقض بين الخلائق بما يعلمه منهم ولا بما سجلته ملائكته ويستنطق أعضاءهم، ويستشهد الرسل على الأمم والرسول ﷺ على الرسل، أي بأنهم بلغوا أممهم رسالات اللّه إليهم، فلأن لا يقضي القاضي بعلمه من باب أولى. والعلم عند اللّه تعالى»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تعيين الشاهد والمشهود

* عن أبي هريرة: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ قال: «الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة، والمشهود هو الموعود يوم القيامة»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

ما ذكر في هذا الحديث من كون الشاهد هو يوم الجمعة ويوم عرفة والمشهود هو يوم القيامة هو أحد الأقوال الواردة في الآية، وقد تقدم تحريره في توضيح الآية بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

* * *

---

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٣٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٨)، والحاكم (٢/ ٥١٩)، والبيهقي (٣/ ١٧٠) من طريق شعبة عن علي بن زيد ويونس ابن عبيد يحدثان عن عمار مولى بني هاشم عن أبي هريرة ﷺ أما علي فرفعه إلى النبي ﷺ وأما يونس فلم يعد أبا هريرة. قال الحاكم: «حديث شعبة عن يونس بن عبيد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾

★غريب الآية:

قُتِل: لُعِن.

الأخدود: الشق العظيم المستطيل في الأرض، كالخندق. جمعه: أخاديد. وأصل ذلك من خَدَّي الإنسان، وهما ما اكتنف الأنف عن اليمين والشمال.

الوَقود: بفتح الواو: ما تشتعل به النار من حطب ونحوه، وبضمها: الإيقاد. واستوقدتُ النار: إذا ترشحت لإيقادها وأوقدتها.

نقموا: كرهوا وعابوا. يقال: نَقِمْتُ الشيءَ ونَقَمْتُهُ: إذا أنكرته إما باللسان أو بالعقوبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لعن أصحاب الأخدود، وجمعه: أخاديد، وهي الحفير في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ﷻ، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدُودًا، وأججوا فيه نارا، وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها»[1].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: أعلم الله ﷻ المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه من أحد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك. وذكر لهم النبي ﷺ

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٨٧).

قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره. وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار.

وكذلك كثير من الناس لما آمنوا باللّه تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم. قال ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا، حسب ما تقدم بيانه في سورة (النحل).

قلت: ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى، قال اللّه تعالى مخبرًا عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾[١]، وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[٢]. قال علماؤنا: ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما، وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق، وغير ذلك، وقد مضى في (النحل) أن هذا إجماع ممن قوي في ذلك، فتأمله هناك»[٣].

وقوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥﴾:

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾: ذات الحطب الجزل»[٤].

قال الرازي: «النار إنما تكون عظيمة إذا كان هناك شيء يحترق بها إما حطب أو غيره، فالوقود اسم لذلك الشيء لقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[٥] وفي: ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ تعظيم أمر ما كان في ذلك الأخدود من الحطب الكثير»[٦].

---

(١) لقمان: الآية (١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩)، وأبو داود (٤/ ٥١٤/ ٤٣٤٤)، والترمذي (٤/ ٤٠٩/ ٢١٧٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٩/ ٤٠١١)، والحاكم (٤/ ٥٠٥-٥٠٦) مطولًا وقال: «هذا الحديث تفرد بهذه السياقة علي بن زيد بن جدعان القرشي عن أبي نضرة، والشيخان لم يحتجا بعلي بن زيد»، قال الذهبي: «ابن جدعان صالح الحديث»، وانظر «الصحيحة» (رقم: ٤٩١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٩٣).

(٤) جامع البيان (٣٠/ ١٣٥).

(٥) البقرة: الآية (٢٤).

(٦) التفسير الكبير (٣١/ ١١٩).

قال أبو السعود: «وقوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝﴾ ظرف لـ﴿قُتِلَ﴾، أي: لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها في مكان مشرف عليها من حافات الأخدود»[١].

قال عطية سالم: «إن الضمائر راجعة إلى الكفار الذين قتلوا المؤمنين وأحرقوهم، وهي قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، حيث رتب العذاب المذكور على عدم التوبة، وجاء بـ(ثم) التي هي للتراخي، مما يدل على أنهم لم تحرقهم نارهم انتقامًا منهم حالًا، بل أمهلوا ليتوبوا من فعلتهم الشنيعة، وإلاَّ فلهم العذاب المذكور في الآخرة. والله تعالى أعلم»[٢].

وقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾:

قال السعدي: «وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب؛ لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب»[٣].

قال الرازي: «فالمعنى: أن أولئك الجبابرة القاتلين كانوا حاضرين عند ذلك العمل يشاهدون ذلك، فيكون الغرض من ذكر ذلك أحد أمور ثلاثة: إما وصفهم بقسوة القلب إذ كانوا عند التعذيب بالنار حاضرين مشاهدين له، وإما وصفهم بالجد في تقرير كفرهم وباطلهم حيث حضروا في تلك المواطن المنفرة والأفعال الموحشة، وأما وصف أولئك المؤمنين المقتولين بالجد في دينهم والإصرار على حقهم، فإن الكفار إنما حضروا في ذلك الموضع طمعًا في أن هؤلاء المؤمنين إذا نظروا إليهم هابوا حضورهم واحتشموا من مخالفتهم، ثم إن أولئك المؤمنين لم يلتفتوا إليهم وبقوا مصرين على دينهم الحق، فإن قلت: المراد من الشهود إن كان هذا المعنى، فكان يجب أن يقال: وهم لما يفعلون شهود، ولا يقال: وهم على ما يفعلون شهود؟ قلنا: إنما ذكر لفظة (على) بمعنى أنهم على قبح فعلهم بهؤلاء المؤمنين، وهو إحراقهم بالنار؛ كانوا حاضرين مشاهدين لتلك الأفعال القبيحة»[٤].

قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾:

قال ابن كثير: «أي: وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي

---

(١) تفسير أبي السعود (٩/ ١٣٦).
(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٤٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٠١).
(٤) التفسير الكبير (٣١/ ١٢٠).

لا يضام من لاذ بجنابه المنيع، الحميد في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وإن كان قد قَدّر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس»[١].

قال الرازي: «ونظيره قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾[٢] وإنما قال: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ لأن التعذيب إنما كان واقعًا على الإيمان في المستقبل، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا على ما مضى، فكأنه قيل: إلا أن يدوموا على إيمانهم.. ثم إنه ذكر الأوصاف التي بها يستحق الإله أن يؤمن به ويعبد، فأولها: العزيز وهو القادر الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يدفع، وبالجملة فهو إشارة إلى القدرة التامة. وثانيها: الحميد، وهو الذي يستحق الحمد والثناء على ألسنة عباده المؤمنين، وإن كان بعض الأشياء لا يحمده بلسانه، فنفسه شاهدة على أن المحمود في الحقيقة هو هو، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[٣]، وذلك إشارة إلى العلم؛ لأن من لا يكون عالمًا بعواقب الأشياء لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة، فالحميد يدل على العلم التام من هذا الوجه.. فثبت أن من كان موصوفًا بهذه الصفات كان هو المستحق للإيمان به، وغيره لا يستحق ذلك البتة»[٤].

قال ابن القيم: «وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد ما يقتضي أن يعاملوا به، وهذا شأن أعداء الله: دائمًا ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾[٥]، وكذلك اللوطية نقموا من عباد اللّه تنزيههم عن مثل فعلهم فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[٦]، وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده، وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها، وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله، ونعوت جلاله، وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٨٧).

(٢) المائدة: الآية (٥٩).

(٣) الإسراء: الآية (٤٤).

(٤) التفسير الكبير (٣١/ ١٢١).

(٥) المائدة: الآية (٥٩).

(٦) الأعراف: الآية (٨٢).

للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم، وولايتهم إياهم، وتقديم من قدمه رسول اللَّه ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم اللَّه ورسوله بها، وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه، وكل هؤلاء لهم نصيب، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود، وبينهم وبينه نسب قريب أو بعيد»[1].

قلت: وهذا التعريف الذي ذكره ابن القيم لا يزال قائمًا يتجدد في كل لحظة، فما ذكره عن أهل الكفر والإلحاد، وعن اليهود والنصارى، وعن أهل البدع الذين هم منتسبون إلى الإسلام؛ ما يزال أمرهم كذلك إلى يومنا هذا؛ فالصوفية والقبوريون والخرافيون يحاربون أهل السنة الذين يجردون التوحيد، ويجردون السنة واتباع الرسول فيصفونهم بكل أوصاف القبح، وإن استطاعوا السبيل لهم سجنوهم وقتلوهم، ولا يتورعون عن وصفهم بأي صفة منفّرة يمكن أن يطلقوها، فيصفونهم أحيانًا بالوهابيين، وأحيانًا بالْحَرْفِيّين، وأحيانًا بالظاهريين، وأحيانًا بالعملاء، وأحيانًا بالفتانين، وأحيانًا بمن يريدون القضاء على حضارة البلد، وأحيانًا بالمستوردين لأفكار خارج البلد... وقاموسهم في السب والشتم لا نهاية له! ومن تتبع واقع العالم الإسلامي في الوقت الحاضر يرى محاصرة هؤلاء للتوحيد والسنة بواسطة الحكومات التي تمكنهم من ذلك وتساعدهم على ذلك. ومع ذلك ولله الحمد والمنة تجد طائفة من أهل التوحيد والمحبين للسنة ثابتين مستميتين، متشبهين بالأنبياء والرسل وبالأخيار من أصحابهم، وعلى نهج أصحاب الأخدود الذين ذكرهم اللَّه في هذه الآيات، وبأصحاب الكهف الذين ثبتوا على إيمانهم، وبأصحاب يس الذين صبروا على أذى المواجهة، والأمثلة ولله الحمد في ذلك كثيرة.

قال الشوكاني: «ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على العظم والفخامة، فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن كان هذا شأنه فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ من فعلهم بالمؤمنين لا يخفى عليه منه خافية، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين»[2].

---

(١) التبيان (ص: ٦٠-٦١).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٩٠).

قال السعدي: «أفلا خاف هؤلاء المتمردون على اللَّه، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن اللَّه محيط بأعمالهم، مجاز لهم على فعالهم؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى عن سواء السبيل»[١].

قال عطية سالم: «وفيه شدة تخويف أولئك وتحذيرهم ومن على شاكلتهم، بأن اللَّه تعالى شهيد على أفعالهم فلن تخفى عليه خافية. وقد جاء بصيغة المبالغة في ﴿شَهِيدٌ﴾، لما يتناسب مع هذا المقام كما فيه المقابلة بالفعل، كما كانوا قعودًا على النار وشهودًا على إحراق أولياء اللَّه تعالى، فإنه سبحانه سيعاملهم بالمثل، إذ يحرقهم وهو عليهم شهيد»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في قصة أصحاب الأخدود وما فيها من العبر

* عن صهيب ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك، فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم: الساحر أفضل، أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها، فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني! أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي- فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي اللَّه، فإن أنت آمنت باللَّه**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٠٢).

(٢) تتمة أضواء البيان (٨/ ١٤٧).

دعوت اللَّه فشفاك، فآمن باللَّه، فشفاه اللَّه، فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك اللَّه، فأخذه، فلم يزل يعذبه، حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني! قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟ قال: فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي اللَّه، فأخذه، فلم يزل يعذبه، حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمئشار، فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم اللَّه، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم اللَّه، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم اللَّه رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم اللَّه رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنّا برب الغلام، آمنّا برب الغلام، آمنّا برب الغلام، فأتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد واللَّه نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخُدّت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها -أو قيل له: اقتحم- ففعلوا، حتى جاءت امرأة، ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه! اصبري، فإنك

على الحق»[١].

★ **غريب الحديث:**

الأكمه: الذي يولد أعمى.

مفرق الرأس: وسطه حيث ينفرق الشعر، وجمعه مفارق.

الشقان: الجانبان واحدها شق.

ذروة الجبل: أعلاه.

القرقور: ضرب من السفن.

انكفأت بهم: أي: انقلبت.

الكنانة: جعبة السهام.

كبد القوس: وسطها.

الصدغ: ما بين لحظ العين إلى أصل الأذن.

الأخدود: الشق في الأرض.

السكك: جمع سكة وهي الدرب، وسمي سكة لاصطفاف الدور، وأصله من السكة التي هي الطريقة المصطفة من النخل.

أحموه فيها: أي أحرقوه.

تقاعست: توقفت ولم تقدم.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وهذا الحديث كله إنما ذكره النبي ﷺ لأصحابه ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره، وتصلبه في الحق وتمسكه به وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين، مع صغر سنه، وعظيم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى، ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار، ولم يرجعوا عن دينهم، وهذا كله

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦-١٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٩-٢٣٠١/ ٣٠٠٥) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٤٠٧-٤٠٩/ ٣٣٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٠-٥١٢/ ١١٦٦١).

فوق ما كان يفعل بمن آمن من أصحاب النبي ﷺ، فإنه لم يكن فيهم من فعل به شيء من ذلك لكفاية اللَّه تعالى لهم، ولأنه تعالى أراد إعزاز دينه، وإظهار كلمته، على أني أقول: إن محمدًا ﷺ أقوى الأنبياء في اللَّه، وأصحابه أقوى أصحاب الأنبياء في اللَّه تعالى، فقد امتحن كثير منهم بالقتل، وبالصلب وبالتعذيب الشديد، ولم يلتفت إلى شيء من ذلك، وتكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما وما لقي أصحابه من الحروب والمحن والأسر والحرق وغير ذلك، فلقد بذلوا في اللَّه نفوسهم وأموالهم، وفارقوا ديارهم وأولادهم؛ حتى أظهروا دين اللَّه، ووفوا بما عاهدوا عليه اللَّه، فجازاهم اللَّه أفضل الجزاء، ووفاهم من أجر من دخل في الإسلام بسببهم أفضل الإجزاء»[1].

قال ابن عثيمين: «[فيه] دليل على مسائل:

الأولى: على قوة إيمان هذا الغلام، وأنه لم يتزحزح عن إيمانه، ولم يتحول.

الثانية: فيه آية من آيات الله: حيث أكرمه اللَّه ﷻ بقبول دعوته، فزلزل الجبل بالقوم الذين يريدون أن يطرحوه من رأس الجبل حتى سقطوا.

الثالثة: لأن اللَّه ﷻ يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، فإذا دعا الإنسان ربه في حال ضرورة موقنًا أن اللَّه يجيبه، فإن اللَّه تعالى يجيبه، حتى الكفار إذا دعوا اللَّه في حال الضرورة أجابهم اللَّه مع أنه يعلم أنهم سيرجعون إلى الكفر، إذا غشيهم موج كالظلل في البحر دعوا اللَّه مخلصين له الدين، فإذا نجاهم أشركوا، فينجيهم؛ لأنهم صدقوا في الرجوع إلى اللَّه عند دعائهم، وهو سبحانه يجيب المضطر ولو كان كافرًا»[2].

قال القاضي عياض: «وفي هذا الحديث صبر الصالحين على الابتلاء في ذات اللَّه، وما يلزمهم من إظهار دينه، والدعاء لتوحيده، واستقتالهم أنفسهم في ذلك، وهو مراد الغلام بقوله للملك: «لست بقاتلي حتى تصلبني، وتجمع الناس، وتضع السهم في كبد القوس، وتقول: بسم اللَّه رب الغلام»؛ ليرى الناس ذلك فيؤمنوا باللَّه كما كان»[3].

---

(١) المفهم (٧/ ٤٢٦).
(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ١٦٥-١٦٦).
(٣) الإكمال (٨/ ٥٥٧-٥٥٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية**:

فتنوا: أي: حرّقوهم بالنار. والعرب تقول: فتَنَ فلانٌ الدرهمَ والدينار: إذا أدخله النار لينظر جودته، ويسمى الصائغ: الفتّان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الألوسي: «أي: محنوهم في دينهم ليرجعوا عنه، والمراد بالذين فتنوا وبالمؤمنين والمؤمنات المفتونين: إما أصحاب الأخدود والمطرحون فيه خاصة، وإما الأعم، ويدخل المذكورون دخولًا أوليًا، وهو الأظهر، وقيل: المراد بالموصول كفار قريش الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات من هذه الأمة بأنواع من العذاب، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ قال ابن عطية يقوي أن الآية في قريش؛ لأن هذا اللفظ فيهم أحكم منه في أولئك الذين قد علم أنهم ماتوا على كفرهم، وأما قريش فكان فيهم وقت نزولها من تاب وآمن، وأنت تعلم أن هذا على ما فيه لا يعكر على أظهرية العموم، والظاهر أن المراد ثم لم يتوبوا من فتنهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي بسبب فتنهم ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ وهو نار أخرى زائدة الإحراق كما تنبئ عنه صيغة فعيل؛ لعدم توبتهم ومبالاتهم بما صدر منهم، وقال بعض الأجلة: أي: فلهم عذاب جهنم بسبب كفرهم، فإن فعلهم ذلك لا يتصور من غير الكافر، ولهم عذاب الحريق بسبب فتنهم المؤمنين والمؤمنات، وفي جعل ذلك جزاء الفتن من الحسن ما لا يخفى، وتعقب بأن عنوان الكفر لم يصرح به في جانب الصلة، وإنما المصرح به الفتن وعدم التوبة، فالأظهر اعتبارهما سببين في جانب الخبر على الترتيب»[1].

(١) روح المعاني (٣٠/ ٩٠-٩١).

قال صديق حسن خان: «ومفهوم الآية أنهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد، وإنما عبر سبحانه بأداة التراخي لأن التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمان»[١].

قال ابن القيم: «وهذا غاية الكرم والجود، قال الحسن: انظروا إلى هذا الكرم والجود: يقتلون أولياءه ويفتنونهم وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، انظروا إلى كرم الرب تعالى يدعوهم إلى التوبة وقد فتنوا أولياءه فحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده وعبده وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه»[٢].

قال الشوكاني: «ثم ذكر سبحانه ما أعدّ للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، وظاهر الآية العموم، فيدخل في ذلك المحرقون في الأخدود بسبب إيمانهم دخولًا أوّليًا، والمعنى: أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، أي: لهم بسبب الإيمان، والعمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة. وقد تقدّم كيفية جري الأنهار من تحت الجنات في غير موضع، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار، فجري الأنهار من تحتها واضح، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها، فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر؛ لأنها ساترة لساحتها، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مما أعدّه الله لهم، أي: ذلك المذكور ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا يعدله فوز، ولا يقاربه ولا يدانيه، والفوز الظفر بالمطلوب»[٣].

* * *

(١) فتح البيان (١٥/ ١٦٧).
(٢) التبيان (ص: ٦١).
(٣) فتح القدير (٥/ ٥٩١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝﴾

★ غريب الآية:

بطش: البطش: أخذ الشيء بصولة وقهر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: إن بطش ربك يا محمد لمن بطش به من خلقه، وهو انتقامه ممن انتقم منه لشديد، وهو تحذير من اللَّه لقوم رسوله محمد ﷺ، أن يُحلّ بهم من عذابه ونقمته نظير الذي حلّ بأصحاب الأخدود على كفرهم به، وتكذيبهم رسوله، وفتنتهم المؤمنين والمؤمنات منهم»[1].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝﴾:

يقول الرازي: «أي: إنه يخلق خلقه ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء ليجازيهم في القيامة، فذلك الإمهال لهذا السبب، لا لأجل الإهمال، قال ابن عباس: إن أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحمًا ثم يعيدهم خلقًا جديدًا، فذاك هو المراد من قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝﴾»[2].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: إن اللَّه أبدى خلقه، فهو يبتدئ، بمعنى: يحدث خلقه ابتداء، ثم يميتهم، ثم يعيدهم أحياء بعد مماتهم، كهيئتهم قبل مماتهم.. وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه هو يبدئ العذاب ويعيده..

وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب، وأشبههما بظاهر ما دلّ عليه

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٣٧).

(٢) التفسير الكبير (٣١/ ١٢٣).

التنزيل: القولُ الذي ذكرناه عن ابن عباس، وهو أنه يُبْدِئُ العذاب لأهل الكفر به ويعيد، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ في الدنيا، فأبدأ ذلك لهم في الدنيا، وهو يعيده لهم في الآخرة.

وإنما قلت: هذا أولى التأويلين بالصواب؛ لأن اللَّه أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ فكان للبيان عن معنى شدّة بطشه الذي قد ذكره قبله، أشبه به بالبيان عما لم يَجْرِ له ذكر، ومما يؤيد ما قلنا من ذلك وضوحًا وصحة قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ فبيَّن ذلك عن أن الذي قبله من ذكر خبره عن عذابه وشدّة عقابه»[1].

قال عطية سالم: «ولكن الذي يظهر واللَّه تعالى أعلم هو الأول؛ لأنه يكثر في القرآن كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[2]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[3].

وجعله آية على قدرته ودليلًا على عجز ونقص الشركاء، في قوله في أول هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[4]، ورد عليهم بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[5]»[6].

وهذا القول هو الأولى والأظهر، وهو قول الجمهور[7].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾:

قال السعدي: «الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب. ﴿الْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء، فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعًا لها، كانت عذابًا على أهلها، وهو تعالى الودود، الواد لأحبابه،

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٣٨).
(٢) يونس: الآية (٤).
(٣) يونس: الآية (٣٤).
(٤) يونس: الآية (٣٤).
(٥) الأنبياء: الآية (١٠٤).
(٦) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٤٨-١٤٩).
(٧) أفاده الشوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٩١).

كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1] والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن (الودود) بـ(الغفور)، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى اللَّه وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل اللَّه أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فاللَّه أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر. فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه»[2].

قال ابن القيم: «فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، ومع ذلك هو الغفور الودود المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يودّ من تاب إليه وأقبل عليه، وهو الودود أيضًا أي: المحبوب؛ قال البخاري في صحيحه: الودود الحبيب، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين: على كونه ودًّا لأوليائه، ومودودًا لهم، فأحدهما بالوضع والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه، يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[3]، وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه، ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان»[4].

وقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾:

قال ابن القيم: «أضاف العرش إلى نفسه كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة، وهذا يدل على عظمة العرش وقربه منه سبحانه واختصاصه به؛ بل يدل على غاية القرب والاختصاص كما يضيف إلى نفسه بـ(ذو) صفاته القائمة به كقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[5] ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[6]، ويقال: ذو العزة وذو الملك وذو

(١) المائدة: الآية (٥٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٠٣-٦٠٤).
(٣) هود: الآية (٩٠).
(٤) التبيان (ص: ٦١).
(٥) الذاريات: الآية (٥٨).
(٦) الرحمن: الآية (٢٧).

الرحمة، ونظائر ذلك، فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش وذو الأرض.

ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله وكثرة خيره ودوامه، وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء، والمخلوق إنما يصير مجيدًا بأوصافه وأفعاله، فكيف يكون الرب -تبارك وتعالى- مجيدًا وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالى اللَّه عما يقول المعطلون علوًّا كبيرًا؛ بل هو المجيد الفعال لما يريد، والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال وكثرة أفعال الخير، وأحسن ما قرن اسم (المجيد) إلى (الحميد) كما قالت الملائكة لبيت الخليل ﷺ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[1] وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على الرب تعالى بأنه حميد مجيد، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «**ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد**»[2]، فالحمد والمجد على الإطلاق للَّه الحميد المجيد، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال، والمجيد العظيم الواسع القادر الغني ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ (المجيد) بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه، وإذا كان عرشه مجيدًا فهو سبحانه أحق بالمجد، وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد، ثم خرجها على أحد الوجهين: إما على الجوار وإما أن يكون صفة لـ(ربك)، وهذا من قلة بضاعة هذا القائل، فإن اللَّه سبحانه وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد، ووصفه بالعظمة، فوصفه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم؛ بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك لسعته وحسنه وبهاء منظره، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله وأجمعه لصفات الحسن وبهاء المنظر وعلو القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا اللَّه، ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه، والسموات السبع والأرضون

(١) هود: الآية (٧٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٧)، ومسلم (١/ ٣٤٧/ ٤٧٧)، وأبو داود (١/ ٥٢٩/ ٨٤٧)، والنسائي (٢/ ٥٤٤-٥٤٥/ ١٠٦٧).

السبع في الكرسي -الذي بين يديه كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة، قال ابن عباس: السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس، فكيف لا يكون مجيدًا وهذا شأنه؟ فهو عظيم كريم مجيد. وأما تكلف هذا المتكلف جره إلى الجوار، أو أنه صفة لـ(ربك)؛ فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك»[١].

وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾:

قال ابن جرير: «يقول: هو غفار لذنوب من شاء من عباده إذا تاب وأناب منها، معاقب من أصرّ عليها وأقام، لا يمنعه مانع مِنْ فِعْل أراد أن يفعله، ولا يحول بينه وبين ذلك حائل؛ لأن له مُلك السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم»[٢].

قال ابن القيم: «وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ دليل على أمور:

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادمًا لهذا الكمال في وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾[٣]، وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثًا بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئًا فعله، فإن (ما) موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر، فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه، ويجعله فاعلًا لم يوجد الفعل، وإن أراده حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلًا، وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلًا، وليستا متلازمتين وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله، وقد يريد فعله ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٦١-٦٣).

(٢) جامع البيان (٣٠/ ١٣٩).

(٣) النحل: الآية (١٧).

فلا يوجد الفعل.

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك؛ فانظر إلى قول النبي ﷺ حاكيًا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة: «**قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك: أن لا تشرك بي شيئًا**»[(١)] ولم يقع هذا المراد؛ لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

الرابع: أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثم فعال لما يريد إلا اللّٰه وحده.

الخامس: إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يفعله الناس من الإرادة، فشأنه تعالى أن يريد على الدوام ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري نفسه لعباده، وأن يتجلى لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد، وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده ردًّا لكماله الذي أخبر به عن نفسه، وهذا عين الباطل، وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء وإثبات ما شاء أمكن فعله، وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس.

وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة وعدم النظير، والحمد المتضمن لصفات الكمال والتنزيه عن أضدادها مع محبته وإلهيته، وملكه السموات والأرض المتضمن لكمال غناه وسعة ملكه، وشهادته على كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها، وإحاطة بصره بمرئياتها، وسمعه بمسموعاتها، وعلمه بمعلوماتها، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة، وتفرده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته، وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة،

---

(١) أحمد (٣/ ١٢٦)، والبخاري (١١/ ٥٠٧/ ٦٥٥٧)، ومسلم (٤/ ٢١٦٠-٢١٦١/ ٢٨٠٥[٥١]).

وانقيادها لقدرته فلا يستعصي عليه منها شيء، ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبًا إلى عباده محبا لهم، ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة، والملك والغنى والجود والإحسان والكرم، وكونه فعالًا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله، فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين تكفي من فهمها، فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده»[1].

* * *

(١) التبيان (ص: ٦٣-٦٥).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: هل جاءك يا محمد حديث الجنود الذين تجندوا على الله ورسوله بأذاهم ومكروههم؛ يقول: قد أتاك ذلك وعلمته، فاصبر لأذى قومك إياك لما نالوك به من مكروه كما صبر الذين تجند هؤلاء الجنود عليهم من رسلي، ولا يثنيك عن تبليغهم رسالتي، كما لم يُثْن الذين أرسلوا إلى هؤلاء، فإن عاقبة من لم يصدقك ويؤمن بك منهم إلى عطب وهلاك، كالذي كان من هؤلاء الجنود، ثم بين -جل ثناؤه- عن الجنود من هم، فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ يقول: ﴿فِرْعَوْنَ﴾، فاجتزئ بذكره، إذ كان رئيس جنده من ذكر جنده وتباعه. وإنما معنى الكلام: هل أتاك حديث الجنود، فرعون وقومه وثمود»[1].

قال القرطبي: «وإنما خص فرعون وثمود؛ لأن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين، وأمر فرعون كان مشهورًا عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك، فدل بهما على أمثالهما في الهلاك، والله أعلم»[2].

قال عطية سالم: «وفي اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود لما بينهما من المشاكلة والمشابهة، إذ فرعون طغى وادَّعى الربوبية، كملك أصحاب الأخدود الذي قال لجليسه: ألك رب غيري؟ ولتعذيبه بني إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٣٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٩٦).

النساء، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم، ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية، إذ موسى عليه السلام قدَّم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذَّب وعصى، والغلام قدم لهذا الملك الآيات الكبرى: إبراء الأكمه والأبرص بإذن اللَّه، وعجز فرعون عن موسى وإدراكه، وعجز الملك عن قتل الغلام إذ نجاه اللَّه من الإغراق والدهدهة من قمة الجبل، فكان لهذا أن يرعوي عن ذلك ويتفطن للحقيقة، ولكن سلطانه أعماه كما أعمى فرعون. وكذلك آمن السحرة لما رأوا آية موسى وخروا لله سجدًا.

وهكذا آمن الناس برب الغلام، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون؛ إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته، فانقلب الموقف عليه، وكان أول الناس إيمانًا هم أعوان فرعون على موسى، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيمانًا الذي جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام.

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة، وإن كان في الكل عظة وعبرة، ولكن هذا منتهى الإعجاز في قصص القرآن وأسلوبه، واللَّه تعالى أعلم.

وكذلك ثمود لما كان منهم من مظاهر القوة والطغيان، وقد جمعهما اللَّه أيضًا معًا في سورة (الفجر) في قوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾[(١)]، وهكذا جمعهما هنا فرعون وثمود»[(٢)].

قال الألوسي: «فيه تقرير لكونه فعالًا لما يريد، وكذا لشدة بطشه سبحانه بالظلمة العصاة والكفرة العتاة، وتسلية له ﷺ بالإشعار بأنه سيصيب كفرة قومه ما أصاب الجنود»[(٣)].

وقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما بهؤلاء القوم الذين يكذّبون بوعيد اللَّه أنهم لم يأتهم أنباء من قبلهم من الأمم المكذّبة رسل اللَّه كفرعون وقومه، وثمود وأشكالهم، وما أحلّ اللَّه بهم من النقم بتكذيبهم الرسل، ولكنهم في تكذيبٍ بوحي

(١) الفجر: الآيتان (٩و١٠).

(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٤٩-١٥٠).

(٣) روح المعاني (٣٠/ ٩٣).

اللَّه وتنزيله؛ إيثارًا منهم لأهوائهم، واتِّباعًا منهم لسنن آبائهم»[١].

وفي تنكير لفظ ﴿تَكْذِيبٍ﴾ -يقول الألوسي- «من الدلالة على تعظيمه وتهويله فكأنه قيل: ليسوا مثلهم؛ بل هم أشد منهم، فإنهم غرقى مغمورون في تكذيب عظيم للقرآن الكريم فهم أولى منهم في استحقاق العذاب، أو كأنه قيل: ليست جنايتهم مجرد عدم التذكر والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم؛ بل هم مع ذلك في تكذيب عظيم للقرآن الناطق بذلك، وكونه قرآنًا من عند اللَّه تعالى مع وضوح أمره وظهور حاله بالبينات الباهرة»[٢].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾:

يقول ابن القيم: «ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته وهو محيط بهم، ولا أسوأ حالًا ممن عادى من هو في قبضته، ومن هو قادر عليه من كل وجه وبكل اعتبار، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾ فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن هو محيط به وآخذ بناصيته قادر عليه»[٣].

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾:

يقول القرطبي: «أي: متناه في الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا، لا كما زعم المشركون»[٤].

وفي هذه الآية -يقول الألوسي-: «رد لكفرهم، وإبطال لتكذيبهم، وتحقيق للحق، أي: بل هو كتاب شريف عالي الطبقة فيما بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى، لا يحق تكذيبه والكفر به، وقيل: إضراب وانتقال عن الإخبار بشدة تكذيبهم وعدم ارعوائهم عنه إلى وصف القرآن، للإشارة إلى أنه لا ريب فيه، ولا يضره تكذيب هؤلاء، والأول أولى»[٥].

قال ابن القيم: «ثم وصف كلامه بأنه مجيد، وهو أحق بالمجد من كل كلام، كما أن المتكلم به له المجد كله، فهو المجيد وكلامه مجيد، وعرشه مجيد قال ابن عباس رضي الله عنهما: قرآن مجيد كريم؛ لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون: شعر

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٣٩-١٤٠).
(٢) روح المعاني (٣٠/ ٩٣).
(٣) التبيان (ص: ٦٥).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٩٦).
(٥) روح المعاني (٣٠/ ٩٣).

وكهانة وسحر، وقد تقدم أن المجد السعة وكثرة الخير، وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به»[١].

وقوله: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾:

قال ابن القيم: «أكثر القراء على الجر صفة للوح، وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به؛ لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان، فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[٢] ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله سبحانه حفظ محله وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير»[٣].

* * *

---

(١) التبيان (ص: ٦٥).

(٢) الحجر: الآية (٩).

(٣) التبيان (ص: ٦٥).



سورة الطارق

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استحباب القراءة بسورة (الطارق) ونحوها في العشاء

* عن جابر قال: صلى معاذ المغرب فقرأ (البقرة) و(النساء)، فقال النبي ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ و﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾»[1].

* * *

(١) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٥١٢/ ١١٦٦٤) بهذا اللفظ. وهو في الصحيحين دون ذكر (السماء والطارق) وقد سبق تخريجه في سورة (الانفطار).

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

الطارق: مأخوذ من الطرق بمعنى الدق بشدة، ومنه المطرقة. والطارق: السالك للطريق، لكن خُصّ في التعارف بالآتي ليلًا؛ فقيل: طرق أهله طُروقًا. وعبّر عن النجم بالطارق؛ لاختصاص ظهوره بالليل، وعن الحوادث التي تأتي ليلًا بالطوارق. قال الشاعر:

يا راقد الليل مسرورًا بأوله   إن الحوادث قد يطرقن أسحارًا
لا تأمنن بليل طاب أوله   فربّ آخر الليل أجج نارًا

الثاقب: أي: المضيء الذي يثقب بنوره وإضاءته ما يقع عليه. وأصله من الثقبة. والمثقب: الطريق في الجبل؛ كأنه قد ثُقِب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «إقسامه سبحانه ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ وقد فسره بأنه ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ الذي يثقب ضوؤه، والمراد به الجنس لا نجم معين. ومن عينه بأنه الثريا أو زحل فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة، وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته، وسمى النجم طارقًا لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس أو أهله ليلًا. قال الفراء: ما أتاك ليلًا فهو طارق، وقال الزجاج والمبرد: لا يكون الطارق نهارًا»[1].

(١) التبيان (ص: ٦٥-٦٦).

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾:

يقول ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وما أشعرك يا محمد ما الطارق الذي أقسمت به؟ ثم بين -جل ثناؤه- فقال: هو النجم الثاقب، يعني: يتوقد ضياؤه ويتوهج»[١].

قال عطية سالم: «قال القرطبي: قال سفيان: كل ما في القرآن ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يخبره به.

والواقع أنه الغالب فقد جاء ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ثلاث عشرة مرة، كلها أخبره بها إلا واحدة، وهي في (الحاقة): ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾[٢] وما عداها فقد أخبره بها؛ وهي: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾[٣] وفي (المرسلات): ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤﴾[٤] وفي (الانفطار): ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾[٥] وفي (المطففين): ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾[٦] وفي (البلد): ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾[٧] وفي (القدر): ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾[٨] وفي (القارعة): ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾[٩] وأيضًا: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾[١٠] وفي هذه السورة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ فكلها أخبره عنها إلا في الحاقة.

تنبيه: يلاحظ أنها كلها في قصار السور من الحاقة وما بعدها، أما ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فقد جاءت ثلاث مرات فقط، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[١١] في (الأحزاب)، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾[١٢] في (الشورى) ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾[١٣] في (عبس وتولى)، فلم يخبره فيها صراحة، إلا أنه في الثالثة قد يكون

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٤١).
(٢) الحاقة: الآية (٣).
(٣) المدثر: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٤) المرسلات: الآية (١٤).
(٥) الانفطار: الآيتان (١٨و١٩).
(٦) المطففين: الآيتان (٨و٩).
(٧) البلد: الآيتان (١٢و١٣).
(٨) القدر: الآيتان (٢و٣).
(٩) القارعة: الآية (٣).
(١٠) القارعة: الآيات (٩-١١).
(١١) الأحزاب: الآية (٦٣).
(١٢) الشورى: الآية (١٧).
(١٣) عبس: الآية (٣).

أخبره؛ لأنه قال: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ فهو وإن لم يصرح هو تزكى أم لا، إلا أن لعل من اللَّه تعالى للتحقيق كما هو معلوم»[١].

وهذا «تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به، وتنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك الخلق، فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم»[٢].

قال الألوسي: «ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه وإجلال محله ما لا يخفى على ذي نظر ثاقب، ولإرادة ذلك لم يقل ابتداء: والنجم الثاقب، مع أنه أخصر وأظهر، ولله ﷻ أن يفخم شأن ما شاء من خلقه لما شاء، ولا دلالة فيه ههنا على شيء مما يزعمه المنجمون في أمر النجوم، زحل وغيره من التأثير في سعادة أو شقاوة أو نحوهما»[٣].

قال ابن القيم: «والمقسم عليه ههنا حال النفس الإنسانية والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها، وأنها لم تترك سدى؛ بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسم سبحانه أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة يحفظ عملها وقولها، ويحصي ما تكتسب من خير أو شر»[٤].

قال القرطبي: «قال قتادة: حفظة يحفظون عليك رزقك وعملك وأجلك. وعنه أيضًا قال: قرينه يحفظ عليه عمله من خير أو شر. . وقيل: المعنى: إن كل نفس إلا عليها حافظ: يحفظها من الآفات، حتى يسلمها إلى القدر. قال الفراء: الحافظ من اللَّه، يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير، وقاله الكلبي. . ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾[٥]. . وقيل: الحافظ هو اللَّه سبحانه، فلولا حفظه لها لم تبق. وقيل: الحافظ عليه عقله يرشده إلى مصالحه، ويكفه عن مضاره.

قلت: العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو اللَّه جل وعز، قال اللَّه ﷻ: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾[٦]، وقال: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾[٧]،

---

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) تفسير أبي السعود (٩/ ١٤٠).

(٣) روح المعاني (٣٠/ ٩٥).

(٤) التبيان (ص: ٦٦).

(٥) الرعد: الآية (١١).

(٦) يوسف: الآية (٦٤).

(٧) الأنبياء: الآية (٤٢).

وما كان مثله»[١].

قال الشوكاني: «والأول أولى لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠﴾[٢]، وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[٣]، وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ﴾، والحافظ على الحقيقة هو اللَّه ﷻ؛ كما في قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾، وحفظ الملائكة من حفظه؛ لأنهم بأمره»[٤].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٤).
(٢) الانفطار: الآية (١٠).
(٣) الأنعام: الآية (٦١).
(٤) فتح القدير (٥/ ٥٩٩-٦٠٠).

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الألوسي: «لما أثبت سبحانه أن عليه رقيبًا منه تعالى حثه على النظر المعرف لذلك مع أوصافه، كأنه قيل: فليعرف المهيمن عليه بنصب الرقيب أو بنفسه، وليعلم رجوعه إليه تعالى، وليفعل ما يسر به حال الرجوع، وعبر عن الأول بقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ ليبين طريق المعرفة، فهو بسط فيه إيجاز، وأدمج فيه الأخيران، وأما على تقدير أن يكون المراد به العقل، فلأنه لما أثبت سبحانه أن له عقلًا يرشد إلى المصالح ويكف عن المضار حثه على استعماله فيما ينفعه، وعدم تعطيله وإلغائه، كأنه قيل: فلينظر بعقله وليتفكر به في مبدأ خلقه حتى يتضح له قدرة واهبه، وأنه إذا قدر على إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو سبحانه على إعادته أقدر وأقدر، فيعمل بما يسر به حين الإعادة، وقد يقرر التفريع على جميع الأوجه بنحو واحد، فتأمل»[1].

قال ابن القيم: «ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق، والدفق: صب الماء. يقال: دفقت الماء فهو مدفوق، ودافق ومندفق، فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك، كالمكسور والمضروب، والمندفق المطاوع لفعل الفاعل، تقول: دفقته فاندفق، كما تقول: كسرته فانكسر، والدافق قيل: إنه فاعل بمعنى مفعول؛ كقولهم: سر كاتم وعيشة راضية. وقيل: هو على النسب لا على الفعل، أي: ذي دفق أو ذات، ولم يرد الجريان على الفعل.

وقيل -وهو الصواب-: إنه اسم فاعل على بابه، ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق، فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل، سواء فعله هو أو غيره، كما يقال: ماء جار ورجل ميت وإن لم يفعل الموت؛ بل لما قام به من الموت نسب إليه على جهة

---

(١) روح المعاني (٣٠/ ٩٦).

الفعل، وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلًا عن أوسع اللغات وأفصحها، وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللائقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها، كأنها رضيت بهم ورضوا بها، وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط، فتأمله وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر والساعة الراهنة وإن لم يفعلا ذلك، فكيف يمتنع أن يقولوا: ماء دافق وعيشة راضية؟ ونبه سبحانه بكونه دافقًا على أنه ضعيف غير متماسك»[1].

وقال أيضا: «فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب، منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذللة القياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها، إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها، وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارًا مكينًا لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعله عظامًا مجردة لا كسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها، وقدرها وملمسها ولونها.

وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك، ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده، وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها لحمًا ركبه عليها، وجعله وعاءً لها وغشاءً وحافظًا، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما، وقسم رؤوسهما بالأصابع، ثم قسمها بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة

---

(١) التبيان (ص: ٦٧).

والرحم والمثانة والأمعاء؛ كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه . . والمقصود التنبيه على أقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان، والأمر أضعاف ما يخطر بالبال، أو يجري فيه المقال، وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة -التي هي كَلاَ شيء بالنسبة إلى ما وراءها- التنبيه»[1] .

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٦-٢٠).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾

★ **غريب الآية:**

الصلب: هو كل عظم من الظهر فيه فقار، ويعبر عنه في كلام العامة بسلسلة الظهر، وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه؛ إطلاقًا لاسم الجزء على الكل.

الترائب: موضع القلادة من الصدر. الترائب جمع تريبة، وهي عظام الصدر في الذكر والأنثى، ويغلب استعمالها في موضع القلادة من الأنثى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن الولد مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. وقال آخرون: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه، واحتج صاحب القول الثاني على مذهبه بوجهين: الأول: أن ماء الرجل خارج من الصلب فقط، وماء المرأة خارج من الترائب فقط، وعلى هذا التقدير لا يحصل هناك ماء خارج من بين الصلب والترائب، وذلك على خلاف الآية.

الثاني: أنه تعالى بين أن الإنسان مخلوق ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ والذي يوصف بذلك هو ماء الرجل، ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج، يعني هذا الدافق من بين الصلب والترائب، وذلك يدل على أن الولد مخلوق من ماء الرجل فقط.

أجاب القائلون بالقول الأول عن الحجة الأولى: أنه يجوز أن يقال للشيئين المتباينين: أنه يخرج من بين هذين خير كثير، ولأن الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشيء الواحد، فحسن هذا اللفظ هناك، وأجابوا عن الحجة الثانية: بأن هذا من باب إطلاق اسم البعض على الكل، فلما كان أحد قسمي المني دافقًا أطلق هذا الاسم على المجموع، ثم قالوا: والذي يدل على أن الولد مخلوق من مجموع

الماءين أن مني الرجل وحده صغير فلا يكفي»[١].

قلت: ومما يؤيد هذا المعنى ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت لرسول اللَّه ﷺ هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء، فقال: «**نعم**» فقالت لها عائشة: تربت يداك وألت، قالت: فقال رسول اللَّه ﷺ: «**دعيها، وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك، إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه**»[٢]. قال الرازي معلقًا على هذا الحديث: «وذلك يقتضي صحة القول الأول»[٣].

قال ابن القيم: «وهو قول الكلبي ومقاتل وسفيان وجمهور أهل التفسير، وهو المطابق لهذه الأحاديث، وبذلك أجرى اللَّه العادة في إيجاد ما يوجده من بين أصلين كالحيوان والنبات وغيرهما من المخلوقات، فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء الأنثى، كما ينعقد النبات من الماء والتراب والهواء، ولهذا قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾[٤] فإن الولد لا يتكون إلا من بين الذكر وصاحبته»[٥].

وقال أيضًا: «وهذه الآية دالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم»[٦].

وهذا -**يقول الرازي**-: «يدل قطعًا على صحة البعث والحشر والنشر، وذلك لأن حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة في بدن الوالدين، بل في جميع العالم، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنسانًا سويًا، وجب أن يقال: إنه بعد موته وتفرق أجزائه لا بد وأن يقدر الصانع على جمع تلك الأجزاء وجعلها خلقًا سويًا، كما كان أولًا ولهذا السر لما بين تعالى دلالته على المبدأ، فرع عليه أيضًا دلالته على صحة المعاد، فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾»[٧].

---

(١) التفسير الكبير (٣١/ ١٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٩٢)، ومسلم (١/ ٢٥١/ ٣١٤[٣٣])، وأخرجه أبو داود (١/ ١٦٢-١٦٤/ ٢٣٧)، والنسائي (١/ ١٢١-١٢٣/ ١٩٦)، دون محل الشاهد.

(٣) التفسير الكبير (٣١/ ١٣٠).

(٤) الأنعام: الآية (١٠١).

(٥) تحفة المودود (ص: ٥٠١).

(٦) التبيان (ص: ٦٨).

(٧) التفسير الكبير (٣١/ ١٣١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ قال: «الصلب هو الصلب، والترائب أربعة أضلاع من كل جانب من أسفل الأضلاع»[1].

* * *

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٠) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

★ غريب الآية:

رَجْعِه: أي: إعادته بعد الموت والبلى.

تبلى: تمتحن وتُختبر. قال الشاعر:

قد كنتَ قبل اليوم تزدريني ... فاليوم أبلوك وتبتليني

السرائر: واحدها: سريرة. وهي ما يُسِرُّهُ العبد من عمل. قال الأحوص:

سيبقى لها في مُضْمَرِ الودِّ والحَشَا ... سَرَائِرُ حُبٍّ يوم تبلى السرائِرُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم ذكر الأمر المستدل عليه والمعاد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ أي: على رجعه إليه يوم القيامة كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه، هذا هو الصحيح في معنى الآية، وفيها قولان ضعيفان: أحدهما: قول مجاهد: على رد الماء في الإحليل لقادر. والثاني قول عكرمة والضحاك: على رد الماء في الصلب، وفيه قول ثالث قال مقاتل: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا إلى النطفة.

والقول الصواب هو الأول لوجوه:

أحدها: أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

الثاني: أن ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الإحليل.

الثالث: أنه لم يأت لهذا المعنى في القرآن نظير في موضع واحد، ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه.

الرابع: أنه قيد الفعل بالظرف، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ وهو يوم القيامة، أي: أن اللَّه قادر على رجعه إليه حيًّا في ذلك اليوم.

الخامس: أن الضمير في ﴿رَجْعِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ وهذا للإنسان قطعًا لا للماء.

السادس: أنه لا ذكر للإحليل حتى يتعين كون المرجع إليه، فلو قال قائل: على رجعه إلى الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول ولم يكن أولى منه.

السابع: أن رد الماء إلى الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة، وإن كان مقدورًا للرب تعالى، ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة، ولا هو مما تكلم الناس فيه نفيًا أو إثباتًا، ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه، وينبه على منكريه، وهو سبحانه إنما يستدل على أمر واقع ولا بد إما قد وقع ووجد أو سيقع.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾[1] أي: نجعله كخف البعير قيل: هذه أيضًا فيها قولان: أحدهما هذا. والثاني -وهو الأرجح-: أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت بعد ما فرقها البلى في التراب.

الثامن: أنه سبحانه دعا الإنسان إلى النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه بما أخبر به، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء في إحليله بعد مفارقته له حتى يدعوه إلى النظر فيما خلق منه ليستقبح منه صحة إمكان رد الماء.

التاسع: أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما حتى يجعل أحدهما دليلا على إمكان الآخر، بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولى والنشأة الثانية، فإنه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر، فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر.

العاشر: أنه سبحانه نبه بقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾[2] على أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه فلا يضيع منه شيء، ثم نبه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ على بعثه لجزائه على العمل الذي حفظ وأحصى عليه، فذكر شأن مبدأ عمله

(١) القيامة: الآيتان (٣و٤).

(٢) الطارق: الآية (٤).

ونهايته، فمبدؤه محفوظ عليه، ونهايته الجزاء عليه»[١].

وقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ يقول الألوسي: «أي: يتعرف ويتصفح ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، ومما أخفي من الأعمال، ويميز بين ما طاب منها وما خبث، وأصل الابتلاء: الاختبار، وإطلاقه على ما ذكر إطلاق على اللازم، وحمل السرائر على العموم هو الظاهر»[٢].

قال ابن القيم: «فالإيمان من السرائر وشرائعه من السرائر فتختبر ذلك اليوم حتى يظهر خيرها من شرها ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زينا في الوجوه وشينا فيها، والمعنى تختبر السرائر بإظهارها وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب والحمد والذم.

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة: وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته على وجهه نورًا وإشراقًا وحياءً، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعا لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سوادًا وظلمة وشينًا، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته ويكون الحكم والظهور لها، قال الشاعر:

فإن لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة حب يوم تبلى السرائر»[٣].

وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فما للإنسان الكافر يومئذ من قوة يمتنع به من عذاب الله وأليم نكاله، ولا ناصر ينصره فيستنقذه ممن ناله بمكروه، وقد كان في الدنيا يرجع إلى قوة من عشيرته يمتنع بهم ممن أراده بسوء، وناصر من حليف ينصره على من ظلمه واضطهده»[٤].

قال ابن عطية: «وليس يمتنع في الدنيا من المكاره إلا بأحد الوجهين: إما بقوة في ذات الإنسان، وإما بناصر خارج عن ذاته، فأخبر الله تعالى عن الإنسان أنه

---

(١) التبيان (ص: ٦٨-٦٩).
(٢) روح المعاني (٣٠/ ٩٩).
(٣) التبيان (ص: ٦٩).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ١٤٧).

يعدمها يوم القيامة فلا يعصمه من أمر اللَّه شيء»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضح أهل الغدر والخيانة يوم القيامة

* عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به»[٢].

* عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان**»[٣].

★ غريب الحديثين:

غادر: الغادر هو الذي يواعد على أمر ولا يفي به.

لواء: اللواء: الراية العظيمة، لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب، أو صاحب دعوة الجيش، ويكون الناس تبعًا له.

★ فوائد الحديث:

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على فضيحة الغادر يوم القيامة، ينصب له لواء غدرته وشهرته بها على جميع العالم هناك»[٤].

قال القاضي عياض: «ولما كان الغدر مكتومًا ومستترًا به، شهر به صاحبه، وكشف ستره؛ لتتم فضيحته، ويتشنع ذلك معاقبة»[٥].

وقوله: «إن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة»، ثبت في رواية عند مسلم من حديث أبي سعيد: «**يرفع له بقدر غدرته**»[٦]، وفي رواية أخرى: «**عند استه**»[٧].

قال الحافظ: «قال ابن المنير: كأنه عومل بنقيض قصده؛ لأن عادة اللواء أن

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٢)، والبخاري (٦/ ٣٤٨/ ٣١٨٧)، ومسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦)، والبخاري (١٠/ ٦٨٩/ ٦١٧٧) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٥٩-١٣٦٠/ ١٧٣٥)، وأبو داود (٣/ ١٨٨/ ٢٧٥٦)، والترمذي (٤/ ١٢٢/ ١٥٨١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٤/ ٨٧٣٧).

(٤) بهجة النفوس (٤/ ١٧٤).

(٥) الإكمال (٦/ ٣٩).

(٦) مسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٨[١٦]).

(٧) مسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٨[١٥]).

يكون على الرأس، فنصب عند السفل زيادة في فضيحته؛ لأن الأعين غالبًا تمتد إلى الألوية، فيكون ذلك سببًا لامتدادها إلى التي بدت له ذلك اليوم، فيزداد بها فضيحة»[١].

وقال ابن أبي جمرة: «من حكمة الشريعة أن العذاب على الشيء يكون بما يضاده، وأن الشهرة هناك من جملة العقاب أيضًا، فلما كان الغدر هنا أمرًا باطنيًا خفيًا، جعلت علامته هنا أشهر الأشياء؛ لأن عادة العرب أن أشهر الأشياء عندهم إنما يكون برفع الألوية، وقد جاء في حديث آخر: «أنه ينصب عند استه»، أو كما ورد، وهذه مبالغة في التوبيخ والخزي جزاءً وفاقًا»[٢].

وفي هذين الحديثين من الفوائد أيضًا: «أن الغدر عام في الدق من الأمور والجل، وهذا باب ضيق لم يسامح فيه أحد من العلماء في ذرة، حتى إنهم قالوا في الأسير إذا كان في دار الحرب وقال له العلج الذي هو في يده: عاهدني على أن لا تهرب، وأنا أسرحك من الحديد، فإن عاهده وسرحه من الحديد من أجل عهده، فلا يحل له الهروب، بخلاف أن لو حلفه، فله إذا حلفه أن يهرب ويكفر عن يمينه، أما ترى إلى حال الغادر في كتاب اللَّه ﷻ حيث قال: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[٣]، فأورثهم غدرهم لمولاهم أنجس الأحوال وهو النفاق»[٤].

وفيهما من الفوائد: «التنبيه على العلامة التي يعرف بها يوم القيامة؛ لأنه قد شاءت الحكمة الربانية أن جعلت لكل صاحب ذنب علامة يعرف بها ذنبه. . وآكل الربا يتخبط مثل صاحب الجنون في الدنيا، والذي يطلب وليس بذي حاجة ليس في وجهه مزعة لحم، والنائحة لها سربالان أحدها من الجرب والثاني من القطران، ومانع الزكاة إن كانت إبلًا يبطح لها بقاع قرقر فجاءت أوفر ما كانت تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مر آخرها ردت أولاها حتى يقضي اللَّه تعالى بين عباده، ثم

(١) فتح الباري (٦/ ٣٤٩).
(٢) بهجة النفوس (٤/ ١٧٥).
(٣) التوبة: الآيات (٧٥-٧٧).
(٤) بهجة النفوس (٤/ ١٧٤).

يرى سبيله، وإن كانت غنمًا فمثل ذلك، إلا أنه قال: تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، وإن كان ماله ذهبًا أو فضة مثل شجاع أقرع يعضه في شدقيه، يقول: أنا مالك، أنا كنزك، والمتكبرون يبعثون مثل الذر.. والكذاب ينشق شدقاه.. فهذه كلها علامات على كل ذنب حتى يعرف به صاحبه، وهي أشياء عديدة بحسب الجرائم. وكفى في ذلك قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾[1]، أعاذنا الله من الذنوب والفضيحة بها، لو لم يكن فيها إلا هذا المقدار لكان كافيًا في الردع والازدجار، فكيف بالأمور الزائدة على ذلك الذي لا تحمله الجبال»[2].

قلت: تحدثت الآية وحديث النبي ﷺ الذي فسرها عن فضيحة أهل الغدر الذين مكروا بالناس بأنواع المكر، وبذلوا كل أسبابه في الوصول إلى مصالحهم الخاصة لينتفعوا هم وحدهم فقط، ويجعلون غيرهم مصاعد يصعدون عليها، وسلالم يرتقون فيها، فالمهم هو وصولهم إلى مرادهم، وأما غيرهم فموتهم عندهم وحياتهم سواء، ونفعهم وضرهم سواء، وهذا واقع لكثير من الناس، فقَلَّ أن تجد صادقًا في صداقة أو في ولاية أو في تدين أو في طلب علم أو في منصب أو شهادة؛ فكل هذا أصبح وسيلة إلى مآرب شخصية، وإن كانت العناوين تُظْهِر للناس أنهم الساسة والقادة، وهم العلماء المصلحون، وهم الساسة الأخيار، وهم في واقعهم كما قال الرسول ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[3]، فالمنافقون لئام الناس الذين كانوا مع رسول الله ﷺ أظهروا له الإسلام والصلاح والجهاد وهم في واقع أمرهم غدرة خونة، قال الله عنهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4]، وهم الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد يريدون خيانته بقيادة القائد الخائن عبد الله بن سلول، وهم الذين غدروا بعائشة أم المؤمنين صنعوا لها كمينًا برأها الله تعالى منه، وسماهم أهل الإفك

---

(١) الرحمن: الآية (٤١).

(٢) بهجة النفوس (٤/ ١٧٤-١٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٦٠)، والترمذي (٤/ ٥٠٨/ ٢٣٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى كما في التحفة (٨/ ٣١٦)، وابن حبان (٨/ ٢٤/ ٣٢٢٨) كلهم من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٤) المنافقون: الآية (٨).

والبهتان. وغدروا بأمير المؤمنين عمر ﷺ فقتلوه في محرابه، وغدروا بعلي ﷺ فقتلوه، وهذه السياسة لا نهاية لها، فلو أردنا تسويد الصفحات لطال ذلك، واليهود والمنافقون هم أسوة أهل الغدر في كل زمان، وهذا غدر يتجلى في كل لحظة، فالعملة هي من أكبر أصناف النفاق، وهذا الموضوع يحتاج إلى مؤلف مستقل والحاجة ماسة إليه؛ فإن أطال اللَّه في العمر ومكننا من ذلك حاولنا جمعه وتوثيق معلوماته والتعليق عليها وإخراجها إلى الأمة إن شاء اللَّه، نسأل اللَّه أن لا يجعلنا من أهل الغدر والخيانة، وأن لا يجعلنا من أهل الإفك والبهتان، وأن لا يكتب لنا شعرة من خيانة هذه الأمة المباركة، إنه سميع مجيب.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾

★ **غريب الآية:**

الرجع: المطر. سمي بذلك لرجوعه إلى الأرض مرارًا. وقيل: سمي رجعًا لردّ الهواء ما تناوله من الماء. وسمي الغدير رجعًا إما لتسميته بالمطر الذي فيه، وإما لتراجع أمواجه وتردده في مكانه.

الصدع: أصله: الشق في الأجسام الصلبة، كالزجاج والحديد ونحوهما؛ يقال: صدعتُهُ فانصدع وصدّعتُهُ فتصدّع. وصدعت الأرض: انشقت عن النبات؛ لأن النبات صادع للأرض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «وافتتح الكلام بالقَسم تحقيقًا لصدق القرآن في الإخبار بالبعث وفي غير ذلك مما اشتمل عليه من الهدى. ولذلك أعيد القَسَم بالسماء كما أقسم بها في أول السورة، وذكر من أحوال السماء ما له مناسبة بالمقسم عليه، وهو الغيث الذي به صلاح الناس، فإن إصلاح القرآن للناس كإصلاح المطر. وفي الحديث: «مَثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا»[1] الحديث»[2].

وقال ابن القيم: «أقسم سبحانه بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾، فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات، قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع به في كل عام، وقال أبو إسحاق: الرجع المطر؛ لأنه يجيء ويرجع ويتكرر، وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبدي بالمطر ثم ترجع به في كل عام، والتحقيق أن هذا

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٩)، والبخاري (١/ ٢٣٢/ ٧٩)، ومسلم (٤/ ١٧٨٧-١٧٨٨/ ٢٢٨٢)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٧/ ٥٨٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٦).

على وجه التمثيل، ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالًا بعد حال على مرور الأزمان، ترجعه رجعًا، أي: تعطيه مرة بعد مرة، والخير كله من قبل السماء يجيء، ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فُسِّر الرجع به، وحسن تفسيره به، ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفُسِّر الصدع بالنبات؛ لأنه يصدع الأرض، أي: يشقها، فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى، الدالة على ربوبيته»[1].

قال البقاعي: «فجمع بالقسم العالم العلوي الذي هو كالرجل والسفلي الذي هو كالمرأة، فكما أن الرجل يسقيها من مائه فتصدع عن الولد، فكذلك السماء تسقي الأرض فتتصدع عن النبات وكما أنها تتصدع عن النبات بعد فنائه وصيرورته رفاتًا فيعود كما كان فكذلك تتصدع عن الناس بعد فنائهم فيعودون كما كانوا بإذن ربها من غير فرق أصلًا»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١﴾ قال: «المطر»، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾ قال: «ذات النبات»[3].

* * *

(١) التبيان (ص: ٦٩-٧٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٣).

(٣) أخرجه: عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٣٦٥)، وابن جرير (٣٠/ ١٤٨-١٤٩)، والحاكم (٢/ ٥٢٠) كلهم من طريق سفيان عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٩٠٦): «وإسناده صحيح».

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾

★غريب الآية:

فصل: أي: حكمٌ ينفصل به الحق عن الباطل، ومنه: فصلُ الخصومات، وهو قطعها بالحكم. ويقال: هذا قولٌ فصلٌ، أي: قاطع للمراء والنزاع.

الهزل: ضد الجِدّ، وهو كل كلام لا تحصيل له؛ تشبيهًا بالهزال. وقد هَزَلَ يهزِلُ؛ قال الكميت:

يــجــدّ بــنــا فــي كــل يــوم ونــهــزِلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أقسم على كون القرآن حقًّا وصدقًا، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾ كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده، والقول الفصل هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومصيب الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره، كما قال: أصاب الفصل، وأصاب المرء، إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد، ومنه فصل الخطاب، وأيضًا: فالقول الفصل ببيان المعنى ضد الإجمال، فكون القرآن فصلًا يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه حقًّا ليس بالباطل، وجدًّا ليس بالهزل، ولما كان الهزل هو الذي لا حقيقة له -وهو الباطل واللعب- قابل بين الفصل والهزل»[1].

وقال ابن عاشور: «أعقب بالثناء على القرآن ردًّا على المشركين إذ كانوا يزعمون أن النبي ﷺ جاء يهزل إذ يخبر بأن الموتى سيحْيَوْن، يريدون تضليل عامتهم حين يسمعون قوارع القرآن وإرشاده وجزالة معانيه، يختلقون لهم تلك المعاذير ليصرفوهم عن أن يتدبروا القرآن، وهو ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ

---

(١) التبيان (ص: ٧٠).

كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾[١]، فالهزل على هذا الوجه هو ضدّ الجدّ أعني المزح واللعب، ومثل هذه الصفة إذا وردت في الكلام البليغ لا محمل لها إلا إرادة التعريض وإلا كانت تقصيرًا في المدح، لا سيما إذا سبقتها محمدة من المحامد العظيمة. ويجوز أن يطلق الهزل على الهذيان قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ أي: بالهذيان»[٢].

* * *

(١) فصلت: الآية (٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾

★ **غريب الآية:**

أمهلهم: المَهْلُ: التُّؤَدة والسكون؛ يقال: مَهَلَ في فعله وعمل في مُهْلة، ويقال: مَهْلًا، نحو: رفقًا، وقد مَهّلته: إذا قلت له: مهلًا، وأمهلته: رفقت به. والمعنى: أخّرهم وأنظرهم.

رويدًا: الرُّوَيْدُ في كلام العرب: تصغير رُودٍ. والمعنى: إمهالًا قليلًا أو قريبًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن هؤلاء المكذبين بالله ورسوله والوعد والوعيد يمكرون مكرًا، وقوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ يقول: وأمكر مكرًا، ومكره -جل ثناؤه- بهم: إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم به»(١).

قال الرازي: «وذلك الكيد على وجوه، منها: إلقاء الشبهات كقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾(٢) ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٣) ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾(٤) ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٥) ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٦). ومنها: بالطعن فيه بكونه ساحرًا وشاعرًا ومجنونًا، ومنها بقصد قتله على ما قاله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾(٧)»(٨).

قال ابن القيم: «وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾(٩)

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٠).
(٢) الأنعام: الآية (٢٩).
(٣) يس: الآية (٧٨).
(٤) ص: الآية (٥).
(٥) الزخرف: الآية (٣١).
(٦) الفرقان: الآية (٥).
(٧) الأنفال: الآية (٣٠).
(٨) التفسير الكبير (٣١/ ١٣٤).
(٩) الأعراف: الآية (١٨٣).

فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه فيأخذه كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء اللَّه بأوليائه ودينه كان كيد اللَّه لهم حسنًا لا قبح فيه، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾[1] »[2].

وفي الآية إثبات صفة الكيد لله ﷻ على جهة المقابلة، وتعريفه عند أهل العلم -يقول **الشيخ العثيمين**- التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم؛ يعني: أن توقع بخصمك بأسباب خفية لا يدري عنها. وهي في محلها صفة كمال يحمد عليه، وفي غير محلها صفة نقص يذم عليها.. والمكر والكيد والمحال من صفات اللَّه الفعلية التي لا يوصف بها على سبيل الإطلاق؛ لأنها تكون مدحًا في حال، وذما في حال؛ فيوصف بها حين تكون مدحًا، ولا يوصف بها إذا لم تكن مدحًا، فيقال: اللَّه خير الماكرين، خير الكائدين، أو يقال: اللَّه ماكر بالماكرين، خادع لمن يخادعه.. أهل السنة والجماعة يثبتون هذه المعاني لله ﷻ على سبيل الحقيقة، لكن أهل التحريف يقولون: لا يمكن أن يوصف اللَّه بها أبدًا، لكن ذكر مكر اللَّه ومكرهم من باب المشاكلة اللفظية، والمعنى مختلف مثل: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[3] ونحن نقول لهم: هذا خلاف ظاهر النص، وخلاف إجماع السلف، وقد قلنا سابقًا: إذا قال قائل: ائت لنا بقول لأبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي يقولون فيه: إن المراد بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع الحقيقة!

فنقول لهم: نعم، هم قرؤوا القرآن وآمنوا به، وكونهم لم ينقلوا هذا المعنى المتبادر إلى معنى آخر يدل على أنهم أقروا به، وأن هذا إجماع، ولهذا يكفينا أن نقول في الإجماع: لم ينقل عن واحد منهم خلاف ظاهر الكلام، وأنه فسر الرضى بالثواب، أو الكيد بالعقوبة ونحو ذلك، وهذه الشبهة ربما يوردها علينا أحد من الناس؛ يقولون: أنتم تقولون: هذا إجماع السلف؛ أين إجماعهم؟ نقول: عدم نقل ما يخالف ظاهرها عنهم دليل الإجماع.

---

(١) الأنعام: الآية (٤٤).

(٢) التبيان (ص: ٧٠).

(٣) المائدة: الآية (١١٩).

ما نستفيده من الناحية المسلكية في إثبات صفة المكر والكيد والمحال: المكر يستفيد به الإنسان بالنسبة للأمر المسلكي مراقبة اللَّه ﷻ، وعدم التحيل على محارمه، وما أكثر المتحيلين على المحارم؛ فهؤلاء المتحيلون على المحارم إذا علموا أن اللَّه تعالى خيرًا منهم مكرًا، وأسرع منهم مكرًا؛ فإن ذلك يستلزم أن ينتهوا عن المكر، وربما يفعل الإنسان شيئًا فيما يبدو للناس أنه جائز لا بأس به، لكنه عند اللَّه ليس بجائز فيخاف ويحذر، وهذا له أمثلة كثيرة جدًّا في البيوع والأنكحة وغيرهما»[1].

وقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾:

قال ابن القيم: «أي: أنظِرهم قليلًا ولا تستعجل لهم، والرب تعالى هو الذي يمهلهم، وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم، أو على معنى انتظر بهم قليلًا، و(رويدًا) في كلامهم يكون اسم فعل فينصب بها الاسم نحو: رويدًا زيدًا، أي: خله وأمهله وارفق به. الثاني: أن يكون مصدرًا مضافًا إلى المفعول، نحو: رويدَ زيدٍ، أي: إمهالَ زيدٍ، نحو: ضربَ الرقاب، الثالث: أن يكون نعتًا منصوبًا نحو قولك: ساروا رويدًا، تقول العرب: ضعه رويدًا، أي: وضعًا رويدًا، وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ بالليل من عندها إلى البقيع: «فخرج رويدًا، وأجاف الباب رويدًا»[2] ويجوز في هذا الوجه وجهان: أحدهما: أن يكون حالًا. والثاني: أن يكون نعتًا لمصدر محذوف، فإن أظهرت المنعوت تعين الوجه الثاني، و(رويدًا) في هذه الآية هو من هذا النوع الثالث، واللَّه أعلم»[3].

قال ابن عاشور: «والمعنى: انتظر ما سيحلّ بهم ولا تستعجل لهم انتظار تربص واتّياد، فيكون ﴿رُوَيْدًا﴾ كناية عن تحقق ما يحلّ بهم من العقاب؛ لأن المطمئن لحصول شيء لا يستعجل به. وتصغيره للدلالة على التقليل، أي مُهلة غير طويلة»[4].

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٨/ ٢٨٣-٢٨٥).
(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٢١)، ومسلم (٢/ ٦٦٩-٦٧١/ ٩٧٤[١٠٣])، والنسائي (٧/ ٨٤-٨٥/ ٣٩٧٣).
(٣) التبيان (ص: ٧٠-٧١).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٩).

قال القاسمي: «قال الإمام: وفي ذلك وعيد شديد لهم بأن ما يصيبهم قريب، سواء كان في الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت، ثم فيه الوعد للنبي ﷺ بل لكل داع إلى الحق الذي جاء به، أنه سيبلغ من النجاح ما يستحقه عمله، وأن المناوئين له هم الخاسرون»[١].

قال البقاعي: «ووقع أول هذا الوعيد يوم بدر، ثم توالى نكالهم وتحقيرهم وإسفالهم إلى أن ذهب كثير منهم بالسيف، وكثير منهم بالموت حتف الأنف إلى النار، وبقي الباقون في الصَّغار إلى أن أعزهم اللَّه بعز الإسلام، وصاروا من الأكابر الأعلام، تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا لهذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، واللَّه تعالى هو أعلم بالصواب»[٢].

* * *

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ١٢٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٦).



سورة الأعلى

أغراض السورة

قال البقاعي: «مقصودها: إيجاب التنزيه للأعلى سبحانه عن أن يلحق ساحة عظمته شيء من شوائب النقص، كاستعجال في أمر من إهلاك الكافرين، أو غيره، أو العجز عن البعث، أو إهمال الخلق سدى يبغي بعضهم على بعض بغير حساب، أو أن يتكلم بما لا يطابق الواقع، أو بما يقدر أحد أن يتكلم بمثله، وعلى ذلك دل كل من اسميها: سبح والأعلى»[1].

قال ابن عاشور: «اشتملت على تنزيه اللَّه تعالى، والإشارة إلى وحدانيته لإفراده بخلق الإنسان، وخلق ما في الأرض مما فيه بقاؤه، وعلى تأييد النبي ﷺ، وتثبيته على تلقي الوحي، وأن اللَّه معطيه شريعة سمحة، وكتابا يتذكر به أهلُ النفوس الزكية الذين يخشون ربهم، ويعرض عنه أهل الشقاوة الذين يؤثرون الحياة الدنيا، ولا يعبأون بالحياة الأبدية، وأن ما أوحي إليه يصدقه ما في كتب الرسل من قبله، وذلك كله تهوين لما يلقاه من إعراض المشركين»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان تاريخ نزول سورة الأعلى

* عن البراء ﷺ قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء

---

(١) مصاعد النظر (٣/ ١٨٠-١٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧٢).

فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول اللَّه ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها»[١].

★ **غريب الحديث:**

الولائد: جمع وليدة، وهي الصبية والأمة.

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث: دليل على أن سورة (الأعلى) مكية، كما قال ابن كثير، وهو ظاهر قول البراء: «فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها». وفي رواية: «فما قدم حتى قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وفي سور من المفصل».

قال الحافظ: «مقتضاه أن ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ مكية، وفيه نظر؛ لأن ابن أبي حاتم أخرج من طريق حيدة أن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[٢] نزلت في صلاة العيد وزكاة الفطر، وسنده حسن، وكل منهما شرع في السنة الثانية، فيمكن أن يكون نزول هاتين منها وقع بالمدينة، وأقوى منه أن يتقدم نزول السورة كلها بمكة، ثم بين النبي ﷺ أن المراد بـ ﴿فَصَلَّىٰ﴾ صلاة العيد، وبـ ﴿تَزَكَّىٰ﴾ زكاة الفطر، فإن تأخير البيان عن وقت الخطاب جائز. والجواب عن الإشكال من وجهين: أحدهما: احتمال أن تكون السورة مكية إلا هاتين الآيتين، وثانيهما: -وهو أصحهما- فيه يجوز نزولها كلها بمكة، ثم بين النبي ﷺ المراد بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ صلاة العيد وزكاة الفطر، فليس في الآية إلا الترغيب في الذكر والصلاة من غير بيان للمراد، فبينته السنة بعد ذلك»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضيلة سورة الأعلى وقراءته ﷺ بها في الجمعة والعيدين والوتر

* عن النعمان بن بشير قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾». قال: وإذا اجتمع العيد

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٤-٢٨٥)، والبخاري (٨/ ٩٠٦/ ٤٩٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٣/ ١١٦٦٦).
(٢) الأعلى: الآيتان (١٤و١٥).
(٣) فتح الباري (٧/ ٣٣٣).

والجمعة في يوم واحد؛ يقرأ بهما أيضًا في الصلاتين[١].

* عن سمرة بن جندب: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١﴾»[٢].

* عن عمران بن حصين قال: «صلى بنا رسول اللّٰه ﷺ صلاة الظهر -أو العصر-، فقال: أيكم قرأ خلفي: بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾؟ فقال رجل: أنا، ولم أرد بها إلا الخير. قال: **قد علمت أن بعضكم خالجنيها**»[٣].

★ غريب الحديث:

خالجنيها: معناه: نازعنيها، كأنه ينزع ذلك من لسانه.

* عن أبي بن كعب قال: «كان رسول اللّٰه ﷺ يوتر بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾»[٤].

* عن عبد العزيز بن جريج قال: «سألنا عائشة: بأي شيء كان يوتر رسول اللّٰه ﷺ؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾، وفي الثانية بـ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾، وفي الثالثة بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و(المعوّذتين)»[٥].

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث دليل على أنه ﷺ كان يداوم على قراءة هذه السورة في الجمعات والجماعات، والأعياد والنوافل من الصلوات، وفي ذلك دليل على

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧١و٢٧٣)، ومسلم (٢/ ٥٩٨/ ٨٧٨)، وأبو داود (١/ ٦٧٠/ ١١٢٢)، والترمذي (٢/ ٤١٣/ ٥٣٣)، والنسائي (٣/ ١٢٥/ ١٤٢٣)، وابن ماجه (١/ ٤٠٨/ ١٢٨١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣)، وأبو داود (١/ ٦٧١/ ١١٢٥)، والنسائي (٣/ ١٢٤/ ١٤٢١)، وصححه ابن حبان (٧/ ٤٨/ ٢٨٠٨)، وابن خزيمة (٣/ ١٧٢/ ١٨٤٧)، قال الشوكاني في «النيل» (٣/ ٣٣٧): «حديث سمرة، قال العراقي: إسناده صحيح».

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٦-٤٣١)، ومسلم (١/ ٢٩٨/ ٣٩٨)، وأبو داود (١/ ٥١٩-٥٢٠/ ٨٢٨-٨٢٩)، والنسائي (٢/ ٤٧٨/ ٩١٦-٩١٧).

(٤) أخرجه: أبو داود (٢/ ١٣٢-١٣٣/ ١٤٢٣)، والنسائي (٣/ ٢٧٠-٢٧١/ ١٧٢٨)، وابن ماجه (١/ ٣٧٠/ ١١٧١) واللفظ له، وصححه ابن حبان (الإحسان ٦/ ١٩٢/ ٢٤٣٦).

(٥) أخرجه: أبو داود (٢/ ١٣٣/ ١٤٢٤)، والترمذي (٢/ ٣٢٦-٣٢٧/ ٤٦٣) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (١/ ٣٧١/ ١١٧٣)، والحاكم (٢/ ٥٢٠-٥٢١) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

حبه ﷺ لهذه السورة. قال البقاعي: قال الملوي: وكان النبي ﷺ يحبها لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات»[١].

قال شيخ الإسلام: «إذ كانت هذه السورة تضمنت أصول الإيمان الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالرسل والكتب التي جاؤوا بها، وذلك يتضمن الإيمان بالملائكة. وفيها العمل الصالح الذي ينفع في الآخرة، والفاسد الذي يضر فيها»[٢].

وأما وجه قراءته ﷺ لهذه السورة و(الكافرون) و(المعوذتين) في الوتر **فقال البقاعي**: «وسر ذلك -والله أعلم- أن المراد بصلاة الوتر: التذكير بوحدانية المعبود، والتقرير لذلك في آخر عبادة الليل، كما صنع ذلك في أول عباداته، وجعل ذلك كالختم لصلاة النهار، والليل أشبه شيء بالموت، وأقرب إلى العدم، وأنسب شيء لذلك التنزيه والإخلاص، فشرع في آخر شفع فيه قراءة أعظم المسبحات، تنزيهًا في أولى الركعتين كما ابتدأت كلمة الإخلاص بالنفي؛ لأن التخلية قبل التحلية»[٣].

وأما وجه قراءتها في العيدين، **فقال البقاعي أيضًا**: «سر ذلك: أن الأعلى فيها التنزيه، لئلا يظن أنه سبحانه محتاج إلى ما فرغ منه أهل العيد من العبادة، والحث على تزكية النفس والمال، والصلاة والذكر، والإعراض عن الدنيا؛ لأن العيد مظنة التهاون بذلك، والانبساط إلى الدنيا»[٤].

وفيها من الفوائد: «دليل على أن لا توقيت في القراءة في الصلاة»[٥]، وأنه لا يجب القراءة بشيء معين في صلوات معينة، وقد تقدم القول فيما يستحب من القراءة في سائر الصلوات عند مطلع سورة (الطور) و(المرسلات) وغيرهما.

* عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: **سبحان ربي الأعلى**»[٦].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٧٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٥١).

(٣) مصاعد النظر (٣/ ١٨٣-١٨٤).

(٤) مصاعد النظر (٣/ ١٨٤).

(٥) من كلام ابن عبد البر في «التمهيد» (فتح البر ٤/ ٦٨٠).

(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٢)، وأبو داود (١/ ٥٤٩/ ٨٨٣)، والحاكم (١/ ٢٦٣-٢٦٤) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وصحح إسناده الألباني في «صفة الصلاة» (ص: ١٠٥).

* عن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى الذي خلق فسوى». قال: وهي قراءة أبي بن كعب[١].

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «يستحب للقارئ إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝﴾ أن يقول عقبه: سبحان ربي الأعلى؛ قاله النبي ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين»[٢].

قال الطيبي: «قال المظهر: عند الشافعي يجوز مثل هذه الأشياء في الصلاة وغيرها، وعند أبي حنيفة لا يجوز إلا في غير الصلاة. أقول: وكذا عند مالك. قال التوربشتي: هذا الحديث لا يدل على أن هذا كان في الصلاة، إذ لو كان في الصلاة لبينه الراوي، ونقله غيره من الصحابة، مع شدة حرصهم على الأخذ منه والتبليغ. ولو زعم أحد أنه في الصلاة، قلنا: يحمل ذلك على غير الفريضة، على ما في حديث حذيفة رضي الله عنه[٣]، لما حدث به عن صلاته مع النبي ﷺ بالليل، وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ، ولم ينقل شيء من ذلك فيما جهر به من الفرائض مع كثرة من حضرها.

والجواب أن الحديث الآتي وعموم قوله ﷺ: من قرأ كذا فليقل كذا، مرارًا ثلاثًا، ظاهر فيما ذهب إليه الشافعي رضي الله عنه، وعلى المخالف دليل الخصوص، ولأن من يتعانى هذه الشريطة غالبًا يكون حاضر القلب، متخشعًا خائفًا راجيًا، يظهر افتقاره بين يدي مولاه، والصلاة مئنة ذلك ومظنته»[٤].

قال العظيم آبادي: «ظاهر الحديث يوافق ما ذهب إليه الشافعي؛ لأن قوله: «كان إذا قرأ» عام يشمل الصلاة وغيرها، وحديث حذيفة مقيد بصلاة الليل كما مرّ، فهو حجة على من لم يجوّز التسبيح والسؤال، والتعوّذ عند المرور بآية فيها تسبيح أو سؤال، أو تعوّذ في الصلاة مطلقًا»[٥].

---

(١) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ١٥١)، والحاكم (٢/ ٥٢١) وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وعزاه ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٩٠٦) إلى سعيد بن منصور وصحح إسناده.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٤)، ومسلم (١/ ٥٣٦-٥٣٧/ ٧٧٢)، والنسائي (٣/ ٢٥٠/ ١٦٦٣).

(٤) شرح الطيبي (٣/ ١٠١٠-١٠١١).

(٥) عون المعبود (٣/ ١٣٨).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ فقال بعضهم: معناه: عظم ربك الأعلى، لا ربّ أعلى منه وأعظم، وكان بعضهم إذا قرأ ذلك قال: سبحان ربي الأعلى.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: نزه يا محمد اسم ربك الأعلى، أن تسمي به شيئًا سواه، ينهاه بذلك أن يفعل ما فعل من ذلك المشركون، من تسميتهم آلهتهم بعضها اللات وبعضها العزّى.

وقال غيرهم: بل معنى ذلك: نزه اللَّه عما يقول فيه المشركون كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1]، وقالوا: معنى ذلك: سبح ربك الأعلى؛ قالوا: وليس الاسم معنيًا.

وقال آخرون: نزه تسميتك يا محمد ربك الأعلى، وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت له خاشع متذلل؛ قالوا: وإنما عُنِي بالاسم: التسمية، ولكن وُضع الاسم مكان المصدر.

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾: صلّ بذكر ربك يا محمد، يعني بذلك: صلّ وأنت له ذاكر، ومنه وجل خائف.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معناه: نزه اسم ربك أن تدعو به الآلهة والأوثان، لما ذكرت من الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ، وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرءوا ذلك قالوا: سبحان ربي الأعلى، فَبَيَّن بذلك أن معناه كان عندهم معلوما: عظم اسم ربك ونزهه»[2].

قال صديق حسن خان: «أي نزهه عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٨).

(٢) جامع البيان (٣٠/ ١٥١ و١٥٢).

وأفعاله وأحكامه»[١].

قال السعدي: «يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحا يليق بعظمة اللَّه تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي: أتقنها وأحسن خلقها»[٢].

قال شيخ الإسلام: «والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات صفات الكمال له، فإن التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده»[٣].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «و«الأعلى» يجمع معاني العلو جميعها، وأنه الأعلى بجميع معاني العلو. وقد اتفق الناس على أنه عَلِيٌّ على كل شيء، بمعنى أنه قاهر له، قادر عليه، متصرف فيه، كما قال: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٤] وعلا أنه عال عن كل عيب ونقص؛ فهو عال عن ذلك منزه عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾[٥] فقرن تعاليه عن ذلك بالتسبيح، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾[٦]، وقالت الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾[٧]..

إلى أن قال: «فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه في كتابه، أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء والأولاد فليس كمثله شيء، وهذا يقتضي ثبوت صفات

---

(١) فتح البيان (١٥/ ١٨٥).
(٢) تيسير الكريم (٧/ ٦١١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٢٥).
(٤) المؤمنون: الآية (٩١).
(٥) الإسراء: الآيات (٣٩-٤٣).
(٦) المؤمنون: الآيتان (٩١و٩٢).
(٧) الجن: الآية (٣).

الكمال له دون ما سواه، وأنه لا يماثله غيره في شيء من صفات الكمال؛ بل هو متعال عن أن يماثله شيء، وتضمن أنه عال على كل ما سواه قاهر له، قادر عليه، نافذة مشيئته فيه وأنه عال على الجميع فوق عرشه. فهذه ثلاثة أمور في اسمه «العلي». وإثبات علوه على ما سواه وقدرته عليه وقهره يقتضي ربوبيته له وخلقه له وذلك يستلزم ثبوت الكمال. وعلوه عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال، وهذا يقتضي جميع ما يوصف به في الإثبات والنفي: ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال، وفي النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال، وينزه عن أن يكون له مثل في صفات الكمال، كما قد دلت على هذا وهذا سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝﴾[1]، وتعاليه عن الشركاء يقتضي اختصاصه بالإلهية، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده، كما قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝﴾[2]، أي: وإن كانوا كما يقولون يشفعون عنده بغير إذنه؛ ويقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب والإله دونهم وكانوا يبتغون إليه سبيلا بالعبادة له والتقرب إليه. هذا أصح القولين، كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝﴾[4]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[5]، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝﴾[6]، فتعالى عن أن يكون معه إله غيره، أو أحد يشفع عنده إلا بإذنه، أو يتقرب إليه أحد إلا بإذنه، فهذا هو الذي كانوا يقولون، ولم يكونوا يقولون: إن آلهتهم تقدر أن تمانعه أو تغالبه؛ بل هذا يلزم من فرض إله آخر يخلق كما يخلق، وإن كانوا هم لم يقولوا ذلك، كما قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾[7]، فقد تبين أن اسمه «الأعلى» يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه»[8].

---

(١) الإخلاص: الآيتان (١و٢).
(٢) الإسراء: الآية (٤٢).
(٣) الإنسان: الآيتان (٢٩و٣٠).
(٤) المدثر: الآيتان (٥٤و٥٥).
(٥) الإسراء: الآية (٥٧).
(٦) الإسراء: الآية (٤٣).
(٧) المؤمنون: الآية (٩١).
(٨) مجموع الفتاوى (١٦/ ١١٩-١٢٤).

قال عطية سالم: «الأمر بالتسبيح هنا منصب على ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، وفي آيات أخر جاء الأمر بتسبيح اللَّه تعالى كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[(١)]، ومثل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾[(٢)]، وتسبيح الرب سبحانه كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[(٣)]، فاختلف في هذه الآية، هل المراد تسبيح اللَّه سبحانه، أو المراد تسبيح اسمه تعالى، كما هو هنا؟..

أما تنزيه أسماء اللَّه فهو على عدة معانٍ:

منها: تنزيهها عن إطلاقها على الأصنام، كاللات والعزى واسم الآلهة.

ومنها: تنزيهها عن اللهو بها واللعب، كالتلفظ بها في حالة تنافي الخشوع والإجلال، كمن يعبث بها ويلهو، ونظيره من يلهو ويسهو عن صلاته، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾[(٤)]، أو وضعها في غير مواضعها، كنقش الثوب أو الفراش الممتهن.

ومنها: تنزيهها عن المواطن غير الطاهرة، وقد كان ﷺ إذا دخل الخلاء نزع خاتمه؛ لما فيه من نقش محمد رسول اللَّه ﷺ.

ومنها: صيانة الأوراق المكتوبة من الابتذال صونًا لاسم اللَّه.

وعلى هذا تكون هذه الآية موضحة لآية الواقعة، وأن ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ واقع موقع المفعول به، وهو المراد بالتسبيح، وعلى أن المراد تسبيح اللَّه تعالى..»[(٥)].

* * *

---

(١) الإنسان: الآية (٢٦).

(٢) الروم: الآية (١٧).

(٣) الصافات: الآية (١٨٠).

(٤) الماعون: الآيتان (٤و٥).

(٥) أضواء البيان (٩/ ١٧٠-١٧٤).

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال النسفي : «أي خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية، ولم يأت به متفاوتًا غير ملتئم، ولكن على إحكام واتساق، دلالة على أنه صادر عن عالم حكيم، أو سوَّاه على ما فيه منفعة ومصلحة»[١].

قال شيخ الإسلام : «فأطلق الخلق والتسوية، ولم يخص بذلك الإنسان كما أطلق قوله بعد ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ لم يقيده. فكان هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات، وقد بين موسى عليه السلام شموله في قوله : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٢]، وقد ذكر المقيد بالإنسان في قوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾[٣]، وقد ذكر المطلق والمقيد في أول ما نزل من القرآن وهو قوله : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[٤]. وفي جميع هذه الآيات مطلقها ومقيدها، والجامع بين المطلق والمقيد قد ذكر خلقه، وذكر هدايته وتعليمه بعد الخلق، كما قال في هذه السورة : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ ؛ لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها، فلا بد أن تهدى إلى تلك الغاية التي خلقت لها، فلا تتم مصلحتها وما أريدت له إلا بهدايتها لغاياتها، وهذا مما يبين أن اللَّه خلق الأشياء لحكمة وغاية تصل إليها كما قال ذلك السلف، وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء والمقصود هنا ذكر قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾. والتسوية : جعل الشيئين سواء كما قال : ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ

---

(١) تفسير النسفي (٤/ ٣٤٩).
(٢) طه : الآية (٥٠).
(٣) الانفطار : الآيتان (٦و٧).
(٤) العلق: الآيات (١-٥).

﴿وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[2] وسواء: وسط لأنه معتدل بين الجوانب، وذلك أنه لا بد في الخلق والأمر من العدل، فلا بد من التسوية بين المتماثلين، فإذا فضل أحدهما فسد المصنوع، كما في مصنوعات العباد: إذا بنوا بنيانا فلا بد من التسوية بين الحيطان، إذ لو رفع حائط على حائط رفعا كثيرا فسد. ولا بد من التسوية بين جذوع السقف، فلو كان بعض الجذوع قصيرا عن الغاية، وبعضها فوق الغاية فسد. وكذلك إذا بني صف فوق صف لا بد من التسوية بين الصفوف، وكذلك الدرج المبنية، وكذلك إذا صنع لسقي الماء جداول ومساكب، فلا بد من العدل والتسوية فيها، وكذلك إذا صنعت ملابس للآدميين فلا بد من أن تكون مقدرة على أبدانهم لا تزيد ولا تنقص، وكذلك ما يصنع من الطعام لا بد أن تكون أخلاطه على وجه الاعتدال، والنار التي تطبخه كذلك. وكذلك السفن المصنوعة، ولهذا قال اللّه لداود: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾[3]، أي: لا تدق المسمار فيقلق، ولا تغلظه فيفصم، واجعله بقدر. فإذا كان هذا في مصنوعات العباد، وهي جزء من مصنوعات الرب، فكيف بمخلوقاته العظيمة التي لا صنع فيها للعباد كخلق الإنسان، وسائر البهائم وخلق النبات وخلق السموات والأرض والملائكة. فالفلك الذي خلقه وجعله مستديرا ما له من فروج، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾[5]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾[6]، فهو سبحانه سواها كما سوى الشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات، فعدل بين أجزائها، ولو كان أحد جانبي السماء داخلا أو خارجا لكان فيها فروج، وهي الفتوق والشقوق، ولم يكن سواها كمن بنى قبة ولم يسوها. وكذلك لو جعل أحد جانبيها أطول أو أنقص ونحو ذلك. فالعدل والتسوية لازم لجميع المخلوقات والمصنوعات. فمتى لم تصنع بالعدل والتسوية بين

---

(١) فاطر: الآية (١٩).
(٢) آل عمران: الآية (٦٤).
(٣) سبأ: الآية (١١).
(٤) الملك: الآيتان (٣و٤).
(٥) الذاريات: الآية (٧).
(٦) ق: الآية (٦).

المتماثلين وقع فيها الفساد. وهو سبحانه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾. قال أبو العالية في قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ قال: سوى خلقهن، وهذا كما قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[١] »[٢].

قال الشوكاني: «والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدّر وهدى إلا بدليل يدل عليه، ومع عدم الدليل يحمل ما يصدق عليه معنى الفعلين، إما على البدل أو على الشمول، والمعنى: قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسره لما خلق له، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه»[٣].

قال الألوسي: «رد بما دلت عليه الآية من العموم على المعتزلة في زعمهم أن العبد خالق لأفعاله، والزمخشري مع أن مذهبه مذهبهم قال هنا بالعموم، ولعله لم يرد العموم الحقيقي، أو أراده لكن على معنى خلق كل شيء، إما بالذات أو بالواسطة، وجعل ذلك في أفعال العباد بأقداره سبحانه، وتمكينهم على خلقها باختيارهم وقدرهم الموهوبة لهم»[٤].

قال عطية سالم: «أطلق الخلق ليعم على كل مخلوق كما تقدم في السجدة، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[٥]، والتسوية: التقويم والتعديل، وقد خلق الله كل مخلوق مستوٍ على أحسن ما يتناسب لخلقته وما خلق له، فخلق السماوات فسواها في أقوى بناء، وأعلى سمك، وأشد تماسك، لا ترى فيها من تشقق ولا فطور، وزيَّنها بالنجوم، وخلق الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها وجعلها فراشًا ومهادًا، وخلق الأشجار فسوَّاها على ما تصلح له من ذوات الثمار ووقود النار وغير ذلك.

وهذه الحيوانات في خلقتها وتسويتها آية ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[٦].

أما الإنسان فهو في أحسن تقويم، كل ذلك مما يستوجب حقًا له سبحانه أن

---

(١) فصلت: الآية (١٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٢٩-١٣٥).
(٣) فتح القدير (٥/ ٦٠٧).
(٤) روح المعاني (٣٠/ ١٠٤).
(٥) السجدة: الآية (٧).
(٦) الغاشية: الآيات (١٧-٢٠).

يسبح اسمه في ذاته، وجميع صفاته، حيث جمع بين الخلق والتسوية، فلكمال القدرة والتنزيه عن كل نقص»[(١)].

وقال: «أطلق هنا التقدير ليعم كل مقدور، وهو عائد على كل مخلوق، لأن من لوازم الخلق التقدير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝﴾[(٢)]، وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[(٣)]، وهذه الآية ومثيلاتها من أعظم آيات القدرة، وقد جمعها تعالى عند التعريف التام لله تعالى، لما سأل فرعون نبي الله موسى عن ربه قال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[(٤)]»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن خلق الله تعالى مؤتلف غير مختلف

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**»[(٦)].

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «قدر سبحانه ما يريد أن يخلقه من هذا العالم حين كان عرشه على الماء إلى يوم القيامة كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ فقال: اكتب ما يكون إلى يوم القيامة»[(٧)]. فخلق لكل شيء ما يشاكله في خلقه ما يصلحه من رزقه في بر أو في بحر. فجعل للبعير خلقا لا يصلح شيء من خلقه على غيره من الدواب، وكذلك كل دابة خلق الله له منها ما يشاكلها في خلقها، فخلقه مؤتلف لما خلقه له غير مختلف»[(٨)].

---

(١) أضواء البيان (٩/ ١٧٦).
(٢) القمر: الآية (٤٩).
(٣) الطلاق: الآية (٣).
(٤) طه: الآيتان (٤٩و٥٠).
(٥) أضواء البيان (٩/ ١٧٦ و١٧٦).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٤/ ٢٦٥٣)، والترمذي (٤/ ٣٩٩-٣٩٨/ ٢١٥٦) وقال: «حسن صحيح غريب».
(٧) تقدم تخريجه في سورة القمر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝﴾.
(٨) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٣٧).

وقد تقدم شرحه وبيان فوائده عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[2].

* * *

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).

(٢) القمر: الآية (٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

غثاء: أي: هشيمًا يابسًا مثل الغثاء، وهو ما يقذف به السيل على جانب الوادي من النبات.

أحوى: أسود مأخوذ من الحُوَّة، وهي السواد. قال ذو الرمة:

لَمْيَاءُ في شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وفي اللِّثَاتِ وفي أنْيَابها شَنَبُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: والذي أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات وأنواع الحشيش.. وقوله: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: فجعل ذلك المرعى غُثاء، وهو ما جفّ من النبات ويبس فطارت به الريح، وإنما عني به ههنا: أنه جعله هشيما يابسا، متغيرا إلى الحوة: وهي السواد من بعد البياض، أو الخضرة من شدة اليبس،.. وهذا القول وإن كان غير مدفوع أن يكون ما اشتدّت خضرته من النبات، قد تسميه العرب أسود، غير صواب عندي، بخلافه تأويل أهل التأويل في أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه، أو تأخيره، فأما وله في موضعه وجه صحيح فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير»[1].

قال شيخ الإسلام: قوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ خص به إخراج المرعى، وهو ما ترعاه الدواب، وذكر أنه جعله غثاء أحوى. وهذا فيه ذكر أقوات البهائم، لكن أقوات الآدميين أجل من ذلك، وقد دخلت هي وأقوات البهائم في قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾. وأيضا فالذي يصير غثاء أحوى لم تقتت به البهائم، وإنما تقتات به قبل ذلك، فهو والله أعلم خص هذا بالذكر لأنه مثل الحياة الدنيا.. فذكر سبحانه

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٢-١٥٣).

المرعى عقب ما ذكره من الخلق والهدى ليبين مآل بعض المخلوقات وأن الدنيا هذا مثلها، وقد ذكر الله ذلك في الكهف ويونس والحديد، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾[(٣)]، وقد جعل إهلاك المهلكين حصادا لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾[(٤)]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾[(٥)]، فقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ هو مثل للحياة الدنيا وعاقبة الكفار ومن اغتر بالدنيا، فإنهم يكونون في نعيم وزينة وسعادة، ثم يصيرون إلى شقاء في الدنيا والآخرة، كالمرعى الذي جعله غثاء أحوى»[(٦)].

قال ابن عاشور: «وفي وصف إخراج الله تعالى المرعى، وجعله غُثاء أحوى، مع ما سبقه من الأوصاف في سياق المناسبة بينها وبين الغرض المسوق له الكلام، إيماء إلى تمثيل حال القرآن وهدايته، وما اشتمل عليه من الشريعة التي تنفع الناس بحال الغيث الذي يَنبت به المرعَى، فتنتفع به الدواب والأنعام، وإلى أن هذه الشريعة تكمل ويبلغ ما أراد الله فيها، كما يكمل المرعَى ويبلغ نُضجه حين يصير غثاء أحوى، على طريقة تمثيلية مكنية رُمز إليها بذكر لازم الغيث، وهو المرعى، وقد جاء بيان هذا الإيماء وتفصيله بقول النبي ﷺ: «**مثل ما بَعَثني الله به من الهُدى والعِلم، كمثَل الغيث الكثير أصابَ أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الماء فأنبتت الكلأ**

---

(١) الكهف: الآية (٤٥).
(٢) يونس: الآيتان (٢٤-٢٥).
(٣) الحديد: الآية (٢٠).
(٤) هود: الآية (١٠٠).
(٥) التين: الآيات (٤-٦).
(٦) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٥١-١٥٣).

والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسَقوا وزرعوا»[(١)] الحديث.

ويجوز أن يكون المقصود من جملة: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ إدماج العبرة بتصاريف ما أودع الله في المخلوقات من مختلف الأطوار من الشيء إلى ضده، للتذكير بالفناء بعد الحياة كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[(٢)] للإشارة إلى أن مدة نضارة الحياة للأشياء تشبه المدة القصيرة، فاستعير لعطف «جعله غثاء» الحرفُ الموضوع لعطف ما يحصل فيه حكم المعطوف بعدَ زمن قريب من زمن حصول المعطوف عليه، ويكون ذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[(٣)] »[(٤)].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٩) والبخاري (١/ ٢٣٢/ ٧٩) ومسلم (٤/ ١٧٨٧/ ٢٢٨٢) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٧/ ٥٨٤٣) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) الروم: الآية (٥٤).

(٣) يونس: الآية (٢٤).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧٨).

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار من اللّه ﷻ، ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وهذا اختيار ابن جرير»[1].

قال ابن جرير: «ثم اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ٱلْأُولَىٰ﴾ فقال بعضهم: هذا إخبار من اللّه نبيه -عليه الصلاة والسلام- أنه يعلمه هذا القرآن ويحفظه عليه، ونهي منه أن يعجل بقراءته كما قال -جل ثناؤه-: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾[2]. . فقال قائلوا هذه المقالة: معنى الاستثناء في هذا الموضع على النسيان، ومعنى الكلام: فلا تنسى إلا ما شاء اللّه أن تنساه ولا تذكره، قالوا: ذلك هو ما نسخه اللّه من القرآن، فرفع حكمه وتلاوته. .

وقال آخرون: معنى النسيان في هذا الموضع: الترك؛ وقالوا: معنى الكلام: سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيء منه، إلا ما شاء اللّه أن تترك العمل به، مما ننسخه.

وكان بعض أهل العربية يقول في ذلك: لم يشأ اللّه أن تنسى شيئًا، وهو كقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾[3] ولا يشاء. قال: وأنت قائل في الكلام: لأعطينك كلّ ما سألت إلا ما شئت، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية أن لا تمنعه، ولا تشاء شيئًا. قال: وعلى هذا مجاري الأيمان، يستثنى فيها، ونية الحالف: اللمام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٢٩).

(٢) القيامة: الآيتان (١٦و١٧).

(٣) هود: الآية (١٠٧).

والقول الذي هو أولى بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلا أن نشاء نحن أن نُنسيكه بنسخه ورفعه.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن ذلك أظهر معانيه»[١].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على أن النبي ﷺ ينسى من القرآن ما شاء اللَّه أن ينساه، وقد جاءت آيات كثيرة تدل على حفظ القرآن من الضياع كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾[٢]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[٣].

والجواب: أن القرآن وإن كان محفوظا من الضياع، فإن بعضه ينسخ بعضا، وإنساء اللَّه نبيه ﷺ بعض القرآن في حكم النسخ، فإذا أنساه آية فكأنه نسخها، ولا بد أن يأتي بخير منها أو مثلها، كما صرح به تعالى في قوله: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾[٥]»[٦].

قال الرازي: «هذه الآية تدل على المعجزة من وجهين:

الأول: أنه كان رجلا أميا فحفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة، خارق للعادة، فيكون معجزا.

الثاني: أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع في المستقبل، وقد وقع، فكان هذا إخبارا عن الغيب، فيكون معجزا»[٧].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾:

يقول ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه يعلم الجهر يا محمد من عملك ما أظهرته وأعلنته ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ يقول: وما يخفى منه فلم تظهره مما كتمته، يقول: هو يعلم جميع أعمالك سرّها وعلانيتها؛ يقول: فاحذره أن يطلع عليك وأنت عامل

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٤).
(٢) القيامة: الآيتان (١٦و١٧).
(٣) الحجر: الآية (٩).
(٤) البقرة: الآية (١٠٦).
(٥) النحل: الآية (١٠١).
(٦) دفع إيهام الاضطراب (٢٦٤).
(٧) التفسير الكبير (٣١/ ١٤٢).

في حال من أحوالك بغير الذي أذن لك به»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تذكر الصحابة للقرآن

* كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾[٢]، قال: «يتذكر القرآن مخافة أن ينسى»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٤).

(٢) الأعلى: الآية (٦).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٢١) وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذه أيضًا بشارة كبيرة، أن اللَّه ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسرا»[(١)].

قال ابن كثير: «أي: نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعا سهلا سمحا، مستقيما عدلا لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر»[(٢)].

قال ابن عاشور: «فاشتمل الكلام على تيسيرين: تيسير ما كلف به النبي ﷺ أي جعله يسيرًا مع وفائه بالمقصود منه، وتيسير النبي ﷺ للقيام بما كلف به.. ومن آثار هذا التيسير ما ورد في الحديث: «أن رسول اللَّه ﷺ ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيْسرهما»[(٣)] وقوله ﷺ لأصحابه: **«إنما بعثتم مُيَسِّرين لا مُعسِّرين»**[(٤)] »[(٥)].

* * *

(١) تيسير الكريم (٧/ ٦١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه: البخاري (١٠/ ٦٤٣/ ٦١٢٦)، ومسلم (٤/ ١٨١٣/ ٢٣٢٧[٧٧])، وأبو داود (٥/ ١٤٢/ ٤٧٨٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٩)، والبخاري (١/ ٤٢٩/ ٢٢٠)، وأبو داود (١/ ٣٦٣-٣٦٤/ ٣٨٠)، والترمذي (١/ ٢٧٥-٢٧٦/ ١٤٧)، والنسائي (٣/ ١٩/ ١٢١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٢ و٢٨٣).

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآيات

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فذكر عباد اللَّه يا محمد عظمته، وعظهم، وحذرهم عقوبته ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يقول: إن نفعت الذكرى الذين قد آيستك من إيمانهم، فلا تنفعهم الذكرى. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أمر من اللَّه لنبيه ﷺ بتذكير جميع الناس، ثم قال: إن نفعت الذكرى هؤلاء الذين قد آيستك من إيمانهم»[1].

قال شيخ الإسلام: «قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ كقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ و«إن» هي الشرطية. وحكى الماوردي أنها بمعنى «ما»، وهذه تكون «ما» المصدرية، وهي بمعنى الظرف، أي: ذكر ما نفعت، ما دامت تنفع، ومعناها قريب من معنى الشرطية. وأما إن ظن ظان أنها نافية؛ فهذا غلط بين، فإن اللَّه لا ينفي نفع الذكرى مطلقا، وهو القائل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾[3]، ثم قال: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعن مجاهد: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾: إن قبلت الذكرى. وعن مقاتل: فذكر وقد نفعت الذكرى.. والتذكر هو الذكر التام الذي يذكره المذكر به وينتفع به. وغير هؤلاء قال تعالى فيهم: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾[5]، فقد أتاهم وقامت به الحجة، ولكن لم يصغوا إليه بقلوبهم فلم يفهموه، أو فهموه فلم يعملوا به كما قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٥).
(٢) الذاريات: الآية (٥٥).
(٣) الذاريات: الآيتان (٥٤و٥٥).
(٤) الأنبياء: الآيتان (٢و٣).
(٥) الشعراء: الآية (٥).

﴿أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝﴾[١]، والخاص هو التام النافع، وهو الذي حصل معه تذكر لمذكر، فإن هذا ذكرى كما قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝﴾[٢]، أي: يجنب الذكرى، وهو إنما جنب الذكرى الخاصة، وأما المشترك الذي تقوم به الحجة، فقد ذكر هو وغيره بذلك، وقامت الحجة عليهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٣]، وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٤] وقال عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾[٦]..

فقوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ -كما قال مفسرو السلف والجمهور- على بابها قال الحسن البصري: تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ لا يمنع كون الكافر يبلغ القرآن لوجوه:

أحدها: أنه لم يخص قوما دون قوم، لكن قال: ﴿فَذَكِّرْ﴾ وهذا مطلق بتذكير كل أحد. وقوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ لم يقل: «إن نفعت كل أحد»، بل أطلق النفع، فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع، والتذكير المطلق العام ينفع، فإن من الناس من يتذكر فينتفع به، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك، فيكون عبرة لغيره، فيحصل بتذكيره نفع أيضا، ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره، فتحصل بالذكرى منفعة، فكل تذكير ذكر به النبي ﷺ للمشركين حصل به نفع في الجملة، وإن كان النفع للمؤمنين الذين قبلوه واعتبروا به وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة. فإن قيل: فعلى هذا كل تذكير قد حصل به نفع فأي فائدة في التقييد؟ قيل: بل منه ما لم ينفع أصلا، وهو ما لم يؤمر به، وذلك كمن أخبر اللّه أنه لا يؤمن كأبي لهب، فإنه بعد أن أنزل اللّه قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[٧]، فإنه لا يخص بتذكير بل يعرض عنه، وكذلك كل من لم يصغ إليه ولم

---

(١) الأنفال: الآية (٢٣).
(٢) الأعلى: الآيات (٩-١١).
(٣) الإسراء: الآية (١٥).
(٤) النساء: الآية (١٦٥).
(٥) الملك: الآيتان (٨و٩).
(٦) الأنعام: الآية (١٣٠).
(٧) المسد: الآية (٣).

يستمع لقوله، فإنه يعرض عنه كما قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾[١]، ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢]، فهو إذا بلغ قوما الرسالة فقامت الحجة عليهم، ثم امتنعوا من سماع كلامه أعرض عنهم، فإن الذكرى حينئذ لا تنفع أحدا، وكذلك من أظهر أن الحجة قامت عليه وأنه لا يهتدي، فإنه لا يكرر التبليغ عليه.

الوجه الثاني: أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع كما هو أمر بالتذكير المشترك، وهذا التام النافع يخص به المؤمنين المنتفعين، فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل، وكلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به، ويذكرهم بمعانيه، ويذكرهم بما نزل قبل ذلك. بخلاف الذين قال فيهم: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾[٣]، فإن هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين إذا كانت الحجة قد قامت عليهم وهم معرضون عن التذكرة لا يسمعون، ولهذا قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾[٤] فأمره أن يقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يتذكر، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ فذكر التذكر والتزكي كما ذكرهما هناك، وأمره أن يقبل على من أقبل عليه دون من أعرض عنه، فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك، فيكون مأمورا أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيرا يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة كما قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾[٥]، وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٦] وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا قرأ القرآن سمعه المشركون فسبوا القرآن ومن أنزل عليه ومن جاء به فقال اللَّه له: ولا تجهر به فيسمعه المشركون ولا تخافت به عن أصحابك»[٧]. فنهي عن أن يسمعهم إسماعا يكون ضرره أعظم من نفعه، وهكذا كل ما يأمر اللَّه به لا بد أن تكون مصلحته

---

(١) الذاريات: الآية (٥٤).
(٢) الذاريات: الآية (٥٥).
(٣) المدثر: الآيات (٤٩-٥١).
(٤) عبس: الآيات (١-١٠).
(٥) الذاريات: الآيتان (٥٤و٥٥).
(٦) الإسراء: الآية (١١٠).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣/ ٢١٥) والبخاري (٨/ ٥١٦/ ٤٧٢٢) ومسلم (١/ ٣٢٩/ ٤٤٦) والترمذي (٥/ ٢٨٧/ ٣١٤٦) والنسائي (٢/ ٥١٩-٥٢٠/ ١٠١٠) من حديث ابن عباس ﷺ.

راجحة على مفسدته، والمصلحة هي المنفعة، والمفسدة هي المضرة. فهو إنما يؤمر بالتذكير إذا كانت المصلحة راجحة، وهو أن تحصل به منفعة راجحة على المضرة، وهذا يدل على الوجه الأول والثاني، فحيث كان الضرر راجحا فهو منهي عما يجلب ضررا راجحا. والنفع أعم في قبول جميعهم، فقبول بعضهم نفع، وقيام الحجة على من لم يقبل نفع، وظهور كلامه حتى يبلغ البعيد نفع، وبقاؤه عند من سمعه حتى بلغه إلى من لم يسمعه نفع، فهو ﷺ ما ذكر قط إلا ذكرى نافعة، لم يذكر ذكرى قط يكون ضررها راجحا. وهذا مذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف، أن ما أمر اللَّه به لا بد أن تكون مصلحته راجحة ومنفعته راجحة. وأما ما كانت مضرته راجحة فإن اللَّه لا يأمر به. وأما جهم ومن وافقه من الجبرية فيقولون: إن اللَّه قد يأمر بما ليس فيه منفعة ولا مصلحة البتة؛ بل يكون ضررا محضا إذا فعله المأمور به، وقد وافقهم على ذلك طائفة من متأخري أتباع الأئمة، ممن سلك مسلك المتكلمين أبي الحسن الأشعري وغيره في مسائل القدر، فنصر مذهب جهم والجبرية. .

وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ يقتضي أن كل من يخشى يتذكر. والخشية قد تحصل عقب الذكر وقد تحصل قبل الذكر، وقوله: ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ مطلق. ومن الناس من يظن أن ذلك يقتضي أنه لا بد أن يكون قد خشي أولا حتى يذكر وليس كذلك؛ بل هذا كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾[2]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[4]، وهو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه لم يكن وعيد قبل سماع القرآن، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وهو إنما اتبع الذكر وخشي الرحمن بعد أن أنذره الرسول. وقد لا يكونون خافوها قبل الإنذار، ولا كانوا متقين قبل سماع القرآن؛ بل به صاروا متقين. وهذا كما يقول القائل: ما يسمع هذا إلا سعيد، وإلا مفلح، وإلا من ﷺ، وما يدخل في الإسلام إلا من هداه اللَّه ونحو ذلك، وإن كانت هذه الحسنات والنعم تحصل بعد الإسلام وسماع القرآن. ومثل هذا قوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ

---

(١) البقرة: الآية (٢).
(٢) النازعات: الآية (٤٥).
(٣) ق: الآية (٤٥).
(٤) يس: الآية (١١).

يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[١]، وقد قال في نظيره: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ وإنما يشقى بتجنبها. وهذا كما يقال: إنما يحذر من يقبل، وإنما ينتفع بالعلم من عمل به. فمن استمع القرآن فآمن به وعمل به، صار من المتقين الذين هو هدى لهم، ومن لم يؤمن به ولم يعمل به لم يكن من المتقين، ولم يكن ممن اهتدى به؛ بل هو كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[٢]، ولم يرد أنهم كانوا مؤمنين، فلما سمعوه صار هدى وشفاء؛ بل إذا سمعه الكافر فآمن به صار في حقه هدى وشفاء وكان من المؤمنين به بعد سماعه، وهذا كقوله في النوع المذموم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾[٣]»[٤].

قال ابن كثير: «ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «ما أنت بمحدِّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم»[٥]. وقال: «حدث الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!»[٦]»[٧].

* * *

(١) الجاثية: الآية (٢٠).

(٢) فصلت: الآية (٤٤).

(٣) البقرة: الآيتان (٢٦و٢٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٥٣-١٧٣).

(٥) أخرجه مسلم في المقدمة (١/ ١١). موقوفا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري (١/ ٣٠٠/ ١٢٧).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٩ و٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يصلى: أي: يدخل ويقاسي حَرَّها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: الذي يرد نار جهنم، وهي النار الكبرى، ويعني بالكبرى لشدة الحر والألم»[1].

قال ابن عاشور: «ووصفُ النار بـ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ للتهويل والإنذار والمراد بها جهنم»[2].

قال البقاعي: «ولما ذكر وصفه الذي أوجب له العمل السيئ، ذكر جزاءه فقال: ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى﴾ أي: يباشر مباشرة الغموس بقلبه وقالبه مقاسيًا ﴿ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ أي: التي هي أعظم الطبقات وهي السفلى؛ لأنه ليس في طبعه أن يخشى؛ بل هو كالجلمود الأقسى؛ لأنه جاهل مقلد، أو متكبر معاند، أو المراد نار الأخرى، فإنها أعظم من نار البرزخ وأعظم من نار الدنيا بسبعين جزءًا، فلهذا استحقت أن تتصف بأفعل التفضيل على الإطلاق»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٦).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٤٠٠).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ثم لا يموت في النار الكبرى ولا يحيا، وذلك أن نفس أحدهم تصير فيها في حلقه، فلا تخرج فتفارقه فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا. وقيل: لا يموت فيها فيستريح، ولا يحيا حياة تنفعه.

وقال آخرون: قيل ذلك؛ لأن العرب كانت إذا وصفت الرجل بوقوع في شدة شديدة، قالوا: لا هو حيّ، ولا هو ميت، فخاطبهم اللَّه بالذي جرى به ذلك من كلامهم»[1].

قال عطية سالم: «نفى عنه الضدين؛ لأن الإنسان بالذات إما حي وإما ميت، ولا واسطة بينهما، ولكن في يوم القيامة تتغير الموازين والمعايير، وهذا أبلغ في التعذيب، إذ لو مات لاستراح، ومع أنه يتلقى من العذاب ما لا حياة معه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[2]. وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[3].

وتقدم للشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه- بيان معنى ذلك في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤﴾[4]»[5].

قال أبو حيان: «جيء بـ ﴿ثُمَّ﴾ المقتضية للتراخي إيذانًا بتفاوت مراتب الشدة، لأن التردد بين الحياة والموت أشد وأفظع من الصلي بالنار»[6].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٥).

(٢) فاطر: الآية (٣٦).

(٣) إبراهيم: الآية (١٧).

(٤) طه: الآية (٧٤).

(٥) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٧٩).

(٦) البحر المحيط (٨/ ٤٥٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون فيها ولا يحيون

* عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم -أو قال: بخطاياهم- فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة! أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول اللَّه ﷺ قد كان بالبادية[1].

★ غريب الحديث:

ضبائر: بفتح الضاد المعجمة أي: جماعات في تفرقة.

بثوا: أي فرقوا.

حميل السيل: بفتح الحاء وكسر الميم: ماحمله السيل من نحو طين أو غثاء، وفي معناه محمول السيل.

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «وهذا الصلي قد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدرى..

فقد بين النبي ﷺ أن هذا الصلي لأهل النار الذين هم أهلها، وأن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم، وأن اللَّه يميتهم فيها حتى يصيروا فحمًا، ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم إلى نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل.

وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ؛ بل متواتر في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة، وغيرهما. وفيها الرد على طائفتين: على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن أهل التوحيد يخلدون فيها، وهذه الآية حجة عليهم، وعلى من حكي عنه من غلاة المرجئة: أنه لا يدخل النار

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٥و١١و٢٠و٧٨-٧٩)، ومسلم (١/ ١٧٢/ ١٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤١/ ٤٣٠١).

من أهل التوحيد أحد. فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك.

وفيه رد على من يقول: يجوز ألا يُدْخِل اللّه من أهل التوحيد أحدًا النار، كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة، ومرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة، وهم الواقفة من أصحاب أبي الحسن وغيرهم، كالقاضي أبي بكر وغيره، فإن النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد وخروجهم.

والقول بأن أحدًا لا يدخلها من أهل التوحيد، ما أعلمه ثابتًا عن شخص معين فأحكيه عنه، لكن حكي عن مقاتل بن سليمان، وقال: احتج من قال ذلك بهذه الآية. وقد أُجيبوا بجوابين:

أحدهما: جواب طائفة، منهم الزجاج، قالوا: هذه نار مخصوصة.

لكن قوله بعدها: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾[1]، لا يبقى فيه كبير وعد، فإنه إذا جُنِّبَ تلك النار جاز أن يدخل غيرها.

وجواب آخرين قالوا: لا يصلونها صَلْيَ خلود. وهذا أقرب.

وتحقيقه: أن الصلي هنا هو الصلي المطلق، وهو المكث فيها، والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائمًا.

فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلي، ليس هو الصلي المطلق، لاسيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله كله، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود. واللّه أعلم»[2].

وقد تقدم شرح الحديث عند قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾[3].

* * *

---

(١) الليل: الآية (١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٤-١٩٧).

(٣) فاطر: الآية (٣٦).

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أفلح: فاز.

تزكى: أي: تطهر من الشرك والمعاصي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قد نجح وأدرك طلبته من تطهَّر من الكفر ومعاصي اللَّه، وعمل بما أمره اللَّه به، فأدّى فرائضه.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: قد أفلح من أدّى زكاة ماله.. وقال آخرون: بل عُنِي بذلك زكاة الفطر.. وقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: وحَّد اللَّه.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وذكر اللَّه ودعاه ورغب إليه. والصواب من القول في ذلك أن يقال: وذكر اللَّه فوحَّده، ودعاه ورغب إليه؛ لأن كلّ ذلك من ذكر اللَّه، ولم يُخصص اللَّه تعالى من ذكره نوعًا دون نوع.

وقوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: عُنِي به: فصلى الصلوات الخمس.. وقال آخرون: عُنِيَ به: صلاة العيد يوم الفطر. وقال آخرون: بل عُنِيَ به: وذكر اسم ربه فدعا، وقالوا: الصلاة هاهنا: الدعاء. والصواب من القول أن يقال: عُنِيَ بقوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾: الصلوات، وذكر اللَّه فيها بالتحميد والتمجيد والدعاء»[1].

قال ابن عاشور: «وقدم التزكّي على ذكر اللَّه والصلاةِ؛ لأنه أصل العمل بذلك كله، فإنه إذا تطهرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية، فعُلمت منافعها، وأكثرت من الإقبال عليها فالتزكية: الارتياض على قبول الخير، والمراد تزكّى بالإيمان..

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٥-١٥٧).

وقد رتبت هذه الخصال الثلاث على الآية على ترتيب تولدها . فأصلها : إزالة الخباثة النفسية من عقائد باطلة وحديث النفس بالمضمرات الفاسدة، وهو المشار إليه بقوله : ﴿تَزَكَّىٰ﴾ ، ثم استحضارُ معرفة اللَّه بصفات كماله وحكمته ليخافه ويرجوه وهو المشار بقوله : ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ ثم الإقبالُ على طاعته وعبادته وهو المشار إليه بقوله : ﴿فَصَلَّىٰ﴾ والصلاةُ تشير إلى العبادة وهي في ذاتها طاعة وامتثال يأتي بعده ما يشرع من الأعمال قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾[1] »[2].

* * *

(١) العنكبوت : الآية (٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: تقدمونها على أمر الآخرة، وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: ثواب اللّه في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنيَّة فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريبا، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!»[1].

قال عطية سالم: «وحيث إن هذا الأمر عام في الأمم الماضية، ويذكر في الصحف الأولى كلها عامة، وفي صحف إبراهيم وموسى، مما يدل على خطورته، وأنه أمر غالب على الناس.

وقد جاءت آيات دالة على أسباب ذلك، منها الجهل وعدم العلم بالحقائق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[2]، أي: الحياة الدائمة.

وقد روى القرطبي عن مالك بن دينار قوله: (لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى؟)

ومن أسباب ذلك أن الدنيا زينت للناس وعجلت لهم كما في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[3]. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧١ و٢٧٢).

(٢) العنكبوت: الآية (٦٤).

(٣) آل عمران: الآية (١٤).

(٤) آل عمران: الآية (١٤).

وبين تعالى هذا المآب الحسن وهو في وصفه يقابل ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾، فقال: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥﴾[1].

تأمل هذا البديل، ففي الدنيا ذهب وخيل ونساء والأنعام والحرث، وقد قابل ذلك كله بالجنة فعمت وشملت، ولكن نص على أزواج مطهرة ليعرف الفرق بين نساء الدنيا ونساء الآخرة، كما تقدم في ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[2]، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾[3]، وغير ذلك مما ينص على الخيرية في الآخرة.

ولا شك أن من آثر الآخرة غالب على من آثر الدنيا، وظاهر عليه، كما صرَّح تعالى بذلك في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢١٢﴾[4].

فمن هذا يظهر أن أسباب إيثار الناس للحياة الدنيا هو تزيينها وزخرفتها في أعينهم بالمال والبنين والخيل والأنعام ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾[5].

وقد سيق هذا، لا على سبيل الإخبار بالواقع فحسب؛ بل إن من ورائه ما يسمى لازم الفائدة، وهو ذم من كان هذا حاله، فوجب البحث عن العلاج لهذه الحالة.

وإذا ذهبنا نتطلب العلاج فإننا في الواقع نواجه أخطر موضوع على الإنسان، لأنه يشمل حياته الدنيا ومآله في الآخرة، ويتحكم في سعادته وفوزه أو شقاوته وحرمانه، وإن قرب مأخذ لنا لهو هذا الموطن بالذات من هذه السورة، وهو بضميمة ما قبلها إليها من قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾[6]، وبعدها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾[7]، فقد قسمت هذه الآيات الأمة كلها أمة الدعوة إلى قسمين.

---

(١) آل عمران (١٥).
(٢) محمد: الآية (١٥).
(٣) الواقعة: الآية (١٩).
(٤) البقرة: الآية (٢١٢).
(٥) الكهف: الآية (٤٦).
(٦) الأعلى: الآيات (١٠-١٢).
(٧) الأعلى: الآيتان (١٤و١٥).

أما التذكير والإنذار، إذ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ فهذا موقف النَّبي ﷺ، وجاء تقسيم الأمة إلى القسمين الآتيين: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ فينتفع بالذكرى وتنفعه، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١﴾ فلا تنفعه ولا ينتفع بها، ثم جاء الحكم بالفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ أي من يخشى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ ولم يغفل عن ذكر اللَّه تعالى، وهذا الموقف بنفسه هو المفصل في سورة الحديد، وفي معرض التوجيه لنا والتوبيخ للأمم الماضية أيضًا ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝١٦﴾(١).

فقسوة القلب وطول الأمد والتسويف: هي العوامل الأساسية للغفلة وإيثار الدنيا. والخشية والذكر: هي العوامل الأساسية لإيثار الآخرة، ثم عرض الدنيا في حقيقتها بقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝٢٠ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٢١﴾(٢).

فوصف الداء والدواء معًا في هذا السياق. فالداء: هو الغرور، والدواء: هو المسابقة إلى مغفرة من اللَّه ورضوانه»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم من آثر الحياة الدنيا على الآخرة

* عن أبي موسى أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»**(٤).

---

(١) الحديد: الآية (١٦). (٢) الحديد: الآيتان (٢٠و٢١).

(٣) تتمة الأضواء (٩/ ١٨٠-١٨٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١٢) وابن حبان (٢/ ٤٨٦/ ٧٠٩) والحاكم (٤/ ٣٠٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٤٩) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات. والحديث صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢٦٦/ ٣٢٤٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «(من أحب دنياه أضر بآخرته) لأن من أحب دنياه عمل في كسب شهوتها وأكب على معاصيه، فلم يتفرغ لعمل الآخرة، فأضر بنفسه في آخرته، ومن نظر إلى فناء الدنيا، وحساب حلالها وعذاب حرامها، وشاهد بنور إيمانه جمال الآخرة أضر بنفسه في دنياه، بحمل مشقة العبادات وتجنب الشهوات، فصبر قليلا وتنعم طويلا، ولأن من أحب دنياه شغلته عن تفريغ قلبه لحب ربه ولسانه لذكره، فتضر آخرته ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا ولا بد، كما قال: «ومن أحب آخرته أضر بدنياه» أي: هما ككفتي الميزان فإذا رجحت إحدى الكفتين خَفَّت الأخرى وعكسه، وهما كالمشرق والمغرب، ومحال أن يظفر سالك طريق الشرق بما يوجد في الغرب، وهما كالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، فالجمع بين كمال الاستئصال في الدنيا والدين، لا يكاد يقع إلا لمن سخره اللَّه لتبديل خلقه في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء، أما غيرهم فإذا شغلت قلوبهم بالدنيا انصرفت عن الآخرة، وذلك أن حب الدنيا سبب لشغله بها والانهماك فيها، وهو سبب للشغل عن الآخرة فتخلو عن الطاعة فيفوت الفوز بدرجاتها وهو عين المضرة»[1].

قال القاري: «(فآثروا) بالمد أي: فاختاروا. «ما يبقى على ما يفنى»: فإن العاقل يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني، فكيف والأمر بالعكس؟ ولذا قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: أقل العلم، بل أقل الإيمان، بل أقل العقل أن يعرف صاحبه أن الدنيا فانية، وأن الأخرى باقية، ونتيجة هذا العلم أن يعرض عن الفاني، ويقبل على الباقي، وعلامة الإقبال على العقبى والإعراض عن الدنيا الاستعداد للموت قبل وقوع الميعاد وظهور المعاد»[2].

قال المناوي: «قد ذم اللَّه من يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة بقوله: ﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝٢١﴾[3] وذم حبها يستلزم مدح بغضها، وقال علي: الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب إذا قربت من إحداهما بعدت عن الأخرى»[4].

---

(١) فيض القدير (٦/ ٣١).
(٢) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٤).
(٣) القيامة: الآيتان (٢٠و٢١).
(٤) فيض القدير (٦/ ٣١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨﴾ اختلف أهل التأويل في الذي أشير إليه بقوله هذا، فقال بعضهم: أُشير به إلى الآيات التي في ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾..

وقال آخرون: قصة هذه السورة.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: إن هذا الذي قصّ اللَّه تعالى في هذه السورة ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾.. وقال آخرون: بل عُنِي بذلك أن قوله: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ في الصحف الأولى..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: إن قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم خليل الرحمن، وصحف موسى بن عمران.

وإنما قلت: ذلك أولى بالصحة من غيره؛ لأن هذا إشارة إلى حاضر، فلأن يكون إشارة إلى ما قرب منها أولى من أن يكون إشارة إلى غيره. وأما الصحف: فإنها جمع صحيفة، وإنما عُني بها: كتب إبراهيم وموسى»[1].

قال ابن كثير: «وهذا الذي اختاره حسن قوي، وقد روي عن قتادة وابن زيد نحوه، واللَّه أعلم»[2].

قال أبو بكر بن العربي: «تعلق أبو حنيفة وأصحابه في جواز القراءة في الصلاة بالعجمية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

قالوا: فقد أخبر اللَّه أن كتابه وقرآنه في صحف إبراهيم وموسى بالعبرانية؛ فدل

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧٣).

على جواز الإخبار بها عنه وبأمثالها من سائر الألسن التي تخالفه.

والجواب عنه من وجهين:

الأول: أنا نقول: إن اللَّه سبحانه بعث الرسل وأنزل عليهم الكتب، وما بعث اللَّه من رسول إلا بلسان قومه، كما أخبر، وما أنزل من كتاب إلا بلغتهم، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[1]؛ كل ذلك تيسير منه عليهم، وتقريب للتفهيم إليهم، وكل مفهم بلغته، متعبد بشريعته، ولكل كتاب بلغتهم اسم؛ فاسمه بلغة موسى التوراة، واسمه بلغة عيسى الإنجيل، واسمه بلغة محمد القرآن، فقيل لنا: اقرءوا القرآن، فيلزمنا أن نعبد اللَّه بما يسمى قرآنا.

الثاني: هبكم سلمنا لكم أن يكون في صحف موسى بالعبرانية فما الذي يقتضي أنه تجوز قراءته بالفارسية؟ فإن قيل: بالقياس.

قلت: ليس هذا موضعه لاسيما عندكم، وقد بيناه في أصول الفقه ومسائل الخلاف على التمام، فلينظر هنالك إن شاء اللَّه تعالى»[2].

* * *

(١) إبراهيم: الآية (٤).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٩٢٣).



سورة الغاشية

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قوم مشوهة حالتهم، ومن ثواب قوم ناعمة حالتهم، وعلى وجه الإجمال المرهب أو المرغب.

والإيماء إلى ما بين ذلك الإجمال كله بالإنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة مخلوقات من خلق اللّه، وهي نصب أعينهم، على تفرده بالإلهية فيعلم السامعون أن الفريق المهدد هم المشركون.

وعلى إمكان إعادته بعض مخلوقاته خلقا جديدا بعد الموت يوم البعث.

وتثبيت النبي ﷺ على الدعوة إلى الإسلام وأن لا يعبأ بإعراضهم.

وأن وراءهم البعث فهم راجعون إلى اللّه، فهو مجازيهم على كفرهم وإعراضهم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة النبي ﷺ بالغاشية في العيدين والجمعة لما فيها من التوحيد وأحوال القيامة

* عن النعمان بن بشير قال: «كان رسول اللّه ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٩٣ و٢٩٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧٠)، ومسلم (٢/ ٥٩٨/ ٨٧٨)، وأبو داود (١/ ٦٧٠/ ١١٢٣)، والنسائي (٣/ ١٢٥/ ١٤٢٢)، وابن ماجه (١/ ٣٥٥/ ١١١٩).

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث «استحباب القراءة في صلاة الجمعة والعيدين بهاتين السورتين»[١].

وقد تقدم ذكر اختلاف العلماء في هذا الباب في سورة (الجمعة) فلتراجع.

وأما الحكمة من قراءته ﷺ هذه السورة في الجمعة والعيدين فلأن: «فيها الحث على الإخلاص لئلا يكون العامل مع تعبه في الدنيا معذبًا في الأخرى، والتذكير بما جرت عادة الناس أن يخرجوا إليه من عيدهم من الرياض والجبال ونحوها؛ ليكون نظرهم إليه اعتبارا بالآيات والحساب وانقسام الناس إلى صنفين، كما أن أهل العيد ينقلبون إلى منازلهم على وجهين: محسن حائز للثواب، ومسيء قد خاب واستحق العذاب»[٢].

وفي ذلك حكمة أخرى ذكرها **القاضي عياض** حيث قال: «وأما قراءته بـ(سبِّح) و(الغاشية) في العيد وفي الجمعة إذا اجتمعا في يوم على ما ذكره في الحديث، فلعله لتخفيف صلاة الجمعة لينصرف الناس الذين يشهدون العيدين من أهل العوالي إلى منازلهم؛ ليشهدوا بقية يوم عيدهم مع من تركوه من عيالهم»[٣].

* * *

---

(١) شرح صحيح مسلم (٦/ ١٤٥).

(٢) مصاعد النظر (٣/ ١٨٤-١٨٥).

(٣) الإكمال (٣/ ٢٨٣).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الغاشية: القيامة. سميت بذلك لأنها تغشى الناس بأهوالها. أي: تحيط بهم وتشملهم، فلا يفلت من هولها أحد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ يعني: قصتها وخبرها.

واختلف أهل التأويل في معنى الغاشية، فقال بعضهم: هي القيامة تغشى الناس بالأهوال..

وقال آخرون: بل الغاشية: النار تغشَى وجوه الكَفَرة.. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللّه قال لنبيه ﷺ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾ ولم يخبرنا أنه عنى غاشية القيامة، ولا أنه عنى غاشية النار. وكلتاهما غاشية، هذه تغشى الناس بالبلاء والأهوال والكروب، وهذه تغشى الكفار باللفح في الوجوه، والشُّواظ والنحاس، فلا قول في ذلك أصحّ من أن يقال كما قال -جل ثناؤه-، ويعمّ الخبر بذلك كما عمه»[(١)].

قال عطية سالم: «والذي يظهر رجحانه واللّه تعالى أعلم: أنها في عموم القيامة وليس في خصوص النار، فالنار من أهوال ودواهي القيامة، وهو ما يشهد له القرآن في هذا السياق من عدة وجوه، ومنها: أنه جاء بعدها قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ ويوم أنسب للقيامة منه للنار.

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥٩ و١٦٠).

ومنها: التصريح بعد ذلك، بأن من كانت تلك صفاتهم تصلى نارا حامية، مما يدل على أن الغاشية شيء آخر سوى النار الحامية.

ومنها: أن التعميم ليوم القيامة يشمل جميع الخلائق، وهو الأنسب بالموقف، ثم ينجي الذين اتقوا.

وقد بين تعالى قسيم هذا الصنف، مما يدل على أن الحديث المراد إلغاؤه، إنما هو عن حالة عموم الموقف»[1].

قال الرازي: «إنما سميت القيامة بهذا الاسم، لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له، والقيامة كذلك من وجوه: الأول: أنها ترد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾[2]، والثاني: أنها تغشى الناس جميعًا من الأولين والآخرين. والثالث: أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد»[3].

* * *

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٨٨ و١٨٩).

(٢) يوسف: الآية (١٠٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٥١).

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

خاشعة: ذليلة وخاضعة.

ناصبة: من النصب، وهو التعب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون إلى فريقين: فريقًا في الجنة، وفريقًا في السعير.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في وصف أهل النار: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَاشِعَةٌ﴾ من الذل، والفضيحة والخزي. ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝﴾ أي: تاعبة في العذاب، تجر على وجوهها، وتغشى وجوههم النار. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝﴾ في الدنيا؛ لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباء منثورا، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحًا من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام؛ بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عمومًا، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا»[1].

قال شيخ الإسلام: «هذا هو الحق لوجوه:

أحدها: أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه، أي: وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية. وعلى الأول لا يتعلق إلا بقوله: ﴿تَصْلَىٰ﴾ ويكون قوله:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦١٥ و٦١٦).

﴿خَٰشِعَةٌ﴾ صفة للوجوه قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى متأخرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى نارا حامية. والتقديم والتأخير على خلاف الأصل؛ فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أما مع اللبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب، ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير؛ بل القرينة تدل على خلاف ذلك، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان، وأمر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق.

الوجه الثاني: أن اللَّه قد ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة فقال بعد ذلك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ومعلوم أنه إنما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا في الدنيا؛ إذ هذا ليس بمدح، فالواجب تشابه الكلام وتناظر القسمين لا اختلافهما، وحينئذ فيكون الأشقياء وصفت وجوههم بحالها في الآخرة.

الثالث: أن نظير هذا التقسيم قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝﴾[1] وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝﴾[2]، وهذا كله وصف للوجوه لحالها في الآخرة لا في الدنيا.

الرابع: أن وصف الوجوه بالأعمال ليس في القرآن، وإنما في القرآن ذكر العلامة كقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾[3] وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾[4]، وقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾[5]، وذلك لأن العمل والنصب ليس قائما بالوجوه فقط؛ بخلاف السيما والعلامة.

الخامس: أن قوله: ﴿خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝﴾ لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم، فإن هذا إلى المدح أقرب وغايته أنه وصف مشترك بين عباد

(١) القيامة: الآيات (٢٢-٢٥).
(٢) عبس: الآيات (٣٨-٤٢).
(٣) الفتح: الآية (٢٩).
(٤) محمد: الآية (٣٠).
(٥) الحج: الآية (٧٢).

المؤمنين وعباد الكفار، والذم لا يكون بالوصف المشترك، ولو أريد المختص لقيل: خاشعة للأوثان مثلا، عاملة لغير اللّٰه ناصبة في طاعة الشيطان، وليس في الكلام ما يقتضي كون هذا الوصف مختصا بالكفار ولا كونه مذموما، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقا ولا وعيد عليه، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن.

السادس: أن هذا الوصف مختص ببعض الكفار ولا موجب للتخصيص، فإن الذين لا يتعبدون من الكفار أكثر، وعقوبة فساقهم في دينهم أشد في الدنيا والآخرة، فإن من كف منهم عن المحرمات المتفق عليها وأدى الواجبات المتفق عليها لم تكن عقوبته كعقوبة الذين يدعون مع اللّٰه إلها آخر، ويقتلون النفس التي حرم اللّٰه إلا بالحق ويزنون. فإذا كان الكفر والعذاب على هذا التقدير في القسم المتروك أكثر وأكبر كان هذا التخصيص عكس الواجب.

السابع: أن هذا الخطاب فيه تنفير عن العبادة والنسك ابتداء، ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة وليس في الخطاب تقييد كان هذا سعيا في إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢١٧-٢٢٠).

قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾

★ غريب الآية:

آنية: أي: حارة بلغت أناها، وهو النهاية في شدة الحر.

ضريع: الضريع: نبت ذو شوك تسميه قريش: الشِّبْرِق، يضر ولا ينفع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «قوله: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ أي: شديدًا حرها، تحيط بهم من كل مكان، ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾[1] فهذا شرابهم. وأما طعامهم فـ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾، وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين؛ بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة نسأل اللَّه العافية»[2].

قال أبو السعود: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ أي ليس من شأنه الإسمان والإشباع كما هو شأن طعام الدنيا، وإنما هو شيء يضطرون إلى أكله من غير أن يكون له دفع لضرورتهم، لكن لا على أن لهم استعدادا للشبع والسمن، إلا أنه لا يفيدهم شيئا منهما، بل على أنه لا استعداد من جهتهم ولا إفادة من جهة طعامهم، وتحقيق ذلك: أن جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة، من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة، لبدل ما يتحلل من البدن مشوقة له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يلتذ بهما عند الأكل والشرب

---

(١) الكهف: الآية (٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦١٦).

ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة، ويستفيد منهما قوة وسمنا عند انهضامهما؛ بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم إلى إدخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها من اللهب، وأما أن يكون لهم شوق إلى مطعوم ما، أو التذاذ به عند الأكل واستغناء به عن الغير، أو استفادة قوة فهيهات، وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم إلى شيء مائع بارد يطفئه من غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادة قوة به في الجملة»[1].

قال الرازي: «قال القفال: والمقصد من ذكر هذا الشراب وهذا الطعام بيان نهاية ذلهم، وذلك لأن القوم لما أقاموا في تلك السلاسل والأغلال تلك المدة الطويلة عطاشًا جياعًا، ثم ألقوا في النار فرأوا فيها ماء وشيئًا من النبات، فأحب أولئك القوم تسكين ما بهم من العطش والجوع، فوجدوا الماء حميمًا لا يروي بل يشوي، ووجدوا النبات مما لا يشبع ولا يغني من جوع، فأيسوا وانقطعت أطماعهم في إزالة ما بهم من الجوع والعطش، كما قال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ وبين أن هذه الحالة لا تزول ولا تنقطع، نعوذ بالله منها وههنا سؤالان:

السؤال الأول: قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾[2] وقال ههنا: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ والضريع غير الغسلين والجواب من وجهين: الأول: أن النار دركات فمن أهل النار من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد، لكل باب منهم جزء مقسوم.

الثاني: يحتمل أن يكون الغسلين من الضريع ويكون ذلك كقوله: مالي طعام إلا من الشاه، ثم يقول: مالي طعام إلا من اللبن، ولا تناقض لأن اللبن من الشاة»[3].

* * *

---

(١) إرشاد العقل (٩/ ١٤٩).

(٢) الحاقة: الآيتان (٣٥و٣٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٥٣ و١٥٤).

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

★ **غريب الآية:**

ناعمة: ذات بهجة وحسن ونضارة.

نمارق: وسائد ومرافق يتكأ عليها. واحدها: نمرقة. قال زهير:

كهولا وشبانًا حِسَانٌ وُجُوهُهُم ... عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ونَمَارِقِ

زرابي: أي: بسط فاخرة. واحدها: زربية.

مبثوثة: أي: مفرقة في المجالس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي: يعرف النعيم فيها. وإنما حَصَل لها ذلك بسعيها. وقال سفيان: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾ قد رضيت عملها. وقوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾ أي: رفيعة بهية في الغرفات آمنون، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾ أي: لا يسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو، كما قال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾[1]، وقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[2]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾[3].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾ أي: سارحة، وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس

(١) مريم: الآية (٦٢).

(٢) الطور: الآية (٢٣).

(٣) الواقعة: الآيتان (٢٥و٢٦).

المراد بها عينا واحدة، وإنما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. . ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: عالية ناعمة كثيرة الفرش، مرتفعة السَّمْك، عليها الحور العين. قالوا: فإذا أراد وَليُّ اللَّه أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ يعني: أواني الشرب معدة مُرصدة لمن أرادها من أربابها. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ قال ابن عباس: النمارق: الوسائد. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، والثوري، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ قال ابن عباس: الزرابي: البسط. وكذا قال الضحاك، وغير واحد. ومعنى مبثوثة، أي: هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها»[1].

قال عطية سالم: «وهذا هو قسيم القسم الأول في بيان حال أهل الجنة، ولم يعطف بالواو إيذانًا بكمال تباين مضمونيهما. ويومئذٍ هو يوم الغاشية المتقدم، وهذا يقتضي أن الغاشية عامة في الفريقين. وإن اختلفت أحوالها مع مختلف الناس، وعليه: فمنهم من تغشاه بهولها، ومنهم من تغشاه بنعيمها، وهي بالنسبة لكل منهما متناهية فيما تغشاهم به، وهي صادقة على الفريقين.

ومعلوم أن الغاشية تطلق على الخير كما تطلق على الشر، بمعنى الشمول والإحاطة التامة. ومن إطلاقها على الخير ما جاء في الحديث: «**ما جلس قوم مجلسًا يذكرون اللَّه تعالى فيه إلاَّ حفَّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده**» أخرجه مسلم[2]. وبيان ذلك وتحقيقه في حق كلا القسمين كالآتي:

أما الأول منهما: وهو الغاشية في حق أهل النار فقد غشيهم العذاب حسًا ومعنى، ظاهرًا وباطنًا أو لا خشوع في ذلة، وهي ناحية نفسية، وهي أثقل أحيانًا من الناحية المادية، فقد يختار بعض الناس الموت عنها، ثم مع الذلة العمل والنصب حسًا وبدنًا، ومع النصب الشديد تصلى نارًا حامية، وكان يكفي تصلى نارًا، ولكن اتباعها بوصفها حامية فهو زيادة في إبراز عذابهم وزيادة في غشيان العذاب لهم، ثم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧٥ و٢٧٦).

(٢) في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤/ ٢٧٠٠)، وأخرجه أحمد (٣/ ٤٩)، والترمذي (٥/ ٤٢٩/ ٣٣٧٨) وقال: «حسن صحيح».

يسقون من عين آنية، متناهية في الحرارة، فيكونون بين نار حامية من الخارج، وحميم من الداخل تصهر منه البطون، فهو أتم في الشمول للغاشية لهم من جميع الوجوه، وفي حق القسم المقابل تعميم كامل وسرور شامل كالآتي، وجوه ناعمة مكتملة النعمة، تعرف في وجوههم نضرة النعيم.

وهذا في شموله من الناحية المعنوية كمقابله في القسم الأول بدلًا من خاشعة في ذلة، ناعمة في نضرة، لسعيها راضية الذي سعته في الدنيا، والذي تسعى لتحصيله أو ثوابه في جنة عالية بدلًا من عمل ونصب، لا تسمع فيها لاغية، منزلة أدبية رفيعة حيث لا تسمع فيها كلمة لغو ولا يليق بها، فهو إكرام لهم حتى في الكلمة التي يسمعونها، كما في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝﴾[1]. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝﴾. ومعلوم أنها عيون وأنهار تجري، كقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[2]، ومن لوازم العيون والأنهار هو كمال النعيم، فأشجار ورياحين، فروح وريحان وجنة نعيم. وهذا في التعميم يقابل العين الآنية في الحميم للقسم الأول، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝﴾ وهم عليها متكئون بدل من عمل الآخرين في نصب وشقاء. ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝﴾ لإتمام التمتع وكمال الخدمة والرفاهية. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝﴾ متكئا، ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝﴾ مفروشة في كل مكان، فاكتمل النعيم من كل جانب، حيث اشتمل ما تراه العين، وما تسمعه الأذن، وما يتذوقون طعمه من شراب وغيره. فيكون بذلك قد غشيهم النعمة، كما غشيت أولئك النقمة، وتكون الغاشية بمعنى الشاملة، وعلى عمومها للفريقين، وهي صالحة لغة وشرعًا للمعذبين بالعذاب، وللمنعمين بالنعيم. وبالله تعالى التوفيق»[3].

قال ابن عاشور: «هذا وعد للمؤمنين بأن لهم في الجنة ما يعرفون من النعيم في الدنيا وقد علموا أن ترف الجنة لا يبلغه الوصف بالكلام، وجمع ذلك بوجه الإجمال في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[4]، ولكن الأرواح ترتاح بمألوفاتها فتعطاها، فيكون نعيم أرواح الناس في كل عصر ومن كل

---

(١) الواقعة: الآيتان (٢٥و٢٦).

(٢) الحجر: الآية (٤٥).

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٩٦-٢٠٠).

(٤) الزخرف: الآية (٧١).

مصر في الدرجة القصوى مما ألفوه، ولاسيما ما هو مألوف لجميع أهل الحضارة والترف، وكانوا يتمنونه في الدنيا، ثم يُزادون من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن في الجنة عيونا جارية وليست عينا واحدة

* عن أبي هُرَيرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أنهار الجنة تخرج من تحت تلال-أو: من تحت جبال-مسك**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

أورد **الحافظ ابن كثير** هذا الحديث في تفسيره لبيان أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ⑫﴾ جنس العيون، وليس المراد بها عين واحدة فقال: «وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عينا واحدة، وإنما هذا جنس يعني: فيها عيون جاريات»[٣].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣١/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه: ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٤٢٣/ ٧٤٠٨)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/ ٤٠٨)، والحديث قال عنه العلامة الألباني في صحيح موارد الظمآن (٢/ ٥٢٩/ ٢٢٢٠): «حسن صحيح».

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قال المفسرون: لما ذكر اللَّه عزوجل أمر أهل الدارين، تعجب الكفار من ذلك، فكذبوا وأنكروا، فذكرهم اللَّه صنعته وقدرته، وأنه قادر على كل شئ، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض، ثم ذكر الإبل أولا، لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم -جل ثناؤه- على عظيم من خلقه، قد ذلله للصغير، يقوده وينيخه وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيمًا من خلقه، مسخرا لصغير من خلقه، يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته. وعن بعض الحكماء: أنه حدث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها، ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق. وحين أراد بها أن تكون سفائن البر، صبرها على احتمال العطش، حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعدا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم»[١].

قال الرازي: «الإبل له خواص منها: أنه تعالى جعل الحيوان الذي يقتنى أصنافًا شتى، فتارة يقتنى ليؤكل لحمه، وتارة ليشرب لبنه، وتارة ليحمل الإنسان في الأسفار، وتارة لينقل أمتعة الإنسان من بلد إلى بلد، وتارة ليكون له به زينة وجمال، وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل، وقد أبان اللَّه ﷻ عن ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾[٢]، قال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٣٤ و٣٥).

(٢) يس: الآيتان (٧١و٧٢).

تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾[1]، وإن شيئًا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال، فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب.

وثانيها: أنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة؛ لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش، والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزئ حيوان آخر، وإن جعلت جملة استقلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها، ومنها أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعًا في قلب العرب، ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلًا، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير، لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝﴾[2]. ومنها: أني كنت مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق، فقدموا جملًا وتبعوه، فكان ذلك الجمل ينعطف من تل إلى تل، ومن جانب إلى جانب، والجميع كانوا يتبعونه، حتى وصل إلى الطريق بعد زمان طويل، فتعجبنا من قوة تخيل ذلك بالحيوان أنه بالمرة الواحدة، كيف انحفظت في خياله صورة تلك المعاطف، حتى إن الذين عجز جمع من العقلاء إلى الاهتداء إليه، فإن ذلك الحيوان اهتدى إليه. ومنها: أنها مع كونها في غاية القوة على العمل مباينة لغيرها في الانقياد والطاعة لأضعف الحيوانات كالصبي الصغير، ومباينة لغيرها أيضًا في أنها يحمل عليها وهي باركة ثم تقوم، فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها، ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه، ثم إن العرب من أعرف الناس بأحوال الإبل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها، فلهذه الأسباب حسن من الحكيم تعالى أن يأمر بالتأمل في خلقتها»[3].

---

(١) النحل: الآيات (٥-٧).

(٢) النحل: الآية (٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٥٧ و١٥٨).

قال عطية سالم: «توجيه الأنظار إلى تلك المذكورات الأربعة، لما فيها من عظيم الدلائل على القدرة وعلى البعث، وثم الإقرار لله تعالى بالوحدانية والألوهية، نتيجة لإثبات ربوبيته تعالى لجميع خلقه.

أما الإبل فلعلها أقرب المعلومات للعرب وألصقها بحياتهم في مطعمهم من لحمها، ومشربهم من ألبانها، وملبسهم من أوبارها وجلودها، وفي حلهم وترحالهم بالحمل عليها مما لا يوجد في غيرها في العالم كله، لا في الخيل ولا في الفيلة، ولا في أي حيوان آخر، وقد وجه الأنظار إليها مع غيرها في معرض امتنانه تعالى عليهم في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[1]. وكذلك في خصوصها في قوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾[2].

إنها نعم متعددة ومنافع بالغة لم توجد في سواها البتة، وكل منها دليل على القدرة بذاته. أما الجبال فهي مما يملأ عيونهم في كل وقت، ويشغل تفكيرهم في كل حين، لقربها من حياتهم في الأمطار والمرعى في سهولها، والمقيل في كهوفها وظلها، والرهبة والعظمة في تطاولها وثباتها في مكانها. وقد وجه الأنظار إليها أيضًا في موطن آخر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[3]، ثوابت، كما بين تعالى أنها رواسي للأرض أن تميد بكم ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[4]. فهي مرتبطة بحياتهم وحياة أنعامهم كما أسلفنا.

أما السماء ورفعها أي: رفعتها في خلقها وبدون عمد ترونها، وبدون فطور أو تشقق على تطاول زمنها، فهي أيضًا محط أنظارهم، وملتقى طلباتهم في سقيا أنعامهم.

---

(١) يس: الآيات (٧١-٧٣).
(٢) النحل: الآيات (٥-٧).
(٣) النبأ: الآيتان (٦و٧).
(٤) النازعات: الآيتان (٣٢و٣٣).

ومعلوم أن خلق السماء والأرض من آيات اللَّه الدالة على البعث، كما تقدم مرارًا.

وتقدم للشيخ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] الآية. بيان كونها آية. أما الأرض وكيف سطحت، فإن الآية فيها مع عمومها كما في قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[2].

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ آية ثابتة، لأن جرمها مع إجماع المفسرين علة تكويرها، فإنها ترى مسطحة أي من النقطة التي هي امتداد البصر، وذلك يدل على سعتها وكبر حجمها، لأن الجرم المتكور إذا بلغ من الكبر والضخامة حدًا بعيدًا يكاد سطحه يرى مسطحًا من نقطة النظر إليه، وفي كل ذلك آيات متعددات للدلالة على قدرته تعالى على بعث الخلائق، وعلى إيقاع ما يغشاهم على مختلف أحوالهم.

وتقدم للشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه التنبيه على هذا المعنى، عند الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]. من سورة يونس.

تنبيه:

التوجيه هنا بالنظر إلى الكيفية في خلق الإبل، ونصب الجبال، ورفع السماء، وتسطيح الأرض، مع أن الكيفية للحالة، واللَّه تعالى لم يشهد أحدًا على شيء من ذلك كله ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]. فكيف يوجه السؤال إليهم للنظر إلى الكيفية وهي شيء لم يشهدوه؟.

والجواب واللَّه تعالى أعلم: هو أنه بالتأمل في نتائج خلق الإبل، ونصب الجبال إلخ. وإن لم يعلموا الكيف، بل ويعجزون عن كنهه وتحقيقه، فهو أبلغ في إقامة الدليل عليهم، كمن يقف أمام صنعة بديعة يجهل سر صنعتها، فيتساءل كيف تم صنعها؟ وقد وقع مثل ذلك، وهو الإحالة على الأثر بدلًا من كشف الكنه والكيف، وذلك في سؤال الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى. فكان الجواب: أن أراه الطيور تطير، بعد أن ذبحها بيده وقطعها،

---

(١) البقرة: الآية (١٦٤).
(٢) غافر: الآية (٥٧).
(٣) يونس: الآية (١٠١).
(٤) الكهف: الآية (٥١).

وجعل على كل جبل منها جزءًا. فلم يشاهد كيفية وكنه وحقيقة الإحياء، وهو دبيب الروح فيها وعودة الحياة؛ لأن ذلك ليس في استطاعته، ولكن شاهد الآثار المترتبة على ذلك، وهي تحركها وطيرانها وعودتها إلى ما كانت عليه قبل ذبحها؛ مع أنه كان للعزير موقف مماثل، وإن كان أوضح في البيان حيث شاهد العظام وهو سبحانه ينشزها، ثم يكسوها لحمًا. والله تعالى أعلم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن من أعظم أدلة الربوبية وجود هذه المخلوقات الكبيرة: الأرض والسماوات والجبال والحيوانات

* عن أنس بن مالك قال: «نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد! أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: **صدق**. قال: فمن خلق السماء؟ قال: **الله**. قال: فمن خلق الأرض؟ قال: **الله**. قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: **الله**. قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: **نعم**. قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال: **صدق**. قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: **نعم**. قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا، قال: **صدق**. قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: **نعم**. قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا، قال: **صدق**. قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: **نعم**. قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلًا، قال: **صدق**. قال: ثم ولّى. قال: والذي بعثك بالحق! لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن. فقال النبي ﷺ: **لئن صدق ليدخلن الجنة**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «قوله: «قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله. قال: فمن خلق

(١) تتمة الأضواء (٩/ ٢٠١-٢٠٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٣و١٩٣)، والبخاري (١/ ١٩٧) تعليقًا، ومسلم (١/ ٤١-٤٢/ ١٢[١٠])، والترمذي (٣/ ١٤-١٥/ ٦١٩)، والنسائي (٤/ ٤٢٧/ ٢٠٩٠).

الأرض؟ قال: اللَّه. قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: اللَّه. قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال، آللَّه أرسلك؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك، آللَّه أمرك بهذا؟ قال: نعم»: هذه جملة تدل على أنواع من العلم، قال صاحب «التحرير»: هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وترتيبه، فإنه سأل أولًا عن صانع المخلوقات من هو؟ ثم أقسم عليه به أن يصدقه في كونه رسولًا للصانع، ثم لما وقف على رسالته وعلمها أقسم عليه بحق مرسله، وهذا ترتيب يفتقر إلى عقل رصين، ثم إن هذه الأيمان جرت للتأكيد وتقرير الأمر، لا لافتقاره إليها، كما أقسم اللَّه تعالى على أشياء كثيرة، هذا كلام صاحب «التحرير». قال القاضي عياض: والظاهر أن هذا الرجل لم يأت إلا بعد إسلامه، وإنما جاء مستثبتًا ومشافهًا للنبي ﷺ، واللَّه أعلم»[1].

وقال: «وفي هذا الحديث جمل من العلم غير ما تقدم. منها: أن الصلوات الخمس متكررة في كل يوم وليلة، وهو معنى قوله: «في يومنا وليلتنا». وأن صوم شهر رمضان يجب في كل سنة. قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله: وفيه دلالة لصحة ما ذهب إليه أئمة العلماء من أن العوام المقلدين مؤمنون، وأنه يكتفي منهم بمجرد اعتقاد الحق جزمًا من غير شك وتزلزل، خلافًا لمن أنكر ذلك من المعتزلة، وذلك أنه ﷺ قرر ضمامًا على ما اعتمد عليه في تعرف رسالته وصدقه، ومجرد إخباره إياه بذلك، ولم ينكر عليه ذلك، ولا قال: يجب عليك معرفة ذلك بالنظر في معجزاتي والاستدلال بالأدلة القطعية، هذا كلام الشيخ. وفي هذا الحديث العمل بخبر الواحد، وفيه غير ذلك، واللَّه أعلم»[2].

* * *

(١) شرح مسلم (١/ ١٥٢-١٥٣).
(٢) شرح مسلم (١/ ١٥٣).

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين الدلائل على صحة التوحيد والمعاد، قال لرسوله ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾، وتذكير الرسول إنما يكون بذكر هذه الأدلة وأمثالها، والبعث على النظر فيها والتحذير من ترك تلك، وذلك بعث منه تعالى للرسول على التذكير والصبر على كل عارض معه، وبيان أنه إنما بعث لذلك دون غيره، فلهذا قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد عبادي بآياتي، وعظهم بحججي، وبلِّغهم رسالتي ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ يقول: إنما أرسلتك إليهم مذكرا لتذكرهم نعمتي عندهم، وتعرّفهم اللازم لهم، وتعظهم.

وقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ يقول: لست عليهم بمسلَّط، ولا أنت بجبار تحملهم على ما تريد. يقول: كِلهم إليّ، ودعهم وحكمي فيهم»[2].

قال أبو حيان: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[3] ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾: أي بمسلط، كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[4] »[5].

قال عطية سالم: «فإن مجيء هذا الأمر بالفاء في هذا الموطن.. يشعر بأن النظر الدقيق والفكر الدارس، مما قد يؤدي بصاحبه إلى الاستدلال على وجود اللَّه وعلى قدرته، كما نطق مؤمن الجاهلية قس بن ساعدة في خطبته المشهورة: ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة. فقد ذكر السماء والجبال والأرض. وكقول زيد بن عمرو بن نفيل، مؤمن الجاهلية المعروف:

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٠).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ١٦٦).
(٣) الشورى: الآية (٤٨).
(٤) ق: الآية (٤٥).
(٥) البحر المحيط (٨/ ٤٥٩).

وأسلمت وجهي لمن أسلمت — له الأرض تحمل صخرًا ثقالًا
دحاها فلما استوت شدها — سواء وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت — له المزن تحمل عذبًا زلالا
إذا هي سيقت إلى بلدة — أطاعت فصبت عليها سجالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت — له الريح تصرف حالًا فحالا

فكان على هؤلاء العقلاء أن ينظروا بدقة وتأمل، فيما يحيط بهم عامة. وفي تلك الآيات الكبار خاصة، فيجدون فيها ما يكفيهم، كما قيل:

وفي كل شيء له آية — تدل على أنه واحد

فإذا لم يهدهم تفكيرهم ولم تتجه أنظارهم، فذكرهم إنما أنت مذكر، وهذا عام، أي سواء بالدلالة على القدرة من تلك المصنوعات، أو بالتلاوة من آيات الوحي، والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

قال ابن عاشور: «ونفي كونه مصيطرًا عليهم خبر مستعمل في غير الإخبار؛ لأن النبي ﷺ يعلم أنه لم يكلف بإكراههم على الإيمان، فالخبر بهذا النفي مستعمل كناية عن التطمين برفع التبعة عنه من جراء استمرار أكثرهم على الكفر، فلا نسخ لحكم هذه الآية بآيات الأمر بقتالهم.

ثم جاء وجوب القتال بتسلسل حوادث كان المشركون هم البادئين فيها بالعدوان على المسلمين، إذ أخرجوهم من ديارهم، فشرع قتال المشركين لخضد شوكتهم وتأمين المسلمين من طغيانهم.

ومن الجهلة من يضع قوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ في غير موضعه، ويحيد به عن مهيعه، فيريد أن يتخذه حجة على حرية التدين بين جماعات المسلمين، وشتان بين أحوال أهل الشرك وأحوال جامعة المسلمين، فمن يلحد في الإسلام بعد الدخول فيه يستتاب ثلاثًا، فإن لم يتب قتل، وإن لم يُقدَر عليه فَعَلَى المسلمين أن ينبذوه من جامعتهم، ويعاملوه معاملة المحارب. وكذلك من جاء بقول أو عمل يقتضي نبذ الإسلام، أو إنكار ما هو من أصول الدين بالضرورة، بعد أن يوقف على

---

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ٢٠٤ و٢٠٥).

مآل قوله أو عمله، فيلتزمه ولا يتأوله بتأويل مقبول ويأبى الانكفاف»[١].

* عن جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فإذا قالوا: لا إله إلا اللَّه، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «وقوله ﷺ: «**وحسابهم على اللَّه ﷻ**» يعني أن الشهادتين مع إقام الصلاة وإيتاء الزكاة تعصم دم صاحبها وماله في الدنيا، إلا أن يأتي ما يبيح دمه. وأما في الآخرة فحسابه على اللَّه ﷻ، فإن كان صادقًا أدخله اللَّه بذلك الجنة، وإن كان كاذبًا فإنه من جملة المنافقين في الدرك الأسفل من النار. وقد تقدم أن في بعض الروايات في صحيح مسلم: «ثم تلا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾[٣]»، والمعنى: إنما عليك أن تذكرهم باللَّه، وتدعوهم إليه، ولست مسلطًا على إدخال الإيمان في قلوبهم قهرًا، ولا مكلفًا بذلك»[٤].

قال النووي: «ثم قرأ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝﴾، قال المفسرون: معناه: إنما أنت واعظ، ولم يكن ﷺ أمر إذ ذاك إلا بالتذكير، ثم أمر بعد بالقتال»[٥].

قال أبو بكر بن العربي: «كان النبي ﷺ في أول أمره معرفًا برسالته، مذكرًا بنبوته، يدعو الخلق إلى اللَّه، ويذكرهم عهده، ويبشرهم وعده، ويحذرهم وعيده، ويعرفهم دينه، حتى وضحت المحجة، وقامت لله سبحانه الحجة، فلما استمر الخلق على فساد رأيهم، ولجوا في طغيانهم وغلوائهم، أمره اللَّه بالقتال، وسوق الخلق إلى الإيمان قسرًا، ونسخ هذه الآية وأمثالها حسبما بيناه. وروى الترمذي

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٠)، ومسلم (١/ ٥٢و٥٣/ ٣٥)، والترمذي (٥/ ٤٠٩/ ٣٣٤١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) الغاشية: الآيات (٢١-٢٦).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٣٦).

(٥) شرح مسلم (١/ ١٨٧).

وغيره أن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على اللَّه، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾» بمسلط على سرائرهم، مفسرًا معنى الآية وكاشفًا خفي الخفاء عنها، المعنى: إذا قال الناس: لا إله إلا اللَّه، فلست بمسلط على سرائرهم، وإنما عليك بالظاهر، وقد كان قبل ذلك لا يطالب بالظاهر ولا بالباطن، فلما استولى اللَّه بأمره وتكليفه القتال على الظاهر، وكل سرائرهم إليه، وهذا الحديث صحيح السند، صحيح المعنى»[١].

قال النووي: «واعلم أن هذا الحديث بطرقه مشتمل على أنواع من العلوم وجمل من القواعد، وأنا أشير إلى أطراف منها مختصرة، ففيه.. أن الإيمان شرطه الإقرار بالشهادتين مع اعتقادهما، واعتقاد جميع ما أتى به رسول اللَّه ﷺ، وقد جمع ذلك ﷺ بقوله: «أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، ويؤمنوا بي وبما جئت به». وفيه وجوب الجهاد. وفيه صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد ونفسه ولو كان عند السيف، وفيه أن الأحكام تجري على الظاهر، واللَّه تعالى يتولى السرائر»[٢].

قال ابن رجب: «وقد استدل بهذا من يرى قبول توبة الزنديق -وهو المنافق- إذا أظهر العود إلى الإسلام، ولم ير قتله بمجرد ظهور نفاقه، كما كان النبي ﷺ يعامل المنافقين ويجريهم على أحكام المسلمين في الظاهر، مع علمه بنفاق بعضهم في الباطن، وهذا قول الشافعي وأحمد في رواية عنه، وحكاه الخطابي عن أكثر العلماء، واللَّه أعلم»[٣].

* * *

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٩٢٤).
(٢) شرح مسلم (١/ ١٨٧-١٨٨).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٣٧).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ قال بعض المتأولين: الاستثناء متصل، والمعنى ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ فإنك مصيطر عليه، فالآية على هذا لا نسخ فيها. وقال آخرون منهم: الاستثناء منفصل، والمعنى ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ وتم الكلام، وهي آية موادعة منسوخة بالسيف، ثم قال: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾، وهذا هو القول الصحيح لأن السورة مكية، والقتال إنما نزل بالمدينة، و﴿مَن﴾ بمعنى الذي»[١].

قال ابن كثير: «وهذه كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾[٢]، ولهذا قال: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾»[٣].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾: هو عذاب جهنم، يقول: فيعذبه الله العذاب الأكبر على كفره في الدنيا، وعذاب جهنم في الآخرة»[٤].

قال الرازي: «إنما سماه العذاب الأكبر لوجوه، أحدها: أنه قد بلغ حد عذاب الكفر وهو الأكبر، لأن ما عداه من عذاب الفسق دونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾[٥]، وثانيها: هو العذاب في الدرك الأسفل في النار، وثالثها: أنه قد يكون العذاب الأكبر حاصلًا في الدنيا، وذلك بالقتل وسبي الذرية وغنيمة الأموال، والقول الأول أولى وأقرب»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن المتولي لا يدخل الجنة

* عن علي بن خالد أن أبا أمامة الباهلي مر على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٧٥).
(٢) القيامة: الآيتان (٣١و٣٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧٨).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ١٦٧).
(٥) السجدة: الآية (٢١).
(٦) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٠-١٦١).

عن ألين كلمة سمعها من رسول اللَّه ﷺ، فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على اللَّه شراد البعير على أهله**»[1].

★ **غريب الحديث:**

من شرد على الله: أي: فارق الجماعة، وخرج عن الطاعة.

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «قوله: «**إلا من شرد على الله**» يريد الكافر؛ فإنه الذي ما أطاع اللَّه تعالى قط، وهو المحروم من الجنة على الدوام»[2].

قال المناوي: «شبهه بالبعير في قوة نفاره، وحدة فراره؛ لأن من ترك التسبب إلى شيء لا يوجد بغيره، فقد أباه ونفر عنه، والإباء: شدة الامتناع، وخص البعير؛ لأنه أشد الحيوانات نفارًا، فإذا انفلت لا يكاد يلحق»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٥٨)، والحاكم (١/ ٥٥-٥٦) وسكت عنه وكذا الذهبي، وعزاه الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٣١٧) للطبراني وقال: «سنده جيد». وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤٠٣) وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير علي بن خالد الدولي وهو ثقة»، والحديث صححه العلامة الألباني في الصحيحة (٥/ ٧١-٧٢/ ٢٠٤٣).

(٢) حاشية السندي على المسند (٣٦/ ٥٦١).

(٣) فيض القدير (٥/ ٣٧-٣٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

إيابهم: رجوعهم بعد الموت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: إن إلينا رجوع من كفر ومعادهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ يقول: ثم إن على الله حسابه، وهو يجازيه بما سلف منه من معصية ربه، يُعْلِمُ بذلك نبيه محمدًا ﷺ أنه المتولي عقوبته دونه، وهو المجازي والمعاقب، وأنه الذي إليه التذكير وتبليغ الرسالة»[(١)].

قال ابن عاشور: «شبهت إعادة خلقهم وإحضارهم لديه برجوع المسافر إلى مقره كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[(٢)].

وتقديم خبر ﴿إِنَّ﴾ على اسمها يظهر أنه لمجرد الاهتمام تحقيقًا لهذا الرجوع لأنهم ينكرونه، وتنبيهًا على إمكانه بأنه رجوع إلى الذي أنشأهم أول مرة»[(٣)].

قال عطية سالم: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ فيه الدلالة على أن الإياب هو المرجع. قال عبيد:

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

كما في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[(٤)]، وهو على الحقيقة كما في صريح منطوق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[(٦)].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٦٧).
(٢) الفجر: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٨).
(٤) المائدة: الآية (٤٨).
(٥) آل عمران: الآية (٥٥).
(٦) الأنعام: الآية (١٦٤).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ الإتيان بـ﴿ثُمَّ﴾ للإشعار ما بين إيابهم وبدء حسابهم، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾[1].

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾، بتقدم حرف التأكيد، وإسناد ذلك لله تعالى، وبحرف على مما يؤكد ذلك لا محالة، وأنه بأدق ما يكون، وعلى الصغيرة والكبيرة كما في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[2].

ومن الواضح مجيء ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾، بعد قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝٢٤﴾ تسلية للنبي ﷺ، وتخويف لأولئك الذين تولوا وأعرضوا، ثم إن الحساب في اليوم الآخر ليس خاصًا بهؤلاء، بل هو عام بجميع الخلائق، ولكن إسناده لله تعالى مما يدل على المعاني المتقدمة. نسأل الله العفو والسلامة»[3].

* * *

(١) الحج: الآية (٤٧).

(٢) البقرة: الآية (٢٨٤).

(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٢٠٥-٢٠٦).



سورة الفجر

أغراض السورة

قال ابن القيم: «تضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله، وهم هؤلاء الأمم الثلاثة: قوم عاد، اغتروا بقوتهم. وثمود، اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم، وقوم فرعون، اغتروا بالمال والرياسة، فصارت عاقبتهم إلى ما قص اللَّه علينا. وهذا شأنه دائما مع كل من اغتر بشيء من ذلك، لابد أن يفسده عليه، ويسلبه إياه. ثم ذكر سبحانه حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه، كاليتيم والمسكين، فلا يكرم هذا، ولا يحض على طعام هذا. ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله، وحبه له، وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين.

ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة، وهي الخاشعة المتواضعة لربها، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته، كما ذكر قبلها حال النفس الأمارة، وما تؤول إليه من شدة عذابه ووثاقه»[1].

قال ابن عاشور: «القَسَم بهذه الأزمان من حيث إن بعضها دلائل بديع صنع اللَّه وسعةِ قدرته، فيما أوجد من نظام يُظاهر بعضه بعضًا، من ذلك وقت الفجر الجامع بين انتهاء ظلمة الليل وابتداء نور النهار، ووقت الليل الذي تمحضت فيه الظلمة، وهي مع ذلك أوقات لأفعال من البر وعبادةِ اللَّه وحده، مثل الليالي العشر، والليالي الشفع، والليالي الوتر.

والمقصود من هذا القَسَم تحقيق المقسم عليه؛ لأن القسم في الكلام من طرق

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٧-٢٨).

تأكيد الخبر؛ إذ القسم إشهاد المُقسِم ربه على ما تضمنه كلامه. وقسم اللّه تعالى متمحض لقصد التأكيد، والكلام موجه إلى النبي ﷺ كما دل عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝﴾[١]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾[٢].

ولذلك فالقسم تعريض بتحقيق حصول المقسم عليه بالنسبة للمنكرين، والمقصد من تطويل القسم بأشياء، التشويقُ إلى المقسم عليه»[٣].

* * *

(١) الفجر: الآية (٦).

(٢) الفجر: الآية (١٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٢).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا قسم، أقسم ربنا -جل ثناؤه- بالفجر، وهو فجر الصبح. واختلف أهل التأويل في الذي عُنِي بذلك، فقال بعضهم: عُنِي به النهار.. وقال آخرون: عُنِيَ به صلاة الصبح.. وقال آخرون: هو فجر الصبح»[1].

قال أبو بكر بن العربي: «في تعيينها أي الليالي العشر أربعة أقوال: الأول: أنها عشر ذي الحجة، روي عن ابن عباس وقاله جابر ورواه عن النبي ﷺ ولم يصح. الثاني: عشر محرم قاله الطبري. الثالث: أنها العشر الأواخر من رمضان. الرابع: أنها العشر التي أتمها اللَّه لموسى ﷺ في ميقاته معه»[2].

وقال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك عندنا أنها عشر الأضحى؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه»[3].

قال ابن عاشور: «هي ليال معلومة للسامعين، موصوفة بأنها عشر، واستُغني عن تعريفها بتوصيفها بعشر، وإذ قد وصفت بها العدد تعين أنها عشر متتابعة وعدل عن تعريفها مع أنها معروفة ليتوصل بترْك التعريف إلى تنوينها المفيد للتعظيم، وليس في ليالي السَّنة عشرُ ليال متتابعة عظيمة مثل عشر ذي الحجّة التي هي وقتُ مناسك الحج، ففيها يكون الإحرام، ودخول مكة، وأعمال الطواف، وفي ثامنتها ليلة التروية، وتاسعتها ليلة عرفة، وعاشرتها ليلة النحر، فتعين أنها الليالي المرادة بليال عشر، وهو قول ابن عباس وابن الزبير، وروى أحمد والنسائي عن أبي الزبير (المكي) عن جابر بن عبد اللَّه عن النبي ﷺ قال: «**إن العشر عشر الأضحى**»[4] قال

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٦٨).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٩٢٥-١٩٢٦).

(٣) جامع البيان (٣٠/ ١٦٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٧)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٤٥/ ٤١٠١)، والحاكم (٤/ ٢٢٠)، وصححه على=

ابن العربي: ولم يصح، وقال ابن عساكر: رجاله لا بأس بهم وعندي أن المتن في رفعه نكارة. اهـ.

ومناسبة عطف (ليالٍ عشر) على (الفجر) أن الفجر وقت انتهاء الليل، فبينه وبين الليل جامع المضادة، والليل مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، فلما أريد عطفه على الفجر بقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾، خصت قبل ذكره بالذكرِ ليال مباركة، إذ هي من أفراد الليل.

وكانت الليالي العشر معينة من اللَّه تعالى في شرع إبراهيم عليه السلام، ثم غيرت مواقيتها بما أدخله أهل الجاهلية على السَّنة القمرية من النسيء، فاضطربت السنين المقدسة التي أمر اللَّه بها إبراهيم عليه السلام. ولا يُعرف متى بدأ ذلك الاضطراب، ولا مقاديرُ ما أدخل عليها من النسيء، ولا ما يضبط أيام النسيء في كل عام، لاختلاف اصطلاحهم في ذلك وعدم ضبطه، فبذلك يتعذر تعيين الليالي العشر المأمور بها من جانب اللَّه تعالى، ولكننا نوقن بوجودها في خلال السنة إلى أن أوحى اللَّه إلى نبيئه محمد ﷺ في سنة عشر من الهجرة عام حجة الوداع، بأن أشهر الحج في تلك السنة وافقت ما كانت عليه السنةُ في عهد إبراهيم عليه السلام، فقال النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق اللَّه السماوات والأرض**»(١).

وهذا التغيير لا يرفع بركة الأيام الجارية فيها المناسك قبل حجة الوداع، لأن اللَّه عظمها لأجل ما يقع فيها من مناسك الحج، إذ هو عبادة لله خاصة.

فأوقات العبادات تعيين لإيقاع العبادة، فلا شك أن للوقت المعين لإيقاعها حكمة علمها اللَّه تعالى، ولذلك غلب في عبارات الفقهاء وأهل الأصول إطلاقُ اسم السبب على الوقت؛ لأنهم يريدون بالسبب المعرّف بالحكم، ولا يريدون به نفسَ الحِكمة.

وتعيين الأوقات للعبادات مما انفرد اللَّه به، فلأوقات العبادات حرمات

= شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٧) والبخاري (٨/ ٤١٣/ ٤٦٦٢) ومسلم (٣/ ١٣٠٥/ ١٦٧٩) وأبو داود (٢/ ٤٨٣-٤٨٥/ ١٩٤٧-١٩٤٨).

بالجعل الرباني، ولكن إذا اختلت أو اختلطت لم يكن اختلالها أو اختلاطها بقاض بسقوط العبادات المعينة لها، فقسمُ اللَّه تعالى بالليالي العشر في هذه مما نزل بمكة قسم بما في علمه من تعيينها في علمه»[1].

قال القرطبي: «وإنما نكرت ولم تعرف لفضيلتها على غيرها، فلو عرفت لم تستقل بمعنى الفضيلة التي في التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به للفضيلة التي ليست لغيرها»[2].

قال ابن القيم: «إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالًا معظمة من المناسك، وأمكنة معظمة وهي محلها، وذلك من شعائر اللَّه المتضمنة خضوع العبد لربه؛ فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وذل وخضوع لعظمته، وذلك ضد ما وصف به عادًا وثمود وفرعون من العتو والتكبر والتجبر؛ فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى اللَّه من هذه الأيام العشر**. قيل: يا رسول الله! ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: **ولا الجهاد في سبيل اللَّه، إلا رجل خرج بنفسه وماله، لم يرجع من ذلك بشيء**»[3] فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب ﷻ به.

و(الفجر) إن أريد به جنس الفجر -كما هو ظاهر اللفظ- فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح التي هي أول الصلوات، فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ المتضمن لآخر الصلوات. وإن أريد بالفجر فجر مخصوص، فهو فجر يوم النحر، وليلته التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، وما رئي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها، وذلك الفجر فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند اللَّه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الأيام عند اللَّه يوم النحر» رواه أبو داود بإسناد صحيح، وهو آخر أيام العشر، وهو يوم الحج الأكبر، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره، وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول اللَّه ﷺ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[4]، وأن

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٣-٣١٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٧).
(٣) سيأتي تخريجه.
(٤) التوبة: الآية (٣).

لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة، وذلك بأمر رسول اللَّه امتثالًا وتأويلًا للقرآن.

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة اللَّه، والخضوع له، والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١]، وقيل لخاتم الرسل: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝﴾[٢]، بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون اللَّه وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد وثمود وفرعون»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في فضيلة العشر وغيرها من الأشياء التي أقسم اللَّه بها

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝﴾ قال: «فجر النهار، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾: عشر الأضحى»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهر اللَّه المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»[٥].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: **هذا يوم صالح، هذا يوم نجى اللَّه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصيامه**»[٦].

* عن الربيع بنت معوذ قالت: «أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: **من أصبح مفطرًا فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائمًا فليصم**، قالت: فكنا

---

(١) الأنعام: الآية (١٦٢). (٢) الكوثر: الآية (٢).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٤-٢٥).

(٤) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ١٦٨)، والحاكم (٢/ ٥٢٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، ومسلم (٢/ ٨٢١/ ١١٦٣)، وأبو داود (٢/ ٨١١/ ٢٤٢٩)، والترمذي (٢/ ٣٠١/ ٤٣٨)، والنسائي (٣/ ٢٢٨-٢٢٩/ ١٦١٢)، وابن ماجه (١/ ٥٥٤/ ١٧٤٢).

(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩١)، والبخاري (٤/ ٣٠٦/ ٢٠٠٤)، ومسلم (٢/ ٧٩٥/ ١١٣٠)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٥٦/ ٢٨٣٤-٢٨٣٥)، وابن ماجه (١/ ٥٥٢/ ١٧٣٤).

نصومه بعد، ونصوّم صبياننا، ونجعل اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك، حتى يكون عند الإفطار»[١].

★ غريب الحديث:

العهن: الصوف الملون.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما رأيت النبي ﷺ يتحرى صيام يوم فضله على غيره، إلا هذا اليوم يوم عاشوراء، وهذا الشهر». يعني شهر رمضان[٢].

* عن ابن عباس قال: «حين صام رسول اللَّه ﷺ عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله! إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول اللَّه ﷺ: فإذا كان العام المقبل إن شاء اللَّه، صمنا اليوم التاسع»[٣].

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «كان يوم عاشوراء يومًا تعظمه اليهود، وتتخذه عيدًا، فقال رسول اللَّه ﷺ: صوموه أنتم»[٤].

★ فوائد الأحاديث:

استأنس بهذه الأحاديث بعض أهل العلم لقول من ذهب إلى أن المراد بقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾: فجر أول يوم من شهر محرم؛ لأن منه تتفجر السنة، وهو قول ابن عباس وقتادة؛ قال صديق حسن خان: «وقد ورد في فضل شهر محرم أحاديث صحيحة، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية، لا مطابقة ولا تضمنًا ولا التزامًا»[٥].

وقد اختلف أهل التأويل في تحديد المعنى المراد من ذلك؛ «فذكروا فيه وجوهًا، أحدها: ما روي عن ابن عباس: أن الفجر هو الصبح المعروف، فهو انفجار الصبح الصادق والكاذب، أقسم اللَّه تعالى به لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء، وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطير والوحوش في طلب

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٥٩)، والبخاري (٤/ ٢٥١/ ١٩٦٠)، ومسلم (٢/ ٧٩٨/ ١١٣٦).
(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٢)، والبخاري (٤/ ٣٠٧/ ٢٠٠٦)، ومسلم (٢/ ٧٩٧/ ١١٣٢).
(٣) أخرجه: مسلم (٢/ ٧٩٧-٧٩٨/ ١١٣٤)، وأبو داود (٢/ ٨١٨/ ٢٤٤٥).
(٤) أخرجه: البخاري (٤/ ٣٠٧/ ٢٠٠٥)، ومسلم (٢/ ٧٩٦/ ١١٣١).
(٥) فتح البيان (١٥/ ٢١٣).

الأرزاق، وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم، وفيه عبرة لمن تأمل، وهذا كقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤﴾[1]، وقال في موضع آخر: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾[2]، وتمدح في آية أخرى بكونه خالقًا له، فقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾[3]. ومنهم من قال: المراد به: جميع النهار، إلا أنه دل بالابتداء على الجميع، نظيره: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾[4]، وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾[5]. وثانيها: أن المراد نفس صلاة الفجر، وإنما أقسم بصلاة الفجر لأنها صلاة مفتتح النهار، وتجتمع لها ملائكة النهار وملائكة الليل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾[6]، أي: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار القراءة في صلاة الصبح. وثالثها: أنه فجر يوم معين، وعلى هذا القول ذكروا وجوهًا:

الأول: أنه فجر يوم النحر، وذلك لأن أمر المناسك من خصائص ملة إبراهيم، وكانت العرب لا تدع الحج، وهو يوم عظيم يأتي الإنسان فيه بالقربان، كأن الحاج يريد أن يتقرب بذبح نفسه، فلما عجز عن ذلك فدى نفسه بذلك القربان، كما قال تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧﴾[7]. والثاني: أراد فجر ذي الحجة؛ لأنه قارن به قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾، ولأنه أول شهر هذه العبادة المعظمة. والثالث: المراد فجر المحرم، أقسم به؛ لأنه أول يوم من كل سنة، وعند ذلك يحدث أمورًا كثيرة مما يتكرر بالسنين كالحج والصوم والزكاة واستئناف الحساب بشهور الأهلة، وفي الخبر: أن أعظم الشهور عند اللَّه المحرم، وعن ابن عباس أنه قال: فجر السنة هو المحرم، فجعل جملة المحرم فجرًا، ورابعها: أنه عنى بالفجر العيون التي تنفجر من المياه، وفيها حياة الخلق»[8].

واستؤنس بها أيضًا لقول من قال: إن المراد بقوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾ العشر الأول من المحرم، «وهو تنبيه على شرف تلك الأيام، وفيها يوم عاشوراء، ولصومه من الفضل ما ورد به الأخبار»[9].

---

(١) المدثر: الآية (٣٤).
(٢) التكوير: الآية (١٨).
(٣) الأنعام: الآية (٩٦).
(٤) الضحى: الآية (١).
(٥) الليل: الآية (٢).
(٦) الإسراء: الآية (٧٨).
(٧) الصافات: الآية (١٠٧).
(٨) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٢-١٦٣).
(٩) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٣).

«وهذا القول -يقول ابن كثير- حكاه أبو جعفر بن جرير، ولم يعزه إلى أحد»[١].

وفي تحديد المقصود بهذه العشر وتعيينها خلاف بين أهل التأويل، ستأتي حكايته تحت فوائد الأحاديث الواردة في الآية التالية.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي احتج بها بعض أهل العلم في أن العشر الوارد في الآية هي عشر ذي الحجة

* عن ابن عباس قال: «قال رسول اللَّه ﷺ: **ما من أيامٍ العملُ الصالح فيها أحب إلى اللَّه من هذه الأيام -يعني أيام العشر-، قالوا: يا رسول الله! ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله! إلا رجل خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء**»[٢].

* عن هنيدة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ يصوم تسع ذي الحجة، ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، أول اثنين من الشهر، والخميس»[٣].

★ **فوائد الحديثين:**

احتج بهذين الحديثين وما في معناهما من ذهب إلى أن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ عشر ذي الحجة، وهو قول ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف، وهو اختيار ابن جرير وابن كثير كما تقدم في توضيح الآية.

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤١٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤٦)، والبخاري (٢/ ٥٨١/ ٩٦٩)، وأبو داود (٢/ ٨١٥/ ٢٤٣٨)، والترمذي (٣/ ١٣٠/ ٧٥٧)، وابن ماجه (١/ ٥٥٠/ ١٧٢٧).

(٣) أخرجه: أبو داود (٢/ ٨١٥/ ٢٤٣٧)، والنسائي (٤/ ٥٣٨/ ٢٤١٦و٢٤١٧).

قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام (الشفع والوتر) إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر في الأمكنة والأزمنة والأعمال، فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر، وأما الأعمال فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل، فإن اللَّه وتر يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وترًا، كما قال النبي ﷺ: **«صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت»**[١] وأما الزمان فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين. وروى مجاهد عن ابن عباس: (الوتر آدم، وشفع بزوجته حواء) وقال في رواية أخرى: (الشفع آدم وحواء، والوتر اللَّه وحده)، وعنه رواية ثالثة: (الشفع يوم النحر، والوتر اليوم الثالث) وقال عمران بن حصين وقتادة: (الشفع والوتر هي الصلاة) وروى فيه حديثا مرفوعا[٢]. وقال عطية العوفي: الشفع: الخلق، قال اللَّه تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝﴾[٣] الوتر هو اللَّه، وهذا قول الحكم قال: كل شيء شفع واللَّه وتر، وقال أبو صالح: خلق اللَّه من كل شيء زوجين اثنين، واللَّه وتر واحد، وهذا قول مجاهد ومسروق، وقال الحسن: الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر، وقال ابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر، وقال مقاتل: الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠)، والبخاري (٢/ ٦٠٦/ ٩٩٠)، ومسلم (١/ ٥١٦/ ٧٤٩)، وأبو داود (٢/ ٨٠-٨١/ ١٠٢٦)، والترمذي (٢/ ٥٩١-٥٩٢/ ٥٩٧)، والنسائي (٣/ ٢٥٢/ ١٦٦٩)، وابن ماجه (١/ ٤١٨/ ١٣١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٨)، والترمذي (٥/ ٤٠٩/ ٣٣٤٢) وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة». وقال الألباني: «ضعيف الإسناد».

(٣) النبأ: الآية (٨).

وذكرت أقوال أخر هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين:
أحدهما: أن الشفع والوتر نوعان: للمخلوقات والمأمورات.
والثاني: أن الوتر الخالق والشفع المخلوق»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان معنى الوتر

* عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لله تسعة وتسعون اسمًا، مائة إلا واحدة، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

«احتُج بهذا الحديث لقول من قال: إن المراد بالوتر في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ الخالق ﷻ، وهو الله الواحد الصمد، وأن المراد بالشفع المخلوق، وهو قول مجاهد وعطية العوفي، وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة. أفاده الشوكاني في تفسيره»[٣].

قال ابن القيم: «وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ما تقدم في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾[٤]، ونظير ما ذكر في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾[٥]، وما ذكر في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾[٦]»[٧].

وفي تحديد المراد بالشفع والوتر خلاف بين أهل التأويل أيضًا: **قال أبو حيان**: «ذكر في كتاب «التحرير والتحبير» فيها ستة وثلاثين قولًا ضجرنا من قراءتها فضلًا عن كتابتها في كتابنا هذا.. وذكر ابن عطية في (الشفع والوتر) أربعة عشر قولًا، والزمخشري ثلاثة أقوال ثم قال: وقد أكثروا في (الشفع والوتر) حتى كادوا يستوعبوه أجناس ما يقعان فيه، وذلك قليل الطائل، جدير بالتلهي عنه»[٨].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٥-٢٦).
(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ٢٥٦/ ٦٤١٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٢/ ٢٦٧٧).
(٣) فتح القدير (٥/ ٦٢٢).
(٤) الشمس: الآية (١).
(٥) البروج: الآية (٣).
(٦) الليل: الآيات (١-٣).
(٧) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٦).
(٨) البحر المحيط (٨/ ٤٦٣-٤٦٤).

وقال الشوكاني: «ولا يخفاك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين والضعف الظاهر، والاتكال في التعيين على مجرد الرأي الزائف، والخاطر الخاطئ. والذي ينبغي التعويل عليه ويتعين المصير إليه، ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب، وهما معروفان واضحان، فالشفع عند العرب: الزوج، والوتر: الفرد. فالمراد بالآية إما نفس العدد، أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر. وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية، فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك، وإن كان الدليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعًا من تناولها لغيره»[١].

قال الرازي: «واعلم أن الذي يدل عليه الظاهر أن الشفع والوتر أمران شريفان أقسم اللَّه تعالى بهما، وكل هذه الوجوه التي ذكرناها محتملة، والظاهر لا إشعار له بشيء من هذه الأشياء على التعيين، فإن ثبت في شيء منها خبر عن النبي ﷺ أو إجماع من أهل التأويل، حكم بأنه هو المراد، وإن لم يثبت فيجب أن يكون الكلام على طريقة الجواز، لا على وجه القطع، ولقائل أن يقول: إني أحمل الكلام على الكل؛ لأن الألف واللام في الشفع والوتر تفيد العموم»[٢].

* * *

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٢٢-٦٢٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «وهذا قسم خامس، وبعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم. ومعنى ﴿يَسۡرِ﴾ أي يسري فيه، كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم. قال:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1]، وهذا قول أكثر أهل المعاني، وهو قول القتبي والأخفش. وقال أكثر المفسرين: معنى ﴿يَسۡرِ﴾: سار فذهب. وقال قتادة وأبو العالية: جاء وأقبل. وروي عن إبراهيم: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ قال: إذا استوى. وقال عكرمة والكلبي ومجاهد ومحمد بن كعب في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾: هي ليلة المزدلفة خاصة، لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله.

وقيل: ليلة القدر، لسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها. وقيل: إنه أراد عموم الليل كله. قلت: وهو الأظهر، كما تقدم. والله أعلم»[2].

قال ابن العربي: «أقسم الله بالليل والنهار، كما أقسم بسائر المخلوقات عموما وخصوصا، وجملة وتفصيلا، وخصه ههنا بالسرى لنكتة هي: المسألة الثانية أن الله تعالى قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾[3].

وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾[4] وأشار ههنا إلى أن الليل قد يتصرف فيه للمعاش، كما يتصرف في النهار، ويتقلب في الحال فيه للحاجة إليه. وفي الصحيح أن جابر بن عبد الله أتى رسول الله ﷺ بليل، فقال له: «السرى

---

(١) سبأ: الآية (٣٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٤٢).

(٣) يونس: الآية (٦٧).

(٤) النبأ: الآيتان (١٠و١١).

يا جابر»[١]. وخاصة المسافر، كما تقدم بيانه»[٢].

قال ابن القيم: «قال ههنا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ وفي سورة المدثر أقسم بالليل إذا أدبر، وفي سورة التكوير أقسم بالليل إذا عسعس، وقد فسر بأقبل وفسر بأدبر، فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة، وهي: حالة إقباله، وحالة امتداده وسريانه، وحالة إدباره، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه»[٣].

قال ابن عاشور: «وتقييد ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ بظرف ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾ لأنه وقت تمكن ظلمة الليل، فحينئذ يكون الناس أخذوا حظهم من النوم فاستطاعوا التهجد، قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[٤] وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ﴾[٥] »[٦].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٦٢٢/ ٣٦١)، ومسلم (٤/ ٢٣٠١-٢٣٠٩/ ٣٠٠٦)، وأبو داود (١/ ٤١٧-٤١٨/ ٦٣٤)، وابن حبان (٦/ ٧٩-٨٠/ ٢٣٠٥)، وابن خزيمة (١/ ٣٧٧/ ٧٦٧) واللفظ لهما.

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٩٢٣).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢٦و٢٧).

(٤) المزمل: الآية (٦).

(٥) الإنسان: الآية (٢٦).

(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٥).

قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾

★ غريب الآية:

حجر: عقل. وأصل الحجر: المنع. وسمي العقل حجرًا، لأنه يمنع صاحبه من الجهل. قال الشاعر:

وكيف يُرَجَّى أن تتوبَ وإنما ... يُرَجَّى من الفتيان مَنْ كَانَ ذَا حِجْرِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ﴾ الخ تحقيق وتقرير لفخامة شأن المقسم بها، وكونها أمورا جليلة، حقيقة بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول، وتنبيه على أن الإقسام بها أمر معتد به، خليق بأن يؤكد به الإخبار على طريقة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾[1]»[2].

قال الواحدي: «والمعنى: أن من كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم اللّه به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على صنع اللّه وقدرته وتوحيده، فهو حقيق بأن يقسم به، لدلالته على خالقه»[3].

قال ابن كثير: «وإنما سمي العقل حجرا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حجر البيت، لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي، ومنه حجر اليمامة، وَحَجَرَ الحاكم على فلان: إذا منعه التصرف ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[4] كل هذا من قبيل واحد، ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم»[5].

---

(١) الواقعة: الآية (٧٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٥٣).

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٤٨١).

(٤) الفرقان: الآية (٢٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

العماد: أي: الأبنية المرفوعة على العَمَد. وقيل: الشدة والقوة. قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عِمَادُ الحيِّ خرَّتْ على الأحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته، مكذبين لرسله، جاحدين لكتبه، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبرا، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾ وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عَوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق. وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا، عليه السلام، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝﴾[1]. وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون.

فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾ عطف بيان؛ زيادة تعريف بهم. وقوله: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا، ولهذا ذكَّرهم هود بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ

---

(١) الحاقة: الآيتان (٧و٨).

تُفْلِحُونَ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[(٢)]، وقال ههنا: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾، أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم.

قال مجاهد: إرم: أمة قديمة. يعني: عادا الأولى، كما قال قتادة بن دعامة، والسُّدِّيُّ: إن إرم بيت مملكة عاد، وهذا قول حسن جيد قوي. وقال مجاهد، وقتادة، والكلبي في قوله: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ كانوا أهل عمود لا يقيمون. وقال العوفي، عن ابن عباس: إنما قيل لهم: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ لطولهم. واختار الأول ابنُ جرير، ورد الثاني فأصاب.

وقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ أعاد ابن زيد الضميرَ على العماد لارتفاعها، وقال: بنوا عُمُدا بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد. وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة، أي: لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد، يعني في زمانهم. وهذا القول هو الصواب، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾..

قلت: فعلى كل قول، سواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحا يقاتلون به، أو طول الواحد منهم -فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا، والله أعلم. ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ مدينة إما دمشق، كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة، أو إسكندرية كما رُوي عن القُرَظي أو غيرهما، ففيه نظر، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ إن جعل ذلك بدلا أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يُرَد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم. وإنما نبهت على ذلك لئلا يُغْتَرَّ

---

(١) الأعراف: الآية (٦٩).

(٢) فصلت: الآية (١٥).

بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية، من ذكر مدينة يقال لها: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ مبنية بلبن الذهب والفضة، قصورها ودورها وبساتينها، وإن حصباءها لآلئ وجواهر، وترابها بنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر، ليس بها داع ولا مجيب، وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد؛ فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك.

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلا من الأعراب -وهو عبد الله بن قِلابة- في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت، فبينما هو يتيه في ابتغائها، إذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب، فدخلها فوجد فيها قريبًا مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس، فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئا.

وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ ههنا مطولة جدا، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهَوَس والخبال فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين، من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة، وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير، ونحو ذلك من الهذيانات، ويَطْنزون بهم. والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزًا كثيرة، من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله ﷻ الهادي للصواب»[1].

قال الشوكاني: «وقد أصيب الإسلام وأهله بداهية دهياء، وفاقرة عظمى،

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧٤-٢٧٦).

ورزية كبرى، من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين، الذين يجترئون على الكذب، تارة على بني إسرائيل، وتارة على الأنبياء، وتارة على الصالحين، وتارة على رب العالمين، وتضاعف هذا الشر، وزاد كثرة بتصدر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها، ومن موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلقة، والأقاصيص المنحولة، والأساطير المفتعلة، في تفسير كتاب اللّٰه سبحانه، فحرفوا وغيروا وبدلوا. ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر في كتابي الذي سميته: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة»[1].

قال ابن خلدون: «وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ، في شيء من بقاع الأرض، وصَحَارَى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن، وما زال عمرانها متعاقبا، والأدلاء تقص طرقها من كل وجه، ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الإخباريين ولا من الأمم، ولو قالوا: إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه؛ إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة، وبعضهم يقول: إنها دمشق، بناء على أن قوم عاد ملكوها، وقد ينتهي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر، مزاعم كلها أشبه بالخرافات.

والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ذات العماد، أنها صفة إرم، وحملوا العماد على الأساطين فتعين أن يكون بناء. ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عادُ إرَمَ)، على الإضافة من غير تنوين، ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة، والتي هي أقرب إلى الكذب، المنقولة في عداد المضحكات، وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام، وإن أريد بها الأساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم، بما اشتهر من قوتهم؛ لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها، وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى إضافة الفصيلة إلى القبيلة، كما تقول: قريش كنانة، وإلياس مضر، وربيعة نزار، وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب اللّٰه عن مثلها لبعدها

(١) فتح القدير (٥/ ٦٢٥-٦٢٦).

عن الصحة»[١].

قال ابن كثير: «وقولُ ابن جرير: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إِرَمَ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها، فلذلك لم تُصرَف فيه نظر؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ »[٢].

قال الرازي: «والمقصود من هذه الحكاية زجر الكفار، فإنه تعالى بين أنه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل، مع الذي اختصوا به من هذه الوجوه، فلأن تكونوا خائفين من مثل ذلك أيها الكفار إذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم كان أولى»[٣].

قال ابن العربي: «فيها من طريق الأحكام التحذير من التطاول في البنيان، والتعاظم بتشييد الحجارة، والندب إلى تحصيل الأعمال التي توصل إلى الدار الآخرة، ومن أشراط الساعة التطاول في البنيان، وقد عرض على النبي ﷺ بنيان مسجده، فقال: «عريش كعريش موسى»[٤]. والبنيان أهون من ذلك.

ولقد توفي وما وضع لبنة على لبنة، ثم تطاولنا في بنياننا، وزخرفنا مساجدنا، وعطلنا قلوبنا وأبداننا والله المستعان»[٥].

* * *

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٢١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٨).

(٤) روي مرسلا عن الحسن البصري وسالم بن عطية والزهري وراشد بن سعد، وموصولا عن أبي الدرداء وعبادة ابن الصامت انظر تخريجه في الصحيحة (٢/ ١٧٨-١٨١/ ٦١٦) قال الشيخ الألباني عقب تخريجه للحديث: «وجملة القول أن الحديث بمجموع المرسلين الصحيحين وهذا الموصول يرتقي إلى درجة الحسن إن شاء الله تعالى».

(٥) أحكام القرآن (٤/ ١٩٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

جابوا: قطعوا. ومنه: فلان يجوب البلاد. أي: يقطعها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «قوله ﷺ: ﴿وَثَمُودَ﴾ أي: وفعل بثمود مثل ما فعل بعاد ﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟﴾، أي: قطعوا ﴿ٱلصَّخْرَ﴾ أي: الحجر ﴿بِٱلْوَادِ﴾ يعني: بوادي القرى، وكانت ثمود أول من قطّع الصخر ونحته، واتخذوا مساكن في الجبال وبيوتًا»[1].

قال ابن كثير: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ يعني: يقطعون الصخر بالوادي. قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. ومنه يقال: «مجتابي النمار». إذا خرقوها، واجتاب الثوب: إذا فتحه. ومنه الجيب أيضا. وقال اللَّه تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩﴾[2]. وأنشد ابن جرير وابن أبي حاتم ههنا قول الشاعر:

ألا كُلّ شيء -ما خَلا الله- بائدٌ ... كَما بَاد حَيٌّ من شنيف ومارد

هُم ضَرَبُوا في كُلِّ صَمَّاء صَعدة ... بأيد شِدَاد أيّدات السَّواعد

وقال ابن إسحاق: كانوا عربا، وكان منزلهم بوادي القرى»[3].

* * *

(١) لباب التأويل (٤/ ٣٧٦).

(٢) الشعراء: الآية (١٤٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٦).

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: ألم تر كيف فعل ربك أيضا بفرعون صاحب الأوتاد.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ ولم قيل له ذلك؟ فقال بعضهم: معنى ذلك: ذي الجنود الذي يقوّون له أمره، وقالوا: الأوتاد في هذا الموضع: الجنود.. وقال آخرون: بل قيل له ذلك لأنه كان يُوتِد الناس بالأوتاد.. وقال آخرون: كانت مظالّ وملاعب يلعب له تحتها.. وقال آخرون: بل ذلك لأنه كان يعذّب الناس بالأوتاد.. وقال آخرون: إنما قيل ذلك لأنه كان له بنيان يعذّب الناس عليه..

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: عُنِيَ بذلك: الأوتاد التي تُوتَد، من خشب كانت أو حديد، لأن ذلك هو المعروف من معاني الأوتاد، ووصف بذلك لأنه إما أن يكون كان يعذّب الناس بها، كما قال أبو رافع وسعيد بن جُبير، وإما أن يكون كان يُلعب له بها»[1].

قال عطية محمد سالم: «والذي يظهر والله تعالى أعلم: أن هذا القول هو الصحيح، وأنها مرتفعة، وأنها هي المعروفة الآن بالأهرام بمصر، ويرجع ذلك إلى عدة أمور:

منها: أنها تشبه الأوتاد في منظرها طرفه إلى أعلا، إذ القمة شبه الوتد، مدببة بالنسبة لضخامتها، فهي بشكل مثلث، قاعدته إلى أسفل وطرفه إلى أعلا.

ومنها: ذكره مع ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، بجامع مظاهر القوة، فأولئك نحتوا الصخر بيوتًا فارهين، وهؤلاء قطعوا الصخر الكبير من موطن لا جبال حوله،

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٧٩-١٨٠).

مما يدل أنها نقلت من مكان بعيد. والحال أنها قطع كبار صخرات عظام، ففي اقتطاعها وفي نقلها إلى محل بنائها، وفي نفس البناء كل ذلك مما يدل على القوة والجبروت، وتسخير العباد في ذلك.

ومنها: أن حملها على الأهرام القائمة بالذات والمشاهدة في كل زمان ولكل جيل، أوقع في العظة والاعتبار، بأن من أهلك تلك الأمم، قادر على إهلاك المكذبين من قريش وغيرهم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ قال: «وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحىً عظيمًا حتى ماتت»[2].

* * *

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ٢١٦).

(٢) أخرجه: الحاكم (٢/ ٥٢٢-٥٢٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه- ﴿ٱلَّذِينَ﴾: عادًا وثمود وفرعون وجنده، ويعني بقوله: ﴿طَغَوۡاْ﴾: تجاوزوا ما أباحه لهم ربهم، وعتوا على ربهم إلى ما حظره عليهم من الكفر به. وقوله: ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: التي كانوا فيها»(١).

قال ابن عاشور: «والطغيان شدّة العصيان والظلم، ومعنى طغيانهم في البلاد: أن كل أمة من هؤلاء طَغوا في بلدهم؛ ولما كان بلدهم من جملة البلاد، أي: أرضي الأقوام كان طغيانهم في بلدهم قد أوقع الطغيان في البلاد، لأن فساد البعض آئل إلى فساد الجميع بسَنِّ سنن السوء، ولذلك تسبب عليه ما فرع عنه من قوله: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢﴾؛ لأن الطغيان يجرّئ صاحبه على دحض حقوق الناس، فهو من جهة يكون قدوة سُوءٍ لأمثاله ومَلئهِ، فكل واحد منهم يطغى على من هو دونه، وذلك فساد عظيم، لأن به اختلال الشرائع الإلهيَّة، والقوانين الوضعية الصالحة، وهو من جهة أخرى يثير الحفائظ والضغائن في المطْغيّ عليه من الرعية فيُضمرون السوء للطاغين، وتنطوي نفوسهم على كراهية ولاة الأمور، وتربص الدوائر بها، فيكونُون لها أعداء غير مخلصي الضمائر، ويكون رجال الدولة متوجّسين منهم خيفة، فيظنون بهم السوء في كل حال ويحْذَرُونهم، فتتوزع قوة الأمة على أفرادها عوض أن تتّحد على أعدائها، فتصبح للأمة أعداء في الخارج وأعداء في الداخل، وذلك يفضي إلى فساد عظيم، فلا جرم كان الطغيان سببًا لكثرة الفساد»(٢).

* * *

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٢١).

قوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾

★ غريب الآية:

صَبَّ عليهم: أي: أفرغ وألقى. يقال: صب على فلان خِلْعَة. أي: ألقاها عليه. قال الشاعر:

فَصَبَّ عليه اللَّه أحسن صَنْعِه وكان له بين البرية ناصرا

سوط عذاب: أي: نصيب عذاب. وقيل: عذابًا شديدًا يخالط اللحم والدم، لأن أصل السوط: خلط الشيء بعضه ببعض. من ساطه يَسُوطُه سوطا. أي: خلطه. قال الشاعر:

ألم تر أن اللَّه أظهر دينه وصبَّ على الكفار سوط عذاب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأكثروا في البلاد المعاصي، وركوب ما حرّم اللَّه عليهم ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأنزل بهم يا محمد ربك عذابه، وأحلّ بهم نقمته، بما أفسدوا في البلاد، وطغَوْا على اللَّه فيها. وقيل: فصبّ عليهم ربك سَوط عذاب، وإنما كانت نِقَما تنزل بهم، إما ريحا تُدَمرهم، وإما رَجفا يُدَمدم عليهم، وإما غَرَقا يُهلكهم من غير ضرب بسوط ولا عصا؛ لأنه كان من أليم عذاب القوم الذين خوطبوا بهذا القرآن، الجلد بالسياط، فكثر استعمال القوم الخبر عن شدّة العذاب الذي يعذّب به الرجل منهم أن يقولوا: ضُرب فلان حتى بالسياط، إلى أن صار ذلك مثلا فاستعملوه في كلّ معذَّب بنوع من العذاب شديد، وقالوا: صَبّ عليه سَوْط عذاب»[1].

قال ابن عاشور: «﴿ٱلْفَسَادَ﴾: سوء حال الشيء، ولحاق الضر به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾[2]. وضد الفساد

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٨٠).

(٢) البقرة: الآية (٢٠٥).

الصلاح قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[(١)] وكان ما أكثروه من الفساد سببًا في غضب اللَّه عليهم، واللَّه لا يحب الفساد فصب عليهم العذاب.

والصب حقيقته: إفراغ ما في الظرف، وهو هنا مستعار لحلول العذاب دَفعة، وإحاطته بهم، كما يصب الماء على المغتَسِل، أو يصب المطر على الأرض، فوجه الشبه مركب من السرعة والكثرة، ونظيره استعارةُ الإفراغ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[(٢)] ونظير الصب قولهم: شن عليهم الغارةَ. وكان العذاب الذي أصاب هؤلاء عذابًا مفاجئًا قاضيًا. فأما عاد فرأوا عارض الريح، فحسبوه عارض مطر، فما لبثوا حتى أطارتهم الريح كل مطير. وأما ثمود فقد أخذتهم الصيحة. وأما فرعون فحسبوا البحر منحسرًا، فما راعهم إلا وقد أحاط بهم.

والسوط: آلة ضرب تتخذ من جلود مضفورة، تضرب بها الخيل للتأديب، ولتحمِلَها على المزيد في الجري. وعن الفراء أن كلمة ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ يقولها العرب لكل عذاب يدخل فيه السوط أي: يقع بالسوط، يُريد أن حقيقتها كذلك، ولا يريد أنها في هذه الآية كذلك»[(٣)].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٥٦).

(٢) البقرة: الآية (٢٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٢٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝﴾

★ غريب الآية:

بالمرصاد: المرصاد: الطريق. وقيل: موضع الرصد. وأصل الرصد: مراقبة الشيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: يسمع ويرى. يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلا بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلا بما يستحقه، وهو المنزه عن الظلم والجور»[١].

قال القاسمي: «شبه كونه تعالى حافظا لأعمال العباد، مترقبا لها ومجازيا على نقيرها وقطميرها، بحيث لا ينجو منه أحد بحال، من قعد على الطريق مترصدا لمن يسلكها، ليأخذه فيوقع به ما يريد، ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٧).

(٢) محاسن التأويل (١٧/ ١٤٧).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قدر: ضيق ولم يبسط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع اللَّه عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من اللَّه إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[١]، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضَيَّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من اللَّه إهانة له»[٢].

قال الرازي: «اعلم أن قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، كأنه قيل: إنه تعالى لبالمرصاد في الآخرة، فلا يريد إلا السعي للآخرة، فأما الإنسان فإنه لا يهمه إلا الدنيا ولذاتها وشهواتها، فإن وجد الراحة في الدنيا يقول: ربي أكرمني، وإن لم يجد هذه الراحة يقول: ربي أهانني. ونظيره قوله تعالى في صفة الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[٣]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[٤]. وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أن سعادة الدنيا وشقاوتها في مقابلة ما في الآخرة من السعادة والشقاوة كالقطرة في البحر، فالمتنعم في الدنيا لو كان شقيًا في الآخرة فذاك التنعم

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٥٥و٥٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٨).
(٣) الروم: الآية (٧).
(٤) الحج: الآية (١١).

ليس بسعادة، والمتألم المحتاج في الدنيا لو كان سعيدًا في الآخرة فذاك ليس بإهانة ولا شقاوة، إذ المتنعم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالسعادة والكرامة، والمتألم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالشقاوة والهوان.

وثانيها: أن حصول النعمة في الدنيا وحصول الآلام في الدنيا لا يدل على الاستحقاق، فإنه تعالى كثيرًا ما يوسع على العصاة والكفرة، إما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإما يحكم المصلحة، وإما على سبيل الاستدراج والمكر، وقد يضيق على الصديقين لأضداد ما ذكرنا، فلا ينبغي للعبد أن يظن أن ذلك لمجازاة.

وثالثها: أن المتنعم لا ينبغي أن يغفل عن العاقبة، فالأمور بخواتيمها، والفقير والمحتاج لا ينبغي أن يغفل عما لله عليه من النعم التي لا حد لها، من سلامة البدن والعقل والدين، ودفع الآفات والآلام التي لا حد لها ولا حصر، فلا ينبغي أن يقضي على نفسه بالإهانة مطلقًا.

ورابعها: أن النفس قد ألفت هذه المحسوسات، فمتى حصلت هذه المشتهيات واللذات صعب عليها الانقطاع عنها وعدم الاستغراق فيها، أما إذا لم يحصل للإنسان شيء من هذه المحسوسات رجعت شاءت أم أبت إلى اللَّه، واشتغلت بعبودية اللَّه فكان وجدان الدنيا سببًا للحرمان من اللَّه، فكيف يجوز القضاء بالشقاوة والإهانة عند عدم الدنيا، مع أن ذلك أعظم الوسائل إلى أعظم السعادات.

وخامسها: أن كثرة الممارسة سبب لتأكد المحبة، وتأكد المحبة سبب لتأكد الألم عند الفراق، فكل من كان وجدانه للدنيا أكثر وأدوم كانت محبته لها أشد، فكان تألمه بمفارقتها عند الموت أشد، والذي بالضد فبالضد، فإذن حصول لذات الدنيا سبب للألم الشديد بعد الموت، وعدم حصولها سبب للسعادة الشديدة بعد الموت، فكيف يقال: إن وجدان الدنيا سعادة وفقدانها شقاوة؟»[1].

قال ابن عاشور: «دلت الفاء على أن الكلام الواقع بعدها متصل بما قبلها ومتفرع عليه لا محالة.

ودلت (أما) على معنى: مهما يكن من شيء، وذلك أصل معناها ومقتضى

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٧٠-١٧١).

استعمالها، فقوي بها ارتباط جوابها بما قبلها وقبل الفاء المتصلة بها، فلاح ذلك برقا وامضا، وانجلى بلمعه ما كان غامضا، إذ كان تفريع ما بعد هذه الفاء على ما قبلها خفيا، فلنبينه بيانا جليا، ذلك أن الكلام السابق اشتمل على وصف ما كانت تتمتع به الأمم الممثل بها، مما أنعم اللَّه عليها به من النعم، وهم لاهون عن دعوة رسل اللَّه، ومعرضون عن طلب مرضاة ربهم، مقتحمون المناكر التي نهوا عنها، بطرون بالنعمة، معجبون بعظمتهم، فعقب ذكر ما كانوا عليه وما جازاهم اللَّه به عليه من عذاب في الدنيا، باستخلاص العبرة وهو تذكير المشركين بأن حالهم مماثل لحال أولئك ترفا وطغيانا وبطرا، وتنبيههم على خطاهم؛ إذ كانت لهم من حال الترف والنعمة شبهة توهموا بها أن اللَّه جعلهم محل كرامة، فحسبوا أن إنذار الرسول ﷺ إياهم بالعذاب ليس بصدق؛ لأنه يخالف ما هو واقع لهم من النعمة، فتوهموا أن فعل اللَّه بهم أدل على كرامتهم عنده مما يخبر به الرسول ﷺ أن اللَّه أمرهم بخلاف ما هم عليه، ونفوا أن يكون بعد هذا العالم عالم آخر يضاده، وقصروا عطاء اللَّه على ما عليه عباده في هذه الحياة الدنيا، فكان هذا الوهم مسولا لهم التكذيب بما أنذروا به من وعيد، وبما يسر المؤمنون من ثواب في الآخرة، فحصروا جزاء الخير في الثروة والنعمة وقصروا جزاء السوء على الخصاصة وقتر الرزق. وقد تكرر في القرآن التعرض لإبطال ذلك كقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾[1].

وقد تضمن هذا الوهم أصولا انبنى عليها، وهي: إنكار الجزاء في الآخرة، وإنكار الحياة الثانية، وتوهم دوام الأحوال.

ففاء التفريع مرتبطة بجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ بما فيها من العموم الذي اقتضاه كونها تذييلا.

والمعنى: هذا شأن ربك الجاري على وفق علمه وحكمته.

فأما الإنسان الكافر فيتوهم خلاف ذلك؛ إذ يحسب أن ما يناله من نعمة وسعة في الدنيا تكريما من اللَّه له، وما يناله من ضيق عيش إهانة أهانه اللَّه بها.

وهذا التوهم يستلزم ظنهم أفعال اللَّه تعالى جارية على غير حكمة، قال تعالى:

---

(١) المؤمنون (٥٥و٥٦).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾[1]، فأعلم اللّٰه رسوله ﷺ والمؤمنين بالحقيقة الحقة، ونبههم لتجنب تخليط الدلائل الدقيقة السامية، وتجنب تحكيم الواهمة والشاهية، وذكرهم بأن الأحوال الدنيوية أعراض زائلة ومتفاوتة الطول والقصر، وفي ذلك كله إبطال لمعتقد أهل الشرك وضلالهم الذي كان غالبا على أهل الجاهلية، ولذلك قال النابغة في آل غسان الذين لم يكونوا مشركين، وكانوا متدينين بالنصرانية:

مجلتهم ذات الإله ودينهم ... قويم فما يرجون غير العواقب

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ... ولا يحسبون الشر ضربة لازب

وقد أعقب اللّٰه ذلك بالردع والإبطال بقوله: ﴿كَلَّا﴾. فمناط الردع والإبطال كلا القولين؛ لأنهما صادران عن تأويل باطل وشبهة ضالة، كما ستعرفه عند قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾.

واقتصار الآية على تقتير الرزق في مقابلة النعمة دون غير ذلك من العلل والآفات، لأن غالب أحوال المشركين المتحدث عنهم صحة المزاج وقوة الأبدان، فلا يهلكون إلا بقتل أو هرم فيهم وفي ذويهم، قال النابغة:

تغشى متالف لا ينظرنك الهرما

ولم يعرج أكثر المفسرين على بيان نظم الآية واتصالها بما قبلها عدا الزمخشري وابن عطية.

وقد عرف هذا الاعتقاد الضال من كلام أهل الجاهلية، قال طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم ... ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي ... بنون كرام سادة لمسود

وجعلوا هذا الغرور مقياسا لمراتب الناس، فجعلوا أصحاب الكمال أهل المظاهر الفاخرة، ووصموا بالنقص أهل الخصاصة وضعفاء الناس، لذلك لما أتى الملأ من قريش ومن بني تميم وفزارة للنبي ﷺ وعنده عمار، وبلال، وخباب،

---

(١) فصلت: الآية (٥٠).

وسالم مولى أبي حذيفة، وصبيح مولى أسيد، وصهيب، في أناس آخرين من ضعفاء المؤمنين قالوا للنبيء: اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك. وقالوا لأبي طالب: لو أن ابن أخيك طرد هؤلاء الأعبد والحلفاء كان أعظم له في صدورنا وأدلى لاتباعنا إياه، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[1] الآية كما تقدم في سورة الأنعام (٥٢).

فنبه اللّٰه على خطإ اعتقادهم بمناسبة ذكر مماثله مما اعتقده الأمم قبلهم، الذي كان موجبا صب العذاب عليهم، وأعلمهم أن أحوال الدنيا لا تتخذ أصلا في اعتبار الجزاء على العمل، وأن الجزاء المطرد هو جزاء يوم القيامة.

والمراد بالإنسان الجنس، وتعريفه تعريف الجنس، فيستغرق أفراد الجنس، ولكنه استغراق عرفي مراد به الناس المشركون؛ لأنهم الغالب على الناس المتحدث عنهم، وذلك الغالب في إطلاق لفظ الإنسان في القرآن النازل بمكة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[3]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾[4]، ونحو ذلك ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[5].

وقيل: أريد إنسان معين، فقيل عتبة بن ربيعة، أو أبو حذيفة بن المغيرة عن ابن عباس، وقيل: أمية بن خلف عن مقاتل والكلبي، وقيل: أبي بن خلف عن الكلبي أيضا، وإنما هؤلاء المسمون أعلام التضليل. قال ابن عطية: ومن حيث كان هذا غالبا على الكفار جاء التوبيخ في هذه الآية باسم الجنس، إذ يقع (كذا) بعض المؤمنين في شيء من هذا المنزع اهـ.

واعلم أن من ضلال أهل الشرك، ومن فتنة الشيطان لبعض جهلة المؤمنين، أن يخيل إليهم ما يحصل لأحد بجعل اللّٰه من ارتباط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، فيضعوا ما يصادف نفع أحدهم من الحوادث موضع كرامة من اللّٰه للذي صادفته منافع ذلك، تحكيما للشاهية ومحبة النفس، ورجما بالغيب وافتياتا على

---

(١) الأنعام: الآية (٥٢).
(٢) العلق: الآيتان (٦و٧).
(٣) القيامة (٣).
(٤) البلد: الآيتان (٤و٥).
(٥) الفجر: الآية (٢٣).

اللَّه، وإذا صادف أحدهم من الحوادث ما جلب له ضرا تخيله بأوهامه انتقاما من اللَّه قصده به، تشاؤما منهم.

فهؤلاء الذين زعموا ما نالهم من نعمة اللَّه إكراما من اللَّه لهم ليسوا أهلا لكرامة اللَّه. وهؤلاء الذين توهموا ما صادفهم من فتور الرزق إهانة من اللَّه لهم ليسوا بأحط عند اللَّه من الذين زعموا أن اللَّه أكرمهم بما هم فيه من نعمة.

فذلك الاعتقاد أوجب تغلغل أهل الشرك في إشراكهم وصرف أنظارهم عن التدبر فيما يخالف ذلك، وربما جرت الوساوس الشيطانية فتنة من ذلك لبعض ضعفاء الإيمان وقصار الأنظار والجهال بالعقيدة الحق كما أفصح أحمد بن الراوندي عن تزلزل فهمهم وقلة علمهم بقوله:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأفهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

وذلك ما صرف الضالين عن تطلب الحقائق من دلائلها، وصرفهم عن التدبر فيما ينيل صاحبه رضى اللَّه وما يوقع في غضبه، وعلم اللَّه واسع وتصرفاته شتى، وكلها صادرة عن حكمة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[1]. فقد يأتي الضر للعبد من عدة أسباب، وقد يأتي النفع من أخرى، وبعض ذلك جار في الظاهر على المعتاد، ومنه ما فيه سمة خرق العادة، فربما أتت الرزايا من وجوه الفوائد، والموفق يتيقظ للأمارات قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[3]، وقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾[4]. وتصرفات اللَّه متشابهة، بعضها يدل على مراده من الناس، وبعضها جار على ما قدره من نظام العالم، وكل قد قضاه وقدره

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٢) الأنعام: الآية (٤٤).

(٣) الأعراف: الآيتان (٩٤و٩٥).

(٤) التوبة: الآية (١٢٦).

وسبق علمه به وربط مسبباته بأسبابه مباشرة، أو بواسطة أو وسائط، والمتبصر يأخذ بالحيطة لنفسه وقومه ولا يقول على اللَّه ما يمليه عليه وهمه ولم تنهض دلائله، ويفوض ما أشكل عليه إلى علم اللَّه. وليس مثل هذا المحكي عنهم من شأن المسلمين المهتدين بهدي النبي ﷺ، والمتبصرين في مجاري التصرفات الربانية. وقد نجد في بعض العوام ومن يشبههم من الغافلين بقايا من اعتقاد أهل الجاهلية لإيجاد التخيلات التي تمليها على عقولهم، فالواجب عليهم أن يتعظوا بموعظة اللَّه في هذه الآية، لا جرم أن اللَّه قد يعجل جزاء الخير لبعض الصالحين من عباده كما قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1]، وقد يعجل العقاب لمن يغضب عليه من عباده. وقد حكي عن نوح قوله لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦﴾[3]، ولهذه المعاملة علامات أظهرها أن تجري على خلاف المألوف كما نرى في نصر النبي ﷺ والخلفاء على الأمم العظيمة القاهرة، وتلك مواعيد من اللَّه يحققها أو وعيد منه يحيق بمستحقيه»[4].

وقال: «اعلم أن قوله: ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ صريح في أن اللَّه ينعم على الكافرين إيقاظا لهم ومعاملة بالرحمة، والذي عليه المحققون من المتكلمين أن الكافر منعم عليه في الدنيا، وهو قول الماتريدي والباقلاني. وهذا مما اختلف فيه الأشعري والماتريدي والخلاف لفظي»[5].

* * *

(١) النحل: الآية (٩٧).
(٢) نوح: الآيات (١٠-١٢).
(٣) الجن: الآية (١٦).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٢٤-٣٢٨).
(٥) المصدر السابق (٣٠/ ٣٢٩-٣٣٠).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية سالم: «بعد ما بين سبحانه صحة المفاهيم في العطاء والمنع، جاء في هذه الآيات وبين حقيقة فتنة المال إيجابًا وسلبًا جمعًا وبذلًا، فبدأ بأقبح الوجوه من الإمساك من عدم إكرام اليتيم، مهيض الجناح، مكسور الخاطر، والتقاعس عن إطعام المسكين، خالي اليد جائع البطن، ساكن الحركة، وهذان الجانبان أهم مهمات بذل المال وهم يمسكون عنها، وقد بين تعالى أن هذا الجانب هو اقتحام العقبة عند الشدة، في قوله تعالى في سورة البلد: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾[(١)].

ومن الجانب الآخر ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾﴾ أي الميراث، فلا يعطون النسوة وهن ضعيفات الشخصية، أحوج إلى مال مورثهن، وتحبون المال حبًا حتى استعبدكم وألهاكم التكاثر فيه.

وهنا لفت نظر للفريقين، فمن أُعطي منهم لا ينبغي له أن يغفل طرق البذل الهامة، ومن مُنع لا ينبغي له أن يستشرف إلى ما لا ينبغي له، وبالله تعالى التوفيق»[(٢)].

قال ابن القيم: «كلا، أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء علي وامتحان له، أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له، أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط فيكون حظه السخط،

---

(١) البلد: الآيات (١١-١٦).

(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ٢١٧-٢١٨).

فرد اللَّه سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد»[١].

فإن قيل: كيف يلتئم هذا المعنى ويتفق مع قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾، فأثبت له الإكرام، ثم أنكر عليه قوله: ﴿رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ﴾، وقال: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس ذلك إكراما مني، وإنما هو ابتلاء، فكأنه أثبت له الإكرام ونفاه؟

قيل: الإكرام المثبت غير الإكرام المنفي، وهما من جنس النعمة المطلقة والمقيدة، فليس هذا الإكرام المقيد بموجب لصاحبه أن يكون من أهل الإكرام المطلق، وكذلك أيضا إذا قيل: إن اللَّه أنعم على الكافر نعمة مطلقة ولكنه رد نعمة اللَّه وبدلها، فهو بمنزلة من أعطي ما لا يعيش به، فرماه في البحر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[٣]، فهدايته إياهم نعمة منه عليهم، فبدلوا نعمة اللَّه، وآثروا عليها الضلال.

فهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر نعمة أم لا؟ وأكثر اختلاف الناس من جهتين: إحداهما: اشتراك الألفاظ وإجمالها. والثانية: من جهة الإطلاق والتفصيل»[٤].

قال ابن عاشور: «وحرف ﴿كَلَّا﴾ زجر عن قول الإنسان ﴿رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ﴾ عند حصول النعمة، وقوله: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ عندما يناله تقتير، فهو ردع عن اعتقاد ذلك فمناط الردع كِلاَ القولين؛ لأن كل قول منهما صادر عن تأول باطل، أي ليست حالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا دليلًا على منزلته عند اللَّه تعالى، وإنما يُعرَف مراد اللَّه بالطرق التي أرشد اللَّه إليها بواسطة رسله وشرائعه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٠).
(٢) إبراهيم: الآية (٢٨).
(٣) فصلت: الآية (١٧).
(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٦-٢٧).

﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ١٠٥﴾[1]. فرب رجل في نعمة في الدنيا هو مسخوط عليه، ورب أشعث أغبر مطرود بالأبواب لو أقسم على اللَّه لأبَرَّهُ.

فمناط الردع جعل الإنعام علامة على إرادة اللَّه إكرام المنعم عليه، وجعل التقتير علامة على إرادة الإهانة، وليس مناطه وقوع الكرامة ووقوع الإهانة؛ لأن اللَّه أهان الكافرَ بعذاب الآخرة، ولو شاء إهانته في الدنيا لأجل الكفر لأهان جميع الكفرة بتقتير الرزق.

وبهذا ظهر أن لا تنافي بين إثبات إكرام اللَّه تعالى الإنسان بقوله: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ وبين إبطال ذلك بقوله: ﴿كَلَّا﴾ لأن الإبطال وارد على ما قصده الإنسان بقوله: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ أن ما ناله من النعمة علامةٌ على رضى اللَّه عنه.

فالمعنى: إن لشأن اللَّه في معاملته الناس في هذا العالم أسرارًا وعِللًا لا يُحاط بها، وأن أهل الجهالة بمعزل عن إدراك سرها بأقْيسة وهمية، والاستناد لمألوفات عادية، وأن الأولى لهم أن يتطلبوا الحقائق من دلائلها العقلية، وأن يعرفوا مراد اللَّه من وحيه إلى رسله، وأن يحذروا من أن يحيدوا بالأدلة عن مدلولها. وأن يستنتجوا الفروع من غير أصولها.

وأما أهل العلم فهم يضعون الأشياء مواضعها، ويتوسمون التوسم المستند إلى الهدي ولا يخلطون ولا يخبطون»[2].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث، وأكل ماله إسرافا وبدارا أن يكبروا»[3].

قال الرازي: «اعلم أن ترك إكرام اليتيم على وجوه:

أحدها: ترك بره، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾.

والثاني: دفعه عن حقه الثابت له في الميراث وأكل ماله، وإليه الإشارة بقوله

---

(١) الكهف: الآيات (١٠٣-١٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٣١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٥٢).

تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩﴾.

والثالث: أخذ ماله منه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾، أي: تأخذون أموال اليتامى وتضمونها إلى أموالكم»[(١)].

قال ابن عاشور: «وإكرام اليتيم: سَد خَلته، وحسن معاملته، لأنه مظنة الحاجة لفقدِ عائِله، ولاستيلائهم على الأموال التي يتركها الآباءُ لأبنائهم الصغار. وقد كانت الأموال في الجاهلية يتداولها رؤساء العائلات»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحض على إكرام اليتيم

* عن سهل قال رسول اللَّه ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا»[(٣)].

★ غريب الحديث:

كافل اليتيم: أي القيم بأمره ومصالحه.

السبابة: هي الأصبع التي تلي الإبهام.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «حق على كل مؤمن يسمع هذا الحديث أن يرغب في العمل به ليكون في الجنة رفيقًا للنبي ﷺ، ولجماعة النبيين والمرسلين -صلوات اللَّه عليهم أجمعين-، ولا منزلة عند اللَّه في الآخرة أفضل من مرافقة الأنبياء»[(٤)].

وقوله: «وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا»:

قال الحافظ: «فيه إشارة إلى أن بين درجة النبي ﷺ وكافل اليتيم، قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى، وهو نظير الحديث الآخر: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[(٥)]

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٧٣). (٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٣) والبخاري (٩/ ٥٤٩/ ٥٣٠٤) واللفظ له، وأبو داود (٥/ ٣٥٦/ ٥١٥٠) والترمذي (٤/ ٢٨٣/ ١٩١٨) وقال: «حسن صحيح».

(٤) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢١٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٠) والبخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٤) ومسلم (٤/ ٢٢٦٨-٢٢٦٩/ ٢٩٥١[١٣٥]) والترمذي (٤/ ٤٣٠/ ٢٢١٤) وقال: «حسن صحيح»، من حديث أنس رضي الله عنه.

الحديث»[١].

قال في بذل المجهود: قال في مرقاة الصعود: «الغرض منه المبالغة في رفع درجتها في الجنة، قال: وإنما فرق بين الأصبعين إشارة إلى التفاوت بين درجات الأنبياء وآحاد الأمة»[٢].

قال الحافظ: «ويكفي في إثبات قرب المنزلة من المنزلة أنه ليس بين الوسطى والسبابة أصبع أخرى. . ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حالة دخول الجنة، لما أخرجه أبو يعلى[٣] من حديث أبي هريرة رفعه «أنا أول من يفتح باب الجنة، فإذا امرأة تبادرني فأقول: من أنت؟ فتقول: أنا امرأة تأيمت على أيتام لي» ورواته لا بأس بهم، وقوله: «تبادرني» أي لتدخل معي أو تدخل في أثري، ويحتمل أن يكون المراد بمجموع الأمرين: سرعة الدخول، وعلو المنزلة. وقد أخرج أبو داود[٤] من حديث عوف بن مالك رفعه «أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة: امرأة ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى ماتوا أو بانوا» فهذا فيه قيد زائد وتقييد في الرواية التي أشرت إليها بقوله: «اتقي الله» أي فيما يتعلق باليتيم المذكور»[٥].

وقال: «قال شيخنا في «شرح الترمذي»: لعل الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة، أو شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي، أو منزلة النبي؛ لكون النبي شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم، فيكون كافلا لهم ومعلما ومرشدا، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه، ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه، فظهرت مناسبة ذلك اهـ ملخصا»[٦].

* * *

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٣٥).

(٢) (٢٠/ ٨٧).

(٣) في مسنده (١٢/ ٧/ ٦٦٥١)، وهو في الضعيفة (٥٣٧٤).

(٤) في سننه (٥/ ٣٥٥-٣٥٦/ ٥١٤٩)، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٩). وهو في الضعيفة (١١٢٢).

(٥) فتح الباري (١٠/ ٥٣٦).

(٦) فتح الباري (١٠/ ٥٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك»[(١)].

قال القاسمي: «قال الإمام: وإنما ذكر التحاض على الطعام، ولم يكتف بالإطعام فيقول: (ولم تطعموا المسكين)، ليصرح لك بالبيان الجلي أن أفراد الأمة متكافلون. وإنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع التزام كل لما يأمر به، وابتعاده عما ينهى عنه»[(٢)].

قال ابن عاشور: «ونفي الحَض على طعام المسكين نفي لإطعامه بطريق الأولى، وهي دلالة فحوى الخطاب، أي لقلّة الاكتراث بالمساكين لا ينفعونهم ولو نفْعَ وساطة، بَلْهَ أن ينفعوهم بالبذل من أموالهم»[(٣)].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٨).

(٢) محاسن التأويل (١٧/ ١٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾

★ **غريب الآية:**

التراث: الميراث.

لَمًّا: أي: شديدًا. وأصل اللَّمِّ: الجمع. يقال: لمَّ اللَّه شعثه، أي: جمع ما تَفَرَّقَ من أموره. قال النابغة:

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ أيُّ الرجال المُهَذَّبُ

جمًّا: كثيرًا عظيمًا. مِنْ جُمَّةِ الماءِ. أي: معظمه ومجتمعه. وجَمَّ الماءُ في الحوض: إذا اجتمع وكثر. قال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الألوسي: «يعني: إنكم تجمعون في أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم، ويروى أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد، فيأكلون نصيبهم ويقولون: لا يأخذ الميراث إلا من يقاتل ويحمي الحوزة، هذا وهم يعلمون من شريعة إسماعيل عليه السلام أنه يرثون فاندفع ما قيل إن السورة مكية وآية المواريث مدنية، ولا يعلم الحل والحرمة إلا من الشرع، فإن الحسن والقبح العقليين ليسا مذهبا لنا. وقيل: يعني تأكلون ما جمعه الميت المورث من حلال وحرام عالمين بذلك، فتلمون في الأكل بين حلاله وحرامه. وفي الكشاف يجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلًا مهلًا من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلًا واسعًا جامعًا بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ونحوها، كما يفعله الوراث البطالون. وتعقب بأنه غير مناسب للسياق.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ أي: كثيرًا كما قال ابن عباس، وأنشد قول أمية:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

والمراد إنكم تحبونه مع حرص وشره»[١].

قال السعدي: «وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾[٢]، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١﴾[٣]»[٤].

قال ابن عاشور: «وأشعر قوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ﴾ بأن المراد التراث الذي لا حق لهم فيه، ومنه يظهر وجه إيثار لفظ التُراث دون أن يقال: وتأكلون المال، لأن التراث مال ماتَ صاحبه، وأكْلُه يقتضي أن يستحق ذلك المال عاجزٌ عن الذب عن ماله لصغرٍ أو أنوثة.

واللَّمُّ: الجمع، ووصْفُ الأكل به وصف بالمصدر للمبالغة، أي أكلًا جامعًا مال الوارثين إلى مال الآكِلِ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[٥]. والجم: الكثير..

ووصْف الحُبّ بالكثرة مراد به الشدة؛ لأن الحب معنى من المعاني النفسية لا يوصف بالكثرة التي هي وفرة عدد أفراد الجنس.

فالجمّ مستعار لمعنى القوي الشديد، أي حبًّا مفرطًا، وذلك محل ذم حب المال، لأن إفراد حبه يوقع في الحِرص على اكتسابه بالوسائل غير الحَق كالغصب والاختلاس والسرقة وأكل الأمانات»[٦].

* * *

(١) روح المعاني (٣٠/ ١٢٧).
(٢) الأعلى: الآيتان (١٦و١٧).
(٣) القيامة: الآيتان (٢٠و٢١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٢٥).
(٥) النساء: الآية (٢).
(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٣٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

دكت: الدك: تسوية الشيء. وأرض دَكَّاءُ: مُسَوَّاةٌ. قال الشاعر:

ليت الجبال تداعت عند مصرعها دكا فلم يبق من أحجارها حجر

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن قوله: ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم، أي: لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على الدنيا وقصر الهمة والجهاد على تحصيلها، والاتكال عليها وترك المواساة منها، وجمعها من حيث تتهيأ من حل أو حرام، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء. فإن من كان هذا حاله يندم حين لا تنفعه الندامة، ويتمنى أن لو كان أفنى عمره في التقرب بالأعمال الصالحة والمواساة من المال إلى اللَّه تعالى»[1].

قال ابن جرير: «ثم أخبر -جل ثناؤه- عن ندمهم على أفعالهم السّيئة في الدنيا، وتلهُّفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم الندم، فقالّ -جل ثناؤه-: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ يعني: إذا رجت وزُلزلت زلزلة، وحرّكت تحريكا بعد تحريك»[2].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٧٤).

(٢) جامع البيان (٣٠/ ١٨٥).

قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «ومعنى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾﴾ قال ابن كثير: أي وجاء الرب -تبارك وتعالى- لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة بين يديه صفوفا صفوفا. وسبقه ابن جرير إلى ذلك وعضده بآثار عن ابن عباس وأبي هريرة والضحاك في نزوله تعالى من السماء يومئذ في ظلل من الغمام، والملائكة بين يديه، وإشراق الأرض بنور ربها. ومذهب الخلف في ذلك معروف، من جعل الكلام على حذف مضاف للتهويل، أي جاء أمره وقضاؤه، أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه.

قال الزمخشري: «مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم. انتهى.

وكأن الخلاف بين المذهبين لفظي، إذ مبنى مذهب الخلف على أن الظاهر غير مراد. ويعنون بالظاهر ما للخلق مما يستحيل على الخالق، فوجب تأويله. وأما السلف فينكرون أن معنى الظاهر منها ما للخلق؛ بل هو ما يتبادر إلى فهم المؤمن الذي يعلم أن ذاته تعالى كما أنها لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات؛ لأنها لا تكيف ولا تعلم بوجه ما، فهي حقيقة النسبة إليه سبحانه، على ما يليق به كالعلم والقدرة. لا تمثيل ولا تعطيل.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: واعلم أن من المتأخرين من يقول: إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، وهذا لفظ مجمل، فإن قوله: (ظاهرها غير مراد) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين، مثل أن يراد بكون اللَّه قبل وجه المصلي، أنه مستقر في الحائط الذي يصلي إليه، و(إن اللَّه معنا) ظاهره أنه إلى جانبنا، ونحو ذلك، فلا شك أن هذا غير

مراد، ومن قال: إن مذهب السلف أن هذا غير مراد، فقد أصاب في المعنى، لكن أخطأ في إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث، فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضع، اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس، فيكون القائل لذلك مصيبا بهذا الاعتبار، معذورا في هذا الإطلاق، فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس، وهو من الأمور النسبية. انتهى.

وقد بسط رَحِمَهُ اللَّهُ الكلام على ذلك في (الرسالة المدنية) وأوضح أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله. فإن كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض فتاويه: نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل، ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منا، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل، والله عند لسان كل قائل، ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب إلى هدم السنة والكتاب، واللحاق بمحرّفة أهل الكتاب، والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه أن القرآن مشتمل على المجاز، ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص في هذه المسألة. وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم كأبي بكر بن أبي داود، وأبي الحسن الخرزي، وأبي الفضل التميمي، وابن حامد فيما أظن وغيرهم إلى إنكار أن يكون في القرآن مجاز، وإنما دعاهم إلى ذلك ما رأوه من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز، فقابلوا الضلال والفساد بحسم الموادّ، وخيار الأمور التوسط والاقتصاد. انتهى»[1].

قال عطية سالم: «تقدم في سورة الحاقة أيضًا هذا السياق نفسه، بعد ذكر ثمود وعاد وفرعون في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾[2]. مما يبين معنى صفًّا صفًّا، أي على أرجائها صفًّا بعد صف.

(١) محاسن التأويل (١٧/ ١٥٠-١٥٢).

(٢) الحاقة: الآيات (١٣-١٧).

وتقدم للشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه- الإحالة على ما يفسرها في سورة الرحمن على قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾، وجاء ربك: من آيات الصفات.

مواضع البحث والنظر:

وتقدم للشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه- مرارًا في الأضواء في عدة محلات، وليعلم أنها والاستواء وحديث النزول والإتيان المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾[٢] سواء..

كما تقدم له -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه -في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾[٣]، وإن كان لم يتعرض لصفة المجيء بذاتها، إلاَّ أنه قال: إن جميع الصفات من باب واحد، أي: أنها ثابتة للّه تعالى على مبدأ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، على غير مثال للمخلوق، فثبت استواء يليق بجلاله على غير مثال للمخلوق، وكذلك هنا كما ثبت استواء ثبت مجيء ثبت نزول، والكل من باب ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾[٤]، أي: على ما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نحن كُلفنا بالإيمان، فعلينا أن نؤمن بصفات اللَّه على ما يليق باللَّه على مراد اللَّه، وليس علينا أن نكيف، إذ الكيف ممنوع على اللَّه سبحانه»[٥].

قال صديق حسن خان: «والحق أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة سلف الأمة وأئمتها وبعض الخلف فلم يتكلموا فيها، بل أجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه، ولا تأويل ولا تحريف ولا تعطيل، وقالوا: يلزمنا الإيمان بها وإجراؤها على ظاهرها، والتأويل ديدن المتكلمين ودين المتأخرين، وهو خلاف ما عليه جمهور السلف الصالحين»[٦].

---

(١) الرحمن: الآية (٣٣).

(٢) البقرة: الآية (٢١٠).

(٣) الأعراف: الآية (٥٤).

(٤) الشورى: الآية (١١).

(٥) تتمة أضواء البيان (٩/ ٢١٨-٢٢٠).

(٦) فتح البيان (١٥/ ٢٣٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في إثبات مجيء الله بعد شفاعة النبي ﷺ

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «كنا مع النبي ﷺ في دعوة، فرفعت إليه الذراع - وكانت تعجبه- فنهس منها نهسة، وقال: أنا سيد الناس يوم القيامة. هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه، إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس: أبوكم آدم: فيأتونه فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة. ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت. نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض؛ وسماك الله عبدًا شكورًا. أما ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله. نفسي نفسي، ائتوا النبي ﷺ. فيأتوني، فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه». قال محمد بن عبيد: لا أحفظ سائره[1].

★ غريب الحديث:

نهس: بنون مهملة، أي: أخذ منها بأطراف أسنانه، وفي رواية بالمعجمة: «نهش»، وهو قريب من المهملة.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث بيان وقت مجيء الله ﷻ المذكور في الآية يوم القيامة لفصل

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥-٤٣٦)، والبخاري (٦/ ٤٥٧-٤٥٨/ ٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤)، والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٩٩/ ٣٣٠٧) مختصرًا.

القضاء بين خلقه، وبيان أن ذلك يكون بعد «ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذلكم، حتى تنتهي النوبة إلى النبي ﷺ فيقول: «**أنا لها، أنا لها**». فيذهب فيشفع عند اللَّه تعالى في أن يأتي لفصل القضاء فيشفعه اللَّه تعالى في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان، فيجيء الرب -تبارك وتعالى- لفصل القضاء كما يشاء والملائكة يجيؤن بين يديه صفوفا صفوفا»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وجاء اللَّه يومئذ بجهنم. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: يومئذ يتذكر الإنسان تفريطه في الدنيا في طاعة اللَّه، وفيما يقرّب إليه من صالح الأعمال ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ يقول: من أيّ وجه له التذكير»[1].

قال ابن عاشور: «إنما اقتصر على ذكر جهنم لأن المقصود في هذه السورة وعيد الذين لم يتذكروا، وإلا فإن الجنة أيضًا مُحضرة يومئذ قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾[2]»[3].

قال الألوسي: «واستدل بالآية على أن التوبة من حيث هي توبة غير واجبة القبول عقلًا كما زعم المعتزلة، بناء على وجوب الأصلح عندهم، وقيل في توجيهه أنه لو وجب قبولها لوجب قبول هذا التذكر فإنه توبة، إذ هي كما بين في محله الندم على المعصية من حيث هي معصية، والعزم على أن لا يعود لها إذا قدر عليها، ولم يعتبر أحد في تعريفها كونها في الدنيا وإن كانت النافعة منها لا تكون إلا فيها؛ وهذا التذكر هو عين الندم المذكور، وقد صرح الضحاك كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم بأنه توبة، ولم تقبل لعدم ترتب المنفعة عليه التي هي من لوازم القبول، واعترض بأن المعتزلة إنما يقولون بوجوب قبولها بشرط عدم رفع التكاليف. وقيل: إن تذكره ليس من التوبة في شيء فإنه عالم بأنها إنما تكون في الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ ويعلم ما فيه مما تقدم من توجيه الاستدلال

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٨٨).

(٢) الشعراء: الآيتان (٩٠و٩١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٣٨).

فلا تغفل»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على عظم خلق جهنم أعاذنا اللَّه منها وصفة إتيانها

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[٢].

★ غريب الحديث:

زمام: الزمام لغة: ما يجعل في أنف البعير يشد عليه المقود.

يجرونها: بتشديد الراء: أي يسحبونها.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد:

«ما يدل على عظمة هذه النار، نسأل اللَّه أن يعيذنا والمسلمين منها ومن هول ذلك اليوم؛ لأن اللَّه تعالى جعل سبعين ألف ملك مع كل زمام من سبعين ألف زمام يجرون بها جهنم، والعياذ باللَّه، فهذا العدد الكبير من الملائكة يدل على أن الأمر عظيم، والخطر جسيم»[٣].

وقال ابن هبيرة: «الذي أراه في هذا الحديث من الفقه أن سبعين ألفًا في سبعين ألف أربعة آلاف ألف ألف، وتسعمائة ألف ألف، يجرونها إليهم من ثقلها وتغيظها، فهؤلاء الملائكة يكفون أذاها أن يصيب بريئًا أو يؤذي من ليس من أهلها»[٤].

قال القرطبي: «وهذه الأزمّة التي تساق بها جهنم تمنع من خروجها على أرض المحشر، فلا يخرج منها إلا الأعناق التي أمرت بأخذ من شاء اللَّه بأخذه..

(١) روح المعاني (٣٠/ ١٢٩) وانظر مفاتيح الغيب (٣١/ ١٧٥).
(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ٢١٨٤/ ٢٨٤٢)، والترمذي (٤/ ٦٠٤/ ٢٥٧٣).
(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٥/ ٣٤٧).
(٤) الإفصاح (٢/ ١٢٠).

وملائكتها كما وصفهم اللَّه غلاظ شداد.. وأما قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1] فالمراد رؤساؤهم.. وأما جملتهم فالعبارة عنهم كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[2] »[3].

وأما قوله: «يؤتى بجهنم»:

فقال القاري: «الباء للتعدية، أي: يؤتى بها من المكان الذي خلقها اللَّه تعالى فيه، ويدل عليه قوله تعالى فيه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ يومئذ: أي: يوم القيامة، وقت الندامة والحسرة والملامة»[4].

* * *

(١) المدثر: الآية (٣٠).
(٢) المدثر: الآية (٣١).
(٣) التذكرة (ص: ٣٨٨).
(٤) المرقاة (٩/ ٦٣٩).

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن تلهُّف ابن آدم يوم القيامة، وتندّمه على تفريطه في الصَّالِحات من الأعمال في الدنيا التي تورثه بقاء الأبد في نعيم لا انقطاع له، يا ليتني قدمت لحياتي في الدنيا من صالح الأعمال لحياتي هذه، التي لا موت بعدها، ما ينجيني من غضب اللَّه، ويوجب لي رضوانه»[1].

قال الألوسي: «وليس في هذا التمني شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله، وإنما يدل على اعتقاد كونه متمكنًا من تقديم الأعمال الصالحة، وأما أن ذلك بمحض قدرته تعالى، أو بخلق اللَّه ﷻ عند صرف قدرته الكاسبة إليه فكلا، وزعمه الزمخشري دليلًا على الاستقلال ورد به على المجبرة وهو عنده غير المعتزلة زعمًا منه المنافاة بين التمني والحجر، وقد علمت أنه لا دلالة على ذلك، وفي الكشف أن التمني قد يقع على المستحيل على أنه حالتئذ كالغريق، هذا وأهل الحق لا يقولون بسلب الاختيار بالكلية»[2].

قال الرازي: «استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقًا بقصدهم وإرادتهم، وأنهم ما كانوا محجوبين عن الطاعات مجترئين على المعاصي. وجوابه: أن فعلهم كان معلقًا بقصدهم، فقصدهم إن كان معلقًا بقصد آخر لزم التسلسل، وإن كان معلقًا بقصد اللَّه فقد بطل الاعتزال»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الحياة التي ينبغي السعي في تحصيلها وكمالها هي الحياة الآخرة

* عن محمد بن أبي عميرة ؓ، وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: «لو أن عبدًا

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٨٨-١٨٩).
(٢) روح المعاني (٣٠/ ١٢٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٧٦).

خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا في طاعة اللَّه، لحقره ذلك اليوم، ولودّ أنه يردّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب»[١].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث من الفوائد:

بيان أن العبد الصالح لو أنفق عمره كله في طاعة اللَّه ﷻ ثم جاء ربه يوم القيامة لاحتقر عمله ذلك اليوم[٢]، ولود أن يرد إلى الدنيا حتى يزداد من الطاعات[٣]، وذلك لما يرى وينكشف له عيانا من عظيم نواله وباهر عطائه[٤]، ولما يحصل له من الثواب العظيم والنعيم الذي لا ينقطع[٥].

قال السعدي: «في هذا دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها، وفي تتميم لذاتها هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء»[٦].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٥)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٢٤٩/ ٥٦٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٥) وقال: «رواه أحمد موقوفًا، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) مستفاد من كلام الهيثمي في ترجمته على الحديث في المجمع (١٠/ ٢٢٥) حيث قال: باب احتقار العبد عمله يوم القيامة.

(٣) مستفاد من كلام ابن كثير وتفسير: الآية (٨/ ٤٢٢).

(٤) قاله المناوي في الفيض (٥/ ٣٠٨).

(٥) قاله العزيزي في السراج المنير شرح الجامع الصغير (٣/ ١٩٦).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٢٦).

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وثاقه: الوثاق: ما يشد به المَوْثُوق. وأوثقته: شددته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي لا يعذب كعذاب اللَّه أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، والكناية ترجع إلى اللَّه تعالى، وهو قول ابن عباس والحسن.

وقرأ الكسائي «لا يعذب» «ولا يوثق» بفتح الذال والثاء، أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب اللَّه الكافر يومئذ، ولا يوثق كما يوثق الكافر. والمراد إبليس، لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عذابا، لأجل إجرامه، فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير.

وقيل: إنه أمية بن خلف، حكاه الفراء. يعني أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد، لتناهيه في كفره وعناده.

وقيل: أي لا يعذب مكانه أحد، فلا يؤخذ منه فداء. والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق، ومنه قول الشاعر:

وبعد عطائك المائة الرتاعا

وقيل: لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر. واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء، وتكون الهاء ضمير الكافر؛ لأن ذلك معروف: أنه لا يعذب أحد كعذاب الله»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٥٦-٥٧).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل الملائكة لأوليائه يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ يعني بالمطمئنة: التي اطمأنت إلى وعد اللّٰه الذي وعد أهل الإيمان به في الدنيا من الكرامة في الآخرة، فصدّقت بذلك.

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم نحو الذي قلنا فيه.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: المصدّقة الموقِنة بأن اللّٰه ربها، المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها.. وقيل: إن ذلك قول الملك للعبد عند خروج نفسه مبشرة برضا ربه عنه، وإعداده ما أعدّ له من الكرامة عنده..

وقال آخرون في ذلك بما حدثنا به أبو كريب، قال: ثنا ابن يمان، عن أُسامة بن زيد، عن أبيه في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ قال: بُشِّرت بالجنة عند الموت، ويوم الجمع، وعند البعث»[1].

وقال ابن القيم: «والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ويوم القيامة؛ فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا، وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى إن كانت مطمئنة إلى اللّٰه وفي جنته؛ كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك، وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلى اللّٰه ودخول الجنة، فأول ذلك عند الموت، وتمامه ونهايته: يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة»[2].

وقال: «فالنفس المطمئنة هي التي اطمأنت إلى ربها وسكنت إلى حبه،

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٩٠-١٩١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٧٩).

واطمأنت بذكره وأيقنت بوعده، ورضيت بقضائه، وهي ضد النفس الأمارة بالسوء، فلم تكن طمأنينتها بمجرد إسقاط تدبيرها؛ بل بالقيام بحقه والطمأنينة بحبه وبذكره»[١].

* * *

(١) طريق الهجرتين ص (٣٤١).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البلد

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ①﴾:

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة يتبادر من ظاهرها أنه تعالى أخبر بأنه لا يقسم بهذا البلد الذي هو مكة المكرمة- مع أنه تعالى أقسم به في قوله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③﴾[1]، والجواب من أربعة وجوه:

الأول -وعليه الجمهور-: أن «لا» هنا صلة على عادة العرب، فإنها ربما لفظت بلفظة «لا» من غير قصد معناها الأصلي؛ بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيده، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ⑨② أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾[2] يعني: أن تتبعني، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[3] أي: أن تسجد، على أحد القولين، ويدل له قوله في سورة ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[5]، أي: ليعلم أهل الكتاب، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[6]، أي: فوربك، وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي

---

(١) التين: الآية (٣).

(٢) طه: الآيتان (٩٢-٩٣).

(٣) الأعراف: الآية (١٢).

(٤) ص: الآية (٧٥).

(٥) الحديد: الآية (٢٩).

(٦) النساء: الآية (٦٥).

﴿ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾[١]، أي: والسيئة، وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[٢] على أحد القولين: وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣] على أحد القولين، وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[٤] على أحد الأقوال الماضية..

الوجه الثاني: أن لا نفي لكلام المشركين المكذبين للنبي ﷺ، وقوله: ﴿أُقْسِمُ﴾ إثبات مستأنف. وهذا القول وإن قال به كثير من العلماء فليس بوجيه عندي، لقوله تعالى في سورة القيامة: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[٥]؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ يدل على أنه لم يرد الإثبات المؤتنف بعد النفي بقوله: ﴿أُقْسِمُ﴾ والله تعالى أعلم.

الوجه الثالث: أنها حرف نفي أيضا، ووجهه: أن إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسم به، فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية، والمراد: أنه لا يعظم بالقسم، بل هو في نفسه عظيم، أقسم به أولا، وهذا القول ذكره صاحب الكشاف، وصاحب روح المعاني، ولا يخلوا عندي من بعد.

الوجه الرابع: أن اللام لام الابتداء أشبعت فتحتها، والعرب ربما أشبعت الفتحة بألف، والكسرة بياء، والضمة بواو، فمثاله في الفتحة قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

وتضحك مني شيخة عبشمية ... كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا

فالأصل كأن لم تر ولكن الفتحة أشبعت ويدل لهذا الوجه قراءة قنبل: لأقسم بهذا البلد، بلام الابتداء، وهو مروي عن البزي والحسن والعلم عند الله تعالى»[٦].

قال الرازي: «أجمع المفسرون على أن ذلك البلد هي مكة، واعلم أن فضل مكة معروف، فإن الله تعالى جعلها حرما آمنا، فقال في المسجد الذي فيها ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[٧] وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب فقال: ﴿وَحَيْثُ

---

(١) فصلت: الآية (٣٤).
(٢) الأنبياء: الآية (٩٥).
(٣) الأنعام: الآية (١٠٩).
(٤) الأنعام: الآية (١٥١).
(٥) القيامة: الآية (٢).
(٦) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٧٠-٢٧٥).
(٧) آل عمران: الآية (٩٧).

مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[١] وشرف مقام إبراهيم بقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[٢]، وأمر الناس بحج ذلك البيت فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[٣]، وقال في البيت: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[٤]، وقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾[٥]، وقال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٦]، وحرم فيه الصيد، وجعل البيت المعمور بإزائه، ودحيت الدنيا من تحته، فهذه الفضائل وأكثر منها لما اجتمعت في مكة لا جرم أقسم اللّه تعالى بها»[٧].

قال الشوكاني: «والمعنى: أقسم بالبلد الحرام الذي أنت حل فيه، وقال الواسطي: إن المراد بالبلد المدينة، وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضا مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية»[٨].

* * *

(١) البقرة: الآية (١٤٤).
(٢) البقرة: الآية (١٢٥).
(٣) آل عمران: الآية (٩٧).
(٤) البقرة: الآية (١٢٥).
(٥) الحج: الآية (٢٦).
(٦) الحج: الآية (٢٧).
(٧) التفسير الكبير (٣١/ ١٨٠).
(٨) فتح القدير (٥/ ٦٣٥-٦٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

حِلٌّ: أي: حالّ: بمعنى: ساكن ومقيم. وقيل: بمعنى حَلال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «وجملة قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ معترضة، والمعنى: أقسم بهذا البلد ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾، واعترض بينهما بهذه الجملة، والمعنى: ومن المكابد أن مثلك علي عظيم حرمته، يستحل بهذا البلد كما يستحل الصيد في غير الحرام، وقال الواحدي: الحل والحلال والمحل واحد، وهو ضد المحرم، أحل اللَّه لنبيه ﷺ مكة يوم الفتح حتى قاتل، وقد قال ﷺ: «**لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار**»[1] قال: والمعنى: أن اللَّه لما ذكر القسم بمكة دل ذلك على عظم قدرها مع كونها حراما، فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده، فهذا وعد من اللَّه تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلا. انتهى. فالمعنى: وأنت حل بهذا البلد في المستقبل كما في قوله في الزمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[2] قال مجاهد: المعنى ما صنعت فيه من شيء فأنت حل، قال قتادة: أنت حل له لست بآثم: يعني أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي. وقيل المعنى: لا أقسم بهذا البلد وأنت حال به ومقيم فيه وهو محلك، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى: لا أقسم به وأنت حال به، فأنت أحق بالإقسام بك، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفا لك وتعظيما لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) الزمر: الآية (٣٠).

فيه عظيما شريفا، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم، ولكن هذا إذا تقرر في لغة العرب أن لفظ حل يجيء بمعنى حل، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال»[1].

وقد تضمنت الآية -يقول ابن القيم-: «الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس، ونبيه إماما وهاديا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية»[2].

وقال البقاعي: «فقد وقع القسم بسيد البلاد وسيد العباد، ولكل جنس سيد، وهو انتهاؤه في الشرف، فأشرف الجماد الياقوت وهو سيده، ولو ارتفع عن هذا الشرف لصار نباتا ينمو كما في الجنة، وأشرف جنس النبات النخل، ولو ارتفع صار حيوانا يتحرك بالإرادة، فالحيوان سيد الأكوان، وسيده الإنسان، لما له من النطق والبيان، وسيد الإنسان الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، لما لهم من عظيم الوصلة بالملك الديان، وسيدهم أشرف الخلق ﷺ الذي ختموا به؛ لما فاق به من الفضائل التي أعلاها هذا القرآن، فسيد الخلق محمد بن عبد اللّه رسول اللّه ﷺ أشرف المكنات وسيدها»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دخول الحرم ومكة بغير إحرام، وقتل الزنادقة الذين حصل منهم السب والشتم للنبي ﷺ والردة بغير استتابة

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: **لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرم اللّه يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة اللّه إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولا يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة اللّه إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى**

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٣٦).

(٢) التبيان (ص: ٣٠).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٤٧-٤٨).

خلاها. قال العباس: يا رسول الله! إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال: قال: **إلا الإذخر**»[١].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول اللَّه ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: **اقتلوه**»[٢].

★ غريب الحديث:

يعضد شوكه: قيل: لا يفسد ولا يقطع، وإنما ذلك مثل، وأصله من عضد الرجل الرجل: إذا أصاب عضده بسوء، يقال في ذلك: عضد فلان فلانًا، فهو يعضده عضدًا.

لا يختلى خلاه: يعني بذلك: ولا يقطع خلاها، والخلى، مقصورًا: كل كلأ رطب، فإذا يبس كان حشيشًا، ولذلك تقول العرب: ألقت الناقة ولدها حشيشًا.

الإذخر: نبت معروف عند أهل مكة طيب الريح، له أصل مندفن، وقصبان دقاق ينبت في السهل والحزن. وأهل مكة يسقفون به البيوت بين الخشب، ويسدون به الخلل بين اللبنات في القبور، ويستعملونه بدلًا من الحلفاء في الوقود.

لقينهم: القين عند العرب كل ذي صناعة يعالجها بنفسه.

المغفر: المغفر بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الفاء: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، وقيل: هو رفرف البيضة، وقيل: هو ما يجعل من فضل دروع الحديد على الرأس مثل القلنسوة.

★ فوائد الحديث:

استدل بهذين الحديثين من ذهب من العلماء كمجاهد والحسن إلى أن معنى قوله

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥٩، ٣١٥، ٣١٦)، والبخاري (٤/ ٥٧/ ١٨٣٤)، ومسلم (٢/ ٩٨٦-٩٨٧/ ١٣٥٣)، وأبو داود (٢/ ٥٢١/ ٢٠١٨)، الترمذي (٤/ ١٢٦/ ١٥٩٠)، والنسائي (٥/ ٢٢٣-٢٢٥/ ٢٨٧٤-٢٨٧٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٩)، والبخاري (٤/ ٧٢/ ١٨٤٦)، ومسلم (٢/ ٩٨٩-٩٩٠/ ١٣٥٧)، وأبو داود (٣/ ١٣٤-١٣٥/ ٢٦٨٥)، والترمذي (٤/ ١٧٤- ١٧٥/ ١٦٩٣)، والنسائي (٥/ ٢٢١/ ٢٨٦٧)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٨/ ٢٨٠٥).

تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝﴾ أي: يحل لك أن تصنع فيه ما تشاء مما حرم على غيرك من قتل من أردت قتله، ومن دخولك مكة وهي حرم الله بغير إحرام، وغير ذلك مما لا يجوز لغيرك أن يفعله. ولهذا قال ابن جرير: «يقول: أنت به حلال تصنع فيه من قتل من أردت قتله، وأسر من أردت أسره، مطلق ذلك لك»[1].

وهذا التفسير هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد قال في تفسير الآية: «أحل له أن يصنع فيه ما يشاء»[2].

قال الرازي: «فإن قيل: هذه السورة مكية وقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ إخبار عن الحال، والواقعة التي ذكرتم إنما حدثت في آخر مدة هجرته إلى المدينة، فكيف الجمع بين الأمرين؟ قلنا قد يكون اللفظ للحال، والمعنى مستقبلا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾[3]، وكما إذا قلت لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو، وهذا من الله أحسن؛ لأن المستقبل عنده كالحاضر بسبب أنه لا يمنعه عن وعده مانع»[4].

قال الحافظ: «واستدل به على تحريم القتل والقتال بالحرم»[5].

قال ابن القيم: «فهذا تحريمٌ شرعي قَدَري سبق به قدرُه يومَ خلق هذا العالَم، ثم ظهر به على لسان خليله إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما كما في الصحيح عنه، أنه ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ إنَّ إبراهيم خليلك حرَّم مكة، وإنِّي أحرِّم المدينة**»[6]، فهذا إخبارٌ عن ظهور التحريم السابق يوم خلق السموات والأرض على لسان إبراهيم، ولهذا لم ينازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها»[7].

قال ابن بطال: «قال الطبري: فيه الإبانة عن أن مكة غير جائز استحلالها، ولا نصب الحرب عليها لقتال أهلها بعدما حرمها رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، وذلك أنه ﷺ أخبر حين فرغ من أمر المشركين بها أنها لله حرم، وأنها لم تحل

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٩٤).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٣) وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) الزمر (٣٠).

(٤) التفسير الكبير (٣١/ ١٨١).

(٥) فتح الباري (٤/ ٥٨).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٩)، البخاري (٦/ ٥٠٢/ ٣٣٦٧)، مسلم (٢/ ٩٩٣/ ١٣٦٥)، الترمذي (٥/ ٦٧٨/ ٣٩٢٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٧) زاد المعاد (٣/ ٤٤٢).

لأحد قبله، ولا تحل لأحد بعده بعد تلك الساعة التي حارب فيها المشركين، وأنها قد عادت حرمتها كما كانت، فكان معلومًا بقوله هذا أنها لا تحل لأحد بعده بالمعنى الذي أحلت له به، وذلك محاربة أهلها وقتالهم، وردهم عن دينهم»[١].

قال القرطبي: «وظاهر هذا أن حكم اللَّه تعالى كان في مكة ألا يقاتل أهلها، ويؤمن من استجار بها ولا يتعرض له، وهو أحد أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾[٢]، وهو قول قتادة وغيره، قالوا: هو آمن من الغارات، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾[٣]، وهو منقول من عادة العرب في احترامهم مكة، ومن كتب التواريخ، وقوله: «ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام» الضمير في «يحل» هو وهو يعود على القتال قطعًا كما يدل عليه مساقه، فيلزم منه تحريم القتال فيه مطلقًا، سواء كان ساكنه مستحقًا للقتال أو لم يكن، وهو الذي يدل عليه قوله ﷺ: «ولا يحل لأحد بعدي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار» وقوله: «فإن أحد ترخص بقتال رسول اللَّه فيها فقولوا: إن اللَّه أذن لرسوله ولم يأذن لكم» وهذا نص على الخصوصية، واعتذار منه عما أبيح له من ذلك، مع أن أهل مكة كانوا إذ ذاك مستحقين للقتل والقتال لصدهم عنه، وإخراجهم أهله منه، وكفرهم باللَّه تعالى وبرسوله، وهذا هو الذي فهمه أبو شريح من هذا الحديث، وقد قال بذلك غير واحد من أهل العلم»[٤].

قال الماوردي: «فإن بغوا على أهل العدل، فقد ذهب بعض الفقهاء إلى تحريم قتالهم مع بغيهم، ويضيق عليهم حتى يرجعوا عن بغيهم ويدخلوا في أحكام أهل العدل»[٥].

قال ابن بطال: «قال الطبري: . . يجب على الإمام الاحتيال لإخراجهم من الحرم حتى يقيم عليهم ما أوجبه اللَّه فيهم، والحيلة في ذلك حصار مانعيهم، والحول بينهم وبين وصول الطعام إليهم، وما يضطرون مع فقده إلى إمكان السلطان منهم، وممن لزمه حد اللَّه تعالى، حتى يخرج من الحرم ويقام عليه»[٦].

---

(١) شرح صحيح البخاري (٤/ ٥٠٤-٥٠٥).
(٢) آل عمران: الآية (٩٧).
(٣) العنكبوت: الآية (٦٧).
(٤) المفهم (٣/ ٤٦٩-٤٧٠).
(٥) الأحكام السلطانية (ص: ٢٨٩).
(٦) شرح صحيح البخاري (٤/ ٥٠٥).

قال الماوردي: «والذي عليه أكثر الفقهاء أنهم يقاتلون على بغيهم إذا لم يمكن ردهم عن البغي إلا بقتال؛ لأن قتال أهل البغي من حقوق اللَّه تعالى التي لا يجوز أن تضاع، ولأن تكون محفوظة في حرمه أولى من أن تكون مضاعفة فيه»[1].

قال النووي: «هذا الذي نقله عن جمهور الفقهاء هو الصواب، وقد نص عليه الشافعي»[2].

إلا أن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ جنح إلى المنع فقال: «الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تُقاتَل، لاسيما إن كان لها تأويل، كما امتنع أهلُ مكة من مبايعة يزيد، وبايعوا ابنَ الزبير، فلم يكن قِتالهُم، ونصبُ المنجنيق عليهم، وإحلالُ حَرَمِ اللَّه جائزًا بالنص والإجماع، وإنما خالف في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشيعتُه، وعارض نصَّ رسول اللَّه ﷺ برأيه وهواه، فقال: إنَّ الحرم لا يعيذ عاصيًا، فيقال له: هو لا يعيذ عاصيًا مِن عذاب اللَّه، ولو لم يُعِذْه من سفك دمه لم يكن حرمًا بالنسبة إلى الآدميين، وكان حرمًا بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم، وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم صلوات اللَّه عليه وسلامه، وقام الإسلام على ذلك، وإنما لم يُعِذ مقيس بن صُبابة، وابن خَطَل، ومَن سُمِّي معهما؛ لأنه في تلك الساعة لم يكن حَرَمًا، بل حِلًّا، فلما انقضت ساعة الحرب، عاد إلى ما وضع عليه يوم خلق اللَّه السموات والأرض. وكانت العربُ في جاهليتها يرى الرجلُ قاتِلَ أبيه، أو ابنه في الحرم فلا يَهيجُه، وكان ذلك بينهم خاصية الحرم التي صار بها حرمًا، ثم جاء الإسلام، فأكَّد ذلك وقوَّاه، وعلم النبيُّ ﷺ أن من الأمّة من يتأسَّى به في إحلاله بالقتال والقتل، فقطع الإلحاق، وقال لأصحابه: «فإنْ أحدٌ ترخَّص لقتال رسول اللَّه ﷺ، فقولوا: إنّ اللَّه أذن لرسوله، ولم يَأْذَنْ لك»، وعلى هذا فمن أتى حدًا أو قصاصًا خارجَ الحرم يوجب القتل، ثم لجأ إليه، لم يَجُزْ إقامتُه عليه فيه، وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو وجدتُ فيه قاتِلَ الخطاب ما مَسِسْتُه حتى يخرُجَ منه. وذُكِر عن عبد اللَّه بن عمر أنه قال: لو لقيتُ فيه قاتِلَ عمر ما نَدَهْتُه، وعن ابن عباس، أنه قال: لو لقيتُ قاتِلَ أبي في الحرم ما هِجتُه حتى يخرُجَ منه، وهذا قولُ جمهورِ التابعين ومَنْ بعدهم؛ بل لا يُحفظ عن تابعيّ

(١) الأحكام السلطانية (ص: ٢٨٩).

(٢) شرح صحيح مسلم (٩/ ١٠٦).

ولا صحابي خلافُه، وإليه ذهب أبو حنيفة ومَنْ وافقه من أهل العراق، والإمامُ أحمد ومَنْ وافقه مِن أهل الحديث.

وذهب مالك والشافعي إلى أنه يُستوفى منه في الحرم، كما يُستوفى منه في الحِلِّ، وهو اختيار ابن المنذر، واحتج لهذا القول بعموم النصوص الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل مكان وزمان، وبأن النبي ﷺ قتل ابن خَطَل، وهو متعلِّق بأستار الكعبة، وبما يُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الحَرَمَ لا يعيذُ عاصيًا ولا فارًّا بدمٍ ولا بِخَرْبَةٍ**»[(١)]، وبأنه لو كان الحدودُ والقِصاصُ فيما دونَ النفسِ، لم يُعِذْهُ الحرم، ولم يمنعه من إقامته عليه، وبأنه لو أتى فيه بما يُوجب حدًا أو قِصاصًا، لم يعذه الحرم، ولم يمنع من إقامته عليه، فكذلك إذا أتاه خارِجَه، ثم لجأ إليه، إذ كونُه حَرَمًا بالنسبة إلى عصمته، لا يختلف بين الأمرين، وبأنه حيوان أُبيح قتلُه لِفساده، فلم يفترق الحال بين قتله لاجئًا إلى الحرم، وبين كونه قد أوجب ما أُبيح قتلُه فيه، كالحيَّة، والحِدَأةِ، والكلب العَقور، ولأن النبي ﷺ قال: «خَمْسٌ فواسقُ يُقتلنَ في الحِلِّ والحَرَم»[(٢)]، فنبَّه بقتلهن في الحِلِّ والحَرَم على العلّة، وهي فسقُهن، ولم يجعل التجاءهن إلى الحرم مانعًا من قتلهن، وكذلك فاسق بني آدم الذي قد استوجب القتل.

قال الأوّلون: ليس في هذا ما يعارِضُ ما ذكرنا من الأدلة ولاسيما قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾[(٣)]، وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخُلْف في خبره تعالى، وإما خبرٌ عن شرعه ودينه الذي شرعه في حرمه، وإما إخبارٌ عن الأمر المعهود المستمِرِّ في حرمه في الجاهلية والإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[(٥)]، وما عدا هذا من الأقوال الباطلة، فلا يُلتفت إليه، كقول بعضهم: ومَن دخله كان آمنًا مِن

---

(١) هذا من قول عمرو بن سعيد الأشدق وليس من كلام النبي ﷺ كما هو واضح عند أحمد (٦/ ٣٨٥)، والبخاري (١/ ٢٦٣/ ١٠٤)، مسلم (٢/ ٩٨٧-٩٨٨/ ١٣٥٤)، والترمذي (٣/ ١٧٣-١٧٤/ ٨٠٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٩٧)، البخاري (٦/ ٤٣٧/ ٣٣١٤)، مسلم (٢/ ٨٥٦/ ١١٩٨[٦٧])، الترمذي (٣/ ١٩٧/ ٨٣٧)، النسائي (٥/ ٢٢٨-٢٢٩/ ٢٨٨٢)، ابن ماجه (٢/ ١٠٣١/ ٣٠٨٧).

(٣) آل عمران: الآية (٩٧).

(٤) العنكبوت: الآية (٦٧).

(٥) القصص: الآية (٥٧).

النار، وقول بعضهم: كان آمنًا مِن الموت على غير الإسلام، ونحو ذلك، فكم ممن دخله، وهو في قعر الجحيم. .

وأما قتلُ ابن خَطَل، فقد تقدَّم أنه كان في وقت الحِلِّ، والنبي ﷺ قطع الإلحاق، ونصَّ على أن ذلك مِن خصائصه، وقوله ﷺ: «وإنّما أُحِلَّت لي ساعةً من نهار» صريح في أنه إنما أُحِلَّ له سفكُ دمٍ حلال في غير الحرم في تلك الساعة خاصة، إذ لو كان حلالًا في كل وقت، لم يختصَّ بتلك الساعة، وهذا صريحٌ في أن الدم الحلال في غيرها حرام فيها، فيما عدا تلك الساعة، وأما قوله: «الحَرَمُ لا يعيذ عاصيًا» فهو مِن كلام الفاسِق عمرو بن سعيد الأشدق، يردُّ به حديثَ رسولِ اللَّه ﷺ حين روى له أبو شُريح الكعبي هذا الحديث، كما جاء مبينًا في الصحيح[1]، فكيف يُقَدَّمُ على قول رسول اللَّه ﷺ؟!

وأما قولُكم: لو كان الحدُّ والقِصاصُ فيما دون النفس، لم يُعِذْهُ الحرمُ منه، فهذه المسألةُ فيها قولان للعلماء، وهما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد، فمَن منع الاستيفاء نظر إلى عموم الأدلة العاصِمة بالنسبة إلى النفس وما دونها، ومَن فرَّق، قال: سفكُ الدم إنما ينصِرفُ إلى القتل، ولا يلزمُ من تحريمه في الحرم تحريمُ ما دونَه؛ لأن حُرمة النفس أعظم، والانتهاك بالقتل أشدُّ، قالوا: ولأن الحد بالجَلْد أو القطع يجري مجرى التأديب، فلم يمنع منه كتأديب السّيّدِ عبدَه، وظاهرُ هذا المذهب أنه لا فرق بين النفس وما دُونها في ذلك، قال أبو بكر: هذه مسألة وجدتها لحنبل عن عمِّه، أن الحدود كلَّها تُقام في الحرم إلا القتل، قال: والعمل على أن كل جانٍ دخل الحرمَ لم يقَم عليه الحدُّ حتى يخرُجَ منه، قالوا: وحينئذ فنجيبُكم بالجواب المركَّب، وهو أنه إن كان بين النفس وما دونها في ذلك فرق مؤثر، بطل الإلزام، وإن لم يكن بينهما فرق مؤثر، سوَّينا بينهما في الحكم، وبطل الاعتراض، فتحقق بطلانُه على التقديرين.

قالوا: وأما قولكم: إن الحرمَ لا يُعيذ مَن انتهكَ فيه الحُرمةَ إذ أتى فيه ما يُوجب الحد، فكذلك اللاجئ إليه، فهو جمع بينَ ما فَرّق اللهُ ورسوله والصحابةُ بينهما،

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٨٥)، البخاري (١/ ٢٦٣/ ١٠٤)، مسلم (٢/ ٩٨٧/ ١٣٥٤)، الترمذي (٣/ ١٧٣/ ٨٠٩)، النسائي (٥/ ٢٢٥-٢٢٦/ ٢٨٧٦).

فروى الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: «مَن سَرق أو قتل في الحِلِّ ثُمَّ دَخَلَ الحَرَمَ، فإنَّه لا يجالَس ولا يكلَّم، ولا يُؤوى، ولكنه يُناشَد حتى يَخرُج، فيؤخذ، فيقام عليه الحَدُّ، وإنْ سَرق أو قَتل في الحَرَم، أُقيم عليه في الحَرَم». وذكر الأثرم، عن ابن عباس أيضًا: من أحدث حدثًا في الحَرَم، أُقِيمَ عليه ما أَحدث فيه من شيء، وقد أمر اللَّه سبحانه بقتل مَنْ قاتل في الحرم، فقال: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ﴾[1]. والفرق بين اللاجئ والمتهتك فيه من وجوه:

أحدها: أن الجاني فيه هاتكٌ لحُرمته بإقدامه على الجناية فيه، بخلاف مَن جنى خارجه، ثم لجأ إليه، فإنّه معظِّمٌ لحُرمته مستشعِرٌ بها بالتجائه إليه، فقياس أحدهما على الآخر باطلٌ.

الثاني: أن الجاني فيه بمنزلة المفسد الجاني على بساطِ الملك في داره وحَرَمه، ومَنْ جنى خارِجَه، ثم لجأ إليه، فإنّه بمنزلة من جنى خارجَ بِساط السلطان وحَرَمه، ثم دخل إلى حَرَمه مستجيرًا.

الثالث: أن الجاني في الحرم قد انتهك حُرمة اللَّه سبحانه، وحُرمة بيته وحَرَمه، فهو هاتِك لحُرمتين بخلاف غيره.

الرابع: أنه لو لم يُقم الحدُّ على الجُنَاة في الحرم، لعمّ الفسادُ، وعَظُمَ الشّرّ في حرم اللَّه، فإن أهل الحرم كغيرهم في الحاجة إلى صيانة نفوسهم، وأموالهم، وأعراضهم، ولو لم يُشرع الحد في حقِّ من ارتكب الجرائم في الحرم، لتعطلت حدودُ اللَّه، وعمّ الضررُ للحرم وأهله.

والخامس: أن اللاجئ إلى الحرم بمنزلة التائب المتنصل اللاجئ إلى بيت الرب تعالى، المتعلق بأستاره، فلا يُناسب حالُه ولا حالُ بيته وحرمه أن يُهاج، بخلاف المُقْدِم على انتهاك حرمته، فظهر سرّ الفرق، وتبيَّن أن ما قاله ابن عباس هو محضُ الفقه.

وأما قولكم: إنه حيوان مفسد، فأُبيحَ قتلُه في الحِلِّ والحَرَم كالكلب العقور،

(١) البقرة: الآية (١٩١).

فلا يصحّ القياسُ، فإن الكلب العقور طبعُه الأذى، فلم يُحرمه الحرمُ ليدفع أذاه عن أهله، وأما الآدمي فالأصل فيه الحُرْمةُ، وحُرْمتُه عظيمة، وإنما أُبيحَ لعارض، فأشبه الصائلَ من الحيوانات المباحة من المأكولات، فإن الحرم يعصمها.

وأيضًا فإن حاجةَ أهل الحرم إلى قتل الكلب العقور والحيَّة والحِدَأة، كحاجة أهل الحِلِّ سواء، فلو أعاذها الحرم لَعظُمَ عليهم الضررُ بها»[١].

قال ابن بطال: «إن قال قائل: قد رأينا الحجاج وغيره قاتل مكة، ونصب الحرب عليها، وأن القرمطي الكافر قلع الحجر الأسود منها وأمسكه سبعة عشر عامًا، فما وجه ذلك؟ قيل له: معناه بين بحمد اللَّه، وذلك أن الحجاج وكل من نصب الحرب عليها بعد الرسول ﷺ لم يكن ذلك مباحًا، ولا حلالًا، كما حل للنبي ﵇، وليس قول الرسول ﷺ: «وقد عادت حرمتها كما كانت، ولا يحل القتال بها لأحد بعدي» أن هذا لا يقع ولا يكون، وقد يرد ذلك، وقد أنذرنا ﵇ أن ذا السويقتين من الحبشة يهدم الكعبة حجرًا حجرًا، وإنما معناه أن قتالها ونصب الحرب عليها حرام بعد النبي على كل أحد إلى يوم القيامة، وأن من استباح ذلك فقد ركب ذنبًا عظيمًا، واستحل محرما شنيعًا»[٢].

قال أبو عمر بن عبد البر ﵀: «وفي هذا الحديث [أي حديث أنس] من الفقه دخول مكة بغير إحرام، وبالسلاح وإظهار السلاح فيها، ولكن هذا عند جميع العلماء منسوخ ومخصوص بقوله ﷺ: «**إن اللَّه حرم مكة يوم خلق السموات والأرض لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار**» يعني يوم الفتح»[٣].

وقال أيضًا: «وكان ابن شهاب ﵀ يقول: لا بأس أن تدخل مكة بغير إحرام، وخالفه في ذلك أكثر العلماء، وما أعلم أحدًا تابعه على ذلك إلا الحسن البصري، روى خالد بن عبد اللَّه عن أشعث عن الحسن أنه لم يكن يرى بأسًا أن يدخل الرجل مكة بغير إحرام، وإلى هذا ذهب داود بن علي وأصحابه، وذكروا قول ابن شهاب

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٤٣-٤٤٩).
(٢) شرح صحيح البخاري (٤/ ٥٠٥).
(٣) التمهيد (فتح البر ٨/ ١٨٠).

والحسن، وأن ابن عمر رجع من طريقه فدخلها بغير إحرام، واحتجوا بأن موجب الإحرام موجب حج أو عمرة لم يوجبها اللَّه ولا رسوله، ولا اتفق المسلمون على ذلك، وقال الشافعي: من دخل مكة خائفًا لحرب، أو خائفًا من سلطان، أو ممن لا يقدر على دفعه جاز له دخول مكة بغير إحرام؛ لأنه في معنى المحصر، وقد روي عن الشافعي مثل قول ابن شهاب وداود في هذا الباب، والمشهور عنه أنها لا تدخل إلا بإحرام إلا ما ذكرت عنه، وقال ابن وهب عن مالك: لست آخذًا بقول ابن شهاب في دخول الإنسان مكة بغير إحرام، وكره ذلك وقال: إنما يكون ذلك على مثل ما عمل عبد اللَّه بن عمر من القرب إلا رجلًا يأتي بالفاكهة من الطائف، أو ينقل الحطب يبيعه، فلا أرى بذلك بأسًا، قيل له: ورجوع ابن عمر من قديد إلى مكة بغير إحرام؟ فقال: ذلك أنه جاءه خبر من جيوش المدينة. وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي: كره أكثر أهل العلم أن يدخل أحد مكة إلا محرمًا، ورخصوا للحطابين ومن أشبههم ممن يكثر اختلافه إلى مكة، ورخص أيضًا لمن خرج من مكة يريد بلدة ثم بدا له أن يرجع، كما صنع عبد اللَّه بن عمر، قال: وأما من نزع من موضعه إلى مكة في تجارة أو غيرها، فلا ينبغي أن يدخلها إلا محرمًا؛ لأنه يأتي الحرم، فينبغي له أن يحرم لدخوله إياه، قال: ومما يؤكد ذلك أن رجلًا لو جعل على نفسه مشيًا إلى مكة، لوجب عليه أن يدخلها محرمًا بحج أو عمرة، قال: وأما حديث الزهري عن أنس: «أن رسول اللَّه ﷺ دخل عام الفتح مكة وعلى رأسه المغفر» فإن هذه -واللَّه أعلم- حال خصوص؛ لأنه أحلت له مكة بعض ذلك اليوم، فلم يكن لإحرامه وجه؛ لأنها كانت حلالًا له ساعة، وإنما يستحب أن لا يدخلها إلا محرمًا من أجل أنها حرم»[1].

وقال أيضًا: «لا أعلم خلافًا بين فقهاء الأمصار في الحطابين، ومن يدمن الاختلاف إلى مكة ويكثره في اليوم والليلة، أنهم لا يؤمرون بذلك؛ لما عليهم فيه من المشقة، ولو ألزموا الإحرام لكان عليهم في اليوم الواحد ربما عمر كثيرة، وقد دخل عبد اللَّه بن عمر مكة بغير إحرام؛ وذلك أنه خرج عنها ثم خوف، فانصرف بغير إحرام، فمثل هذا وشبهه رخص له»[2].

---

(١) التمهيد (فتح البر ٨/ ١٨١-١٨٢).

(٢) التمهيد (فتح البر ٨/ ١٨٢).

* عن أبي عثمان النهدي: «أن أبا برزة قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «هو أصح ما ورد في تعيين قاتله، وبه جزم البلاذري وغيره من أهل العلم بالأخبار، وتحمل بقية الروايات على إنهم ابتدروا قتله، فكان المباشر له منهم أبو برزة، ويحتمل أن يكون غيره شاركه فيه»[٢].

* * *

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة (٧/ ٤٠٥/ ٣٦٩١٥)، وقال الحافظ في «الفتح» (٤/ ٧٥): إسناده صحيح مع إرساله، وله شاهد عند ابن المبارك في «البر والصلة» من حديث أبي برزة نفسه، ورواه أحمد من وجه آخر، اهـ.
قلت: وهو في المسند (٤/ ٤٢٣و٤٢٤).

(٢) فتح الباري (٤/ ٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح: ﴿وَوَالِدٍ﴾ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي وما نسل من ولده، أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق اللَّه تعالى على وجه الأرض، لما فيهم من التبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى اللَّه تعالى. وقيل: هو إقسام بآدم والصالحين من ذريته، وأما غير الصالحين فكأنهم بهائم. وقيل: الوالد إبراهيم، وما ولد ذريته، قاله أبو عمران الجوني. ثم يحتمل أنه يريد جميع ذريته، ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذريته. قال الفراء: وصلحت -ما- للناس، كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾[1]، وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾[2]، وهو الخالق للذكر والأنثى. وقيل: (ما) مع ما بعدها في موضع المصدر، أي ووالد وولادته. كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾[3] قال عكرمة وسعيد بن جبير: ﴿وَوَالِدٍ﴾ يعني الذي يولد له، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ يعني العاقر الذي لا يولد له، وقاله ابن عباس. و«ما» على هذا نفي، وهو بعيد. ولا يصح إلا بإضمار الموصول، أي ووالد والذي ما ولد، وذلك لا يجوز عند البصريين. وقيل: هو عموم في كل والد وكل مولود، قاله عطية العوفي. وروي معناه عن ابن عباس أيضا. وهو اختيار الطبري»[4].

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا إن اللَّه أقسم بكل والد وولده، لأن اللَّه عم كل والد وما ولد، وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل، ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومه كما عمه»[5].

---

(١) النساء: الآية (٣).
(٢) الليل: الآية (٣).
(٣) الشمس: الآية (٥).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦١-٦٢).
(٥) جامع البيان (٣٠/ ١٩٦).

قال البقاعي: «فدخل كما مضى النبي ﷺ فصار مقسما به مرارا، وكذا دخل أبواه إبراهيم وولده إسماعيل -عليهما الصلاة والسلام-، وما صنعا وما صنع الله لهما بذلك البلد، ومعلوم أن ذكر الصنعة تنبيه على صانعها، فالمقصود القسم بمن جعل البلد على ما هو عليه من الجلال، وخص النبي ﷺ بما خصه به من الإرسال، وفاوت بين المتوالدين في الخصال، من النقص والكمال وسائر الأحوال، تنبيها على ما له من الكمال، بالجلال والجمال، ولعله خص هذه الأشياء بالإقسام تسلية للنبي ﷺ، وتثبيتا له على احتمال الأذى، إشارة إلى أن من كان قد حكم عليه بأنه لا يزال في نكد، كان الذي ينبغي له أن يختار أن يكون ذلك النكد فيما يرضي الله ﷻ، وذلك لأن النبي ﷺ كان في مكة المشرفة في أعظم شدة مما يعانيه من أذى الكفار، في نفسه وأصحابه ﭫ لعلو مقامه، فإن شدة البلاء للأمثل فالأمثل، كما مضى مع أمره ﷺ بالصبر والصفح، وكل والد ومولود في شدة بالوالدية والمولودية، وغير ذلك مما لا يحصى من الأنكاد البشرية»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٢/٤٨-٤٩).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

كبد: الكبد: الشدة والمشقة. ومنه: فلان يكابد مَعِيشَتَهُ: أي: يقاسي منها ضيقة وشدة. قال لبيد:

يَـا عَـيْـنُ هـلا بـكـيـتِ أَرْبَـدَ إِذ ... قـمـنـا وقـام الـخـصـوم فـي كَـبَـدِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «والإنسان يجوز أن يراد به الجنس، وهو الأظهر وقول جمهور المفسرين، فالتعريف فيه تعريف الجنس، ويكون المراد به خصوص أهل الشرك؛ لأن قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ إلى آخر الآيات، لا يليق إلا بأحوال غير المؤمنين، فالعموم عموم عرفي، أي الإنسان في عرف الناس يومئذ، ولم يكن المسلمون إلا نفرا قليلا، ولذلك كثر في القرآن إطلاق الإنسان مرادا به الكافرون من الناس. ويجوز أن يراد به إنسان معين، فالتعريف تعريف العهد، فعن الكلبي أنه أبو الأشد، ويقال: أبو الأشدَّين، واسمه أسَيد بن كلدة الجمحي، كان معروفا بالقوة والشدة، يجعل الأديم العكاظي تحت قدميه، فيقول من أزالني فله كذا، فيجذبه عشرة رجال حتى يمزق الأديم ولا تزول قدماه، وكان شديد الكفر والعداوة للنبي ﷺ، فنزل فيه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ وقيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل هو أبو جهل. وعن مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، زعم أنه أنفق مالا على إفساد أمر النبي ﷺ. وقيل: هو عمرو بن عبد ودّ، الذي اقتحم الخندق في يوم الأحزاب ليدخل المدينة، فقتله علي بن أبي طالب خلف الخندق. وليس لهذه الأقوال شاهد من النقل الصحيح ولا يلائمها القسم ولا السياق»[1].

(١) التحرير والتنوير(٣٠/ ٣٥٠).

قال ابن القيم: «وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة. قال ابن عباس، في رواية مقسم: منتصبا على قدميه. وهذا قول أبي صالح، والضحاك، وإبراهيم، وعكرمة، وعبد اللَّه بن شداد، قال المنذر: سمعت أبا طالب يقول: الكبد: الاستواء والاستقامة. وفسر بالنصب. هذا قول مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ورواية عن علي، وعن ابن عباس. قال الحسن: لم يخلق اللَّه خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم. وقال سعيد بن أبي الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال قتادة يكابد أمر الدنيا والآخرة، فلا تلقاه إلا في مشقة. وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: يعني حمله وولادته، ورضاعه، وفصاله، ونبت أسنانه وحياته، ومعاشه، ومماته، كل ذلك شدة. قال مجاهد: حملته أمه كرها، ووضعته كرها، ومعيشته في شدة، فهو يكابد ذلك، وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر، وهي: معاناة شدته ومشقته»[1].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: أول ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قمط قماطا، وشد رباطا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدين، ووجع السن، وألم الأذن. ويكابد محنًا في المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على اللَّه، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار؛ قال اللَّه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾، فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد. ودل هذا على أن له خالقًا دبره، وقضى عليه بهذه الأحوال؛ فليمتثل أمره»[2].

---

(١) التبيان (ص: ٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٢-٦٣).

«ويمكن أن يكون هذا اللفظ محمولا على ما ذكر، وهو الراجح»[(١)].

قال الرازي: «وعندي فيه وجه آخر، وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة البتة، بل ذاك يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عن ألم الجوع، وما يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد، فليس للإنسان إلا ألم أو خلاص عن ألم، وانتقال إلى آخر، فهذا معنى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ ويظهر منه أنه لا بد للإنسان من البعث والقيامة، لأن الحكيم الذي دبر خلقة الإنسان إن كان مطلوبه منه أن يتألم، فهذا لا يليق بالرحمة، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ، ففي تركه على العدم كفاية في هذا المطلوب، وإن كان مطلوبه أن يلتذ، فقد بينا أنه ليس في هذه الحياة لذة، وأنه خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة، فإذن لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، لتكون تلك الدار دار السعادات واللذات والكرامات»[(٢)].

قال القاسمي: «وفيه تسلية للنبي صلوات اللّه عليه مما كان يكابده من قريش، من جهة أن الإنسان لم يخلق للراحة في الدنيا، وأن كل من كان أعظم فهو أشد نصبا»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ قال: «في شدة خلق في ولادته، ونبت أسنانه، وسوره، ومعيشته، وختانه»[(٤)].

* * *

(١) أفاده الرازي في التفسير الكبير (٣١/ ١٨٢).

(٢) التفسير الكبير (٣١/ ١٨٢-١٨٣).

(٣) محاسن التأويل (١٧/ ١٥٧).

(٤) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ١٩٧)، والحاكم (٢/ ٥٢٣) واللفظ له، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾

★ غريب الآية:

لبدا: أي: كثيرًا. من تَلَبَّدَ الشيء: إذا تراكم بعضُه على بعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم أنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور. فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادرا في نفسه، فهذا برهان مستقل بنفسه، مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾، وبقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ فيحصي عليه ما عمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه؟ ثم أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه، إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها، ووضعه مواضعه، لم يكن ذلك إهلاكا له، بل تقربا به إلى اللَّه، وتوصلا به إلى رضاه وثوابه. وذلك ليس بإهلاك له. فأنكر سبحانه افتخاره، وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له. ثم وبخه بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ وأتى ههنا بلم، الدالة على المضي، في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ فإن ذلك في الماضي. أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟»[1].

قال السعدي: «ومع ذلك فإنه لم يشكر اللَّه على هذه النعمة العظيمة، بل بطر بالعافية وتجبر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه، أن هذه الحال ستدوم له، وأن

(١) التبيان (ص: ٣٠).

سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه، حيث: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ أي: كثيرا، بعضه فوق بعض. وسمى اللَّه الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكا، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسارة، والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة اللَّه، في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع اللَّه، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق. قال اللَّه متوعدا هذا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧﴾ أي: أيظن في فعله هذا أن اللَّه لا يراه ولا يحاسبه على الصغير والكبير؟ بل قد رآه اللَّه وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر»[1].

قال شيخ الإسلام: «والقدرة والعلم بهما يحصل الجزاء، بل بهما يحصل كل شيء، وإخباره تعالى بأنه قادر وأنه عالم يتضمن الوعيد والتهديد، فإنه إذا كان قادرا أمكن الجزاء، وإذا كان عالما أمكن الجزاء، فبالعدل يقدر ما عمل، ومن لم يكن قادرا عالما لم يمكنه الجزاء، فإن العاجز عن الشخص لا يمكنه جزاؤه، والذي له قدرة لكن لا يرى ما فعل أن جازاه بلا علم كان ظالما معتديا، فلا بد له من العلم بما فعل، ولهذا كان الحاكم يحتاج إلى الشهود، والملوك يحتاجون إلى أهل الديوان يخبرونهم بمقادير الأموال وغيرها، ليكون عملهم بعلم، ذكر أنه خلق الإنسان في كبد، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد؟ ولن لنفي المستقبل، يقول: أيحسب أن لن يقدر عليه في المستقبل أحد. ولهذا كان ذاك الخائف من ربه، الذي أمر أهله بإحراقه وذرايته يعلم أن الجزاء متعلق بالقدرة، فقال: «لئن قدر اللَّه علي ليعذبني عذابا ما عذبه أحد من العالمين»[2]. وهو سبحانه يهدد بالقدرة لكون المقدور يقترن بها، كما يهدد بالعلم لكون الجزاء يقع معه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[3]، فقال النبي ﷺ لما نزلت: «**أعوذ بوجهك، أعوذ بوجهك**». ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٢٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٩)، البخاري (٦/ ٦٣٨/ ٣٤٨١)، مسلم (٤/ ٢٢١٠/ ٢٧٥٦)، النسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٨)، ابن ماجه (٢/ ١٤٢١/ ٤٢٥٥).

(٣) الأنعام: الآية (٦٥).

فقال: «**هاتان أهون**»[(١)] وذلك لأنه تكلم في ذكر القدرة ونوع المقدور، كما يقول القائل: أين تهرب مني؟ أنا أقدر أن أمسكك. وكذلك في العلم بالرؤية، كقوله هنا: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾، وقوله تعالى في الذي ينهى عبدا إذا صلى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾[(٥)]، وأمثال ذلك. فذكر رؤيته الأعمال وعلمه بها وإحصائه لها يتضمن الوعيد بالجزاء عليها، كما يقول القائل: قد علمت ما فعلت، وقد جاءتني أخبارك كلها وأمثال ذلك، فليس المراد الإخبار بقدرة مجردة، وعلم مجرد، لكن بقدرة وعلم يقترن بهما الجزاء، إذ كان مع حصول العلم والقدرة يمكن الجزاء، ويبقى موقوفا على مشيئة المجازي، لا يحتاج معه إلى شيء حينئذ، فيجب طلب النجاة بالاستغفار والتوبة إليه، وعمل الحسنات التي تمحو السيئات»[(٦)].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٩)، البخاري (٨/ ٣٧٠-٣٧١/ ٤٦٢٨)، الترمذي (٥/ ٢٤٤/ ٣٠٦٥)، النسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٠/ ١١١٦٤)، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) العلق: الآية (١٤).

(٣) التوبة: الآية (١٠٥).

(٤) الزخرف: الآية (٨٠).

(٥) القمر: الآيتان (٥٢-٥٣).

(٦) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣١٦).

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: ﴿أَلَمْ نَجْعَل﴾ أي: بما لنا من العظمة التي لا يمكن أحدا أن يضاهيها، ولا يقرب منها، ﴿لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما، وإلا لتعطل عليه أكثر ما يريد، شققناهما وهو في الرحم في ظلمات ثلاث على مقدار مناسب، لا يزيد إحداهما على الأخرى شيئا، وقدرنا البياض والسواد، أو الزرقة أو الشهلة، أو غير ذلك على ما ترون، وأوعدناهما البصر على كيفية يعجز الخلق عن إدراكها»[1].

قال القاسمي: «قال القاشاني: أي: ألم ننعم عليه بالآلات البدنية التي يتمكن بها من اكتساب الكمال، ليبصر ما يعتبر به، ويسأل عما لا يعلم، ويتكلم فيه؟ وقال السيد المرتضى: هذا تذكير بنعم اللَّه عليهم، وما أزاح به علتهم في تكاليفهم، وما تفضل به عليهم من الآلات التي يتوصلون بها إلى منافعهم، ويدفعون بها المضار عنهم؛ لأن الحاجة إلى أكثر المنافع الدينية والدنيوية ماسة»[2].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٥٦).

(٢) محاسن التأويل (١٧/ ١٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال صديق حسن خان: «﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به ويعبر عما في ضميره، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغره وفاه، ويستعين بهما على النطق، والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك، قال الزجاج: المعنى: ألم نفعل به ما يدله على أن اللّٰه قادر على أن يبعثه»[١].

وفي هذه الآية دليل على أن اللّٰه -جل في علاه- بصير متكلم، **يقول ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نبهك بهذا الدليل العقلي القاطع الذي جعلك تبصر وتتكلم، وتعلم أولى أن يكون بصيرا متكلما عالما، فأي دليل عقلي قطعي أقوى من هذا وأبين، وأقرب إلى المعقول؟»[٢].

* * *

(١) فتح البيان (١٥/ ٢٤٢).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٥).

قوله تعالى : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾

★ **غريب الآية:**

النجدين: أي: طريق الخير والشر. وأصل النجد: المكان المرتفع من الأرض. قال امرؤ القيس:

غداة غدوا فسالك بطن نخلة ... وآخر منهم جازع نَجْدَ كَبْكَبِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم ذكر برهانا مقدرا أنه سبحانه أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما، فكيف يعطيه البصر من لم يره؟ وكيف يعطيه آلة البيان، من الشفتين واللسان، فينطق ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم، ولا يخاطب، ولا يأمر، ولا ينهى؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟ ومن جعل غيره عالما بنجدي الخير والشر وهما طريقاهما- أليس هو أولى وأحق بالعلم منه. ومن هداه إلى هذين الطريقين، كيف يليق به أن يتركه سدى، لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله، وصدق رسله ووعده. وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم. إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه، والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطرة والعقول، مكملين له، لتقوم على العبد حجة اللّه بفطرته ورسالته»[١].

قال المراغي: «أي وأودعنا في فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر، وجعلنا له من العقل والفكر ما يكون مذكرا ومنبها، ونصبنا له الدلائل على حسن الخير، وأرشدناه إلى ما في الشر من هنات وعيوب، ثم أقدرناه على أن يسلك أي الطريقين

---

(١) التبيان (ص: ٣٠-٣١).

شاء، بعد أن آتيناه قوة التمييز، والقدرة على الاختيار والترجيح، ليسلك الطريق التي أراد منهما، فليكن نجد الخير أحب إلى أحدكم من نجد الشر، فمن نازعته نفسه واتجهت إلى نجد الشر فليقمعها بالنظر في آيات اللّه، والتدبر في دلائله، ليعلم أن ذلك الطريق مظلم معوج، يهوي بصاحبه إلى طريق الردى، ويوقعه في المهالك، وإنما سماهما اللّه نجدين، للإشارة إلى أنهما واضحان كطريقين عاليين يراهما ذووا الأبصار، وإلى أن في كل منهما وعورة يشق معها السلوك، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها. وفي ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير؛ بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تقطع إلى النهاية وتوصل إلى الغاية»[١].

قال الرازي: «وهذه الآية كالآية في: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ إلى قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾[٢]، وقال الحسن: قال: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ فمن الذي يحاسبني عليه؟ فقيل: الذي قدر على أن يخلق لك هذه الأعضاء قادر على محاسبتك، وروي عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب، أنهما الثديان، ومن قال ذلك ذهب إلى أنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه، واللّه تعالى هدى الطفل الصغير حتى ارتضعها، قال القفال: والتأويل هو الأول، ثم قرر وجه الاستدلال به، فقال: إن من قدر على أن يخلق من الماء المهين قلبا عقولا ولسانا قوولا، فهو على إهلاك ما خلق قادر، وبما يخفيه المخلوق عالم، فما العذر في الذهاب عن هذا مع وضوحه، وما الحجة في الكفر باللّه من تظاهر نعمه، وما العلة في التعزيز على اللّه وعلى أنصار دينه بالمال وهو المعطي له، وهو الممكن من الانتفاع به»[٣].

قال صديق حسن خان: «قال الشهاب: لا يخفى أنه ذكره في سياق الامتنان، والمراد الامتنان عليه بأن هداه وبين له الطريق فسلكها تارة وعدل عنها أخرى، فلا امتنان عليه بالشر، ولذا جعله الإمام بمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا

(١) تفسير المراغي (٣٠/ ١٦٠).
(٢) الإنسان: الآيات (١-٣).
(٣) التفسير الكبير (٣١/ ١٨٤).

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ووصف مكان الخير بالرفعة والنجدية ظاهر بخلاف الشر، فإنه هبوط من ذروة الفطرة إلى حضيض الشقوة، فهو على سبيل التغليب، أو على توهم المخيلة أن فيه صعودا فتدبر. انتهى. قلت: الامتنان بالهداية إلى سبيل الشر يصح بمعنى أن اللَّه عرف الإنسان طريق الشر ليجتنبه وطريق الخير ليسلكه، ولو لم يعرفه سبيل الشر لما اجتنبه، والأشياء تعرف بأضدادها، فالامتنان بهدايته إليه ثابت عقلا، والمعنى بينا ووضحنا له أن سلوك الأول ينجي، وأن سلوك الثاني يردي. وأن سلوك الأول ممدوح وأن سلوك الثاني مذموم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ قال: «الخير والشر»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن جرير: «واختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: عُنِي بذلك: نَجْد الخير، ونَجْد الشرّ، كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[٣]. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وهديناه الثّديين: سبيلي اللبن الذي يتغذّى به، وينبت عليه لحمه وجسمه.. وأولى القولين بالصواب في ذلك عندنا: قول من قال: عُنِي بذلك طريق الخير والشرّ، وذلك أنه لا قول في ذلك نعلمه غير القولين اللذين ذكرنا، والثديان، وإن كانا سبيلي اللبن، فإن اللَّه -تعالى ذكره- إذ عدّد على العبد نِعَمه بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[٤] إنما عدّد عليه هدايته إياه إلى سبيل الخير من نِعمه، فكذلك قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾»[٥].

* * *

(١) فتح البيان (١٥/ ٢٤٤). وانظر حاشية الشهاب على البيضاوي (٨/ ٣٦٣).

(٢) أخرجه: عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٣٧٤)، وابن جرير (٣٠/ ١٩٩)، والحاكم (٢/ ٥٢٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) الإنسان: الآية (٣).

(٤) الإنسان: الآيتان (٢و٣).

(٥) تفسير الطبري (٣٠/ ١٩٩-٢٠١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

اقتحم: الاقتحام: الدخول في الشيء بسرعة وشدة. واقتحم النهر: إذا رمى بنفسه فيه من غير روية.

العقبة: الطريق الوعر في الجبل. جمعها: عِقَابٌ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومع هذا فقامت عليه حجته، ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه، التي لا يصل إليها حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق؛ ليخلصه اللَّه من رق نفسه ورق عدوه، وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالإخلاص له سبحانه بالإيمان، الذي هو خالص حقه عليه، وهو تصديق خبره وطاعة أمره وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابرا رحيما في نفسه، معينا لغيره على الصبر والرحمة، فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها، هلك منقطعا عن ربه غير واصل إليه بل محجوبا عنه.

والناس قسمان: ناج وهو من قطع العقبة وصار وراءها، وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة لا يقطعها إلا خفيف الظهر، وهم أصحاب الميمنة، والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر فهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾[1] قد أطبقت عليهم، فلا يستطيعون الخروج منها، كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أخبرت به رسله، فلم تخرج قلوبهم منها، كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

(١) البلد: الآيتان (١٩-٢٠).

فتأمل هذه السورة على اختصارها وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان وبالله التوفيق.

وأيضا فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة، تهديدا وتخويفا لترتب الجزاء عليهما، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٣)، وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝﴾(٤). وهذا كثير جدا في القرآن، وليس المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم، لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل، فإنه إن كان قادرا أمكن مجازاته، وإذا كان عالما أمكن ذلك بالقسط والعدل، ومن لم يكن قادرا لم يمكن مجازاته، وإذا كان قادرا لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائها، لم يجاز بالعدل والرب تعالى موصوف بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وإرادته، فحينئذ يجب على العاقل أن يطلب النجاة منه بالإخلاص والإحسان، فهو اقتحام العقبة المتضمن للتوبة إلى الله تعالى، والإحسان إلى خلقه.

وقال: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝﴾ وهو فعل ماض، ولم يكرر معه لا، إما استعمالا لأداة لا كاستعمال ما، وإما إجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء، نحو فلا سلم ولا عاش ونحو ذلك، وإما لأن العقبة قد فسرت بمجموع أمور، فاقتحامها فعل كل واحد منها، فأغنى ذلك من تكريرها، فكأنه قال: فلا فك رقبة، ولا أطعم، ولا كان من الذين آمنوا.

وقراءة من قرأ (فك رقبة) بالفعل، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر؛ لأن قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝﴾ على حد قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝﴾(٥)، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝﴾(٦)، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝﴾(٧)

---

(١) الأنعام: الآية (٦٥).
(٢) العلق: الآيات (٩-١٤).
(٣) التوبة: الآية (١٠٥).
(٤) الزخرف: الآية (٨٠).
(٥) الحاقة: الآية (٣).
(٦) الانفطار: الآية (١٧).
(٧) القارعة: الآيتان (١٠-١١).

ونظائره تعظيما لشأن العقبة، وتفخيما لأمرها، وهي جملة اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، فإن قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[١] تفسير لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة، واقتحامه بفعل هذه الأمور، فمن فعلها فقد اقتحم العقبة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا عطف على قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝﴾ والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولا.

وأيضا، فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلابد له من تقدير، وهو: ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ واقتحامها فك رقبة، وأيضا فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر وما فسره، ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض ما فسره، فإن التفسير إن كان لقوله: ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ طابقه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وما بعده دون ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝﴾ وما يليه، وإن كان لقوله: ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ طابقه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ دون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى، فحصولها لفظا ومعنى أتم وأحسن.

واختلف في هذه العقبة هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فقالت طائفة: العقبة ههنا مثل ضربه اللّه تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر، وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل. قال الحسن: عقبة واللّه شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان. وقال مقاتل: هذا مثل ضربه اللّه، يريد أن المعتق رقبة، والمطعم اليتيم والمسكين، يقاحم نفسه وشيطانه، مثل أن يتكلف صعود العقبة، فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة، وهذا قول أبي عبيدة. وقالت طائفة: بل هي عقبة حقيقة يصعدها الناس. قال عطاء: هي عقبة جهنم. وقال الكلبي: هي عقبة بين الجنة والنار، وهذا قول مقاتل، إنها عقبة جهنم، وقال مجاهد والضحاك: هي الصراط يضرب على جهنم، وهذا لعله قول الكلبي، وقول هؤلاء أصح نظرا وأثرا ولغة، قال قتادة: فإنها عقبة شديدة فاقتحموها بطاعة اللّه، وفي أثر معروف: «إن بين أيديكم عقبة كؤودا لا يقتحمها إلا المخفون»[٢] أو نحو

(١) البلد: الآيات (١٣-١٧).

(٢) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

هذا، وأن اللَّه سمى الإيمان به، وفعل ما أمر وترك ما نهى عقبة، فكثيرا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة، وقال بعض الصحابة وقد حضره الموت فجعل يبكي ويقول: مالي لا أبكي وبين يدي عقبة كؤود أهبط منها إما إلى جنة وإما إلى نار، فهذا القول أقرب إلى الحقيقة والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله (وما أدراك) في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم واللَّه أعلم»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستعداد ليوم القيامة

* عن أبي الدرداء ﷺ: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أمامكم عقبة كؤودًا لا يجوزها المثقلون، فأنا أريد أن أتخفف لتلك العقبة**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

كؤودًا: بفتح الكاف، أي: الشاقة المصعد.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «(لا يجوزها المثقلون) من الذنوب، المتضمخون بأدناس العيوب، أي: إلا بمشقة عظيمة وكرب شديد، بل من طهر قلبه عن الأخلاق الذميمة، وعمره بالخصال الحميدة، وكلما غدا المطلب وشرف صعب مسلكه، وطال منهجه، وكثرت عقباته، وشقت مقاساته، وتلك العقبة هي الموت، ثم البعث، ثم الوقوف بين يدي اللَّه، ثم الحساب، ثم الجنة أو النار. قال ذو النون: حق لابن آدم أن تبكي السموات والأرض لخفاء السابقة، وإبهام العاقبة، ومطالبة الشريعة، وثقل التكليف، وسقوط العذر، وكثرة ما أمامه من العقبات، وكما أن أمام ابن آدم عقبات أخروية، فأمامه قبلها عقبات دنيوية»[(٣)].

---

(١) التبيان (ص: ٣١-٣٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٧٤) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وأخرجه: تمام الرازي في «فوائده» (٢/ ٢٤٥/ ١٦٤٢) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٣٠٩/ ١٠٤٠٨)، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» بإسناد صحيح كما في «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٣١)، وذكره أيضًا الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٩٧) وقال: «رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات».

(٣) فيض القدير (٢/ ٤٣٠).

قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

فك: الفكّ: التخليص. ومنه: فككت الأسير: إذا خَلَّصْتُه من الأَسْرِ. قال حسان:

كم مِنْ أَسِيرٍ فككناه بِلا ثَمَنٍ ... وجز ناصية كنا مواليها

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «والرقبة مراد بها الإنسان، من إطلاق اسم الجزء على كله مثل إطلاق رأس وعين ووجه، وإيثار لفظ الرقبة هنا لأن المراد ذات الأسير أو العبد، وأول ما يخطر بذهن الناظر لواحد من هؤلاء، هو رقبته لأن في الغالب يوثق من رقبته. وأطلق الفك على تخليص المأخوذ في أسر أو ملك، لمشابهة تخليص الأمر العسير بالنزع من يد القابض الممتنع»[1].

قال الرازي: «فك الرقبة قد يكون بأن يعتق الرجل رقبة من الرق، وقد يكون بأن يعطي مكاتبا ما يصرفه إلى جهة فكاك نفسه.. وفيه وجه آخر: وهو أن يكون المراد أن يفك المرء رقبة نفسه بما يتكلفه من العبادة التي يصير بها إلى الجنة، فهي الحرية الكبرى، ويتخلص بها من النار»[2].

قال الألوسي معلقا على الوجه الأخير في تفسير الآية من كلام الرازي: «وعليه قيل: يكون ما بعد من قبيل التخصيص بعد التعميم، وفيه بعد كما لا يخفى»[3].

قال الشيخ عطية سالم: «وهذا العنصر من العمل بالغ الأهمية، حيث قدم في سلم الاقتحام لتلك العقبة، وقد جاءت السنة ببيان فضل هذا العمل حتى أصبح عتق

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٨).

(٢) التفسير الكبير (٣١/ ١٨٥-١٨٦).

(٣) روح المعاني (٣٠/ ١٣٨).

الرقيق أو فك النسمة، يعادل به عتق المعتق من النار كل عضو بعضو، وفيه نصوص عديدة ساقها ابن كثير، وفي هذا إشعار بحقيقة موقف الإسلام من الرق، ومدى حرصه وتطلعه إلى تحرير الرقاب. فهاهو هنا يجعل عتق الرقبة سلم اقتحام العقبة، وجعله عتقا للمعتق من النار كل عضو بعضو، ومعلوم أن كل مسلم يسعى لذلك، وجعله كفارة لكل يمين وللظهار بين الزوجين، وكفارة القتل الخطأ، كل ذلك نوافذ إطلاق الأسارى وفك الرقاب، في الوقت الذي لم يفتح للاسترقاق إلا باب واحد، هو الأسر في القتال مع المشركين لا غير، وهما مما سبق تنبيها عليه ردا على المستشرقين ومن تأثر بهم، في ادعائهم على الإسلام أنه متعطش لاسترقاق الأحرار»[١].

قال القرطبي: «العتق والصدقة من أفضل الأعمال، وعن أبي حنيفة: أن العتق أفضل من الصدقة، وعند صاحبيه الصدقة أفضل، والآية أدل على قول أبي حنيفة، لتقديم العتق على الصدقة، وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة: أيضعه في ذي قرابة أو يعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل، لأن النبي ﷺ قال: «من فك رقبة فك اللَّه بكل عضو منها عضوا من النار»»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل عتق الرقاب وأي الرقاب أفضل في العتق

* عن أبي نجيح السلمي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أيما رجل مسلم أعتق رجلًا مسلمًا فإن اللَّه ﷻ جاعل وقاء كل عظم من عظامه عظمًا من عظام محرره من النار، وأيما امرأة أعتقت امرأة مسلمة فإن اللَّه جاعل وقاء كل عظم من عظامها عظمًا من عظام محررها من النار يوم القيامة**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

أعتق: يقال: أعتقت العبد أُعْتِقُه عِتْقًا وعِتَاقَةً، فهو مُعْتَق وأنا مُعْتِق، وعُتِق فهو

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ٢٢٩). (٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٨٤)، وأبو داود (٤/ ٢٧٤/ ٣٩٦٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٠/ ١٤٧-١٤٨/ ٤٣٠٩)، والحاكم (٣/ ٤٩-٥٠) ووافقه الذهبي.

عتيق، أي: حررته فصار حُرًّا.

وقاء كل عظم: بإضافة الوِقاء إلى كل عظم، والوِقاء، بكسر الواو وتخفيف القاف ممدودًا: ما يتقى به وما يستر الشيء عما يؤذيه.

محررة: بضم الميم وفتح الراء المشددة، أي: من عظام القن الذي حرره.

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«من أعتق رقبة مسلمة أعتق اللَّه بكل عضو منه عضوًا من النار، حتى فرجه بفرجه»**[1].

* عن البراء بن عازب قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! علمني عملًا يدخلني الجنة، قال: **لئن كنت أقصرت الخطبة، فقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة**. قال: أوَليستا بواحدة؟ قال: **لا، عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعطي في ثمنها، والمنحة الوكوف والفيء على ذي الرحم القاطع، فإن لم تطق ذاك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، ومر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكف لسانك إلا من خير**»[2].

⋆ غريب الحديثين:

لئن كنت أقصرت الخطبة: أي: جئت بها قصيرة.

لقد أعرضت المسألة: أي: جئت بها عريضة، أي: واسعة.

أعتق النسمة: النسم: الروح، أي: أعتق ذا نسمة، وكل دابة فيها روح فهي نسمة.

المنحة الوكوف: المنحة في الأصل: العطية، وغلبت في لبون من ناقة أو شاة يعطيها صاحبها بعض المحاويج لينتفع بلبنها ما دامت تدرّ، والوكوف: غزيرة اللبن، ومن وكف البيت، والدمع.

الفيء: التعطيف والرجوع إليه بالبر.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٠، ٤٢٢)، والبخاري (١١/ ٧٣٤/ ٦٧١٥)، ومسلم (٢/ ١١٤٧/ ١٥٠٩)، والترمذي (٤/ ٩٧/ ١٥٤١)، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٦٨/ ٤٨٧٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٩)، وأبو داود الطيالسي (رقم: ٧٣٩)، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢/ ٩٧-٩٨/ ٣٧٤) واللفظ له، والحاكم (٢/ ٢١٧) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الأحاديث:**

في هذه الأحاديث من الفوائد:

«فضل العتق، وأنه من أرفع الأعمال، ومما يوجب الجنة، وينجي من النار، ويكفر الخطايا الموجب عليها العقاب بالنار»(١).

وفيها: «أن المجازاة قد تكون من جنس الأعمال، فجوزي المعتق للعبد بالعتق من النار وإن كانت صدقة تصدق عليه في الآخرة»(٢).

وفيها: «حجة لمن استحب ألا يكون العبد خصيًا أو ناقص عضو؛ ليكمل عتق أعضاء معتقه»(٣).

قال الخطابي: «إذا كان أعضاء العتيق وجوارحه فداءً لأعضاء المعتق وجوارحه، فليجتهد ألا يكون العتيق ناقص الأعضاء بالعور والشلل، أو معيبًا عيبًا يضر بالعمل، ويخل بالسعي والاكتساب، لكن يكون سليم الأعضاء صحيح الجوارح؛ لينال به الثواب الموعود في هذا الحديث، قلت: وربما كان نقص الأعضاء زيادة في الثمن، كالخصي إذا كان يصلح لما لا يصلح له غيره من حفظ الحرم ونحوه، فلا يكره ذلك حينئذ، على أنه لا يخل بالعمل الذي يحتاج إليه في الكسب والمعاش»(٤).

وفيها: «أن عتق الذكر أفضل من عتق الأنثى، خلافًا لمن فضل عتق الأنثى محتجًا بأن عتقها يستدعي صيرورة ولدها حرًّا، سواء تزوجها حر أو عبد، بخلاف الذكر»(٥).

وقد نص في الحديث الذي رواه أصحاب السنن إلا النسائي وصححه الترمذي(٦): «على فضل عتق الذكور وجعله كفاء أنثيين، ومن جهة المعنى ما في

---

(١) إكمال المعلم (٥/ ١٢٢).
(٢) شرح البخاري (٧/ ٣٤).
(٣) الإكمال (٥/ ١٢٢).
(٤) أعلام الحديث (٢/ ١٢٦٤-١٢٦٥).
(٥) فتح الباري (٥/ ١٨٥).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣٥-٢٣٦)، وأبو داود (٤/ ٢٧٥/ ٣٩٦٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٣/ ٢٥٢٢)، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٦٩-١٧٠/ ٤٨٨١) من حديث كعب بن مرة ﷺ، ولفظه: عن شرحبيل بن السمط قال: قال رجل لكعب بن مرة أو مرة بن كعب حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ لله أبوك واحذر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيما رجل اعتق رجلا مسلما كان فكاكه من النار، يجزى بكل عظم من عظامه**=

الذكر من المعاني العامة المنفعة التي لا توجد في الإناث، من الشهادة والحكم والجهاد، وغير ذلك مما يختص بالرجال، إما شرعًا، وإما عادةً؛ لأن الغالب أن الطاعة فيهم أوجد، ولأن الرق في الرجال الكبار أكثر من الجواري، ومن الجواري من لا ترغب في العتق، وتضيع مع العتق»[١].

وفيها: اختصاص الفضل المذكور بعتق الرقبة المؤمنة؛ قال القاضي عياض: «وقوله: «مؤمنة» يدل على أن هذا الفضل ليس إلا لعتق المؤمنين دون غيرهم، ولا خلاف في جواز عتق غير المؤمنين والفضل فيه، لكن الفضل التام في عتق المؤمنين، وقد روي لمالك أن الأعلى ثمنًا أفضل، وإن كان كافرًا، وخالفه فيهم غير واحد من أصحابه وغيرهم، وهو أصح»[٢].

* عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول اللَّه، أي الرقاب أفضل؟ قال: «**أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنًا**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «وقوله: «أغلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها» فمعنى ذلك أن من اشتراها بكثير الثمن فإنما فعل ذلك لنفاستها عنده، ومن أعتق رقبة نفيسة عنده، وهو مغتبط بها، فلم يعتقها إلا لوجه اللَّه، وهذا الحديث في معنى قوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٤]، وكان لابن عمر جارية يحبها فأعتقها لهذه الآية، ثم ابتغتها نفسه فأراد أن يتزوجها، فمنعه بنوه، فكان بعد ذلك يقرب بنيها من غيره لمكانها من قلبه»[٥].

قال النووي: «وأما قوله ﷺ في الرقاب: «**أفضلها أنفسها عند أهلها، وأكثرها**

= عظمًا من عظامه، وأيما رجل مسلم اعتق امراتين مسلمتين كانتا فكاكه من النار يجزى بكل عظمين من عظامهما عظما من عظامه، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاكها من النار تجزى بكل عظم من عظامها عظما من عظامها».

(١) الإكمال (٥/ ١٢٢-١٢٣).

(٢) إكمال المعلم (٥/ ١٢٣).

(٣) أخرجه مطولًا: أحمد (٥/ ١٧١)، والبخاري (٥/ ١٨٥/ ٢٥١٨)، ومسلم (١/ ٨٩/ ٨٤)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٣/ ٢٥٢٣) مختصرًا. وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأبي أمامة.

(٤) آل عمران: الآية (٩٢).

(٥) شرح صحيح البخاري (٧/ ٣٥).

ثمنًا» فالمراد به -والله أعلم- إذا أراد أن يعتق رقبة واحدة، أما إذا كان معه ألف درهم، وأمكن أن يشتري بها رقبتين مفضولتين أو رقبة نفيسة مثمنة، فالرقبتان أفضل، وهذا بخلاف الأضحية، فإن التضحية بشاة سمينة أفضل من التضحية بشاتين دونها في السمن. قال البغوي من أصحابنا -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «التهذيب» بعد أن ذكر هاتين المسألتين كما ذكرت: قال الشافعي رضي الله عنه في الأضحية استكثار القيمة مع استقلال العدد أحب إلي من استكثار العدد مع استقلال القيمة، وفي العتق استكثار العدد مع استقلال القيمة أحب إلي من استكثار القيمة مع استقلال العدد؛ لأن المقصود من الأضحية اللحم، ولحم السمين أوفر وأطيب، والمقصود من العتق تكميل حال الشخص وتخليصه من ذل الرق، فتخليص جماعة أفضل من تخليص واحد، والله أعلم»[1].

وقال الحافظ: «إن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فرب شخص واحد إذا عتق انتفع بالعتق، وانتفع به أضعاف ما يحصل من النفع بعتق أكثر عددًا منه، ورب محتاج إلى كثرة اللحم لتفرقته على المحاويج الذين ينتفعون به أكثر مما ينتفع هو بطيب اللحم، فالضابط أن مهما كان أكثر نفعًا كان أفضل، سواء قل أو كثر. واحتج به لمالك في أن عتق الرقبة الكافرة إذا كانت أغلى ثمنًا من المسلمة أفضل، وخالفه أصبغ وغيره، وقالوا: المراد بقوله: «أغلى ثمنًا» من المسلمين»[2].

* * *

---

(١) شرح مسلم (٢/ ٦٨-٦٩).

(٢) فتح الباري (٥/ ١٨٦-١٨٧).

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مسغبة: أي: مجاعة. والسغب: الجوع مع التعب. والساغِبُ: الجائع. قال جرير:

تُعَلِّل وهي ساغبة بنيها ... بأنفاس من الشيم القراح

مقربة: أي: قرابة. يقال: فلان ذو قرابتي وذو مَقْربتي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «حاصل القول في تفسير ﴿يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ ما قاله الحسن: وهو نائم يوم محروص فيه على الطعام، قال أبو علي: ومعناه ما يقول النحويون في قولهم: ليل نائم ونهار صائم، أي ذو نوم وصوم. واعلم أن إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس وأوجب للأجر، وهو كقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[1]، وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا﴾[2]، وقرأ الحسن: «ذا مسغبة» نصبه بإطعام، ومعناه: أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة. قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ قال الزجاج: ذا قرابة، تقول: زيد ذو قرابتي وذو مقربتي، وزيد قرابتي قبيح، لأن القرابة مصدر، قال مقاتل: يعني: يتيما بينه وبينه قرابة، فقد اجتمع فيه حقان: يتم وقرابة، فإطعامه أفضل، وقيل: يدخل فيه القرب بالجوار، كما يدخل فيه القرب بالنسب»[3].

قال ابن عاشور: «واليتيم الشخص الذي ليس له أب، وهو دون البلوغ، ووجه تخصيصه بالإطعام أنه مظنة قلة الشبع؛ لصغر سنه، وضعف عمله، وفقد من يعوله،

---

(١) البقرة: الآية (١٧٧).

(٢) الإنسان: الآية (٨).

(٣) التفسير الكبير (٣١/ ١٨٦-١٨٧).

ولحيائه من التعرض لطلب ما يحتاجه. فلذلك رغب في إطعامه وإن لم يصل حد المسكنة والفقر، ووصف بكونه ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي مقربة من المطعم؛ لأن هذا الوصف يؤكد إطعامه، لأن في كونه يتيما إغاثة له بالإطعام، وفي كونه ذا مقربة صلة للرحم»[١].

وفي هذه الآية أن «إطعام الطعام فضيلة، وهو مع السغب الذي هو الجوع أفضل.. وأن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له، أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يكفله»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الإنفاق على الأقارب والمحتاجين

* عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث من الفوائد: «الحث على التصدق على الرحم والاهتمام به»[٤].

قال المناوي: «لأنها صدقة وصلة، وفي كل منهما أجر على حدته، والمقصود أن الصدقة على القريب أولى وآكد من الصدقة على الأجنبي، وإن كان القريب كاشحًا كما صرح به في عدة أخبار»[٥].

قال المناوي: «وفيه التصريح بأن العمل قد يجمع ثواب عملين، لتحصيل مقصودهما به، فلعامله سائر ما ورد في ثوابهما بفضل اللَّه ومنته»[٦].

وقال أيضًا: «فيه حث على الصدقة على الأقارب، وتقديمهم على الأباعد،

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٢) أفاده القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٩)، وانظر أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٩٤٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٤)، والترمذي (٣/ ٤٦/ ٦٥٨) وقال: «حديث حسن»، والنسائي (٥/ ٩٦-٩٧/ ٢٥٨١)، وابن ماجه (١/ ٥٩١/ ١٨٤٤)، وصححه ابن حبان، الإحسان (٨/ ١٣٢-١٣٣/ ٣٣٤٤).

(٤) حاشية السندي على النسائي (٥/ ٩٧).

(٥) فيض القدير (٢/ ٣٦٢).

(٦) فيض القدير (٤/ ١٩٣).

لكن هذا غالبي، وقد يقتضي الحال العكس، ولهذا قال ابن حجر عقب الخبر: لا يلزم من ذلك أن يكون هبة ذي الرحم أفضل مطلقًا؛ لاحتمال كون المسكين محتاجًا، ونفعه بذلك متعديًا، والآخر بعكسه»[1].

* * *

(١) فيض القدير (٤/ ٢٣٧).

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

متربة: افتقار، من قولك: ترب الرجل: إذا لصق بالتراب. أي: افتقر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي لا شيء له، كأنه لصق بالتراب لفقره، وليس له مأوى إلا التراب، يقال: ترب الرجل يترب تربا ومتربة: إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرا، قال مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره، وقال قتادة: هو ذو العيال. وقال عكرمة: هو المديون. وقال أبو سنان: هو ذو الزمانة. وقال ابن جبير: هو الذي ليس له أحد. وقال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه»[1].

قال ابن جرير بعد ذكر الأقوال الواردة في الآية: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال: عُنِي به: أو مسكينًا قد لصق بالتراب من الفقر والحاجة؛ لأن ذلك هو الظاهر من معانيه، وأن قوله: ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ إنما هي (مَفْعَلة) من تَرِبَ الرَّجلُ: إذا أصابه التراب»[2].

وجعل **ابن كثير** هذا القول مع غيره من الأقوال متقاربة المعاني فقال: «وكل هذه قريبة المعنى»[3].

قال الرازي: «واحتج الشافعي بهذه الآية على أن المسكين قد يكون بحيث يملك شيئا، لأنه لو كان لفظ المسكين دليلا على أنه لا يملك شيئا البتة، لكان تقييده بقوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ تكريرا، وهو غير جائز»[4].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٣٩).

(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ٢٠٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣١).

(٤) التفسير الكبير (٣١/ ١٨٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝﴾ قال: «الذي لا يقيه من التراب شيء»[1].

* * *

(١) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٢٠٤)، والحاكم (٢/ ٥٢٤) وصححه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «يعني: أنه لا يقتحم العقبة من فك رقبة، أو أطعم في يوم ذا مسغبة، حتى يكون من الذين آمنوا، أي صدقوا، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان باللَّه، فالإيمان باللَّه بعد الإنفاق لا ينفع، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان، قال اللَّه تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾[1] وقالت عائشة: يا رسول اللَّه، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم الطعام، ويفك العاني، ويعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئا؟ قال: «**لا، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**».[2] وقيل: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي فعل هذه الأشياء وهو مؤمن، ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[3]. وقيل: المعنى: ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند اللَّه تعالى. وقيل: أتى بهذه القرب لوجه اللَّه، ثم آمن بمحمد ﷺ. وقد قال حكيم بن حزام بعد ما أسلم، يا رسول اللَّه، إنا كنا نتحنث بأعمال في الجاهلية، فهل لنا منها شيء؟ فقال ﷺ: «**أسلمت على ما أسلفت من الخير**»[4]. وقيل: إن ثم- بمعنى الواو، أي كان هذا المعتق الرقبة، والمطعم في المسغبة، من الذين آمنوا»[5].

(١) التوبة: الآية (٥٤).

(٢) أخرجه بنحوه: أحمد (٦/ ٩٣)، ومسلم (١/ ١٩٦/ ٢١٤)، من حديث عائشة، ولفظه: عن عائشة قالت: قلت: يا رسول اللَّه، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه، قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

(٣) طه: الآية (٨٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٢)، والبخاري (٤/ ٥١٧/ ٢٢٢٠)، ومسلم (١/ ١١٣/ ١٢٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٧١).

قال الرازي: «أما قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ فالمعنى أنه كان يوصي بعضهم بعضا بالصبر على الإيمان والثبات عليه، أو الصبر على المعاصي وعلى الطاعات، والمحن التي يبتلى بها المؤمن، ثم ضم إليه التواصي بالمرحمة، وهو أن يحث بعضهم بعضا على أن يرحم المظلوم أو الفقير، أو يرحم المقدم على منكر فيمنعه منه؛ لأن كل ذلك داخل في المرحمة، وهذا يدل على أنه يجب على المرء أن يدل غيره على طريق الحق، ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما أمكنه. واعلم أن قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ يعني: يكون مقتحم العقبة من هذه الزمرة والطائفة، وهذه الطائفة هم أكابر الصحابة كالخلفاء الأربعة وغيرهم. فإنهم كانوا مبالغين في الصبر على شدائد الدين، والرحمة على الخلق، وبالجملة فقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر اللّه، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق اللّه، ومدار أمر الطاعات ليس إلا على هذين الأصلين»[1].

قال ابن عاشور: «وخص بالذكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر وتواصيهم بالمرحمة، لأن ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإن الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها، لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية، وذلك من الصبر. والمرحمة ملاك صلاح الجامعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2]. والتواصي بالمرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضا كناية عن اتصافهم بالمرحمة، لأن من يوصي بالمرحمة هو الذي عرف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصي بها كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾[3] »[4].

قال السعدي: «أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، والذين وفقهم اللّه لاقتحام هذه العقبة ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾؛ لأنهم أدوا ما أمر اللّه به من حقوقه، وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها»[5].

قال القرطبي: «أي الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، قاله محمد بن كعب القرظي

---

(١) التفسير الكبير (٣١/ ١٨٧-١٨٨).
(٢) الفتح: الآية (٢٩).
(٣) الفجر: الآية (١٨).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦١).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٣١).

وغيره، وقال يحيى بن سلام: لأنهم ميامين على أنفسهم. ابن زيد: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن، وقيل: لأن منزلتهم عن اليمين، قاله ميمون ابن مهران»[1].

قال القاسمي: «قال القاشاني: يشير قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾[2] الآيات، إلى قهر النفس بتكلف الفضائل والتزام سلوك طريقها واكتسابها، حتى يصير التطبع طبعا. ثم قال: فإن الإطعام خصوصا وقت شدة الاحتياج للمستحق، الذي هو وضع في موضعه، من باب فضيلة العفة، بل أفضل أنواعها والإيمان من فضيلة الحكمة وأشرف أنواعها وأجلها، وهو الإيمان العلمي اليقيني، والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة- وأخره عن الإيمان، لامتناع حصول فضيلة الشجاعة بدون اليقين. و«المرحمة» أي التراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة. فانظر كيف عدد أجناس الفضائل الأربع التي يحصل بها كمال النفس، بدأ بالعفة التي هي أولى الفضائل، وعبر عنها بمعظم أنواعها، وأخص خصالها الذي هو السخاء. ثم أورد الإيمان الذي هو الأصل والأساس. وجاء بلفظة ثم- لبعد مرتبته عن الأولى في الارتفاع والعلو. وعبر عن الحكمة به لكونه أم سائر مراتبها وأنواعها، ثم رتب عليه الصبر لامتناعه بدون اليقين. وأخر العدالة التي هي نهايتها، واستغنى بذكر المرحمة، التي هي صفة الرحمن، عن سائر أنواعها. كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على الرحمة بالمخلوق

* عن جرير ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ**»[4].

* عن عبد اللّه بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء**»[5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٧١).
(٢) البلد: الآية (١١).
(٣) محاسن التأويل (١٧/ ١٦٠-١٦١).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٢)، والبخاري (١٠/ ٥٣٧/ ٦٠١٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٩/ ٢٣١٩)، والترمذي (٤/ ٢٨٤/ ١٩٢٢).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود (٥/ ٢٣١/ ٤٩٤١)، والترمذي (٤/ ٢٨٥/ ١٩٢٤) وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (٤/ ١٥٩) وصححه.

* عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا**»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب، ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه، وفي كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا، وكل أحد مسؤول عما استرعيه وملكه من إنسان أو بهيمة لا تقدر على النطق، وتبين ما بها من الضر، وكذلك ينبغي أن يرحم كل بهيمة وإن كانت في غير ملكه، ألا ترى أن الذي سقى الكلب الذي وجده بالفلاة لم يكن له ملكًا، فغفر الله له بتكلفه النزول في البئر وإخراجه الماء في خفه وسقيه إياه، وكذلك كل ما في معنى السقي من الإطعام، ألا ترى قوله ﷺ: «**ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة**»(٢). ومما يدخل في معنى سقي البهائم وإطعامها: التخفيف عنها في أحمالها، وتكليفها ما تطيق حمله، فذلك من رحمتها والإحسان إليها، ومن ذلك ترك التعدي في ضربها وأذاها، وتسخيرها في الليل، وفي غير أوقات السخرة، وقد نهينا في العبيد أن نكلفهم الخدمة في الليل، فإن لهم الليل، ولمواليهم النهار، والدواب وجميع البهائم داخلون في هذا المعنى»(٣).

قال القرطبي: «وحكمة هذه الرحمة تسخير القوي للضعيف، والكبير للصغير، حتى ينحفظ نوعه، وتتم مصلحته، وذلك تدبير اللطيف الخبير، وهذه الرحمة التي جعلها الله في القلوب في هذه الدار، وتحصل عنها هذه المصلحة العظيمة، هي رحمة واحدة من مائة رحمة ادخرها الله تعالى ليوم القيامة، فيرحم بها عباده المؤمنين وقت أهوالها وشدائدها، حتى يخلصهم منها، ويدخلهم في جنته

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٢)، وأبو داود (٥/ ٢٣٢/ ٤٩٤٣)، والحاكم (١/ ٦٢) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٧)، والبخاري (٥/ ٣/ ٢٣٢٠)، ومسلم (٣/ ١١٨٩/ ١٥٥٣)، والترمذي (٣/ ٦٦٦/ ١٣٨٢).

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢١٩-٢٢٠).

وكرامته»[١].

وقال أيضًا: «فمن خلق اللَّه تعالى في قلبه هذه الرحمة الحاملة له على الرفق وكشف ضر المبتلى، فقد رحمه اللَّه تعالى بذلك في الحال، وجعل ذلك علامة على رحمته إياه في المآل، ومن سلب اللَّه ذلك المعنى منه، وابتلاه بنقيض ذلك من القسوة والغلظ، ولم يلطف بضعيف، ولا أشفق على مبتلى، فقد أشقاه في الحال، وجعل ذلك علمًا على شقوته في المآل، نعوذ باللَّه من ذلك»[٢].

* * *

(١) المفهم (٦/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) المفهم (٦/ ١٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ۝٢٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «أي بأدلتنا وأعلامنا من الكتب والرسل وغير ذلك من آيات الأنفس والآفاق، التي بكل يرتقى إلى معرفة الصراط التي تجب الاستقامة عليه في الاعتقاد والعمل، ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي: الشؤم على أنفسهم، أو جهة الشمال التي فيها الأشقياء. وقال الإمام: أهل اليمين، في لسان الدين الإسلامي، عنوان السعداء، وأهل الشمال عنوان الأشقياء. ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ۝٢٠﴾ أي مطبقة أبوابها، كناية عن حبسهم المخلد فيها، وسد سبل الخلاص منها. أجارنا الله بفضله وكرمه منها»[1].

* * *

(١) محاسن التأويل (١٧/ ١٦١).



سورة الشمس

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في القراءة بسورة الشمس ونحوها في صلاة العشاء

* عن بريدة قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يقرأ في العشاء الآخرة بالشمس وضحاها ونحوها من السور»[1].

* عن جابر بن عبد اللَّه: أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يصلي مع رسول اللَّه ﷺ ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة، فقرأ بهم (البقرة)، قال: فتجوّز رجل فصلى صلاة خفيفة، فبلغ ذلك معاذًا، فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك الرجل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا قوم نعمل بأيدينا، ونسقي بنواضحنا؛ وإن معاذًا صلى بنا البارحة فقرأ (البقرة) فتجوّزت، فزعم أني منافق، فقال النبي ﷺ: «**يا معاذ! أفتّان أنت؟**» -ثلاثًا-، اقرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ ونحوهما»[2].

★ **فوائد الحديثين:**

قال العيني: «فيه دليل على أن أوساط (المفصل) إلى ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾؛ لأن هذه الصلاة صلاة العشاء، والسنة فيها القراءة من أوساط (المفصل) لا من قصاره، ثم ذكر هذه السور الثلاث ليس للتخصيص بعينها؛ لأن المراد هذه الثلاث أو نحوها من القصار، كما جاء في بعض الروايات لفظ: «ونحوها»»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٤)، والترمذي (٢/ ١١٤/ ٣٠٩) واللفظ له وقال: «حديث حسن»، والنسائي (٢/ ٥١٤/ ٩٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٨)، والبخاري (١٠/ ٦٣٢/ ٦١٠٦)، ومسلم (١/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٤٦٥)، وأبو داود (١/ ٥٠٠/ ٧٩٠)، والنسائي (٢/ ٤٣٧/ ٨٣٤)، وابن ماجه (١/ ٢٧٣/ ٨٣٦).

(٣) عمدة القاري (٤/ ٣٤٠).

قوله تعالى : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾

★ غريب الآية:

ضحاها : ضوؤها ونورها . والضحى : وقت ارتفاع الشمس في أول النهار .

طحاها : بسطها من كل جانب . والطحو : البسط . وطحا به قلبه : إذا ذهب به في كل شيء . قال علقمة :

طحا بكَ قَلْبٌ في الحسانِ طَرُوبُ ... بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي : «المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي . واعلم أنه تعالى ينبه عباده دائما بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذي يقسم اللّه تعالى به يحصل له وقع في القلب ، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى»[١] .

قوله تعالى : ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ :

قال الرازي : «ذكر المفسرون في ضحاها ثلاثة أقوال : قال مجاهد والكلبي : ضوؤها ، وقال قتادة : هو النهار كله ، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة ، وقال مقاتل : هو حر الشمس . . فالضحى : هو ضوء الشمس ونورها ، ثم سمي به الوقت الذي تشرق فيه الشمس على ما في قوله تعالى : ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[٢] ، فمن قال من المفسرين : في ضحاها ضوؤها فهو على الأصل ، وكذا من قال : هو النهار كله ، لأن جميع النهار هو من نور الشمس ، ومن قال : في الضحى إنه حر الشمس فلأن

(١) التفسير الكبير (٣١/ ١٨٩).

(٢) النازعات : الآية (٤٦).

حرها ونورها متلازمان، فمتى اشتد حرها فقد اشتد ضوؤها وبالعكس، وهذا أضعف الأقوال، واعلم أنه تعالى إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح، فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر أثر الصبح في المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة، فصارت الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة»[١].

قال الشيخ عطية سالم: «فالشمس وحدها آية دالة على قدرة خالقها، لما فيها من طاقة حرارية في ذاتها تفوق كل تقدير، وهي على الزمان بدون انتقاص، فهي في ذاتها آية. ثم جاء وصف أثرها وهو: ضحاها، وهو انتشار ضوئها ضحوة النهار، وهذا وحده آية، لأنه نتيجة لحركتها، وحركتها آية من آيات اللَّه، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾[٢]، وهي الآية التي حاج بها إبراهيم عليه السلام نمرود في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[٣]. ففي هذا السير قدرة باهرة ودقة متناهية، وضحاها: نتيجة لهذا السير، ثم ضحاها نعم جزيلة على الكون كله، من انتشار في الأرض، وانتفاع بضوئها وأشعتها. وقد قالوا: لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة، لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشيء، لأنها تحرق باقترابها، ويتجمد العالم من بعدها، ذلك تقدير العزيز العليم. فالضحى وحده آية، وهو حرها كقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[٤]، أي: بحر الشمس، وقد أقسم تعالى بالضحى وحده في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾[٥]»[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾:

يقول ابن عطية: ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ يتلو الشمس من أول الشهر إلى نصفه في الغروب، تغرب هي ثم يغرب هو، ويتلوها في النصف الآخر بنحو وآخر، وهي أن تغرب هي

---

(١) التفسير الكبير (٣١/ ١٩٠).
(٢) يس: الآيتان (٣٧-٣٨).
(٣) البقرة: الآية (٢٥٨).
(٤) طه: الآية (١١٩).
(٥) الضحى: الآيتان (١-٢).
(٦) تتمة الأضواء (٩/ ٢٣٧-٢٣٨).

فيطلع هو»[١].

قال عطية سالم: «وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي تلا الشمس، دلالة على سير الجميع، وأنها سابقته وهو تاليها ولا يخفى ما في القمر من فوائد للخليقة، من تخفيف ظلمة الليل، وكذلك بعض الخصائص على الزرع، وأهم خصائصه بيان الشهور بتقسيم السنة، ومعرفة العبادات من صوم، وحج، وزكاة، وعدة النساء، وكفارات بصوم، وحلول الديون، وشروط المعاملات، وكل ماله صلة بالحساب في عبادة أو معاملة، وقد جاء القسم بالقمر في المدثر في قوله: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾[٢]»[٣].

قال ابن عاشور: «وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيرا بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾﴾:

يقول ابن عطية: ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ظاهر هذه السورة والتي بعدها أنه من طلوع الشمس، وكذلك قال الزجاج في كتاب «الأنواء» وغيره، واليوم من طلوع الفجر، ولا يختلف أن نهايتهما مغيب الشمس، والضمير في ﴿جَلَّىٰهَا﴾يحتمل أن يعود على (الشمس)، ويحتمل أن يعود على الأرض، أو على الظلمة، وإن كان لم يجر له ذكر فالمعنى يقتضيه، قاله الزجاج. و«جلى» معناه كشف وضوى، والفاعل بجلَّى على هذا التأويلات «النهار»، ويحتمل أن يكون الفاعل اللَّه تعالى كأنه قال: والنهار إذا جلى اللَّه الشمس، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته»[٥].

قال ابن كثير: «ولو أن هذا القائل تأول بمعنى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾﴾ أي البسيطة، لكان أولى»[٦].

قال القاسمي: «وفي هذه الأقسام كلها كما قاله الإمام- إشارة إلى تعظيم أمر الضياء، وإعظام قدر النعمة فيه، ولفت أذهاننا إلى أنه من آيات اللَّه الكبرى ونعمه

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٨٧).
(٢) المدثر: الآيتان (٣٢-٣٣).
(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٢٣٩)
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٧).
(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٤٨٧-٤٨٨).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٣٣).

العظمى»[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾:

قال الرازي: «يعني يغشى الليل الشمس فيزيل ضوءها، وهذه الآية تقوي القول الأول [أي: أن الضمير في جلاها راجع إلى الشمس] في الآية التي قبلها من وجهين:

الأول: أنه لما جعل الليل يغشى الشمس ويزيل ضوءها حسن أن يقال: النهار يجليها، على ضد ما ذكر في الليل.

والثاني: أن الضمير في يغشاها للشمس بلا خلاف، فكذا في جلاها يجب أن يكون للشمس حتى يكون الضمير في الفواصل من أول السورة إلى هاهنا للشمس، قال القفال: وهذه الأقسام الأربعة ليست إلا بالشمس في الحقيقة لكن بحسب أوصاف أربعة، أولها: الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار، وذلك هو الوقت الذي يكمل فيه انتشار الحيوان واضطراب الناس للمعاش، ومنها تلو القمر لها وأخذه الضوء عنها، ومنها تكامل طلوعها وبروزها بمجيء النهار، ومنها وجود خلاف ذلك بمجيء الليل، ومن تأمل قليلًا في عظمة الشمس، ثم شاهد بعين عقله فيها أثر المصنوعية والمخلوقية من المقدار المتناهي، والتركب من الأجزاء، انتقل منه إلى عظمة خالقها، فسبحانه ما أعظم شأنه»[٢].

قال المراغي: «وفي هذا إيماء إلى أن الليل يطرأ على هذا الكوكب العظيم فيذهب ضوءه، ويحيل نور العالم ظلاما، فهو على جليل نفعه وعظيم فائدته، لا يتخذ إلها، لأن الإله لا يحول ولا يزول، ولا يعتريه تغير ولا أفول. وفيه ردع وتأنيب للمشركين على تأليهه وعبادته»[٣].

قال السعدي: «فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام لمصالح العباد، أكبر دليل على أن اللَّه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه باطل»[٤].

---

(١) محاسن التأويل ١٧/ ١٦٤

(٢) التفسير الكبير (٣١/ ١٩١).

(٣) تفسير المراغي (٣٠/ ١٦٧).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾:

قال الشوكاني: «يجوز أن تكون ما مصدرية، أي والسماء وبنيانها، ويجوز أن تكون موصولة، أي والذي بناها، وإيثار ما - على من لإرادة الوصفية لقصد التفخيم كأنه قال: والقادر العظيم الشأن الذي بناها. ورجح الأول الفراء والزجاج، ولا وجه لقول من قال: إن جعلها مصدرية مخل بالنظم. ورجح الثاني ابن جرير»[١].

قال ابن كثير: «وكلاهما متلازم، والبناء هو الرفع، كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي: بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾[٢]»[٣].

قال المراغي: «وفي ذكر البنيان إشارة إلى ما انطوى عليه رفعها وتسويتها من بارع الحكمة وتمام القدرة، وأن لها صانعا حكيما قد أحكم وضعها وأجاد تقديرها، فإنه شد هذه الكواكب بعضها إلى بعض، برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها حتى يتماسك. ولما كان الخطاب موجها إلى قوم لا يعرفون اللَّه بجليل صفاته، وكان القصد منه أن ينظروا في هذا الكون نظرة من يطلب للأثر مؤثرا، فينتقلوا من ذلك إلى معرفته تعالى، عبر عن نفسه بلفظ ما - التي هي الغاية في الإبهام»[٤].

قال ابن القيم مبينا وجه العدول عن لفظ من إلى ما: «لأن القسم تعظيم للمقسم به، واستحقاقه للتعظيم من حيث ما وأظهر هذا الخلق العظيم الذي هو السماء، ومن حيث سواها وزينها بحكمته، فاستحق التعظيم وثبتت قدرته، فلو قال: «ومن بناها» لم يكن في اللفظ دليل على استحقاقه للقسم من حيث اقتدر على بنائها، ولكان المعنى مقصورا على ذاته ونفسه، دون الإيماء إلى أفعاله الدالة على عظمته المنبئة عن حكمته، المفصحة باستحقاقه للتعظيم من خليقته»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾:

يقول ابن كثير: «قال مجاهد: ﴿طَحَىٰهَا﴾ دحاها، وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي خلق فيها، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿طَحَىٰهَا﴾

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٤٥).

(٢) الذاريات: الآيتان (٤٧-٤٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٣٤).

(٤) تفسير المراغي (٣٠/ ١٦٧).

(٥) بدائع الفوائد (١/ ١٣٢).

قسمها. وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، والثوري، وأبو صالح، وابن زيد: ﴿طَحَاهَا﴾ بسطها. وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثر من المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل: دحوته، أي: بسطته»[١].

قال ابن القيم: «وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها، وقد قيل: إن ما مصدرية فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه، وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده، ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار أمرا يشهد الناس حدوثه شيئا فشيئا، ويعلمون أن الحادث لابد له من محدث، كان العلم بذلك منزلا منزلة ذكر المحدث له لفظا، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة. ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[٢]. ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان، ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما، وكذلك النفس، فإن حدوثها غير مشهود حتى ظن بعضهم قدمها، فذكر مع الإقسام بها مسويها وفاطرها، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض، وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفا لهذا العالم، والطحو هو مد الأرض وبسطها وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حير عقول الطبائعيين، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء، فبروز جانب منها على خلاف مقتضى الطبيعة، وكونه هذا الجانب المعين دون غيره مع استواء الجوانب في الشكل الكروي يقتضي تخصيصا، فلم يجدوا بدا أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك، قلنا: فنعم إذن، ولكن عناية من لا مشيئة له ولا إرادة ولا اختيار، ولا علم بمعين أصلا كما تقولونه فيه محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٣٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٩٠).

(٣) التبيان (ص: ١٨-١٩).

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾

★ **غريب الآية:**

ألهمها: عَرَّفها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فأخبر أنه سوى النفس، كما أخبر أنه سوى البدن في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾[1]، فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه؛ بل سوى بدنه كالقالب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له. ومن ههنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها، فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن، كما يتأثر البدن وينتقل عنها، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه، فأشد الأشياء ارتباطا وتناسبا وتفاعلا وتأثرا من أحدها بالآخر الروح والبدن، ولهذا يقال لها عند المفارقة: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث»[2].

قال السعدي: «يحتمل أن المراد، ونفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم. ويحتمل أن الإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده. وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته، التي يحق الإقسام بها، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة، والتغير والتأثر، والانفعالات النفسية، من الهم والإرادة، والقصد، والحب والبغض. وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على ما هي عليه، آية من آيات اللّه العظيمة»[3].

---

(١) الانفطار: الآية (٧).

(٢) الروح ص: (٣٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٣٣).

قال ابن القيم: «أقسم بالنفس وبمن سواها، وألهمها فجورها وتقواها، فإن من الناس من يقول قديمة لا مبدع لها، ومنهم من يقول: بل هي التي تبدع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى، فأعلمنا أنه خالق نفوسا وأعمالها، وذكر لفظ التسوية كما ذكره في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞﴾[1]، وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[2] إيذانا بدخول البدن في لفظ النفس، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[3]، وقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً﴾[4]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[5]، ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[6]، ونظائره، وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية، وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها»[7].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞﴾ يدل على أن اللَّه هو الذي يجعل الفجور والتقوى في القلب، وقد جاءت آيات كثيرة تدل على أن فجور العبد وتقواه باختياره ومشيئته، كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾[9] ونحو ذلك. وهذه المسألة هي التي ضل فيها القدرية والجبرية. وأما القدرية: فضلوا بالتفريط، حيث زعموا أن العبد يخلق عمل نفسه استقلالا، عن غير تأثير لقدرة اللَّه فيه. وأما الجبرية فضلوا بالإفراط، حيث زعموا أن العبد لا عمل له أصلا حتى يؤاخذ به. وأما أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا ولم يفرطوا، فأثبتوا للعبد أفعالا اختيارية، ومن الضروري عند جميع العقلاء أن الحركة الارتعاشية ليست كالحركة الاختيارية، وأثبتوا أن اللَّه خالق كل شيء، فهو خالق العبد وخالق قدرته وإرادته، وتأثير قدرة العبد لا يكون إلا بمشيئة اللَّه تعالى. فالعبد وجميع أفعاله بمشيئة اللَّه تعالى، مع أن العبد يفعل اختيارا بالقدرة والإرادة اللتين خلقهما اللَّه فيه فعلا اختياريا يثاب عليه ويعاقب. ولو فرضنا أن جبريا ناظر سنيا فقال الجبري: حجتي لربي أن أقول: إني لست مستقلا بعمل،

(١) الانفطار: الآيتان (٦-٧).
(٢) الحجر: الآية (٢٩).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٩).
(٤) النور: الآية (٦١).
(٥) النساء: الآية (٢٩).
(٦) النور: الآية (١٢).
(٧) التبيان (ص: ١٩).
(٨) فصلت: الآية (١٧).
(٩) البقرة: الآية (١٦).

وإني لابد أن تنفذ في مشيئته وإرادته على وفق العلم الأزلي، فأنا مجبور، فكيف يعاقبني على أمر لا قدرة لي أن أحيد عنه؟ فإن السني يقول له: كل الأسباب التي أعطاها للمهتدين أعطاها لك، جعل لك سمعا تسمع به، وبصرًا تبصر به، وعقلا تعقل به، وأرسل لك رسولا، وجعل لك اختيارا وقدرة، ولم يبق بعد ذلك إلا التوفيق، وهو ملكه المحض: إن أعطاه ففضل وإن منعه فعدل، كما أشار له تعالى بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[1] بمعنى: أن ملكه للتوفيق حجة بالغة على الخلق، فمن أعطيه ففضل، ومن منعه فعدل. ولما تناظر أبو إسحاق الإسفرائيني مع عبد الجبار المعتزلي؛ قال عبد الجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء، وقصده أن المعاصي كالسرقة والزنى بمشيئة العبد دون مشيئة اللَّه، لأن اللَّه أعلى وأجل من أن يشاء القبائح في زعمهم، فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل، ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار: أتراه يخلقه ويعاقبني عليه؟ فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبرا عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى وقضى علي بالردى، أتراه أحسن إلي أم أساء؟ فقال أبو إسحاق: إن كان الذي منعك منه ملكا لك فقد أساء، وإن كان له فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبهت عبد الجبار، وقال الحاضرون: واللَّه ما لهذا جواب. وجاء أعرابي إلى عمرو ابن عبيد وقال له: ادع اللَّه لي أن يرد علي حمارة لي سرقت مني، فقال: اللهم إن حمارته سرقت ولم ترد سرقتها فارددها عليه، فقال له الأعرابي: يا هذا كف عني من دعائك الخبيث، إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد. وقد رفع اللَّه إشكال هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[2]، فأثبت للعبد مشيئة، وصرح بأنه لا مشيئة للعبد إلا بمشيئة اللَّه -جل وعلا-. فكل شيء صادر من قدرته ومشيئته جلا وعلا. وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾. وأما على قول من فسر الآية الكريمة بأن معنى: فألهمها فجورها وتقواها أنه بين لها طريق الخير وطريق الشر، فلا إشكال في الآية، وبهذا المعنى فسرها جماعة من العلماء،

---

(١) الأنعام: الآية (١٤٩).

(٢) الإنسان: الآية (٣٠).

والعلم عند اللَّه تعالى»[١].

قال ابن القيم: «والإلهام والإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم، كما قاله طائفة من المفسرين، إذ لا يقال لمن بين لغيره شيئا وعلمه إياه: إنه قد ألهمه ذلك، هذا لا يعرف في اللغة البتة؛ بل الصواب ما قاله ابن زيد، قال: جعل فيها فجورها وتقواها، وعليه حديث عمران بن حصين أن رجلا من مزينة أو جهينة أتى النبي ﷺ فقال: يارسول اللَّه أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سابق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «بل شيء قضي عليهم ومضى» قال: ففيم العمل؟ قال: «من خلقه اللَّه لإحدى المنزلتين استعمله بعمل أهلها، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞﴾. فقراءته هذه الآية عقيب إخباره بتقديم القضاء والقدر السابق، يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها، لا مجرد تعريفها، فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر. ومن فسر الآية من السلف بالتعليم والتعريف فمراده تعريف مستلزم لحصول ذلك، لا تعريف مجرد عن الحصول، فإنه لا يسمى إلهاما، وباللَّه التوفيق»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القدر

* عن أبي الأسود الدؤلي قال: «قال لي عمران بن الحصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلمًا؟ قال: ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا، وقلت: كل شيء خلق اللَّه وملك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله! إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول اللَّه ﷺ فقالا: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به

(١) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٧٧-٢٧٩).
(٢) شفاء العليل (١/ ١٥٨).

مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: لا، **بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ**: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝﴾»[1].

★ غريب الحديث:

يكدحون: أي: يسعون، والكدح هو السعي في العمل، سواء كان للآخرة أم للدنيا.

لأحزر: أي: لأمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك.

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «والذي في الحديث هو القدر السابق من علم الله وكتابه وكلامه، وهذا إنما تنكره غالية القدرية، وأما الذي في القرآن فهو خلق الله أفعال العباد وهذا أبلغ، فإن القدرية المجوسية تنكره.

فالذي في القرآن يدل على ما في الحديث وزيادة، ولهذا جعله النبي ﷺ مصدقا له، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه إذا علم أن الله هو الملهم للفجور والتقوى -ولم يكن في ذلك ظلم، كما تقوله القدرية الإبليسية، ولا مخالفة للأمر والنهي والوعد والوعيد، كما تقوله القدرية المشركية-، فالإقرار بأن الله كتب ذلك وقدره قبل وجوده، مما لا نزاع فيه عند الإنسان من جهة القدر، ولهذا قد أقر بالقدر السابق جمهور القدرية الذين ينكرون خلق الأفعال، ولم يثبت أحد من القدرية أن الله خالق أفعال العباد، وينكره من جهة القدر أن الله خالق ذلك.

الوجه الثاني: أنه إذا ثبت أن الله خالق فعل العبد، وأنه الملهم الفجور والتقوى، كان ذلك من جملة مصنوعاته، والشبهة التي عرضت للقدرية التي سأل المزنيان للنبي ﷺ، إنما هي في أعمال العباد التي عليها الثواب والعقاب خاصة، ولم ينكروا من جهة القدر أن الله قدر ما يخلقه هو قبل وجوده، وإنما أنكر من أنكر

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٤١-٢٠٤٢/ ٢٦٥٠).

منهم إذا اشتبه أمر أفعال العباد. وهؤلاء يقولون: إن الله يقدر الأمور قبل وجودها إلا أفعال العباد، والسعادة والشقاوة، فإن ذلك لا ينبغي أن يعلمه حتى يكون، لأن أمر الأمير بما يعلم أن المكلف لا يطيعه فيه، بل يكون ضررا عليه مستقبح عندهم. وقد حكى طوائف من المصنفين في أصول الفقه وغيرهم الخلاف في ذلك عن المعتزلة، وقالوا: يجوز أن الله يأمر العبد بما يعلم أنه لا يفعله خلافا للمعتزلة؛ لأن في جنس المعتزلة من يخالف في ذلك، وأكثرهم لا يخالف في ذلك، وإنما يخالف فيه طائفة منهم. فإذا كان القرآن قد أثبت أنه الملهم للنفس فجورها وتقواها، كان ذلك من جملة مفعولاته، فلا تبقى شبهة القدرية أنه قدر ذلك قبل وجوده، كما لا شبهة عندهم في تقديره لما يخلقه من الأعيان والصفات. وأما من أنكر تقديره العلم من منكرة الصفات أو بعضها، فأولئك لهم مأخذ آخر ليس مأخذهم أمر الصفات.

الوجه الثالث: أنه قد كان ألهم الفجور والتقوى وهو خالق فعل العبد، فلابد أن يعلم ما خلقه قبل أن يخلقه، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1]؛ لأن الفاعل المختار يريد ما يفعله، والإرادة مستلزمة لتصور المراد، وذلك هو العلم بالمراد المفعول، وإذا كان خلقه للشيء مستلزما لعلمه به، فذلك أصل القدر السابق، وما علمه الله سبحانه بقوله وبكتبه فلا نزاع فيه، وهذا بين في جميع الأشياء في هذا وغيره. فإنه سبحانه إذا ألهم الفجور والتقوى، فالملهم إن لم يميز بين الفجور والتقوى، ويعلم أن هذا الفعل الذي يريد أن يفعله هذا فجور، والذي يريد أن يفعله هذا تقوى، لم يصح منه إلهام الفجور والتقوى. فظهر بهذا حسن ما ذكره النبي ﷺ من تصديق الآية لما أخبر به النبي ﷺ من القدر السابق»[2].

قال القرطبي: «وقوله: «فلا يكون ظلمًا؟» كذا الرواية بغير ألف استفهام، وهي مرادة؛ إذ بالاستفهام حصل فزع المسؤول، وبه صح أنه يكون ما أتى به من قوله: «كل شيء خلق الله وملك يده».. إلخ جوابًا عما سأله عنه. ولو لم يكن الاستفهام مرادًا لكان الكلام نفيًا للظلم وهو صحيح وحق، ولا يفزع من ذلك، ولا يستدعي

---

(١) الملك: الآية (١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٣٢-٢٣٤).

جوابًا، وبيان ما سأله عنه أنه لما تقرر عنده أن ما يعمل الناس فيه شيء قضي به عليهم ولا بد لهم منه، فكأنهم يلجؤون إليه، فكيف يعاقبون على ذلك، فعقابهم على ذلك ظلم، وهذه من شبه القدرية المبنية على التحسين والتقبيح، وقد أجاب عن ذلك أبو الأسود وأحسن في الجواب، ومقتضى الجواب: أن الظلم لا يتصور من اللَّه تعالى؛ فإن الكل خلقه وملكه لا حجر عليه ولا حكم، فلا يتصور في حقه الظلم؛ لاستحالة شرطه على ما بيناه غير مرة، ثم عضد بقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾[1]، ولما سمع عمران هذا الجواب تحقق أنه قد وفق للحق، وأصاب عين الصواب، فاستحسن ذلك منه، وأخبره أنه إنما امتحنه بذلك السؤال ليختبر عقله وليستخرج علمه ثم قال: وتصديق ذلك في كتاب اللَّه تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ﴾ هو قَسَمٌ بنفوس بني آدم، وأفردها لأن مراده النوع، وهذا نحو قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾[2]، أي: كل نفس، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾[3]، ألا ترى قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ أي: حملها على ما أراد من ذلك، فمنها ما خلق للخير وأعانها عليه ويسره لها، ومنها ما خلق للشر ويسره لها، وهذا هو الموافق للحديث المتقدم المصدق بالآية وفي حديث عمران هذا من الفقه: جواز اختبار العالم عقول أصحابه الفضلاء بمشكلات المسائل، والثناء عليهم إذا أصابوا، وبيان العذر عن ذلك، والذي قضي عليها أنها إما من أهل السعادة وبعمل أهل السعادة الذي تدخل به الجنة تعمل، وإما من أهل الشقاوة وبعمل أهل الشقاوة الذي به تدخل النار تعمل، كما قال تعالى: «**هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فطوبى لمن قضيت له بالخير ويسرته عليه، والويل لمن قضيت عليه بالشر ويسرته له**»[4]، وما أحسن قول من قال: قسم قسمت، ونعوت أجريت، كيف تجتلب بحركات، أو تنال بسعايات، ومع ذلك فغيب اللَّه عنا

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٣).
(٢) الانفطار: الآية (٥).
(٣) المدثر: الآية (٣٨).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٤٤)، وأبو داود (٥/ ٧٩-٨٠/ ٤٩٩٣)، والترمذي (٥/ ٢٤٨-٢٤٩/ ٣٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٧/ ١١١٩٠)، وصححه ابن حبان (١٤/ ٣٧-٣٨/ ٦١٦٦)، والحاكم في ثلاثة مواضع (١/ ٢٧) (٢/ ٣٢٥-٣٢٦) و(٢/ ٥٤٤-٥٤٥)، وصححه في هذه المواضع كلها، ووافقه الذهبي في الموضعين الأخيرين، وخالفه في الموضع الأول معللًا إياه بالإرسال.

المقادير، ومكننا من الفعل والترك رفعًا للمعاذير، وخاطبنا بالأمر والنهي خطاب المستقلين، ولم يجعل التمسك بسابق القدر حجة للمقصرين، ولا عذرًا للمعتذرين، وعلق الجزاء على الأعمال، وجعلها له سببًا، قال تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[١]، وبـ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾[٢]، وقال في أهل الجنة: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٣]، وقال في أهل النار: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٤]، وقال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[٥]، وقال على لسان نبيه: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أردها عليكم، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه، ومن وجد الأخرى فلا يلومن إلا نفسه**»[٦]، وكل ذلك من اللَّه ابتلاء وامتحان، فيجب التسليم له والإذعان»[٧].

* * *

(١) الجاثية: الآية (٢٢).

(٢) النحل: الآية (١١١).

(٣) السجدة: الآية (١٧).

(٤) فصلت: الآية (٢٨).

(٥) النجم: الآية (٣١).

(٦) أحمد (٥/ ١٦٠)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، ابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧).

(٧) المفهم (٦/ ٦٦٢-٦٦٤).

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾

★ **غريب الآية:**

دَسَّاها: أخفاها. وكل شيء أخفيته وقَلَّلْتُه فقد دَسَسْتُهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

هذه الآية هي جواب القسم على الراجح من أقوال أهل التفسير.

يقول الشوكاني: «واختلف في جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ قاله الزجاج وغيره. قال الزجاج: وحذفت اللام لأن الكلام قد طال، فصار طوله عوضًا منها. وقيل: الجواب محذوف، أي: والشمس، وكذا لتبعثنّ. وقيل تقديره: ليدمدمنّ اللَّه على أهل مكة لتكذيبهم رسول اللَّه ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحًا، وأما: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء. وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف، والمعنى: قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، والشمس وضحاها. والأول أولى»[1].

قال ابن القيم: «وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ الضمير مرفوع في ﴿زَكَّاهَا﴾ عائد على ﴿مَن﴾ وكذلك هو في ﴿دَسَّاهَا﴾ المعنى: قد أفلح من زكى نفسه وقد خاب من دساها، هذا القول هو الصحيح، وهو نظير قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[2]، وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[3] إلى آخر الآيات، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾[4]، وقوله:

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٤٤).
(٢) الأعلى: الآية (١٤).
(٣) المؤمنون: الآيتان (١-٢).
(٤) البقرة: الآيات (٣-٥).

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾[١] ونظائره، قال الحسن: قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة اللَّه، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية اللَّه، وقاله قتادة. وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي: نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف، وقد خاب من دساها، أي: نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي، والفاجر أبدا خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربى وبقاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام لتخفى أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها، وأنشد:

وبوأت بيتك في معلم رحيب المباحات والمسرح
كفيت العفاة طلاب القرى ونبح الكلاب لمستنبح

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ فقال: دسى، معناه: دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا، فالمعنى: أخفى نفسه في الصالحين يرى الناس أنه منهم، وهو منطو على غير ما ينطوي عليه الصالحون. وقال طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى اللَّه سبحانه، قال ابن عباس في رواية عطاء: قد أفلحت نفس زكاها اللَّه وأصلحها، وهذا قول مجاهد وعكرمة والكلبي وسعيد بن جبير ومقاتل، قالوا: سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها اللَّه وطهرها، ووفقها للطاعة حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلها اللَّه وأغواها وأبطلها وأهلكها، قال أرباب هذا القول: قد أقسم اللَّه بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق وقضاء متقدم، قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة، قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ قالوا: ويشهد له حديث نافع عن ابن

(١) النور: الآية (٥١).

عمر عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله ﷺ وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها»[1] قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾ وقف ثم قال: «**اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها**»[2] قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له سبحانه، فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى، وهو مزكيها ومدسيها فليس للعبد في الأمر شيء، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئا. قال أرباب القول الأول: هذا القول وإن كان جائزا في العربية، حاملا للضمير المنصوب على معنى من، وإن كان لفظها مذكرا كما في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[3] جمع الضمير، وإن كان لفظ من مفردا حملا على نظمها، فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وههنا قد تقدم لفظ من، والضمير المرفوع في: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ يستحقه لفظا ومعنى فهو أولى به، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظا ومعنى، فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه، وأما عود الضمير الذي يلي من على الموصول السابق وهو قوله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ وإخلاء جاره الملاصق له وهو: ﴿مَن﴾، ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على من ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة، فهذا يجوز لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه، فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه، ولم تدع الضرورة إليه، فالحمل عليه ممتنع. قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٠٩)، وذكره الهيثمي في المجمع وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات»، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٣١٨): «رواه أحمد بإسناد جيد».

(٢) أخرجه: الطبراني (١١/ ١٠٦/ ١١١٩١)، وذكره الهيثمي في المجمع وقال: «رواه الطبراني وإسناده حسن»، وفيه ابن لهيعة وقد ضعفوه. وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٣٨/ ١٤٧١)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٦).

(٣) يونس: الآية (٤٢).

الثاني: أن فيه زيادة فائدة، وهي إثبات فعل العبد وكسبه وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ إثبات القضاء والقدر السابق، فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيرا ما يقترنان في القرآن كقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾[2] فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية.

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم دون العكس، فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها فإنما يزكيها بعد تزكية اللّٰه لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية اللّٰه لها بخذلانه والتخلية بينه وبين نفسه، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البته»[3].

وما صححه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ من كون الضمير عائدا إلى الإنسان، هو ما رجحه شيخه ابن تيمية، وضعف القول الآخر بقوله: «وهذا مخالف للظاهر، بعيد عن نهج البيان الذي ألف عليه القرآن.. وأيضا فقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ بيان للقدر، فلا حاجة إلى ذكره مرة ثانية عقب ذلك في مثل هذه السورة القصيرة»[4].

قال ابن القيم وهو يعدد عقوبات الذنوب والمعاصي: «ومن عقوباتها أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة اللّٰه وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية اللّٰه، وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾[5]، فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند اللّٰه، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل

---

(١) المدثر: الآيات: (٥٤-٥٦).
(٢) التكوير: الآيتان (٢٨-٢٩).
(٣) التبيان (٢٠-٢٣).
(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٣١).
(٥) النحل: الآية (٥٩).

حصل لها هذا العز والشرف والنمو، فما صغر النفس مثل معصية اللَّه، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن اللَّه ﷻ هو المزكي للنفوس

* عن زيد بن أرقم ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «قوله: «أنت خير من زكاها» أي: من جعلها زاكية، يعني لا مزكي لها إلا أنت، فإنه تعالى هو الذي يزكي النفوس فتصير زاكية، أي: عاملة بالطاعة، فاللَّه هو المزكي، والعبد هو المتزكي»[٣].

قال الطيبي: «قوله: «**اللهم آت نفسي تقواها**» ينبغي أن تفسر التقوى بما يقابل الفجور في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ وهي الاحتراز عن متابعة الهوى وارتكاب الفجور والفواحش؛ لأن الحديث كالتفسير والبيان للآية، فدل قوله: «آت» على أن الإلهام في الآية هو خلق الداعية الباعث على الاجتناب عن المذكورات وقوله: «أنت وليها ومولاها» استئناف على بيان الموجب، وأن إيتاء التقوى وتحصيل التزكية فيها إنما كان لأنه هو متولي أمرها وربها ومالكها، فالتزكية إن حملت على تطهير النفس عن الأفعال والأقوال والأخلاق الذميمة، كانت بالنسبة إلى التقوى مظاهر ما كان ممكنًا في الباطن، وإن حملت على الإنماء والإعلاء بالتقوى، كانت تحلية بعد التخلية؛ لأن المتقي شرعًا من اجتنب النواهي وأتى بالأوامر»[٤].

---

(١) الداء والدواء (ص: ١٢٤-١٢٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٧١)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٨/ ٢٧٢٢)، والترمذي (٥/ ٥٢٨/ ٣٥٧٢) مختصرًا، والنسائي (٨/ ٦٥٣/ ٥٤٧٣).

(٣) فيض القدير (٢/ ١٥٣).

(٤) شرح الطيبي (٦/ ١٩١٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1] »[2].

* عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ خطب ذات يوم، فقال في خطبته: ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: «كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأَمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»[3].

تقدمت فوائد هذين الحديثين عند قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ بما أغنى عن إعادتها ههنا.

* * *

(١) الروم: الآية (٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (٣/ ٢٨١/ ١٣٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨)، وأبو داود (٥/ ٨٦-٨٨/ ٤٧١٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٩/ ٢١٣٨) مختصرًا.

(٣) أخرجه: مطولًا أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فعقروها: نحروها. يقال: عقرت البعير، وعقرت ظَهْرَهُ: إذا أثرت فيه بالركوب. وأصل ذلك من: أَصَبْتُ عُقْرَهُ، أي: أَصْلَهُ.

دمدم: الدمدمة: إطباق الشيء على الشيء. والمراد: إهلاكهم بإطباق العذاب عليهم.

عقباها: أي: عاقبتها وتبعتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «جرت عادة القرآن أن يذكر بعض أخبار الأمم السابقة وما كان منهم مع رسلهم، وما قابلوه به من التكذيب والإيذاء، ثم يذكر ما جرت به سنته سبحانه من الإيقاع بالمكذبين، وأخذهم بظلمهم وبما عملوا مع أنبيائهم، ليكون في ذلك سلوة للرسول ﷺ بأنه لم يلق إلا ما لقي إخوانه الأنبياء، ولم يكابد من قومه إلا مثل ما كابدوا، وليكون في ذلك تخويف لأولئك المكذبين الذين يعاندون رسول اللَّه ويلحفون في تكذيبه، بأنهم إذا استمروا على ذلك حاق بهم مثل ما حاق بالأمم السالفة، ونالوا من الجزاء مثل ما نالوا»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾﴾ يقول: كذبت ثمود بطغيانها، يعني: بعذابها الذي وعدهموه صالح عليه السلام، فكان ذلك العذاب طاغيا طغى عليهم، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾[2].. وقال آخرون: كذبت ثمود بمعصيتهم اللَّه.. وقال آخرون: بل معنى ذلك بأجمعها..

(١) تفسير المراغي (٣٠/ ١٧٠).
(٢) الحاقة: الآية (٥).

وقيل: طغواها، بمعنى: طغيانهم، وهما مصدران للتوفيق بين رؤوس الآي، إذ كانت الطغوى أشبه بسائر رؤوس الآيات في هذه السورة، وذلك نظير قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾[1] بمعنى: وآخر دعائهم»[2].

وهذا الوجه الأخير هو ما رجحه ابن كثير واصفا إياه بأنه الأولى بقوله: «قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، فأعقبهم ذلك تكذيبا في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم من الهدى واليقين»[3].

قال ابن عاشور: «وفيه تعريض بتنظير مشركي قريش في تكذيبهم بثمود، في أن سبب تكذيبهم هو الطغيان والتكبر عن اتباع من لا يرون له فضلا عليهم، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾[4]»[5].

وقوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢﴾:

قال الرازي: «والمعنى: أنه كذبت ثمود بسبب طغيانهم حيث انبعث أشقاها وهو عاقر الناقة»[6].

وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

قال ابن كثير: «يعني: صالحا ﷺ، ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم، ولكم شرب يوم معلوم. قال الله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: كذبوه فيما جاءهم به، فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم، وحجة عليهم، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: غضب عليهم فدمر عليهم، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء»[7].

قال الشوكاني: «وإنما أسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله»[8].

قال الرازي: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ ففيه وجوه: أولها: أنه كناية عن الرب تعالى، إذ هو أقرب المذكورات، ثم إختلفوا فقال بعضهم:

---

(١) يونس: الآية (١٠).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٢١٣-٢١٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٣٦).
(٤) الزخرف: الآية (٣١).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧٢-٣٧٣).
(٦) التفسير الكبير (٣١/ ١٩٥).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٣٧).
(٨) فتح القدير (٥/ ٦٤٦).

لا يخاف تبعة في العاقبة إذ العقبى والعاقبة سواء، كأنه بين أنه تعالى يفعل ذلك بحق. وكل ما فعل ما يكون حكمة وحقًا فإنه لا يخاف عاقبة فعله. وقال بعضهم: ذكر ذلك لا على وجه التحقيق، لكن على وجه التحقير لهذا الفعل، أي: هو أهون من أن تخشى فيه عاقبة، والله تعالى يجل أن يوصف بذلك، ومنهم من قال: المراد منه التنبيه على أنه بالغ في التعذيب، فإن كل ملك يخشى عاقبة، فإنه يتقي بعض الاتقاء، والله تعالى لما لم يخف شيئًا من العواقب، لا جرم ما اتقى شيئًا. وثانيها: أنه كناية عن صالح الذي هو الرسول، أي: ولا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذي ينزل بهم، وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه لو حاول محاول أن يؤذيه لأجل ذلك. وثالثها: المراد أن ذلك الأشقى الذي هو أحيمر ثمود فيما أقدم من عقر الناقة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾، وهذه الآية وإن كانت متأخرة لكنها على هذا التفسير في حكم المتقدم، كأنه قال: إذ انبعث أشقاها، ولا يخاف عقباها، والمراد بذلك أنه أقدم على عقرها، وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه، ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لا يخاف البتة، فنسب في ذلك إلى الجهل والحمق»[1].

قال ابن القيم: «وذكر في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة فقال شيخنا: هذا -والله أعلم- من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين وقوم لوط وغيرهم، ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[2]، وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة، لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما، فكان في قوم لوط -مع الشرك- إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها، وفي قوم عاد -مع الشرك- التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا وشدة البطش، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وفي أصحاب مدين -مع الشرك- الظلم

(١) التفسير الكبير (٣١/ ١٩٧).
(٢) فصلت: الآيتان: (١٥-١٦).

في الأموال، وفي قوم فرعون -مع الشرك- الفساد في الأرض والعلو، وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم، فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين، وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال، فإذا كان عذاب هؤلاء -وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها اللَّه آية لهم- فمن انتهك محارم اللَّه، واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده وسفك دماءهم، كان أشد عذابا، ومن اعتبر أحوال العالم قديما وحديثا وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن، واستهان بحرمات اللَّه، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون. قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر، دون غيرهم، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[1]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[2]، أي: موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم، فإن اللَّه لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد. ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[3]، ثم قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، ولهذا أمكن عادا المكابرة وأن يقولوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[4]، ولم يمكن ذلك ثمود، وقد رأوا البينة عيانا، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض، واللَّه أعلم»[5].

---

(١) فصلت: الآية (١٧).
(٢) الإسراء: الآية (٥٩).
(٣) فصلت: الآية (١٥).
(٤) هود: الآية (٥٣).
(٥) التبيان (٢٣-٢٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان وصف عاقر الناقة

* عن عبد اللَّه بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب، وذكر الناقة والذي عقر، فقال رسول اللَّه ﷺ: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢﴾ **انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة**». وذكر النساء فقال: «**يعمد أحدكم يجلد امرأته جلد العبد، فلعله يضاجعها من آخر يومه**». ثم وعظهم في ضحكهم من الضرطة وقال: «**لم يضحك أحدكم مما يفعل؟**»[1].

★ غريب الحديث:

عزيز: قليل المثل.

عارم: صعب على من يرومه، كثير الشهامة والشر.

منيع: ذو منعة، أي: رهط يمنعونه من الضيم.

★ فوائد الحديث:

«في هذا الحديث بيان وكشف لصفة عاقر الناقة، وأنه رجل شريف في قومه عزيز فيهم، رئيس مطاع»[2].

ذكر ابن حجر في «الفتح» أن عاقر الناقة يقال: اسمه قدار بن سالف، قال: «وذكر ابن إسحاق في المبتدإ وغير واحد أن سبب عقرهم الناقة أنهم كانوا اقترحوها على صالح عليه السلام، فأجابهم إلى ذلك بعد أن تعنتوا في وصفها، فأخرج اللَّه له ناقة من صخرة بالصفة المطلوبة، فآمن بعض وكفر بعض، واتفقوا على أن يتركوا الناقة ترعى حيث شاءت، وترد الماء يومًا بعد يوم، وكانت إذا وردت تشرب ماء البئر كله، وكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم للغد، ثم ضاق بهم الأمر في ذلك، فانتدب تسعة رهط منهم قدار المذكور، فباشر عقرها، فلما بلغ ذلك صالحًا عليه السلام أعلمهم بأن العذاب سيقع بهم بعد ثلاثة أيام، فوقع كذلك كما أخبر اللَّه تعالى

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٧)، والبخاري (٨/ ٩١٣/ ٤٩٤٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩١/ ٢٨٥٥)، والترمذي (٥/ ٤١٠/ ٣٣٤٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٥/ ١١٦٧٥)، وابن ماجه (١/ ٦٣٨/ ١٩٨٣) مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد.

(٢) أفاده ابن كثير (٨/ ٤٣٧).

في كتابه»[١].

قلت: وقدارٌ هذا عاقر الناقة هو أحيمر ثمود، كما جاء وصفه بذاك في الحديث، فعن عمار بن ياسر قال: قال رسول اللَّه ﷺ لعلي بن أبي طالب: **«ألا أحدثكم بأشقى الناس؟ رجلين: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه -يعني قرنه- حتى يبل منه هذه -يعني الدم على لحيته-»**[٢].

قال المناوي: «إنما قال له أحيمر؛ لأنه كان أحمر أشقر أزرق قصيرًا ذميمًا»[٣].

* * *

(١) فتح الباري (٦/ ٤٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٥٣/ ٨٥٣٨)، والبزار (كشف الأستار ٣/ ٢٠٢/ ٢٥٦٧)، والحاكم (٣/ ١٤١) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٣٦) وقال: «رواه أحمد والطبراني والبزار باختصار، ورجال الجميع موثقون إلا أن التابعي لم يسمع من عمار».

(٣) فيض القدير (٣/ ٩٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الليل

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

يغشى: أي: يغشى الأشياء بظلمته، بمعنى: يغطيها.

تجلى: انكشف وظهر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه، ويسكن الخلق عن الاضطراب، ويغشاهم النوم الذي جعله اللَّه راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم»[1].

قال الشوكاني: «أي: يغطي بظلمته ما كان مضيئا، قال الزجاج: يغشى الليل الأفق وجميع ما بين السماء والأرض، فيذهب ضوء النهار، وقيل: يغشى النهار، وقيل: يغشى الأرض والأول أولى»[2].

قال ابن القيم: «فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة

---

(١) التفسير الكبير (٣١/ ١٩٨).

(٢) فتح القدير (٥/ ٦٥٠).

عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئا بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة، ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝﴾[1] وأقسم به وقت سريانه كما تقدم، وأقسم به وقت إدباره، وأقسم به إذا عسعس، فقيل: معناه أدبر، فيكون مطابقا لقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝﴾[2]. وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝﴾ فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار، وعلى الأول يكون القسم واقعا على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته»[3].

وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝﴾:

قال ابن جرير: «وهذا أيضا قسم، أقسم بالنهار إذا هو أضاء، فأنار وظهر للأبصار ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته، وإتيانه إياها عيانا، وكان قتادة يذهب فيما أقسم اللَّه به من الأشياء أنه إنما أقسم به لعظم شأنه عنده»[4].

قال الرازي: «أقسم بالنهار إذا تجلى، لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة، وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم وتتحرك الطير من أوكارها، والهوام من مكامنها، فلو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش، ولو كان كله نهارا لبطلت الراحة، لكن المصلحة كانت في تعاقبهما على ما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾[5]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[6]»[7].

* * *

(١) الشمس: الآيتان (٣-٤).
(٢) المدثر: الآيتان (٣٣-٣٤).
(٣) التبيان (ص: ٤٠-٤١).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ٢١٧).
(٥) الفرقان: الآية (٦٢).
(٦) إبراهيم: الآية (٣٣).
(٧) التفسير الكبير (٣١/ ١٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «إن كانت (ما) موصولة؛ كان إقسامًا بنفسه الكريمة الموصوفة بكونه خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية، كان قسمًا بخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد إبقاءها ذكرًا وأنثى؛ ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلًّا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلًّا منهما مناسبًا للآخر، فتبارك اللَّه أحسن الخالقين»[1].

قال ابن القيم: «وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها، وأقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى، على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار والذكر والأنثى»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء للآية وتوجيه ذلك

* عن إبراهيم قال: قدم أصحاب عبد اللَّه على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم، فقال: أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟ قال: كلنا، قال: فأيكم يحفظ؟ وأشاروا إلى علقمة، قال: كيف سمعته يقرأ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾. قال علقمة: (والذكر

(١) تفسير السعدي (٧/ ٦٣٦).
(٢) التبيان (ص: ٤١).

والأنثى) قال: أشهد أني سمعت النبي ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾، والله لا أتابعهم[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال المازري: «يجب أن يعتقد في هذا الخبر وفي ما سواه مما هو بمعناه مما جعلته الملاحدة طعنًا في القرآن، ووهنًا في نقله، أن ذلك كان قرآنًا ثم نسخ، ولم يعلم بعض من خالف بالنسخ، فبقي على الأول، ولعل هذا إنما يقع من بعضهم قبل أن يتصل به مصحف عثمان رضي الله عنه المجمع عليه، والمحذوف منه كل منسوخ قراءته، وأما بعد ظهور مصحف عثمان رضي الله واشتهاره فلا يظن بأحد منهم أنه أبدى فيه خلافًا، وأما ابن مسعود رضي الله عنه فقد رويت عنه روايات كثيرة، منها: ما لم يثبت عند أهل النقل، وما ثبت منها مما يخالف ظاهره ما قلناه، فإنه محمول على أنه كان يكتب في مصحفه القرآن ويلحق به من بعض الأحكام والتفاسير ما يعتقد أنه ليس بقرآن، ولكن لم ير تحريم ذلك عليه، ورأى أنها صحيفته يثبت فيها ما شاء، وكان من رأي عثمان والجماعة منع ذلك، لئلا يتطاول الزمان وينقل عنه القرآن فيخلط به ما ليس منه، فيعود الخلاف إلى مسألة فقهية، وهي جواز إلحاق بعض التفاسير بأثناء المصحف أو منع ذلك، ويحمل أيضًا ما روي من إسقاط (المعوذتين) من مصحفه على أنه اعتقد أنه لا يلزمه أن يكتب كل ما كان من القرآن، وإنما يكتب منه ما كان له فيه غرض، وكأن (المعوذتين) لقصرهما وكثرة دورهما في الصلاة، والتعوذ بهما عند سائر الناس، اشتهرت بذلك اشتهارًا استغنى معه عن إثبات ذلك في المصحف»[٢].

قال ابن العربي: «المعول عليه ما في المصحف، فلا تجوز مخالفته لأحد، ثم بعد ذلك يقع النظر في ما يوافق خطه مما لم يثبت ضبطه حسبما بيناه في موضعه، فإن القرآن لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عدلًا، وإنما يثبت بالتواتر الذي يقع به العلم، وينقطع معه العذر، وتقوم به الحجة على الخلق»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٨-٤٤٩)، والبخاري (٨/ ٩١٦/ ٤٩٤٤)، ومسلم (١/ ٥٦٥-٥٦٦/ ٨٢٤)، والترمذي (٥/ ١٧٥/ ٢٩٣٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٦/ ١١٦٧٦-١١٦٧٧).

(٢) المعلم (١/ ٣١٠).

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٩٤٢).

قال القرطبي: «قراءة عبد اللّٰه بن مسعود وأبي الدرداء رضي الله عنهما (والذكر والأنثى) ليست قرآنًا هكذا بإجماع الصحابة والمسلمين بعدهم، واتفاق المصاحف على خلافها، وأن القراءة المتواترة: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾. وبقي عبد اللّٰه وأبو الدرداء على ما سمعاه وأبيا أن يقرآ على قراءة الجماعة، وعليهما في ذلك إشكال، وعلى قراءتهما يكون الذكر هو آدم، والأنثى حواء، وهو المقسم بهما، وعلى قراءة الجماعة المقسم به: ما خلق، وهو بمعنى (الذي)، ويعني به الخالق، وقد قيل: يعني بذلك المصدر، فكأنه قال: وخَلْق الذكر والأنثى، وعلى هذا فيكون الذكر والأنثى يراد به النوع كله، واللّٰه تعالى أعلم»[1].

* * *

(١) المفهم (٧/ ٤٣٠-٤٣١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

شتى: أي: مختلف. وإنما قيل له ذلك لتباعد ما بين بعضه وبعضه، فمنه هدى، ومنه ضلالة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ولفظ السعي هو العمل، لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه بحسب الإمكان، فإن كان يفتقر إلى عدو بدنه عدا، وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع، وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك، فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس هو مرادفا للفظ العمل كما ظنه طائفة، بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه ويجتهد فيه، ولهذا قال في الجمعة ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]، وهذه أحسن من قراءة من قرأ: «فامضوا إلى ذكر الله» وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وائتوها تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[2] فلم ينه عن السعي إلى الصلاة، فإن اللَّه أمر بالسعي إليها؛ بل نهاهم أن يأتوا إليها يسعون، فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه، والإتيان فعل البدن وسعيه عدو البدن، وهو منهي عنه، وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها، والتفرغ لها من الأعمال الشاغلة من بيع وغيره، والإقبال بالقلب على السعي إليها، وكذلك قوله في قصة فرعون لما قال له موسى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾[3]،

---

(١) الجمعة: الآية (٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٨)، والبخاري (٢/ ١٤٩/ ٦٣٦)، ومسلم (١/ ٤٢٠-٤٢١/ ٦٠٢)، وأبو داود (١/ ١٨٤/ ٥٧٢)، والترمذي (٢/ ١٤٨-١٤٩/ ٣٢٧)، والنسائي (٢/ ٤٤٩-٥٠/ ٨٦٠)، وابن ماجه (١/ ٢٥٥/ ٧٧٥).

(٣) النازعات: الآيات (١٨-٢٣).

فهذا اهتمام واجتهاد في حشر رعيته ومناداته فيهم، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾[(١)] هو عمل بهمة واجتهاد، ومنه سمي الساعي على الصدقة، والساعي على الأرملة واليتيم، ومنه قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ وهو العمل الذي يقصده صاحبه، ويعتني به ليترتب عليه ثواب أو عقاب، بخلاف المباحات المعتادة، فإنها لم تدخل في هذا السعي»[(٢)].

قال الرازي: «قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ هذا جواب القسم، فأقسم تعالى بهذه الأشياء، أن أعمال عباده لشتى، أي: مختلفة في الجزاء، وشتى جمع شتيت، مثل: مرضى ومريض، وإنما قيل للمختلف: شتى، لتباعد ما بين بعضه وبعضه، والشتات هو التباعد والافتراق، فكأنه قيل: إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض، لأن بعضه ضلال وبعضه هدى، وبعضه يوجب الجنان، وبعضه يوجب النيران، فشتان ما بينهما، ويقرب من هذه الآية قوله: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾[(٤)]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾[(٥)]، وقال: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١﴾[(٦)]»[(٧)].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٢٠٥).

(٢) التبيان (ص: ١٢).

(٣) الحشر: الآية (٢٠).

(٤) السجدة: الآية (١٨).

(٥) الجاثية: الآية (٢١).

(٦) فاطر: الآية (٢١).

(٧) التفسير الكبير (٣١/ ١٩٩).

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحسنى: أي: كلمة التوحيد: لا إله إلا اللَّه، قاله ابن عباس.

سنيسره: سنرشده ونوفقه.

لليسرى: لأسباب الخير والصلاح. وقيل: للجنة.

للعسرى: أي: للخصال المؤدية للعسر والشدة. وقيل: النار. قاله ابن مسعود رضي الله عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «تضمنت الآيتان ذكر شرعه وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربك أحدا، وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي: أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته، وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة، والإخلاص والتوبة والشكر، وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه، ونيته وقصده، فتكون نفسه نفسا مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة، فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي، فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل، فجزاء هذا أن ييسره اللَّه لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى وهي اجتناب ما نهى اللَّه عنه، وهذا من أعظم أسباب

التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه، تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى، وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾[1]، فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[2]، وهذا أيضا ييسر عليه بتقواه وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾[3]، وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾[4] وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[5]، والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾[6] فضمن لهم سبحانه بالتوقي ثلاثة أمور: أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيبا في الدنيا، ونصيبا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين. الثاني: أعطاهم نورا يمشون به في الظلمات. الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سببا لكل يسر، وترك التقوى سببا لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بلا إله إلا الله، وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف، واليسرى صفة لموصوف محذوف، أي: الحالة والخلة اليسرى وهي فعلى من اليسرى، والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال وأفضل الجزاء، فمن فسرها بلا إله إلا الله، فقد فسرها بمفرد يأتي بكل

---

(١) الطلاق: الآية (٤).
(٢) الطلاق: الآيتان (٢-٣).
(٣) الطلاق: الآية (٥).
(٤) الأنفال: الآية (٢٩).
(٥) آل عمران: الآية (١٣٠).
(٦) الحديد: الآية (٢٨).

جمع، فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا اللَّه، يستلزم التصديق بشعبها وفرعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة، فلا يكون العبد مصدقا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يكون مؤمنا باللَّه إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله، ولا يكون مؤمنا بأن اللَّه لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج، ولا يكون مصدقا بها من نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله ﷺ إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، ولا يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقا بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثة الأجساد من القبور ليوم النشور، ولا يكون مصدقا بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله، وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هو تفصيل لا إله إلا اللَّه، فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله، وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله، ومن فسرها بالخلف ذكر نوعا من الجزاء، فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه، والتحقيق أنها تتناول الأمرين.

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث -وهي الإعطاء والتقوى، والتصديق بالحسنى- من العلم والعمل، وتضمنته من الهدى ودين الحق، فإن النفس لها ثلاث قوى: قوة البذل والإعطاء، وقوة الكف والامتناع، وقوة الإدراك والفهم، ففيها قوة العلم والشعور، ويتبعها قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة، فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها، ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى، وفساد

قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء، وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء، فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهي عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها، فقد زكى نفسه، وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر، وإن شئت قلت: الدين طلب وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك، فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها، فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور، والتصديق بالحسنى تصديق الخبر، فانتظم ذلك الدين كله، فأكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها، فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع، ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى، قال ابن عباس: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ أي نهيئه لعمل الخير، تيسر عليه أعمال الخير، وقال مقاتل والكلبي والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح.

وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير وييسر على قلبه ويديه ولسانه وجوارحه، فتصير خصال الخير ميسرة عليه مذللة له منقادة، لا تستعصي عليه ولا تستصعب؛ لأنه مهيأ لها ميسر لفعلها، يسلك سبلها ذللا، وتقاد له علما وعملا، فإذا خاللته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا وللدين

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي، وقال مقاتل:

يعسر عليه أن يعطي خيرا ، وقال عكرمة عن ابن عباس : نيسره للشر . قال الواحدي : وهذا هو القول؛ لأن الشر يؤدي إلى العذاب ، فهو الخلة العسرى ، والخير يؤدي إلى اليسر والراحة في الجنة ، فهو الخلة اليسرى ، يقول : سنهيئه للشر بأن يجريه على يديه ، قال الفراء : العرب تقول : قد يسرت غنم فلان إذا تهيأت للولادة ، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها ، أي يسرت ذلك على أصحابها انتهى .

والتيسير للعسرى يكون بأمرين :

أحدهما : أن يحول بينه وبين أسباب الخير ، فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه .

والثاني : أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر كما حال بينه وبين أسبابه .

فإن قيل : كيف قابل اتقى باستغنى؟ ، وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟ قيل : هذا من أحسن المقابلة ، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه ، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه ، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء ، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة ، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره ، فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعا لحال تارك التقوى ، ومبالغة في ذمه بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغني عن ربه ، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه ، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين ، فلله ما أحلى هذه المقابلة ، وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها ، والشرور كلها وأسبابها ، فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه ، وتجلى لهم فيه ، فهم لا يطلبون أثرا بعد عين ، ولا يستبدلون الحق بالباطل ، والصدق بالمين .

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر ، وإزالة كل لبس وإشكال فيها ، وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه»[1] .

---

(١) التبيان (ص : ٤١-٤٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القدر وفضيلة الإنفاق في سبيل الله

* عن علي ﷺ قال: «كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار. فقالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل؟ فقال: اعملوا، فكلٌّ ميسر. ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾»[1].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي، وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقا، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الإبداء هدم أصله، ونقض قاعدته، والنبي ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى أن العبد ميسر لما خلق له لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة، وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين، فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق، وكانوا إذا استشكلوا شيئا سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقا، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين، ومن سلك سبيلهم.

وفي الحديث استدلال النبي ﷺ على مسائل أصول الدين بالقرآن، وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه، خلافا لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه، وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٣٢-١٣٣)، والبخاري (٨/ ٩١٧/ ٤٩٤٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٩-٢٠٤٠/ ٢٦٤٧)، وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤)، والترمذي (٥/ ٤١٠-٤١١/ ٣٣٤٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٦/ ١١٦٧٨).

خلافا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة ولم يخلقوا لها.

وفيه إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له.

وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ومطابقتها له، فتأمل قوله ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[1]، ومطابقته لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ كيف انتظم الشرع والقدر، والسبب والمسبب؟.

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ هو الذي فطر اللَّه عليه عباده، بل الحيوان البهيم بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك، فلو قال كل أحد: إن قدر لي كذا وكذا فلابد أن أناله، وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله، فلا أسعى ولا أتحرك لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبدا، وإن أتى به في أمر معين، فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعها من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه، أم يجد نفسه غير منفكة البتة عن قول النبي ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»؟ فإذا كان هذا في مصالح الدنيا وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد، فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته؟، وهل هذا إلا محض الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول، ظلوم لنفسه جهول بربه، فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ وتلا عنده هاتين الآيتين موافقا لما جعله اللَّه في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه.

ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع، وتعطلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدين، وإنما يستروح إلى ذلك معطلوا الشرائع، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه، وذلك ميراث من إخوانهم المشركين، الذين دفعوا أمر اللَّه ونهيه، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره، كما حكى اللَّه سبحانه ذلك عنهم في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ

(١) سيأتي تخريجه.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾[4].

فإن قيل: فالإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى هي من اليسرى؛ بل هي أصل اليسرى، من يسرها للعبد أولا؟ وكذلك أضدادها؟ قيل: اللَّه سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر، وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة فيسرهم للعسرى، واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له، كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما، ولا يليق بهما، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك، ومن جعل محل المسك والرجيع واحدا فهو من أسفه السفهاء.

فإن قيل: فلم جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟ قيل: هذا سؤال جاهل لا يستحق الجواب كأنه يقول: لم خلق اللَّه كذا وكذا؟.

فإن قيل: وعلى هذا فهل لهذا الجاهل من جواب لعله يشفى من جهله؟ قيل: نعم شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال، فالعلو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد والصحو والغيم، ومن لوازم الطبيعة الحيوانية: الصحة والمرض واختلاف الإرادات والمرادات، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع، ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات، وظهور أحكامها وآثارها لابد منه، إذ هو مقتضى

---

(١) الأنعام: الآيتان (١٤٨-١٤٩).
(٢) النحل: الآية (٣٥). (٣) الزخرف: الآية (٢٠).
(٤) يس: الآية (٤٧).

الكمال المقدس والملك التام، وإذا أعطيت اسم الملك حقه ولن تستطيع علمت أن الخلق والأمر والثواب والعقاب والعطاء والحرمان أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقتضي ذلك ولا بد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع، فالملك الحق يقتضي إرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة، كما تستلزم حياة الملك وعلمه وإرادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامه ورحمته ورضاه وغضبه، واستواءه على سرير ملكه يدبر أمر عباده، وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة، وباللّه التوفيق»[1].

* عن سالم بن عبد اللّه يحدث عن ابن عمر قال: «قال عمر: يا رسول الله! أرأيت ما نعمل فيه؟ أفي أمر قد فرغ أو مبتدإ أو مبتدع؟ قال: **فيما قد فرغ منه، فاعمل يا ابن الخطاب! فإن كلًّا ميسرٌ، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء**»[2].

★ فوائد الحديث:

تقدمت في سورة (هود) الآية (١٠٥).

* عن جابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله! بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير**». قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت: ما قال؟ فقال: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ**»[3].

★ فوائد الحديث:

تقدم معناه في المواضع التي تقدم الإشارة إليها آنفا وفي سورة (الشمس) عند

---

(١) التبيان (ص: ٤٥-٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٢) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٣٨٧-٣٨٨/ ٢١٣٥) وقال: «حسن صحيح».

وللحديث شواهد صحيحة في الصحيحين وغيرهما من حديث علي وغيره، انظر ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم رقم (١٦٧) فما بعده.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٢-٢٩٣، ٣٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٠-٢٠٤١/ ٢٦٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞﴾[١].

قال النووي: «قوله: «**جفّت به الأقلام**» أي: مضت به المقادير وسبق علم اللَّه تعالى به، وتمت كتابته في اللوح المحفوظ، وجف القلم الذي كتب به وامتنعت فيه الزيادة والنقصان، قال العلماء: وكتاب اللَّه تعالى ولوحه وقلمه والصحف المذكورة في الأحاديث كل ذلك مما يجب الإيمان به، وأما كيفية ذلك وصفته فعلمها إلى اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[٢]، واللَّه أعلم»[٣].

وقال أيضًا: «وفي هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر، وأن جميع الواقعات بقضاء اللَّه تعالى وقدره، خيرها وشرها، نفعها وضرها. قال اللَّه تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۞﴾[٤]، فهو ملك للّه تعالى يفعل ما يشاء، ولا اعتراض على المالك في ملكه. قال الإمام أبو المظفر السمعاني: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار اللَّه تعالى التي ضربت من دونها الأستار، اختص اللَّه به، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لما علمه من الحكمة. وواجبنا أن نقف حيث حد لنا، ولا نتجاوزه، وقد طوى اللَّه تعالى علم القدر على العالم، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها، واللَّه أعلم.

وفي هذه الأحاديث النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميسر لما خلق له، لا يقدر على غيره، ومن كان من أهل السعادة يسره اللَّه لعمل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسره اللَّه لعملهم كما قال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞﴾، و﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾، وكما صرحت به هذه الأحاديث»[٥].

---

(١) الشمس: الآيتان (٧و٨).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٣) شرح مسلم (١٦/ ١٦٢).
(٤) الأنبياء: الآية (٢٣).
(٥) شرح مسلم (١٦/ ١٦٠-١٦١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»[١].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «يعني الممسك عن النفقات الواجبات، وأما الممسك عن المندوبات، فقد لا يستحق هذا الدعاء بـ«اللهم» إلا أن يغلب عليه البخل بها، وإن قلت في أنفسها كالحبة واللقمة وما شاكل هذا، فهذا يتناوله هذا الدعاء؛ لأنه إنما يكون كذلك لغلبة صفة البخل المذمومة عليه، وقلما يكون كذلك إلا ويبخل بكثير من الواجبات، أو لا يطيب نفسًا بها، واللَّه تعالى أعلم»[٢].

قال النووي: «قال العلماء: هذا في الإنفاق في الطاعات، ومكارم الأخلاق، وعلى العيال، والضيفان، والصدقات، ونحو ذلك، بحيث لا يذم ولا يسمى سرفًا، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا»[٣].

قال الحافظ: «وأما الخلف فإبهامه أولى ليتناول المال والثواب وغيرهما. وكم من متق مات قبل أن يقع له الخلف المالي، فيكون خلفه الثواب المعدّ له في الآخرة، أو يدفع عنه من السوء ما يقابل ذلك»[٤].

وقال أيضًا: «أفاد حديث أبي هريرة أن الكلام المذكور موزع بينهما، فنسب إليهما في حديث أبي الدرداء نسبة المجموع إلى المجموع. وتضمنت الآية الوعد بالتيسير لمن ينفق في وجوه البر، والوعيد بالتعسير لعكسه. والتيسير المذكور أعم من أن يكون لأحوال الدنيا أو لأحوال الآخرة، وكذا دعاء الملك بالخلف يحتمل الأمرين. وأما الدعاء بالتلف فيحتمل تلف ذلك المال بعينه، أو تلف نفس صاحب المال، والمراد به فوات أعمال البر بالتشاغل بغيرها»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٥)، والبخاري (٣/ ٣٠٤/ ١٤٤٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٠/ ١٠١٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٥/ ٩١٧٨).

(٢) المفهم (٣/ ٥٥).

(٣) شرح مسلم (٧/ ٨٣).

(٤) فتح الباري (٣/ ٣٨٨).

(٥) فتح الباري (٣/ ٣٨٩).

قال القاضي عياض: «وفيه الحض على الإنفاق، ورجاء قبول دعوة الملائكة»[١].

قال القرطبي: «إن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أرذلها. وليس الجواد الذي يعطي في غير موضع العطاء، ولا البخيل الذي يمنع في موضع المنع، لكن الجواد الذي يعطي في موضع العطاء، والبخيل الذي يمنع في موضع العطاء، فكل من استفاد بما يعطي أجرًا وحمدًا فهو الجواد، وكل من استحق بالمنع ذمًّا أو عقابًا فهو البخيل، ومن لم يستفد بالعطاء أجرًا ولا حمدًا، وإنما استوجب به ذمًّا فليس بجواد، وإنما هو مسرف مذموم، وهو من المبذرين الذين جعلهم اللَّه إخوان الشياطين، وأوجب الحجر عليهم، ومن لم يستوجب بالمنع عقابًا ولا ذمًّا، واستوجب به حمدًا، فهو من أهل الرشد، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم، بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم»[٢].

* * *

(١) الإكمال (٣/ ٥٣١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٥٧-٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تردّى: هَلَكَ. وقيل: سقط في جهنم. والردى: الهلاك. وأرداه: أهلكه. قال القطامي:

أيام قومي مكاني منصب لهم ... ولا يظنون إلا أنني رَادِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن «ما» هنا يحتمل أن يكون استفهامًا بمعنى الإنكار، ويحتمل أن يكون نفيًا. وأما ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ ففيه وجهان الأول: أن يكون ذلك مأخوذًا من قولك: تردى من الجبل: قال اللَّه تعالى: ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ﴾[1] فيكون المعنى: تردى في الحفرة إذا قبر، أو تردى في قعر جهنم، وتقدير الآية: إنا إذا يسرناه للعسرى، وهي النار تردى في جهنم، فماذا يغني عنه ماله الذي بخل به وتركه لوارثه، ولم يصحبه منه إلى آخرته، التي هي موضع فقره وحاجته شيء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[2]، وقال: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾[3] أخبر أن الذي ينتفع الإنسان به هو ما يقدمه الإنسان من أعمال البر، وإعطاء الأموال في حقوقها، دون المال الذي يخلفه على ورثته، الثاني: أن تردى تفعل من الردى وهو الهلاك يريد الموت»[4].

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾:

قال ابن القيم: «قيل: معناه: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال قال قتادة: على اللَّه البيان، بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته، اختاره أبو

---

(١) المائدة: الآية (٣).
(٢) الأنعام: الآية (٩٤).
(٣) مريم: الآية (٨٠).
(٤) التفسير الكبير (٣١/ ٢٠٢).

إسحاق، وهو قول مقاتل وجماعة، وهذا المعنى حق، ولكن مراد الآية شيء آخر، وقيل: المعنى إن علينا للهدى والإضلال، قال ابن عباس ﷺ في رواية عطاء: يريد أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي، قال الفراء: فترك ذكر الإضلال كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[1]، أي: والبرد، وهذا أضعف من القول الأول وإن كان معناه صحيحا، فليس هو معنى الآية، وقيل المعنى: من سلك الهدى فعلى اللّه سبيله كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾[2] وهذا قول مجاهد وهو أصح الأقوال في الآية.

قال الواحدي: علينا للهدى، أي: إن الهدى يوصل صاحبه إلى اللّه وإلى ثوابه وجنته، وهذا المعنى في القرآن في ثلاث مواضع: ههنا وفي النحل في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، وفي الحجر في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[3]، وهو معنى شريف جليل يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى اللّه ولابد، والهدى هو الصراط المستقيم، فمن سلكه أوصله إلى اللّه، فذكر الطريق والغاية، فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى اللّه، فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات، ولما كان مطلوب السالك إلى اللّه تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه، فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئا، وأن الدنيا والآخرة جميعا له وحده، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده، فتضمنت الآيتان أربعة أمور هي المطالب العالية: ذكر أعلى الغايات وهو الوصول إلى اللّه سبحانه، وأقرب الطرق والوسائل إليه وهي طريقة الهدى، وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها، وتوحيد المطلوب وهو الحق فلا يعدل عنه إلى غيره، فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات فإن هذه غاية العلم والفهم وباللّه التوفيق.

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة، والانقطاع وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أوفي

---

(١) النحل: الآية (٨١).

(٢) النحل: الآية (٩).

(٣) الحجر: الآية (٤١).

بعضها، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر، فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة، والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة فتأمله.

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة، والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة»[1].

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾:

يقول القاسمي: «أي: ملكا وخلقا، فلا يضرنا توليكم عن الهدى. وذلك لغناه تعالى المطلق، وتفرده بملك ما في الدارين، وكونه في قبضة تصرفه. لا يحول بينه وبينه أحد، ولا يحصله أحد، حتى يضر عدم اهتدائه أو ينفع اهتداؤه. وفيه إشارة إلى تناهي عظمته وتكامل قهره وجبروته. وإن من كان كذلك، فجدير أن يبادر لطاعته ويحذر من معصيته»[2].

قال ابن عاشور: «وعطف ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾ على جملة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ تتميم وتنبيه على أن تعهد اللّه لعباده بالهدى فضل منه، وإلا فإن الدار الآخرة ملكه، والدار الأولى ملكه بما فيهما، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[3] فله التصرف فيهما كيف يشاء، فلا يحسبوا أن عليهم حقا على اللّه تعالى إلا ما تفضل به»[4].

* * *

(١) التبيان (ص: ٤٨-٤٩). وانظر مجموع الفتاوى (١٥/ ١٩٨) فما بعدها.
(٢) محاسن التأويل (١٧/ ١٧٤).
(٣) الزخرف: الآية (٨٥).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٨٨-٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾

★ **غريب الآية:**

تلظى: أصلها: تتلظى. بمعنى: تتلهب وتتوقد.

يصلاها: يدخلها ويقاسي حرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي: حذرتكم وخوفتكم نارا تتوقد وتتوهج، وأصله تتلظى فحذفت إحدى التاءين تخفيفا. وقرأ على الأصل عبيد بن عمير، ويحيى ابن يعمر، وطلحة بن مصرف، ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥﴾ أي: لا يصلاها صليا لازما على جهة الخلود إلا الأشقى وهو الكافر، وإن صليها غيره من العصاة، فليس صليه كصليه، والمراد بقوله: يصلاها: يدخلها أو يجد صلاها، وهو حرها. ثم وصف الأشقى فقال: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ أي: كذب بالحق الذي جاءت به الرسل وأعرض عن الطاعة والإيمان. قال الفراء: ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ إلا من كان شقيا في علم اللَّه -جل ثناؤه-. قال أيضا: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيبا كما تقول: لقي فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه»[1].

قال الزجاج: «وهذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر، لقوله: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ وليس كما ظنوا، هذه نار موصوفة بعينها لا يصلى هذه النار إلا الأشقى الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل فمنها قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[2]، واللَّه ﷻ كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به،

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٥١).

(٢) النساء: الآية (١٤٥).

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]، فلو كان كل من لم يشرك بالله لا يعذب، لم يكن في قوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فائدة، وكان يغفر ما دون ذلك»[2].

قال ابن القيم: «اغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾، ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل: لا يدخلها؛ بل قال: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها، فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونا له أن يجنبها»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من النار وصفة أصحابها

* عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنذركم النار، أنذركم النار، أنذركم النار**». حتى لو كان في مقامي هذا وهو بالكوفة سمعه أهل السوق، قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه[4].

★ **فوائد الحديث:**

فيه ما كان عليه ﷺ من إنذار أمته عذاب النار؛ لما يعلم من هوله وشدته وأليم أثره. **يقول القاري:** قوله: «**أنذرتكم النار**» أي: أخبرتكم بوجودها وأخبرتكم بشدتها، وخوفتكم بأنواع عقوبتها. «**أنذرتكم النار**» أي: أعلمتكم بما يتقى به عنها حتى قلت لكم: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[5]، ثم يمكن أن يراد بهما الإنذار في زمان الحال، وعبر بالماضي لتحققه في السابق اللاحق للاستقبال، أو الأول إخبار

---

(١) النساء: الآية (٤٨). (٢) معاني القرآن (٥/ ٣٣٦).

(٣) الداء والدواء (ص: ٣٢-٣٣).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٨-٢٧٢)، والدارمي (٢/ ٣٢٩-٣٣٠)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ٤١١/ ٦٤٤)، والحاكم (١/ ٣٨٧) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٨)، والبخاري (٣/ ٣٥٩/ ١٤١٣)، ومسلم (٢/ ٧٠٣/ ١٠١٦)، والترمذي (٤/ ٥٢٨/ ٢٤١٥)، والنسائي (٥/ ٧٨-٧٩/ ٢٥٥١- ٢٥٥٢)، وابن ماجه (١/ ٦٦/ ١٨٥) (١/ ٥٩٠-٥٩١/ ١٨٤٣).

والثاني إنشاء، أو جمع بينهما للتأكيد في أحد المعاني، وفي نسخة «كرر ثلاثًا» «فما زال يقولها» أي: يكرر الكلمة المذكورة ويرفع بها صوته «حتى لو كان» أي: النبي ﷺ «في مقامي هذا» أي: المقام الذي كان الراوي فيه عند روايته هذا الحديث «سمعه» أي: سمع صوته «أهل السوق»؛ لأنه بالغ في رفع الصوت عملًا بقول نوح -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾[1]»[2].

* عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه**»[3].

★ **غريب الحديث:**

يغلي: الغليان معروف، وهو شدة غليان الماء ونحوه على النار؛ لشدة اتقادها.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «إن القليل من عذاب جهنم -أعاذنا اللَّه منه- لا تطيقه الجبال، وخصوصًا عذاب الكافر»[4].

قال الكرماني: «إن النار تغلي بدن الإنسان بحيث يؤدي أثره إلى الدماغ»[5].

قال النووي: «وفي هذا الحديث وما أشبهه تصريح بتفاوت عذاب أهل النار، كما أن نعيم أهل الجنة متفاوت، واللَّه أعلم»[6].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كل أمتي يدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى**». قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[7].

---

(١) نوح: الآيتان (٨و٩). (٢) المرقاة (٩/ ٦٥٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١و٢٧٤)، والبخاري (١١/ ٥٠٨/ ٦٥٦١-٦٥٦٢)، ومسلم (١/ ١٩٦/ ٢١٣) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٦١٨/ ٢٦٠٤). (٤) المفهم (١/ ٤٥٨).

(٥) شرح البخاري (٢٣/ ٥٤).

(٦) شرح مسلم (٣/ ٧٢).

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦١) واللفظ له، والبخاري (١٣/ ٣١٠/ ٧٢٨٠).

⋆ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «يحتمل أن يراد بالأمة أمة الدعوة، أي: كلهم يدخلون الجنة على التفصيل السابق في باب الإيمان، و(الآبي) هو الكافر. أو يراد بها أمة الإجابة، فـ«الآبي» هو العاصي من أمته، استثناه تغليظًا عليهم وزجرًا عن المعاصي، «ومن أبى» عطف على محذوف، أي: عرفنا الذين يدخلون الجنة، ومن الذي أبى؟ أي: والذي أبى لا نعرفه، وكان من حق الجواب أن يقال: من عصاني، فعدل إلى ما هو عليه تنبيهًا به على أنهم ما عرفوا ذلك ولا هذا، إذ التقدير: من أطاعني وتمسك بالكتاب والسنة دخل الجنة، ومن اتبع هواه وزل عن الصواب وضل عن الطريق المستقيم فقد دخل النار، فوضع «أبى» موضعه وضعًا للسبب موضع المسبب، ويشد هذا التأويل إيراد محيي السنة هذا الحديث في «باب الاعتصام بالكتاب والسنة»، والتصريح بذكر الطاعة، فإن المطيع هو الذي يعتصم بالكتاب والسنة ويجتنب عن الأهواء والبدع»[1].

قال الحافظ: «والموصوف بالإباء، وهو الامتناع، إن كان كافرًا فهو لا يدخل الجنة أصلًا، وإن كان مسلمًا فالمراد منعه من دخولها مع أول داخل، إلا من شاء اللَّه تعالى»[2].

* * *

(١) شرح الطيبي (٢/ ٦٠٦).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٣١٧).

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ أي: يصرف ماله في طاعة ربه، ليزكي نفسه وماله وما وهبه اللَّه من دين ودنيا»[١].

قال الشوكاني: «ويكون المعنى: لا يصلاها صليًا تامًا لازما إلاّ الكامل في الشقاء، وهو الكافر، ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيدًا كاملًا، بحيث لا يحوم حولها فضلًا عن أن يدخلها إلاّ الكامل في التقوى، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولًا غير لازم، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيدًا غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل في التقوى عنها. والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥﴾ زاعمًا أن الأشقى الكافر؛ لأنه الذي كذب وتولى، ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول في قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾ فإنه يدلّ على أنه لا يجنب النار إلاّ الكامل في التقوى، فمن لم يكن كاملًا فيها كعصاة المسلمين، لم يكن ممن يجنب النار. فإن أوّلت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى، فخذ إليك هذه مع تلك، وكن كما قال الشاعر:

على أنني راض بأن أحمل الهوى ... وأخرج منه لا عليّ ولا ليه

وقيل: أراد بالأشقى والأتقى، الشقيّ والتقيّ، كما قال طرفة بن العبد:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي: بواحد. ولا يخفاك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالتكذيب، فإن ذلك لا يكون إلاّ من الكافر، فلا يتمّ ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٤٤).

المسلمين»(١).

وقد فسر الأتقى بأبي بكر في قول جميع المفسرين(٢)؛ بل قد حكى بعضهم الإجماع على ذلك(٣).

قال شيخ الإسلام: «ونحن نبين صحة قولهم بالدليل فنقول: الأتقى قد يكون نوعا، وقد يكون شخصا، وإذا كان نوعا فهو يجمع أشخاصا، فإن قيل: إنهم ليس فيهم شخص هو أتقى كان هذا باطلا؛ لأنه لا شك أن بعض الناس أتقى من بعض، مع أن هذا خلاف قول أهل السنة والشيعة، فإن هؤلاء يقولون: إن أتقى الخلق بعد رسول اللَّه ﷺ من هذه الأمة هو أبو بكر، وهؤلاء يقولون: هو علي، وقد قال بعض الناس: هو عمر، ويحكى عن بعض الناس غير ذلك، ومن توقف أو شك لم يقل إنهم مستوون في التقوى، فإذا قال: إنهم متساوون في الفضل، فقد خالف إجماع الطوائف، فتعين أن يكون هذا أتقى.

وإن كان الأتقى شخصا، فإما أن يكون أبا بكر أو عليا، فإنه إذا كان اسم جنس يتناول من دخل فيه وهو النوع، وهو القسم الأول، أو معينا غيرهما، وهذا القسيم منتف باتفاق أهل السنة والشيعة، وكونه عليا باطل أيضا؛ لأنه قال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾(٤).

وهذا الوصف منتف في علي لوجوه:

أحدها: أن هذه السورة مكية بالاتفاق، وكان علي فقيرا بمكة في عيال النبي ﷺ، ولم يكن له مال ينفق منه؛ بل كان النبي ﷺ قد ضمه إلى عياله لما أصابت أهل مكة سنة.

الثاني: أنه قال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ وعلي كان للنبي ﷺ عنده نعمة تجزى، وهو إحسانه إليه لما ضمه إلى عياله، بخلاف أبي بكر، فإنه لم يكن له عنده نعمة دنيوية، لكن كان له عنده نعمة الدين، وتلك لا تجزى، فإن أجر النبي ﷺ فيها على اللَّه لا يقدر أحد يجزيه، فنعمة النبي ﷺ عند أبي بكر دينية لا تجزى،

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٥٢).

(٢) أفاده الواحدي في الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٥٠٥).

(٣) أفاده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٤٤). (٤) الليل: الآيات (١٨-٢١).

ونعمته عند علي دنيوية تجزى ودينية. وهذا الأتقى ليس لأحد عنده نعمة تجزى، وهذا الوصف لأبي بكر ثابت دون علي.

فإن قيل: المراد به أنه أنفق ماله لوجه اللَّه، لا جزاء لمن أنعم عليه، وإذا قدر أن شخصا أعطى من أحسن إليه أجرا، وأعطى شيئا آخر لوجه اللَّه، كان هذا مما ليس لأحد عنده من نعمة تجزى. قيل: هب أن الأمر كذلك، لكن عليا لو أنفق لم ينفق إلا فيما يأمره به النبي ﷺ، والنبي له عنده نعمة تجزى، فلا يخلص إنفاقه عن المجازاة كما يخلص إنفاق أبي بكر، وعلي أتقى من غيره، لكن أبا بكر أكمل في وصف التقوى مع أن لفظ الآية أنه ليس عنده قط لمخلوق نعمة تجزى، وهذا وصف من يجازي الناس على إحسانهم إليه، فلا يبقى لمخلوق عليه منة، وهذا الوصف منطبق على أبي بكر انطباقا لا يساويه فيه أحد من المهاجرين، فإنه لم يكن في المهاجرين عمر وعثمان وعلي وغيرهم رجل أكثر إحسانا إلى الناس قبل الإسلام وبعده بنفسه وماله من أبي بكر، كان مؤلفا محببا يعاون الناس على مصالحهم، كما قال فيه ابن الدغنة سيد القارة: لما أراد أن يخرج من مكة: (مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، فإنك تحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق)[١].

و في صلح الحديبية لما قال لعروة بن مسعود: (امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال لأبى بكر، لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك)[٢]. وما عرف قط أن أحدا كانت له يد على أبي بكر في الدنيا لا قبل الإسلام ولا بعده فهو أحق الصحابة، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، فكان أحق الناس بالدخول في الآية»[٣].

قال الشوكاني: «والأولى حمل الأتقى والأشقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين»[٤]. «ولا شك أن أبا بكر داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها»[٥].

---

(١) أخرجه في حديث طويل أحمد (٦/ ١٩٨)، البخاري (٧/ ٢٩١-٢٩٣/ ٣٩٠٥) وأبو داود (٤/ ٣٤٣/ ٤٠٨٣) مختصرًا من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

(٢) أخرجه مطولا أحمد (٤/ ٣٢٣-٣٢٦)، البخاري (٥/ ٤١٢-٤١٦/ ٢٧٣١-٢٧٣٢)، وأخرجه أبو داود (٣/ ١٩٤-٢٠٩/ ٢٧٦٥)، والنسائي (٥/ ١٨٤/ ٢٧٧٠) من حديث المسور بن مخرمة.

(٣) منهاج السنة (٧/ ٣٧٦-٣٨٠).

(٤) فتح القدير (٥/ ٦٥٢).

(٥) أفاده ابن كثير (٨/ ٤٤٤)

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون التزكي على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافي الخلوص، أي: ليس ممن يتصدق بماله ليجازي بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده، ويكافئه عليها، وإنما يبتغي بصدقته وجه اللَّه تعالى، ومعنى الآية: أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتي من ماله مجازاتها، وإنما قال تجزى مضارعا مبنيا للمفعول لأجل الفواصل، والأصل يجزيها إياه، أو يجزيه إياها ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾»[1].

قال شيخ الإسلام: «والمعنى: لا يقتصر في العطاء على من له عنده يد يكافئه بذلك، فإن هذا من العدل الواجب للناس بعضهم على بعض، بمنزلة المعاوضة في المبايعة والمؤاجرة، وهذا واجب لكل أحد على كل أحد، فإذا لم يكن لأحد عنده نعمة تجزى لم يحتج إلى هذه المعادلة، فيكون عطاؤه خالصا لوجه ربه الأعلى، بخلاف من كان عنده لغيره نعمة يحتاج أن يجزيه لها، فإنه يحتاج أن يعطيه مجازاة له على ذلك، وهذا الذي ما لأحد عنده من نعمة تجزى إذا أعطى ماله يتزكى، فإنه في معاملته للناس يكافئهم دائما، ويعاونهم ويجازيهم، فحين أعطاه اللَّه ماله يتزكى لم يكن لأحد عنده من نعمة تجزى.

وفيه أيضا ما يبين أن التفضيل بالصدقة لا يكون إلا بعد أداء الواجبات من المعاوضات، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾[2]، ومن تكون

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٢) البقرة: الآية (٢١٩).

عليه ديون وفروض وغير ذلك أداها، ولا يقدم الصدقة على قضاء هذه الواجبات، ولو فعل ذلك فهل ترد صدقته على قولين معروفين للفقهاء، وهذه الآية يحتج بها من يرد صدقته؛ لأن اللَّه إنما أثنى على من آتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، فإذا كان عنده نعمة تجزى فعليه أن يجزيها قبل أن يؤتي ماله يتزكى، فأما إذا آتى ماله يتزكى قبل أن يجزيها لم يكن ممدوحا، فيكون عمله مردودا؛ لقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١] »[٢].

وفي هذه الآية إثبات الوجه لله تعالى حقيقة، ورد على من أولها وحملها على المجاز، **يقول ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن من تدبر سياق الآيات والأحاديث والآثار التي فيها ذكر وجه اللَّه الأعلى، ذي الجلال والإكرام، قطع ببطلان من حملها على المجاز، وأنه الثواب والجزاء، لو كان اللفظ صالحا في ذلك لغة، فكيف واللفظ لا يصلح لذلك لغة، فمنها قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٣]، وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ »[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل أبي بكر

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من أنفق زوجين في سبيل اللَّه نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله! هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة**». فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما على من يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**»[٥].

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٤٣-١٣٤٤/ ١٧١٨[١٨]).

(٢) منهاج السنة (٧/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٣) الرحمن: الآية (٢٧).

(٤) مختصر الصواعق (ص: ٣٩١).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٨)، والبخاري (٤/ ١٤٠/ ١٨٩٧)، ومسلم (٢/ ٧١١-٧١٢/ ١٠٢٧)، والترمذي (٥/ ٥٧٣-٥٧٤/ ٣٦٧٤)، والنسائي (٤/ ٤٧٨-٤٧٩/ ٢٢٣٧).

★ **غريب الحديث:**

من أنفق زوجين: «معناه عند أهل العلم: من أنفق شيئين من نوع واحد، نحو درهمين أو دينارين أو فرسين أو قميصين، وكذلك من صلى ركعتين، ومشى في سبيل اللَّه خطوتين، أو صام يومين، ونحو ذلك كله. وإنما أراد -واللَّه أعلم- أقل التكرار، وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البر؛ لأن الاثنين أقل الجمع»[1].

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث أورده ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ مبينا به فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنه كان أكثر الأمة إنفاقا في سبيل اللَّه، من غير أن تكون لأحد عليه منة دنيوية يكافئه عليها ويجازيه بها، وهذا هو عين ما مدحته الآية، وأثنت على من اتصف به.

قال ابن كثير: «ولا شك أنه [أي: أبو بكر] داخل فيها، [أي: الآية] وأنه أولى الأمة بعمومها؛ فإن لفظها لفظ العموم، وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾[2]، ولكنه مقدم الأمة، وسابقهم في جميع هذه الأوصاف، وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقًا تقيًّا كريمًا جوادًا بذالًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول اللَّه ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل»[3]، ثم ذكر قصة أبي بكر مع عروة بن مسعود المتقدم ذكرها.

قال العيني: «قوله: **«وأرجو أن تكون منهم»**: خطاب لأبي بكر -رضي اللَّه تعالى عنه-، والرجاء من النبي ﷺ واجب، نبه عليه ابن التين. فدل هذا على فضيلة أبي بكر رضي اللَّه تعالى عنه، وعلى أنه من أهل هذه الأعمال كلها»[4].

قال أبو عمر بن عبد البر: «في هذا الحديث من الفقه والفضائل: الحض على الإنفاق في سبيل الخير، والحرص على الصوم. وفيه أن أعمال البر لا يفتح في

---

(١) التمهيد (فتح البر ٧/ ١٣٣).
(٢) الليل: الآيات (١٧-١٩).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٤٤).
(٤) عمدة القاري (٨/ ١٩).

الأغلب للإنسان الواحد في جميعها، وأن من فتح له في شيء منها حرم غيرها في الأغلب، وأنه قد تفتح في جميعها للقليل من الناس، وأن أبا بكر الصديق ﷺ من ذلك القليل»[١].

قال الحافظ: «وفيه إشارة إلى أن المراد ما يتطوع به من الأعمال المذكورة، لا واجباتها؛ لكثرة من يجتمع له العمل بالواجبات كلها، بخلاف التطوعات، فقلّ من يجتمع له العمل بجميع أنواع التطوعات، ثم من يجتمع له ذلك إنما يدعى من جميع الأبواب على سبيل التكريم له، وإلا فدخوله إنما يكون من باب واحد، ولعله باب العمل الذي يكون أغلب عليه، والله أعلم»[٢].

وقال أيضًا: «وفيه أن الملائكة يحبون صالحي بني آدم، ويفرحون بهم»[٣].

* * *

(١) التمهيد (فتح البر ٧/ ١٣٢).
(٢) فتح الباري (٧/ ٣٤).
(٣) فتح الباري (٧/ ٣٥).



سورة الضحى

أغراض السورة

تضمنت سورة الضحى من الأغراض «إبطال قول المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي ﷺ قد انقطع عنه. وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه. وذلك يغيظ المشركين.

ثم ذكّره اللّه بما حفّه به من ألطافه وعنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله، وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على اللّه بما هو أهله»[1].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٤).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلضُّحَىٰ ① وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾

★ **غريب الآية:**

سجى: سَكَنَ. وعَيْنٌ ساجية: أي: فاترة النظر. وسجا البحر: سكنت أمواجه. قال الأعشى:

فما ذَنْبُنَا أن جاشَ بحر ابنِ عمّكم وبحرك سَاجٍ ما يواري الدعامصا

وسَجَا الليل أيضًا: غطى كل شيء بظلامه. ومنه تَسْجِيَةُ الميت: تغطيته. قال الشاعر:

يا حَبذا القمراءُ والليلُ السّاج وطُرُق مثلُ مُلاءِ النساج

قلى: القَلْيُ: شدة البغض. يقال: قَلاهُ يقليه قِلىً وقَلاءً: إذا أبغضه. قال امرؤ القيس:

صَرفتُ الهوى عنهن مِن خَشْية الرّدى ولستُ بمقليّ الخلال ولا قَالِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «المراد بالضحى هنا النهار كله، لقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾، فلما قابل الضحى بالليل دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه، وهو في الأصل: اسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدم في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ①﴾[1]. والظاهر: أن المراد به الضحى من غير تعيين، وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: إن المراد الضحى الذي كلم الله فيه موسى، والمراد بقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾ ليلة المعراج، وقيل: المراد بالضحى: هو الساعة التي خر فيها السحرة سجدا، كما في قوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[2] وقيل: المقسم به مضاف مقدر كما تقدم في

(١) الشمس: الآية (١).
(٢) طه: الآية (٥٩).

نظائره: أي ورب الضحى، وقيل: تقديره: وضحاوة الضحى، ولا وجه لهذا، فلله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه»[١].

قال ابن القيم: «فتأمل مطابقة هذا القسم -وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل- للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربُّه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضًا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس وهذان للعقل، وأيضًا فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها»[٢].

قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾:

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: والليل إذا أقبل بظلامه.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: إذا ذهب.. وقال آخرون: معناه: إذا استوى وسكن.. وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي في ذلك قول من قال: معناه: والليل إذا سكن بأهله، وثبت بظلامه، كما يقال: بحر ساج، إذا كان ساكنا»[٣].

قال ابن كثير: «وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، -أي الضحى والليل- كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾[٤] وقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾[٥]»[٦].

وقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾:

قال السعدي: «أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٥٧).
(٢) التبيان (ص: ٥٠).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ٢٢٩-٢٣٠).
(٤) الليل: الآيتان (١-٢).
(٥) الأنعام: الآية (٩٦).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٤٧).

لم يزل يربيك أكمل تربية، ويعليك درجة بعد درجة، ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾، اللَّه، أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوت كمال. فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها محبة اللَّه له، واستمرارها وترقيته في درجات الكمال، ودوام اعتناء اللَّه به»[1].

قال الشيخ محمد عطية سالم: «أقسم تعالى بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتها للمقسم عليه، لأنهما طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون، فإنه يقول له مؤانسًا: ما ودعك ربك وما قلى، لا في ليل ولا في نهار، على ما سيأتي تفصيله إن شاء اللَّه.

وقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾، قرئ بالتشديد من توديع المفارق. وقرئ: ما ودعك، بالتخفيف من الودع، أي من الترك، كما قال أبو الأسود:

ليت شعري عن خليل ما الذي ... نما له في الحب حتى ودعه

أي: تركوهم فرائس السيوف.

قال أبو حيان: والتوديع مبالغة في الودع، لأن من ودعك مفارقًا، فقد بالغ في تركك. اهـ.

والقراءة الأولى أشهر وأولى، لأن استعمال ودع بمعنى ترك قليل.

قال القرطبي: وقال المبرد: لا يكادون يقولون: ودع ولا وذر، لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك، ويدل على قول المبرد سقوط الواو في المضارع، فتقول في مضارع: ودع يدع كيزن ويهب ويرث، من المضارع: يذرهم، والأمر: ذرهم. فترجحت قراءة الجمهور بالتشديد من ودعك من التوديع.

وقد ذكرنا هذا الترجيح، لأن ودع بمعنى فيها شدة وشبه جفوة وقطيعة، وهذا لا يليق بمقام المصطفى ﷺ عند ربه. أما الموادعة والوداع، فقد يكون مع المودة والصلة، كما يكون بين المحبين عند الافتراق، فهو وإن وادعه بجسمه فإنه لم يوادعه بحبه وعطفه، والسؤال عنه وهو ما يتناسب مع قوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾.

تنبيه:

هنا ما ودعك بصيغة الماضي، وهو كذلك للمستقبل، بدليل الواقع وبدليل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٤١).

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾[1] لأنها تدل على مواصلة عناية اللَّه به حتى يصل إلى الآخرة فيجدها خيرًا له من الأولى، فيكون ما بين ذلك كله في عناية ورعاية ربه.

وقد جاء في صلح الحديبية، قال لعمر: أنا عبد اللَّه ورسوله، أي تحت رحمته وفي رعايته.

وقوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ حذف كاف الخطاب لثبوتها فيما معها، فدلت عليها هكذا، قال المفسرون: وقال بعضهم: تركت لرأس الآية، والذي يظهر من لطيف الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف، أن الموادعة تشعر بالوفاء والود، فأبرزت فيها كاف الخطاب، أي لم تتأت موادعتك وأنت الحبيب، والمصطفى المقرب أما قلى: ففيها معنى البغض، فلم يناسب إبرازها في إبعاد قصده ﷺ بشيء من هذا المعنى، كما تقول لعزيز عليك: لقد أكرمتك، وما أهنت لقد قربتك، وما أبعدت كراهية أن تنطق بإهانته وكراهيته، أو تصرح بها في حقه، والقلى: يمد ويقصر هو البغض، يمد إذا فتحت القاف، ويقصر إذا كسرتها، وهو واوي وياءي، وذكر القرطبي، قال: أنشد ثعلب:

أيام أم الغمر لا نقلاها ولو تشاء قبلت عيناها

وقال في كثير عزة:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

فالأول قال: فقلاها من الواوي، والثاني قال: مقلية من الياء، وهما في اللسان شواهد:

وقد جاء في السيرة ما يشهد لهذا المعنى ويثبت دوام موالاته سبحانه لحبيبه وعنايته به وحفظه له بما كان بكاؤه به عمه، وقد قال عمه في ذلك:

واللَّه لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

وذكر ابن هشام في رعاية عمه له، أنه كان إذا جنَّ الليل وأرادوا أن يناموا، تركه مع أولاده ينامون، حتى إذا أخذ كل مضجعه، عمد عمه إلى واحد من أبنائه، فأقامه وأتى بمحمد ﷺ ينام موضعه، وذهب بولده ينام مكان محمد ﷺ، حتى إذا كان

---

(١) الضحى: الآية (٤).

هناك من يريد به سوءًا فرأى مكانه في أول الليل، ثم جاء من يريده بسوء وقع السوء بابنه، وسلم محمد ﷺ، كما فعل الصديق ﷺ عند الخروج إلى الهجرة في طريقهما إلى الغار، فكان ﷺ تارة يمشي أمامه ﷺ، وتارة يمشي وراءه، فسأله ﷺ عن ذلك فقال: «أذكر الرصيد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون وراءك، فقال: أتريد لو كان سوء يكون بك يا أبا بكر؟ قال: بلى، فداك أبي وأمي يا رسول اللَّه، ثم قال: إن أهلك أهلك وحدي، وإن تهلك تهلك معك الدعوة» فذاك عمه في جاهلية وليس على دينه ﷺ، وهذا أبو بكر الصديق ﷺ»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن جندب بن سفيان البجلي ﷺ قال: «اشتكى رسول اللَّه ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد! إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا، فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾»[2].

* عن جندب ﷺ قال: «أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فقال المشركون: قد ودع محمد، فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾»[3].

★ **فوائد الحديثين:**

إن هذه السورة نزلت على رسول اللَّه ﷺ تكذيبًا من اللَّه قريشًا في قيلهم لرسول اللَّه ﷺ لما أبطأ عليه الوحي: قد ودع محمدًا ربُّه وقلاه[4].

والمرأة الوارد ذكرها هنا هي أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب، كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في «الفتح»[5].

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ٢٧٤-٢٧٨).
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٢-٣١٣)، والبخاري (٨/ ٩٢٠/ ٤٩٥٠)، ومسلم (٣/ ١٤٢٢/ ١٧٩٧[١١٥]).
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٣)، والبخاري (٨/ ٩٢١/ ٤٩٥١)، ومسلم (٣/ ١٤٢١-١٤٢٢/ ١٧٩٧[١١٤]) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٤١١-٤١٢/ ٣٣٤٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٧/ ١١٦٨١).
(٤) أفاده ابن جرير في جامع البيان (٣٠/ ٢٣١).
(٥) فتح الباري (٨/ ٩٢١).

قال الحافظ: «ذكر في سبب نزولها حديث جندب، وأن ذلك سبب شكواه ﷺ، وقد تقدمت في صلاة الليل أن الشكوى المذكورة لم ترد بعينها، وأن من فسرها بأصبعه التي دميت لم يصب. ووجدت الآن في الطبراني بإسناد فيه من لا يعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ لم يشعر به فأبطأ عنه جبريل لذلك، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ، مردود بما في الصحيح والله أعلم. وورد لذلك سبب ثالث وهو ما أخرجه الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال: «لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياما فتغير بذلك فقالوا: ودعه ربه وقلاه. فأنزل الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. ومن طريق إسماعيل مولى آل الزبير قال: «فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه فقال: لقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني، فجاء جبريل بسورة والضحى». وذكر سليمان التيمي في السيرة التي جمعها ورواها محمد بن عبد الأعلى عن معتمر بن سليمان عن أبيه قال: «وفتر الوحي، فقالوا: لو كان من عند الله لتتابع. ولكن الله قلاه. فأنزل الله: والضحى وألم نشرح بكمالهما» وكل هذه الروايات لا تثبت، والحق: أن الفترة المذكورة في سبب نزول ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾ غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أيامًا، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثًا»[1].

قال ابن عاشور: «الظاهر: أن هذه السورة نزلت عقب فترة ثانية فتر فيها الوحي بعد الفترة التي نزلت إثرها سورة (المدثر)، فعن ابن عباس وابن جريج: «احتبس الوحي عن رسول الله ﷺ خمسة عشر يومًا، أو نحوها. فقال المشركون: إن محمدًا ودعه ربه وقلاه، فنزلت الآية»[2].

واحتباس الوحي عن النبي ﷺ وقع مرتين: أولاهما قبل نزول سورة (المدثر) أو (المزمل)، أي: بعد نزول سورتين من القرآن أو ثلاث، على الخلاف في الأسبق من سورتي (المزمل) و(المدثر)، وتلك الفترة هي التي خشي رسول الله ﷺ أن يكون قد

(١) فتح الباري (٨/ ٩٢٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٣٠/ ٢٣١-٢٣٢)، عن ابن عباس قال: لما نزل عليه القرآن أبطأ عنه جبريل أياما، فعير بذلك فقال المشركون ودعه ربه وقلاه، فأنزل الله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

انقطع عنه الوحي، وهي التي رأى عقبها جبريل على كرسي بين السماء والأرض كما تقدم في تفسير سورة (المدثر)، وقد قيل: إن مدة انقطاع الوحي في الفترة الأولى كانت أربعين يومًا، ولم يشعر بها المشركون؛ لأنها كانت في مبدأ نزول الوحي قبل أن يشيع الحديث بينهم فيه، وقبل أن يقوم النبي ﷺ بالقرآن ليلًا.

وثانيتهما: فترة بعد نزول نحو من ثمان سور، أي: السور التي نزلت بعد الفترة الأولى، فتكون بعد تجمع عشر سور، وبذلك تكون هذه السورة حادية عشرة، فيتوافق ذلك مع عددها في ترتيب نزول السور.

والاختلاف في سبب نزول هذه السورة يدل على عدم وضوحه للرواة، فالذي نظنه أن احتباس الوحي في هذه المرة كان لمدة نحو من اثني عشر يومًا، وأنه ما كان إلا للرفق بالنبي ﷺ كي تستجم نفسه، وتعتاد قوته تحمل أعباء الوحي؛ إذ كانت الفترة الأولى أربعين يومًا، ثم كانت الثانية اثني عشر يومًا أو نحوها، فيكون نزول سورة (الضحى) هو النزول الثالث، وفي المرة الثالثة يحصل الارتياض في الأمور الشاقة، ولذلك يكثر الأمر بتكرر بعض الأعمال ثلاثًا، وبهذا الوجه يجمع بين مختلف الأخبار في سبب نزول هذه السورة وسبب نزول سورة (المدثر)»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الألوسي: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝﴾ لِمَا أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق، وهذه فانية مشوبة بالمضار، وما أوتي -عليه الصلاة والسلام- من شرف النبوة وإن كان مما لا يعادله شرف ولا يدانيه فضل، لكنه لا يخلو في الدنيا عن بعض العوارض القادحة في تمشية الأحكام، مع أنه عند ما أعد له -عليه الصلاة والسلام- في الآخرة من السبق والتقدم على كافة الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- يوم الجمع، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وكون أمته ﷺ شهداء على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته ﷺ، وغير ذلك من الكرامات السنية التي لا تحيط بها العبارات، وتقصر دونها الإشارات، بمنزلة بعض المبادئ بالنسبة إلى المطالب كذا في الإرشاد، والاختصاص الذي تقتضيه اللام، قيل إضافي على معنى اختصاصه -عليه الصلاة والسلام- بخيرية الآخرة، دون من آذاه وشمت بتأخير الوحي عنه ﷺ، ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين، كيف وقد علم بالضرورة أن الخير المعد له -عليه الصلاة والسلام- خير من المعد لغيره على الإطلاق، ويكفي في ذلك اختصاص المقام المحمود به ﷺ»[١].

وقال المراغي: «أي: وإن أحوالك في مستأنف حياتك خير لك مما مضى منها، وأن كل يوم ستزداد عزا إلى عز، وسيرتفع شأنك كل يوم عما قبله، وسأمنحك كل آنٍ جلالا فوق جلالك، ورفعة فوق رفعتك، وكأنه يقول له: لا تظن أني كرهتك أو تركتك، بل أنت عندي اليوم أشد تمكينا وأقرب اتصالا. ولقد صدق اللّه وعده، فما زال يسمو بنبيه، ويرفع درجته يوما بعد يوم حتى بلغ الغاية التي لم

---

(١) روح المعاني (٣٠/ ١٥٨).

يبلغها أحد قبله، فجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع خلقه، وجعل محبته من محبة اللَّه، واتباعه والاقتداء به سببا للفوز العظيم بنعيمه، وجعله وأمته شهداء على الناس جميعا، ونشر دينه، وبلغ دعوته إلى أطراف المعمورة، فأي فضل فوق ذلك الفضل؟ وأي نعمة أضفى من هذه النعمة؟ وأي إكرام فوق هذا الإكرام؟ وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها»[٢].

قال ابن كثير: «ولهذا كان رسول اللَّه ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها اطّراحا، كما هو معلوم من سيرته، ولما خير عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى اللَّه عز وجل، اختار ما عند اللَّه على هذه الدنيا الدنية»[٣].

قال البقاعي: «﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ أي: التي هي المقصود من الوجود بالذات؛ لأنها باقية خالصة عن شوائب الكدر، أو الحالة المتأخرة لك، ليفهم منه أنه لا يزال في تَرقٍّ من عَلِيٍّ إلى أعلى منه، وكامل إلى أكمل منه، دائمًا أبدًا لا إلى نهاية؛ ﴿خَيْرٌ﴾ وقيد بقوله: ﴿لَّكَ﴾ لأنه ليس كل أحد كذلك ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي الدنيا الفانية التي لا سرور فيها خالص، كما أن النهار الذي هو بعد الليل خير منه وأشرف ولاسيما الضحى منه، وقد أفهم ذلك أن الناس على أربعة أقسام: منهم من له الخير في الدارين، وهم أهل الطاعة الأغنياء، ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء، ومنهم من له صورة خير في الدنيا، وشر في الآخرة، وهم الكفرة الأغنياء، ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة، وهم المؤمنون الفقراء، قد قال:

الناس في الدنيا على أربع ... والنفس في فكرتهم حائره
فواحد دنياه مقبوضة ... إن له من بعدها آخره
وواحد دنياه مبسوطة ... ليس له من بعدها آخره

---

(١) تفسير المراغي (٣٠/ ١٨٣-١٨٤).
(٢) التبيان (ص: ٥٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٤٧).

وواحد قد حاز حظيهما سعيد في الدنيا وفي الآخرة
وواحد يسقط من بينهم فذلك لا دنيا ولا آخرة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على الزهد في الدنيا والتحذير من الاغترار بها

* عن عبد اللَّه قال: نام رسول اللَّه ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله! لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: **«ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»**[٢].

★ غريب الحديث:

وِطاء: بكسر الواو وفتحها، أي: فراشًا، والمعنى: لو اتخذنا لك بساطًا حسنًا، وفراشًا لينًا لكان أحسن من اضطجاعك على هذا الحصير الخشن.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد:

بيان فضل الزهد في الدنيا والحث على الإعراض عنها وترك التبسط في ملاذها وزينتها، **قال الطبري:** «في اختيار رسول اللَّه ﷺ وخيار السلف من الصحابة والتابعين شظف العيش والصبر على مرارة الفقر والفاقة، ومقاساة خشونة خشن الملابس والمطاعم، على خفض ذلك ودعته، وحلاوة الغنى ونعيمه ما أبان عن فضل الزهد في الدنيا، وأخذ القوت والبلغة خاصة، وكان نبينا ﷺ يطوي الأيام، ويعصب على بطنه الحجر من الجوع؛ إيثارًا منه شظف العيش والصبر عليه، مع علمه بأنه لو سأل ربه أن يسير له جبال تهامة ذهبًا وفضة لفعل، وعلى هذه الطريقة جرى الصالحون»[٣].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٠٧-١٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، والترمذي (٤/ ٥٠٨/ ٢٣٧٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٤١٠٩)، وصححه الحاكم (٤/ ٣١٠)، ووافقه الذهبي.

(٣) نقلًا عن ابن بطال (١٠/ ١٧٦).

وفيه بيان ما كان عليه ﷺ من الزهد في الدنيا والإعراض عن زينتها وزخرفها حتى اتخذ الخشن من الفراش دون النعم منه، وإنما فعل ذلك «كأنه رفع الطيبات للحياة الدائمة في الآخرة، ولم يرض أن يستعجل في الدنيا الفانية شيئًا منها؛ أخذًا منه بأفضل الدارين، وكان قد خيره اللَّه بين أن يكون نبيًا عبدًا، أو نبيًا ملكًا، فاختار عبدًا، فلزمه أن يفي اللَّه بما اختاره، والمال إنما يرغب فيه مع مقارنة الدين ليستعان به على الآخرة، والنبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يحتج إلى المال من هذه الوجوه»[١].

* * *

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وعده بما تقر به عينه، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى، والنصر وكثرة الأتباع، ورفع ذكره، وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجنة، وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم؛ فإنه صلوات اللَّه وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه -تبارك وتعالى-، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله حدًّا يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحدًا من أمتي النار على أن يدعه فيها، بل ربه -تبارك وتعالى- يأذن له فيشفع فيمن شاء اللَّه أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه»[(١)].

قال عطية محمد سالم: «قال بعض العلماء: يعطيه في الدنيا من إتمام الدين وإعلاء كلمة اللَّه، والنصر من الأعداء.

والجمهور: أنه في الآخرة، وهذا إن كان على سبيل الإجمال، إلا أنه فصل في بعض المواضع، فأعظمها ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[(٢)].

وجاء في السنة بيان المقام المحمود وهو الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، كما في حديث الشفاعة العظمى حين يتخلى كل نبي ويقول: «نفسي نفسي، حتى يصلوا إلى النَّبي ﷺ فيقول: **أنا لها أنا لها**»[(٣)] إلخ.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٠).
(٢) الإسراء: الآية (٧٩).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٥-٤٣٦)، والبخاري (٦/ ٤٥٧-٤٥٨/ ٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤)، والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٩٩/ ٣٣٠٧) مختصرًا.

ومنها: الحوض المورود، وما خصت به أمته غرًا محجلين، يردون عليه الحوض.

ومنها: الوسيلة، وهي منزلة رفيعة عالية لا تنبغي إلا لعبد واحد، كما في الحديث: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ وسلوا اللَّه لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»[١].

وإذا كانت لعبد واحد فمن يستقدم عليها، وإذا رجا ربه أن تكون له طلب من الأمة طلبها له، فهو مما يؤكد أنها له، وإلاَّ لما طلبها ولا ترجاها، ولا أمر بطلبها له. وهو بلا شك أحق بها من جميع الخلق، إذ الخلق أفضلهم الرسل، وهو ﷺ مقدم عليهم في الدنيا، كما في الإسراء تقدم عليهم في الصلاة في بيت المقدس.

ومنها: الشفاعة في دخول الجنة كما في الحديث: «أنه ﷺ أول من تفتح له الجنة، وأن رضوانًا خازن الجنة يقول له: أمرت ألا أفتح لأحد قبلك»[٢].

ومنها: الشفاعة المتعددة حتى لا يبقى أحد من أمته في النار، . . أسأل اللَّه أن يرزقنا شفاعته، ويوردنا حوضه. آمين. وشفاعته الخاصة في الخاص في عمه أبي طالب، فيخفف عنه بها ما كان فيه.

ومنها: شهادته على الرسل، وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك، وهذه بلا شك عطايا من اللَّه العزيز الحكيم لحبيبه وصفيه الكريم، صلوات اللَّه وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا»[٣].

قال ابن عاشور: «وحرف الاستقبال لإفادة أن هذا العطاء الموعود مستمر لا ينقطع كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾[٤] في سورة يوسف وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾[٥] في سورة الليل، وحذف المفعول الثاني لـ﴿يُعْطِيكَ﴾ ليعم كل ما يرجوه ﷺ من خير لنفسه ولأمته»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٨)، مسلم (١/ ٢٨٨-٢٨٩/ ٣٨٤) أبو داود (١/ ٣٥٩-٣٦٠/ ٥٢٣)، الترمذي (٥/ ٥٤٧/ ٣٦١٤)، النسائي (٢/ ٣٥٤/ ٦٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم (١/ ١٨٨/ ١٩٧).

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٢٨٠-٢٨٢).

(٤) يوسف: الآية (٩٨).

(٥) الليل: الآية (٢١).

(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة هذه الأمة

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ تلا قول اللَّه ﷻ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾[1] الآية، وقال عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2] الآية، فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى. فقال اللَّه ﷻ: يا جبريل! اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل -عليه الصلاة والسلام- فسأله. فأخبره رسول اللَّه ﷺ بما قال وهو أعلم- فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»[3].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذا الحديث مشتمل على أنواع من الفوائد: منها: بيان كمال شفقة النبيّ ﷺ على أمته، واعتنائه بمصالحهم، واهتمامه بأمرهم. . ومنها البشارة العظيمة لهذه الأمة -زادها اللَّه تعالى شرفًا- بما وعدها اللَّه تعالى بقوله: «سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»، وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها.

ومنها بيان عظم منزلة النبيّ ﷺ عند اللَّه تعالى، وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ، والحكمة في إرسال جبريل لسؤاله ﷺ إظهار شرف النبيّ ﷺ، وأنه بالمحل الأعلى، فيسترضى ويكرم بما يرضيه، واللَّه أعلم.

وهذا الحديث موافق لقول اللَّه ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾. وأما قوله تعالى: «ولا نسوؤك»، فقال صاحب «التحرير»: هو تأكيد للمعنى، أي: لا نحزنك؛ لأن الإرضاء قد يحصل في حق البعض بالعفو عنهم، ويدخل الباقي النار، فقال تعالى: نرضيك ولا ندخل عليك حزنًا، بل ننجي الجميع، واللَّه أعلم»[4].

قال القرطبي: «ومعنى هاتين الآيتين أن كل واحد من إبراهيم وعيسى لم يجزما

---

(١) إبراهيم: الآية (٣٦). (٢) المائدة: الآية (١١٨).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ١٩١/ ٢٠٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٣/ ١١٢٦٩)، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٢١٦-٢١٧/ ٧٢٣٤-٧٢٣٥).

(٤) شرح مسلم (٣/ ٦٦).

في الدعاء لعصاة أممهما، ولم يجهدا أنفسهما في ذلك، ولم يكن عندهما من فرط الشفقة ما كان ينبغي لهما، ألا ترى أنهما في الآيتين كأنهما تبرآ من عصاة أممهما، ولما فهم نبينا ذلك انبعث بحكم ما يجده من شدة شفقته ورأفته، وكثرة حرصه على نجاة أمته، وبحكم ما وهبه اللَّه تعالى من رفعة مقامه على غيره جازم الدعاء مجتهدًا فيه لهم، متضرعًا باكيًا ملحًا يقول: «أمتي أمتي» فعل المحب المستهتر بمحبوبه، الحريص على ما يرضيه، الشفيق عليه، اللطيف به، ثم لم يزل كذلك حتى أجابه اللَّه فيهم، وبشّره بما بشّره من مآل حالهم، حيث قال تعالى: «إنا سنرضيك في أمتك»، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾، . . وهذا كله يدل على أن اللَّه تعالى خص نبينا ﷺ من كرم الخلق، ومن طيب النفس، ومن مقام الفتوة بما لم يخص به أحد غيره، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1] وبقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[2] الآية، صلى اللَّه عليه أفضل ما صلى على أحد من خليقته، وجزاه عنا أفضل ما جزى نبيًا عن أمته»[3].

* * *

(١) القلم: الآية (٤).

(٢) التوبة: الآية (١٢٨).

(٣) المفهم (١/ ٤٥٤-٤٥٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾

★ **غريب الآية:**

آوى: جعل لك مأوى، بأن ضمك لمن يكفلك ويرعاك.

عائلا: أي: فقيرًا معدمًا لا مال له. قال جرير:

الله أنزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «استئناف مسوق مساق الدليل على تحقيق الوعد، أي هو وعد جار على سنن ما سبق من عناية الله بك من مبدإ نشأتك، ولطفه في الشدائد باطراد بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصدف، لأن شأن الصدف أن لا تتكرر، فقد علم أن اطراد ذلك مراد لله تعالى. والمقصود من هذا إيقاع اليقين في قلوب المشركين بأن ما وعده الله به محقق الوقوع قياسا على ما ذكره به من ملازمة لطفه به فيما مضى وهم لا يجهلون ذلك، عسى أن يقلعوا عن العناد ويسرعوا إلى الإيمان، وإلا فإن ذلك مساءة تبقى في نفوسهم، وأشباح رعب تخالج خواطرهم. ويحصل مع هذا المقصود امتنان على النبيء ﷺ، وتقوية لاطمئنان نفسه بوعد الله تعالى إياه»(1).

قال ابن كثير: «قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾، وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، وقيل: بعد أن ولد ﷺ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٩).

أذى قومه بعد أن ابتعثه اللَّه على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر اللَّه وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار اللَّه له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى اللَّه سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه، وقاتلوا بين يديه ﷺ أجمعين، وكل هذا من حفظ اللَّه له وكلاءته وعنايته به»[1].

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾:

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة يوهم ظاهرها أن النبي ﷺ كان ضالا قبل الوحي مع أن قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾[2] يدل على أنه ﷺ فطر على هذا الدين الحنيف، ومعلوم أنه لم يهوده أبواه ولم ينصراه ولم يمجساه، بل لم يزل باقيا على الفطرة حتى بعثه اللَّه رسولا، ويدل لذلك ما ثبت من أن أول نزول الوحي كان وهو يتعبد في غار حراء، فذلك التعبد قبل نزول الوحي دليل على البقاء على الفطرة.

والجواب أن معنى قوله: ﴿ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: غافلا عما تعلمه الآن من الشرائع وأسرار علوم الدين التي لا تعلم بالفطرة ولا بالعقل، وإنما تعلم بالوحي، فهداك إلى ذلك بما أوحى إليك، فمعنى الضلال على هذا القول: الذهاب عن العلم، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ﴾[3]، وقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[4]، وقوله: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾[5]، وقول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها ... بدلا أراها في الضلال تهيم

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[6]؛ لأن المراد بالإيمان شرائع دين الإسلام، وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[7]،

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٤٨).
(٢) الروم: الآية (٣٠).
(٣) البقرة: الآية (٢٨٢).
(٤) طه: الآية (٥٢).
(٥) يوسف: الآية (٩٥).
(٦) الشورى: الآية (٥٢).
(٧) يوسف: الآية (٣).

وقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[١]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٢]، وقيل المراد بقوله ضالا ذهابه وهو صغير في شعاب مكة، وقيل ذهابه في سفره إلى الشام، والقول الأول هو الصحيح والله تعالى أعلم، ونسبة العلم إلى الله أسلم»[٣].

وفي هذه الآية رد على أهل الفلسفة والإلحاد، المحاولين عبثا الوصول إلى حقيقة الاهتداء، معتمدين على مجرد عقولهم. يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجح بها كلها، وقد أخبر سبحانه أنه قبل الوحي لم يكن يدري الإيمان كما لم يكن يدري الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾، وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر الشورى، فإذا كان أعقل خلق الله على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾[٥] فكيف يحصل لسفهاء العقول، وأخفاء الأحلام، وفراش الألباب، الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الأنبياء: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾[٦]»[٧].

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾:

قال ابن القيم: «في الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره، وهذا قول أكثر المفسرين؛ لأنه قابله بقوله عائلا، والعائل: هو المحتاج ليس ذا العيلة فأغناه من المال، والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه وأغناه به عن سواه، فهو غنى قلب ونفس لا غنى مال، وهو حقيقة الغنى، والثالث: وهو الصحيح أنه يعم النوعين: نوعي الغنى فأغنى قلبه به وأغناه من المال»[٨].

---

(١) النساء: الآية (١١٣).
(٢) القصص: الآية (٨٦).
(٣) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٨٠-٢٨١).
(٤) الشورى: الآية (٥٢).
(٥) سبأ: الآية (٥٠).
(٦) مريم: الآيتان (٨٩-٩٠).
(٧) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٣٤-٧٣٥).
(٨) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٩).

قال ابن عطية: «والجمهور على أنه فقر المال وغناه، والمعنى في النبي ﷺ أنه أغني بالقناعة والصبر وحببا إليه فقر الحال وغناه، وقيل: أغني بالكفاف لتصرفه في مال خديجة، ولم يكن النبي ﷺ قط كثير المال، ورفعه اللَّه عن ذلك»(١).

وقال عطية محمد سالم: «وفي الآية إشارة إلى أن الإيواء والهدى والغنى من اللَّه، لإسنادها هنا لله تعالى، ولكن في السياق لطيفة دقيقة، وهي معرض التقرير، يأتي بكاف الخطاب: ألم يجدك يتيما، ألم يجدك ضالًّا، ألم يجدك عائلا، لتأكيد التقرير، لم يسند اليتم ولا الإضلال ولا الفقر لله، مع أنه كله من اللَّه، فهو الذي أوقع عليه اليتم، وهو سبحانه الذي منه كلما وجده عليه، ذلك لما فيه من إيلام له، فما يسنده لله ظاهرا، ولما فيه من التقرير عليه أبرز ضمير الخطاب. وفي تعداد النعم: فآوى، فهدى، فأغنى، أسند كله إلى ضمير المنعم، ولم يبرز ضمير الخطاب. قال المفسرون: لمراعاة رؤوس الآي والفواصل، ولكن الذي يظهر واللَّه تعالى أعلم: أنه لما كان فيه امتنان، وأنها نعم مادية لم يبرز الضمير لئلا يثقل عليه المنة، بينما أبرزه في: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾(٢)، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾(٣)؛ لأنها نعم معنوية، انفرد بها ﷺ، واللَّه تعالى أعلم»(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إنعام اللَّه على نبيه ﷺ وبيان حقيقة الغنى

* عن عبد اللَّه بن عباس عن النبي ﷺ قال: «**سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته، فقلت: قد كانت قبلي الأنبياء منهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فقال تعالى: يا محمد! ألم أجدك يتيمًا فآويتك؟ ألم أجدك ضالًّا فهديتك؟ ألم أجدك عائلًا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب**»(٥).

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٩٤).
(٢) الشرح: الآيتان (١-٢).
(٣) الشرح: الآية (٤).
(٤) تتمة الأضواء (٩/ ٢٨٩).
(٥) أخرجه الطبراني (١١/ ٤٥٥/ ١٢٢٨٩)، وفي الأوسط (٤/ ٣٩٠/ ٣٦٦٤) وقال: «لم يرفع هذا الحديث عن حماد بن زيد إلا أبو الربيع الزهراني وسليمان بن أيوب صاحب البصري»، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٦٢-٦٣)، والحاكم (٢/ ٥٢٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وذكره=

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث بيان نعم اللَّه سبحانه على نبيه ﷺ، «من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر، فكان محتاجًا إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه، فآواه ربه وهداه وأغناه، فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر»[1].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس**»[2].

★ **غريب الحديث:**

العَرَض: بفتح المهملة والراء ثم ضاد معجمة، هو ما ينتفع به من متاع الدنيا، وسمي عرضا لأنه عارض يعرض وقتا ثم يزول ويفنى.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «يعني ليس الغنى المحمود ما حصل عن كثرة العرض والمتاع؛ لأن كثيرًا ممن وسع اللَّه عليه لا ينتفع بما أوتي، بل هو متجرد في الازدياد، ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، فالحريص فقير دائمًا، ولكن الغنى المحمود المعتبر عند أهل الكمال: غنى القلب، وفي رواية: «النفس»، أي: استغناؤها بما قسم لها، وقناعتها ورضاها به، بغير إلحاح في طلب، ولا إلحاف في سؤال، ومن كفت نفسه عن المطامع، قرت وعظمت، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من كان فقير النفس، فإنه يورطه

= الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٥٦-٢٥٧) وقال: «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط».

قلت: والحكم في المختلط كما قال ابن حجر في «شرح النخبة»: «أن ما حدث به قبل الاختلاط إذا تميز قبل، وإذا لم يتميز توقف فيه، وكذا من اشتبه الأمر فيه، وإنما يعرف ذلك باعتبار الآخذين عنه»، وعطاء بن السائب قد روى عنه في هذا الحديث حماد بن زيد، وهو ممن سمع منه قديمًا، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «من سمع منه قديمًا كان صحيحًا، ومن سمع منه حديثًا لم يكن بشيء».

(١) أفاده ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٣-٣٨٩-. . ٣٩٠)، والبخاري (١١/ ٣٢٦-٣٢٧/ ٦٤٤٦)، ومسلم (٢/ ٧٢٦/ ١٠٥١)، والترمذي (٤/ ٥٠٦-٥٠٧/ ٢٣٧٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٦/ ٤١٣٧) كلهم من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

في رذائل الأمور، وخسائس الأفعال؛ لدناءة همته، فيصغر في العيون، ويحتقر في النفوس ويصير أذل من كل ذليل، والحاصل أن من رضي بالمقسوم فكأنه واجد أبدًا، ومن اتصف بفقر النفس فكأنه فاقد أبدًا، يأسف على ما فات، ويهتم بما هو آت، فمن أراد غنى النفس فليحقق في نفسه أنه تعالى المعطي المانع، فيرضى بقضائه، ويشكر عن نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، وأنشد بعضهم من قصيدة:

وعند مليكك فابغ العلو ... وبالوحدة اليوم فاستأنس

فإن الغنى في قلوب الرجال ... وإن التعزز في الأنفس

وكم قد ترى من أخي عسرة ... غني وذي ثروة مفلس

ومن قائم شخصه ميت ... على أنه بعد لم يرمس»[1].

* عن عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنعه اللَّه بما آتاه»**[2].

⭑ فوائد الحديث:

قوله: «ورزق كفافًا»:

قال المناوي: «أي: ما يكف عن الحاجات، ويدفع الضرورات والفاقات، ولا يلحقه بأهل الترفهات، قال القاضي: الفلاح الفوز بالبغية، «وقنعه اللَّه بما آتاه» بمد الهمزة، أي: جعله قانعا بما أعطاه إياه، ولم يطلب الزيادة لمعرفته أن رزقه مقسوم لن يعدو ما قدر له، والفلاح الفوز بالبغية»[3].

* * *

---

(١) فيض القدير (٥/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٨-١٧٢-١٧٣)، ومسلم (٢/ ٧٣٠/ ١٠٥٤)، والترمذي (٤/ ٤٩٧/ ٢٣٤٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٦/ ٤١٣٨).

(٣) فيض القدير (٤/ ٥٠٨).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾

★ **غريب الآية:**

تقهر: تحتقر وتذل.

تنهر: يقال: نهرته وانتهرته: إذا زجرته بغلظة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: لا تسَلَّط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك، قاله الأخفش. وقيل: هما لغتان بمعنى. وعن مجاهد ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تحتقر. وقرأ النخعي والأشهب العقيلي: «فلا تكهر» بالكاف، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود، فعلى هذا يحتمل أن يكون نهيا عن قهره بظلمه وأخذ ماله، وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير اللَّه تعالى، فغلظ في أمره، بتغليظ العقوبة على ظالمه، والعرب تعاقب بين الكاف والقاف، النحاس: وهذا غلط، إنما يقال كهره: إذا اشتد عليه وغلظ. وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي، حين تكلم في الصلاة برد السلام، قال: (فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه-يعني رسول اللَّه ﷺ- فواللَّه ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني)[١] الحديث. وقيل: القهر الغلبة، والكهر الزجر. . ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبره والإحسان إليه، حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم»[٢].

قال عطية محمد سالم: «بالنظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، والتي زادت على العشرين موضعًا، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أبواب كلها تدور حول دفع المضار عنه، وجلب المصالح له في ماله وفي نفسه، فهذه أربعة، وفي الحالة الزوجية، وهي الخامسة. أما دفع المضار في ماله، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٠٠).

تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١] جاءت مرتين في سورة الأنعام والأخرى في سورة الإسراء، وفي كل من السورتين ضمن الوصايا العشر المعروفة في سورة الأنعام، بدأت بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٢].

وذكر قتل الولد وقربان الفواحش وقتل النفس ثم مال اليتيم. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

ويلاحظ أن النهي منصب على مجرد الاقتراب من ماله إلاّ بالتي هي أحسن، وقد بين تعالى التي هي أحسن بقوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٣].

وقد نص الفقهاء على أن من ولي مال اليتيم واستحق أجرًا، فله الأقل من أحد أمرين: إما نفقته في نفسه، وإما أجرته على عمله، أي: إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريال، ونفقته يكفي لها خمسمائة، أخذ نفقته فقط، وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريال، ونفقته خمسمائة أخذ أجرته مائة فقط، حفظًا لماله.

ثم بعد النهي عن اقتراب مال اليتيم ذلك، فقد تتطلع بعض النفوس إلى فوارق بسيطة من باب التحيل أو نحوه، من استبدال شيء مكان شيء، فيكون طريقًا لاستبدال طيب بخبيث، فجاء قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾[٤].

والحوب: أعظم الذنب، ففيه النهي عن استبدال طيب ماله بخبيث مال الولي أو غيره حسدًا له على ماله، كما نهى عن خلط ماله مع مال غيره كوسيلة لأكله مع مال الغير، وهذا منع للتحيل، وسد الذريعة حفظًا لماله.

ثم يأتي الوعيد الشديد في صورة مفزعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾[٥].

وقد اتفق العلماء: أن الآية شملت في النهي عن أكل أموال اليتامى كل ما فيه

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٢).
(٢) الأنعام: الآية (١٥١).
(٣) النساء: الآية (٦).
(٤) النساء: الآية (٢).
(٥) النساء: الآية (١٠).

إتلاف أو تفويت، سواء كان بأكل حقيقة، أو باختلاس، أو بإحراق، أو إغراق، وهو المعروف عند الأصوليين بالإلحاق بنفي الفارق، إذ لا فرق في ضياع مال اليتيم عليه، بين كونه بأكل أو إحراق بنار، أو إغراق في ماء حتى الإهمال فيه، فهو تفويت عليه، وكل ذلك حفظًا لماله.

وأخيرًا، فإذا تم الحفاظ على ماله لم يقربه إلا بالتي هي أحسن، ولم يبدله بغيره أقل منه، ولم يخلطه بماله ليأكله عليه، ولم يعتد عليه بأي إتلاف كان محفوظًا له، إلى أن يذهب يتمه ويثبت رشده، فيأتي قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾[1].

ثم أحاط دفع المال إليه بموجبات الحفظ بقوله في آخر الآية: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[2]، أي: حتى لا تكون مناكرة فيما بعد.

وفي الختام ينبه اللَّه فيهم وازع مراقبة اللَّه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، وفيه إشعار بأن أمواله تدفع إليه بعد محاسبة دقيقة فيما له وعليه. ومهما يكن من دقة في الحساب، فاللَّه سيحاسب عنه، وكفى باللَّه حسيبًا، وهذا كله في حفظ ماله.

أما جلب المصالح، فإننا نجد فيها أولًا جعله مع الوالدين والأقربين، في عدة مواطن، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[3].

ومنها قوله: إيراده في أنواع البر من الإيمان باللَّه وإنفاق المال ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾[4]، إلى آخر الآية.

ومنها: ما هو أدخل في الموضوع حيث جعل له نصيبًا في التركة في قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[5]، بصرف النظر عن مباحث الآية من جهات أخرى، ومرة أخرى يجعل لهم نصيبًا فيما هو أعلى منزلة في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾[6] الآية. وكذلك في سورة الحشر في

(١) النساء: الآية (٦).
(٢) النساء: الآية (٦).
(٣) البقرة: الآية (٢١٥).
(٤) البقرة: الآية (١٧٧).
(٥) النساء: الآية (٨).
(٦) الأنفال: الآية (٤١).

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]. فجعلهم اللَّه مع ذي القربى من رسول اللَّه ﷺ.

وقد جعله اللَّه في عموم وصف الأبرار، وسببًا للوصول إلى أعلى درجات النعيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾[2].

وذكر أفعالهم التي منها: أنهم يوفون بالنذر ثم بعدها: أنهم يطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا. وجعل أفعالهم التي منها: أنهم يوفون بالنذر، ثم بعدها: أنهم يطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا.

وجعل هذا الإطعام اجتياز العقبة في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾[3] الآية.

ولقد وجدنا ما هو أعظم من ذلك، وهو أن يسوق اللَّه الخضر وموسى عليهما السلام ليقيما جدارًا ليتيمين على كنز لهما حتى يبلغا أشدهما، في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾[4].

هذا هو الجانب المالي من دفع المضرة عنه في حفظ ماله، ومن جانب جلب النفع إليه عن طريق المال.

أما الجانب النفسي فكالآتي:

أولًا: عدم مساءته في نفسه، فمنها قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾[5]. ومنها قوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾[6].

ثانيا: في الإحسان إليه، منها قوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾[7]، فيحسن إليه كما يحسن لوالديه ولذي القربى.

---

(١) الحشر: الآية (٧).
(٢) الإنسان: الآية (٥).
(٣) البلد: الآيات (١١-١٥).
(٤) الكهف: الآية (٨٢).
(٥) الماعون: الآيات (١-٣).
(٦) الفجر: الآيتان (١٧-١٨).
(٧) البقرة: الآية (٨٣).

ومنها: سؤال، وجوابه من اللَّه تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾(١)، أي تعاملونهم كما تعاملون الإخوان، وهذا أعلى درجات الإحسان والمعروف، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾. وفي تقديم ذكر المفسد على المصلح: إشعار لشدة التحذير من الإفساد في معاملته، ولأنه محل التحذير في موطن آخر جعلهم بمنزلة الأولاد في قوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝﴾(٢). أي: حتى في مخاطبتهم إياهم لأنهم بمنزلة أولادهم، بل ربما كان لهم أولاد فيما بعد أيتامًا من بعدهم، فكما يخشون على أولادهم إذا صاروا أيتامًا من بعدهم، فليحسنوا معاملة الأيتام في أيديهم، وهذه غاية درجات العناية والرعاية.

تلك هي نصوص القرآن في حسن معاملة اليتيم وعدم الإساءة إليه، مما يفصل مجمل قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝﴾.

لا بكلمة غير سديدة ولا بحرمانه من شيء يحتاجه، ولا بإتلاف ماله، ولا بالتحيل على أكله وإضاعته، ولا بشيء بالكلية، لا في نفسه ولا في ماله. والأحاديث من السنة على ذلك عديدة بالغة مبلغها في حقه، وكان ﷺ أرحم الناس به وأشفقهم عليه»(٣).

وقال أيضا: «وهنا يتجلى سر لطيف في مثالية التشريع الإسلامي، حيث يخاطب اللَّه تعالى أفضل الخلق وأرحمهم وأرأفهم بعباد اللَّه، الموصوف بقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤)، وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾(٥)، ليكون مثالًا مثاليًا في أمة قست قلوبها، وغلظت طباعها، فلا يرحمون ضعيفًا، ولا يؤدون حقًا إلا من قوة، يدينون لمبدأ «من عزَّ بزّ، ومن غلب استلب» يفاخرون بالظلم ويتهاجون بالأمانة، كما قال شاعرهم:

قبيلة لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

---

(١) البقرة: الآية (٢٢٠).
(٢) النساء: الآية (٩).
(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٢٩٠-٢٩٧).
(٤) التوبة: الآية (١٢٨).
(٥) القلم: الآية (٤).

ويقول حكيمهم:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

قوم يئدون بناتهم، ويحرمون من الميراث نساءهم، يأكلون التراث أكلًا لمًا، ويحبون المال حبًا جمًا، فقلب مقاييسهم وعدل مفاهيمهم، فألان قلوبهم ورقق طباعهم، فلانوا مع هذا الضعيف وحفظوا حقه.

وحقيقة هذا التشريع الإلهي الحكيم منذ أربعة عشر قرنًا تأتي فوق كل ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها، مما يحقق كمال التكامل الاجتماعي بأبهى معانيه، المنوه عنه في الآية الكريمة: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝﴾[1]، فجعل كافل اليتيم اليوم، إنما يعمل حتى فيما بعد لو ترك ذرية ضعافًا، وعبَّر هنا عن الأيتام بلازمهم وهو الضعف إبرازًا لحاجة اليتيم إلى الإحسان، بسبب ضعفه فيكونون موضع خوفهم عليهم لضعفهم، فليعاملوا الأيتام تحت أيديهم، كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم.

وهكذا تضع الآية أمامنا تكافلًا اجتماعيًا في كفالة اليتيم، بل إن اليتيم نفسه، فإنه يتيم اليوم ورجل الغد، فكما تحسن إليه يحسن هو إلى أيتامك من بعدك، وكما تدين تدان، فإن كان خيرًا كان الخير بالخير والبادئ أكرم، وإن شرًا كان بمثله والبادئ أظلم. ومع هذا الحق المتبادل، فإن الإسلام يحث عليه ويعنى به، ورغَّب في الإحسان إليه وأجزل المثوبة عليه، وحذّر من الإساءة عليه، وشدد العقوبة فيه»[2].

وقال أيضا: «ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه والحزم معه؛ بل ذلك من مصلحته كما قيل:

قَسَا لِيَزْدجِروا ومَنْ يَكُ حَازمًا فَلْيَقسُ أحْيانًا على مَنْ يَرحَمُ»[3].

قال ابن القيم: «وقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ قال أكثر المفسرين: هو

---

(١) النساء: الآية (٩).

(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ٢٩٨-٣٠٠).

(٣) المصدر السابق (٩/ ٣٠٠).

سائل المعروف والصدقة، لا تنهره إذا سألك. فقد كنت فقيرا، فإما أن تطعمه، وإما أن ترده ردا لينا»[١].

قال عطية محمد سالم: «ومعلوم: أن الجواب بلطف، قد يقوم مقام العطاء في إجابة السائل، وكان ﷺ إذا لم يجد ما يعطيه للسائل يعده وعدًا حسنًا لحين ميسره، أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[٢].

وقد أورد الشيخ -رحمة اللّٰه تعالى علينا وعليه-، بيتين عند هذه الآية في هذا المعنى، هما قول الشاعر:

إن لم تكن ورق يومًا أجود بها ... للسائلين فإني لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي ... إما نوالي وإما حسن مردود

فليسعد النطق إن لم يسعد المال.

وقيل: السائل المستفسر عن مسائل الدين والمسترشد، وقالوا هذا مقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝﴾[٣]، أي: لا تنهر مستغنيًا ولا مسترشدًا، كقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝﴾[٤].

وقد كان ﷺ رحيمًا شفيقًا على الجاهل حتى يتعلم، كما في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد حين صاح به الصحابة فقال لهم: «لا تزرموه» إلى أن قال الأعرابي: «اللهم ارحمني وارحم محمدًا ولا ترحم معنا أحدًا أبدًا» وكالآخر الذي جاء يضرب صدره وينتف شعره ويقول: «هلكت وأهلكت، واقعت أهلي في رمضان، حتى كان من أمره أن أعطاه فرقًا من طعامه يكفّر به عن ذنبه، فقال: أعلى أفقر منا يا رسول الله؟ فقال: «قم فأطعمه أهلك».

وقد كان ﷺ يقف للمرأة في الطريق يصغي إليها حتى يضيق من معه وهو يصبر لها ولم ينهرها، بل يجيبها على أسئلتها. وقد حث ﷺ على إكرام طالب العلم، وبين أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، وأن الحيتان في البحر لتستغفر له

---

(١) التبيان (ص: ٥١).
(٢) الإسراء: الآية (٢٨).
(٣) الضحى: الآية (٧).
(٤) عبس: الآيتان (١-٢).

رضى بما يصنع»[١].

قال السعدي: «ولهذا كان المعلم مأمورا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراما لمن كان يسعى في نفع العباد»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حسن خلقه ﷺ

* عن معاوية بن الحكم السلمي قال: «بينا أنا أصلي مع رسول اللَّه ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول اللَّه ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فواللَّه ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**». أو كما قال رسول اللَّه ﷺ قلت: يا رسول الله! إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء اللَّه بالإسلام، وإن منا رجالًا يأتون الكهان، قال: «**فلا تأتهم**»، قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: «**ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم**» قال ابن الصباح: فلا يصدنكم-، قال قلت: ومنا رجال يخطون. قال: «**كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك**»، قال: وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول اللَّه ﷺ، فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها؟ قال: «**ائتني بها**»، فأتيته بها. فقال لها: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، قال: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول اللَّه، قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»[٣].

---

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ٣٠٠-٣٠٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٧-٤٤٨)، ومسلم (١/ ٣٨١-٣٨٢/ ٥٣٧)، وأبو داود (١/ ٥٧٠-٥٧٣/ ٩٣٠)، والنسائي (٣/ ١٩-٢٢/ ١٢١٧).

★ **غريب الحديث:**

تقدم ما فيه من الغريب مع بعض فوائده عند قوله تعالى من سورة (البقرة): ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ الآية (٢٣٨).

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه بيان ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد اللَّه تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأمته، وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه، واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه»[1].

* * *

(١) شرح مسلم (٥/١٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أمره سبحانه بالتحدث بنعم اللَّه عليه وإظهارها للناس وإشهارها بينهم، والظاهر: النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها. وقال مجاهد والكلبي: المراد بالنعمة هنا: القرآن. قال الكلبي: وكان القرآن أعظم ما أنعم اللَّه به عليه فأمره أن يقرأه، قال الفراء: وكان يقرؤه ويحدث به، وقال مجاهد أيضا: المراد بالنعمة: النبوة التي أعطاه اللَّه، واختار هذا الزجاج فقال: أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك اللَّه وهي أجل النعم. وقال مقاتل: يعني اشكر ما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلالة وجبر اليتم، والإغناء بعد العيلة، فاشكر هذه النعم، والتحدث بنعمة اللَّه شكر، والجار والمجرور متعلق بحدث، والفاء غير مانعة من تعلقه به، وهذه النواهي لرسول اللَّه ﷺ هي نواه له ولأمته، لأنه أسوتهم، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهي بكل فرد من أفراد هذه النواهي»[1].

قال عطية محمد سالم: «النعمة كل ما أنعم اللَّه به على العبد، وهي كل ما ينعم به العبد من مال وعافية وهداية ونصرة من النعومة واللين، فقيل: المراد بها المذكورات، والتحدث بها شكرها عمليًا، من إيواء اليتيم كما آواه اللَّه، وإعطاء السائل كما أغناه اللَّه، وتعليم المسترشد كما علمه اللَّه، وهذا من شكر النعمة، أي: كما أنعم اللَّه عليك، فتنعّم أنت على غيرك تأسيًا بفعل اللَّه معك. وقيل: التحدث بنعمة اللَّه هو التبليغ عن اللَّه من آية وحديث، والنعمة هنا عامة لتنكيرها وإضافتها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[2]، أي كل نعمة، ولكن الذي يظهر أنها في الوحي أظهر هو أولى بها، أو هو أعظمها، لقوله تعالى:

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٦٠).

(٢) النحل: الآية (٥٣).

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[١]، فقال: نعمتي، وهنا نعمة ربك. ولا يبعد عندي أن يكون ﷺ إنما نحر مائة ناقة في حجة الوداع، لما أنزل اللَّه عليه هذه الآية، ففعل شكرًا لله على إتمام النعمة بإكمال الدين.

وقد قالوا في مناسبة هذه السورة بما قبلها: إن التي قبلها في الصديق ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾[٢]، وهنا في الرسول ﷺ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾[٣]، مع الفارق الكبير في العطاء والخطاب»[٤].

قال ابن عاشور: «والخطاب للنبي ﷺ فمقتضى الأمر في المواضع الثلاثة أن تكون خاصة به، وأصل الأمر الوجوب، فيعلم أن النبي ﷺ واجب عليه ما أمر به، وأما مخاطبة أمته بذلك فتجري على أصل مساواة الأمة لنبيها فيما فرض عليه ما لم يدلّ دليل على الخصوصية، فأما مساواة الأمة له في منع قهر اليتيم ونهر السائل فدلائله كثيرة مع ما يقتضيه أصل المساواة.

وأما مساواة الأمة له في الأمر بالتحدث بنعمة اللَّه، فإن نعم اللَّه على نبيه ﷺ شتّى منها ما لا مطمع لغيره من الأمة فيه، مثل نعمة الرسالة، ونعمة القرآن، ونحو ذلك من مقتضيات الاصطفاء الأكبر، ونعمة الرب في الآية مُجملة. فنعم اللَّه التي أنعم بها على نبيه ﷺ كثيرة، منها ما يجب تحديثه به؛ وهو تبليغه الناس أنه رسول من اللَّه، وأن اللَّه أوحى إليه وذلك داخل في تبليغ الرسالة، وقد كان يُعلم الناسَ الإسلام فيقول لمن يخاطبه أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه.

ومنها تعريفه الناس ما يجب له من البر والطاعة كقوله لمن قال له: «اعدل يا رسول اللَّه فقال: **أيأمنُني اللَّه على وحيه ولا تأمنوني؟**»[٥] ومنها ما يدخل التحديث

---

(١) المائدة: الآية (٣).
(٢) الليل: الآيات (١٧-٢١).
(٣) الضحى: الآيات (٣-٥).
(٤) تتمة أضواء البيان (٩/ ٣٠٢-٣٠٣).
(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٦٨). البخاري (٨/ ٨٤/ ٤٣٥١)، مسلم (٢/ ٧٤١/ ١٠٦٤)، أبو داود (٥/ ١٢١-١٢٢/ ٤٧٦٤)، النسائي (٧/ ١٣٤-١٣٥/ ٤١١٢).

به في واجب الشكر على النعمة فهذا وجوبه على النبي ﷺ خالص من عُروض المعارض؛ لأن النبي ﷺ معصوم من عروض الرياء ولا يظن الناس به ذلك فوجوبه عليه ثابت.

وأما الأمة فقد يكون التحديث بالنعمة منهم محفوفًا برياء أو تفاخر. وقد ينكسر له خاطر من هو غير واجد مثل النعمة المتحدث بها. وهذا مجال للنظر في المعارضة بين المقتضي والمانع، وطريقة الجمع بينهما إن أمكن أو الترجيح لأحدهما»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن التحدث بالنعمة من شكرها

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من أُبْلِيَ بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

من أُبْلِي: بضم الهمزة وكسر اللام على البناء للمجهول، والمعنى: أعطي.

بلاءً: أي: عطاء، والبلاء يستعمل في الخير والشر؛ لأن أصله الاختبار، وأكثر ما يستعمل في الخير مقيدًا، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾[٣]، وأما في الشر فقد يطلق.

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أعطي عطاءً فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره**»[٤].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أولي معروفًا فليكافئ به، فإن**

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٥/ ١٥٩/ ٤٨١٤)، وجوّد إسناده المنذري في «الترغيب» (٢/ ٧٧).

(٣) الأنفال: الآية (١٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٥/ ١٥٨/ ٤٨١٣) وقال: «رواه يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل عن جابر»، والترمذي (٤/ ٣٣٢/ ٢٠٣٤) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٨/ ٢٠٣-٢٠٤/ ٣٤١٥).

وفي سند الحديث شرحبيل بن سعد، وقد ضعفه غير واحد من أهل العلم، إلا أنه يعتبر به، كما أشار إلى ذلك الدارقطني رحمه الله. وللحديث طريق أخرى أخرجها ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٦٤)، وسندها حسن في المتابعات، وأيضًا للحديث طريق أخرى جيدة، وقد مضت.

لم يستطع فليذكره، فإن من ذكره فقد شكره»[١].

★ غريب الحديث:

من أُولِيَ: بضم الهمزة وكسر اللام على البناء للمجهول: من الإلى، وهي النعمة؛ قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾[٢] أي: نعمه.

* عن أنس رضي الله عنه: أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله! ذهب الأنصار بالأجر كله. قال: «**لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم**»[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[٤].

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد:

- التنبيه على أدب عظيم من آداب تلقي النعم «وهو التصدي للتحدث بالنعمة وإشهارها، حرصًا على التفضل والجود والتخلق بالكرم، وفرارًا من رذيلة الشح الذي رائده كتم النعمة والتمسكن والشكوى»[٥].

- «مِن عادة البخلاء أن يكتموا مالهم لتقوم لهم الحجة في قبض أيديهم عن

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٩٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٥١٥/ ٩١١٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٢٩-٢٣٠/ ٢٤٨٤) وقال: «لم يرو هذا الحديث عن الزهري إلا صالح»، وذكره المنذري في «الترغيب» (٢/ ٧٨/ ٥) وقال: «رواه أحمد، ورواته ثقات إلا صالح بن أبي الأخضر»، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٨١) وقال: «رواه أحمد والطبراني في «الأوسط»، وفيه صالح بن أبي الأخضر، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجال أحمد ثقات».

قلت: وخلاصة القول في صالح هذا أنه ضعيف يعتبر به -كما أفاد ذلك الحافظ في «التقريب»- يعني في الشواهد والمتابعات. ومن أجل ذلك صحح الشيخ الألباني هذا الحديث في «صحيح الترغيب والترهيب»، وقد مر معنا بعض شواهده من حديث جابر، وسيأتي أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عن الجميع.

(٢) الأعراف: الآية (٦٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٠٠-٢٠٤)، وأبو داود (٥/ ١٥٨/ ٤٨١٢)، والترمذي (٤/ ٥٦٣-٥٦٤/ ٢٤٨٧) وقال: «هذا حديث صحيح حسن غريب من هذا الوجه»، والحاكم (٢/ ٦٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٢)، وأبو داود (٥/ ١٥٧-١٥٨/ ٤٨١١)، والترمذي (٤/ ٢٩٨-٢٩٩/ ١٩٥٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٨/ ١٩٨-١٩٩/ ٣٤٠٧).

(٥) محاسن التأويل (١٧/ ١٨١).

البذل، فلا تجدهم إلا شاكين من القل، أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما أتاهم اللَّه من فضله، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه، فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل وإطعام الفقراء وإعانة المحتاجين، وذلك هو حقيقة الشكر؛ فإنه مبني «على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها»[1].

- «الحث والندب إلى مكافأة المحسن ومقابلة معروفه وإحسانه بمثله، وأنه ينبغي للمرء ألا يهمل ذلك ويتركه لما في ذلك من الجفاء وبلادة الطبع، وأما إذا لم يجد المرء ما يكافئ به المحسن، فإنه يجزئ عنه في ذلك الدعاء بالخير حتى يعلم أنه قد كافأه، وأفضل ما يقول له في دعائه: جزاكم اللَّه خيرًا؛ فإنه أبلغ الثناء، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ[2]»[3].

- وفيها: «أن من أخل بشكر من أسدى إليه نعمة من الناس مع ما يرى من حرصه على حب الثناء والشكر على النعماء، وتأذيه بالإعراض والكفران، كان أولى بأن يتهاون في شكر من يستوي عنده الشكر والكفران»[4].

- وفيها: «أن اللَّه سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر»[5].

قال في «توضيح الأحكام»: «إذا كان مكافأة المخلوق المحسن مستحبة وجميلة، وهو ليس له من المعروف والإحسان إلا أنه سبب، وإنما المعطي هو اللَّه تعالى، فكيف يكون وجوب شكر المنعم الأول، وصاحب النعم العظمى، والهبات الكبرى، الذي لا ينقطع مدده، ولا يتوقف إحسانه، فالواجب أن يكون دائم الشكر لله تعالى على إحسانه وامتنانه؛ قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[6]، والمراد هنا كفر النعم وجحدها بعدم أداء الشكر فيها اعتقادًا وقولًا وعملًا، واللَّه الموفق»[7].

---

(١) الوابل الصيب (ص: ١٧).
(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٣٣/ ٢٠٣٥) وقال: «حسن جيد غريب»، وصححه ابن حبان (٨/ ٢٠٢/ ٣٤١٣).
(٣) مستفاد من «توضيح الأحكام» (٦/ ١٠٠).
(٤) شرح الطيبي (٧/ ٢٢٣٢).
(٥) معالم السنن (٧/ ١٧٩).
(٦) إبراهيم: الآية (٧).
(٧) توضيح الأحكام (٦/ ١٠٠).



سورة الشرح

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «احتوت على ذكر عناية اللَّه تعالى لرسوله ﷺ بلطف اللَّه له، وإزالة الغم والحرج عنه، وتفسير ما عسر عليه، وتشريف قدره لينفس عنه، فمضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى، تثبيتا له بتذكيره سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة، ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه النبي ﷺ، وأتبع ذلك بوعده بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسرا، كدأب اللَّه تعالى في معاملته، فليتحمل متاعب الرسالة، ويرغب إلى اللَّه عونه»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٧-٤٠٨).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾

* **غريب الآية:**

نشرح: أصل الشرح: البسط والتوسعة. ومنه شرح الكلام لإيضاحه. وشرح اللَّه صدره: وسعه لقبول الحق بما يلقي فيه من نور الهداية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾: «استفهام تقريري على النفي والمقصود التقرير على إثبات المنفي كما تقدم غير مرة. وهذا التقرير مقصود به التذكير لأجل أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قوم يريد صلاحَهم وإنقاذَهم من النار ورفعَ شأنهم بين الأمم، ليدوم على دعوته العظيمة نَشيطًا غير ذي أسف ولا كَمَدٍ»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ يعني: أما شرحنا لك صدرك، أي: نورناه وجعلناه فَسيحًا رحيبًا واسعًا كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[2]، وكما شرح اللَّه صدره؛ كذلك جعل شَرْعه فسيحا واسعًا سمحًا سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق.

وقيل: المراد بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ شرح صدره ليلة الإسراء. . وهذا وإن كان واقعًا، ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الذي فُعِل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا، واللَّه أعلم»[3].

قال عطية سالم: «والذي يشهد له القرآن: أن الشرح هو الانشراح والارتياح.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٨).

(٢) الأنعام: الآية (١٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٥١).

وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة. كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[١]، فقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: بيان لشرح الصدر للإسلام. كما أن ضيق الصدر دليل على الضلال، كما في نفس الآية ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[٢] الآية. وفي حاشية الشيخ زادة على البيضاوي قال: لم يشرح صدر أحد من العالمين، كما شرح صدره ﷺ، حتى وسع علوم الأولين والآخرين فقال: «أوتيت جوامع الكلم»[٣] ومراده بعلوم الأولين والآخرين، ما جاء في القرآن من أخبار الأمم الماضية مع رسلهم وأخبار المعاد، وما بينه وبين ذلك مما علمه اللّٰه تعالى والذي يظهر واللّٰه تعالى أعلم: أن شرح الصدر الممتن به عليه ﷺ أوسع وأعم من ذلك، حتى إنه ليشمل صبره وصفحه وعفوه عن أعدائه، ومقابلته الإساءة بالإحسان، حتى إنه ليسع العدو كما يسع الصديق، كقصة عودته من ثقيف: إذ آذوه سفهاؤهم حتى ضاق ملك الجبال بفعلهم، وقال له جبريل: إن ملك الجبال معي، إن أردت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل، فينشرح صدره إلى ما هو أبعد من ذلك، ولكأنهم لم يسيئوا إليه فيقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[٤]، «إني لأرجو أن يخرج اللّٰه من أصلابهم من يقول: لا إله إلا اللّٰه محمد رسول الله»[٥]. وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة في تبليغ الدعوة وتحمل أعباء الرسالة، ولذا توجه نبي اللّٰه موسى إلى ربه يطلبه إياها، لما كلف الذهاب إلى الطاغية فرعون كما في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾[٦] إلى آخر السياق. فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل: بدأها بشرح الصدر، ثم تيسير الأمر، وهذان عاملان ذاتيان، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون، وهو

---

(١) الزمر: الآية (٢٢). (٢) الأنعام: الآية (١٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤، ٢٥٠)، والبخاري (١٣/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٧٢٧٣)، مسلم (١/ ٣٧٢/ ٥٢٣[٧])، والنسائي (٦/ ٣١١/ ٣٠٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ٤٨٤/ ١٤٩٨)، وقال: «هذا مرسل». والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع.

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٣٨٤-٣٨٥/ ٣٢٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠-١٤٢١/ ١٧٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) طه: الآيات (٢٤-٣١).

اللسان في الإقناع، ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾[١]، ثم العامل المادي أخيرًا في المؤازرة، ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾[٢]، فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته، لأنه به يقابل كل الصعاب، ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم. وقد بين تعالى من دواعي انشراح الصدر وإنارته، ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير، وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقي تلك التعاليم من الوحي، كقوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[٣] ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤] مما لا يتأتى إلا ممن شرح اللَّه صدره. ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر، وفعلًا قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة، وتلقى كل ذلك بصدر رحب وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى اللَّه، أن يكون رحب الصدر هادئ النفس متجملًا بالصبر»[٥].

قال ابن عاشور: «والآية تشير إلى أحوال كان النبي ﷺ في حرج منها، أو من شأنه أن يكون في حرج، وأن اللَّه كشف عنه ما به من حرج منها، أو هيّأ نفسه لعدم النوء بها.

وكان النبي ﷺ يعلمها، كما أشعَر به إجمالها في الاستفهام التقريري المقتضي علم المقرَّر بما قُرر عليه، ولعلّ تفصيلها فيما سبق في سورة الضحى، فلعلها كانت من أحوال كراهيته ما عليه أهل الجاهلية من نبذ توحيد اللَّه ومن مساوي الأعمال.

وكان في حرج من كونه بينهم ولا يستطيع صرفهم عما هم فيه، ولم يكن يترقب طريقها لأن يهديهم، أو لم يصل إلى معرفة كنه الحق الذي يجب أن يكون قومه عليه، ولم يطمع إلا في خويصة نفسه يودّ أن يجد لنفسه قبس نور يضيء له سبيل الحق، مما كان باعثًا له على التفكر والخلوة والالتجاء إلى اللَّه، فكان يتحنث في غار حراء، فلما انتشله اللَّه من تلك الوحلة بما أكرمه به من الوحي، كان ذلك شرحًا مما كان يضيق به صدره يومئذ، فانجلى له النور، وأُمِر بإنقاذ قومه وقد يظنهم طلاَّب

---

(١) طه: الآيتان (٢٧-٢٨).
(٢) طه: الآيات (٢٩-٣١).
(٣) الأعراف: الآية (١٩٩).
(٤) آل عمران: الآية (١٣٤).
(٥) تتمة الأضواء (٩/ ٣٠٩-٣١١).

حق وأزكياء نفوس، فلما قابلوا إرشاده بالإعراض ومُلاطفته لهم بالامتعاض، حدث في صدره ضيق آخر أشار إلى مثله قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝﴾[1] وذلك الذي لم يزل ينزل عليه في شأنه رَبْطُ جأشه بنحو قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾[2] فكلما نزل عليه وحي من هذا أكسبه شرحًا لصدره، وكان لحماية أبي طالب إياه وصده قريشًا عن أذاه منفس عنه، وأقوى مؤيد له لدعوته يَنشرح له صدره. وكلما آمن أحد من الناس تزحزح بعض الضيق عن صدره، وكانت شدة قريش على المؤمنين يضيق لها صدره، فكلما خلُص بعض المؤمنين من أذى قريش بنحو عتق الصديق بلالًا وغيره، وبما بشره اللَّه من عاقبة النصر له وللمؤمنين تصريحًا وتعريضًا، نحو قوله في السورة قبلها: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝﴾[3] فذلك من الشرح المراد هنا. وجماع القول في ذلك أنَّ تجليات هذا الشرح عديدة، وأنها سر بين اللَّه تعالى وبين رسوله ﷺ المخاطب بهذه الآية»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شق صدر النبي ﷺ وعناية اللَّه به منذ صغره

* عن عبد اللَّه بن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«سألت ربي ﷻ مسألة، وددت أني لم أكن سألته إياها، قلت: يا ربي! إنه قد كان قبلي رسل منهم من كان يحيي الموتى، ومنهم من سخرت له الريح، قال: ألم أجدك ضالًّا فهديتك؟ قلت: بلى يا ربي، قال: ألم أجدك يتيمًا فآويتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أشرح لك صدرك، ألم أضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب»**. هذا لفظ سليمان بن حرب، زاد عارم في آخره: **«فوددت أني لم أكن سألته»**[5].

---

(١) الشعراء: الآية (٣).
(٢) البقرة: الآية (٢٧٢).
(٣) الضحى: الآية (٥).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١١-٤١٢).
(٥) أخرجه: البيهقي في «الدلائل» (٧/ ٦٢-٦٣)، وأخرجه دون قوله: «ألم أرفع لك ذكرك» الحاكم (٢/ ٥٢٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير (١١/ ٤٥٥/ ١٢٢٨٩)، وفي الأوسط (٤/ ٣٩٠/ ٣٦٦٤) وقال: «لم يرفع هذا الحديث عن حماد بن زيد إلا أبو الربيع=

* عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان** -وذكر يعني رجلًا بين الرجلين- **فأتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وإيمانًا، فشق من النحر إلى مراقّ البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيمانًا**»(١).

★ غريب الحديث:

مراقّ البطن: هو بتشديد القاف: ما رقّ من أسفل البطن ولان، ولا واحد له، وميمه زائدة.(٢) وقال الحافظ: هو ما سفل من البطن ورفق من جلده، وأصله مراقق، وسميت بذلك لأنه موضع رقة الجلد.(٣)

* عن أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره- فقالوا: إن محمدًا قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»(٤).

★ غريب الحديث:

علقة: أي قطعة دم والعلق الدم.

لأمه: أي ضمه وجمعه.

= الزهراني وسليمان بن أيوب صاحب البصري». قال الشيخ ناصر: «كذا قال، وفاته أنه تابعهما أبو النعمان عنده في كبيره والبيهقي أيضًا، وقرن معه سليمان بن حرب وعبد الله بن الجراح عند الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا؛ فإن عطاء بن السائب وإن كان اختلط فإن حماد بن زيد سمع منه قبل الاختلاط، كما في «تهذيب التهذيب»، وقال النسائي فيه: ثقة في حديثه القديم إلا أنه تغير، ورواية حماد بن زيد وشعبة وسفيان عنه جيدة، وعليه فقول الهيثمي (٨/ ٢٥٤): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط، غير جيد». (الصحيحة ٦/ ٨٧).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٧-٢٠٨)، والبخاري (٦/ ٣٧١/ ٣٢٠٧)، ومسلم (١/ ١٤٩-١٥٠/ ١٦٤)، والترمذي (٥/ ٤١٢-٤١٣/ ٣٣٤٦)، والنسائي (١/ ٢١٧-٢١٨/ ٤٤٧).

(٢) النهاية (٤/ ٣٢٠).

(٣) فتح الباري (٦/ ٣٧٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨٨و١٢١)، ومسلم (١/ ١٤٧/ ٢٦٢[٢٦١]).

ظئره: مرضعته، ويقال أيضا لزوج المرضعة ظئرا.

منتقع اللون: متغيره ومعناه تغير من حزن أو فزع.

المخيط: ما يخاط به وهو الخيط والإبرة.

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ: «وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكار في ذلك؛ فقد تواردت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضًا عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل»، ولكل منهما حكمة، فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس: «فأخرج علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك»، وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم وقع شق الصدر عند البعث؛ زيادة في إكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة، ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر في شرعه ﷺ..

وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته؛ لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك»[1].

وقال القرطبي: «وهذا الحديث محمول على ظاهره وحقيقته؛ إذ لا إحالة في متنه عقلًا، ولا يستبعد من حيث إن شق الصدر وإخراج القلب موجب للموت، فإن ذلك أمر عادي، وكانت جل أحواله ﷺ خارقة للعادة، إما معجزة وإما كرامة، وهذا الشق خلاف الشق المذكور في حديث أبي ذر ومالك بن صعصعة؛ بدليل اختلاف الزمانين والمكانين والحالين، أما الزمانان فالأول في صغره، والثاني في كبره، وأما المكانان فالأول كان ببعض جهة مكة عند مرضعته، والثاني عند البيت، وأما الحالان فالأول نزع من قلبه ما كان يضره وغسل، وهو إشارة إلى عصمته، والثاني غسل وملئ حكمة وإيمانًا، وهو إشارة إلى التهيؤ إلى مشاهدته ما شاء اللَّه أن

(١) فتح الباري (٧/ ٢٥٩-٢٦٠).

يشهده، ولا يلتفت إلى قول من قال: إن ذلك كان مرة واحدة في صغره، وأخذ يغلط بعض الرواة الذين رووا أحد الخبرين؛ فإن الغلط به أليق، والوهم منه أقرب؛ فإن رواة الحديثين أئمة مشاهير حفاظ، ولا إحالة في شيء مما ذكروه، ولا معارضة بينهما ولا تناقض، فصح ما قلنا، وبهذا قال جماعة من العلماء»[1].

قال القاضي عياض: «وقوله في شرح صدره: «فاستخرج منه علقة، وقال: هذا حظ الشيطان منك» دليل بين على عصمة نبينا من الشيطان، وكفايته إياه أن يسلط عليه، لا في علمه ولا يقينه ولا جسمه ولا شيء من أمره، لا بالأذى والوساوس ولا غيره، وقد ادعى بعض العلماء الإجماع على ذلك»[2].

وقال أيضًا: «وفي هذه القصة أدل حجة وأوضح برهان وأصح دليل على مذهب الحق من أن الموت والحياة وسائر الأشياء من فعل اللَّه تعالى وخلقه محضًا، ليس يوجبهما سبب، ولا تقتضيهما طبيعة، ولا يشترط لوجودهما شرط لا يوجدان إلا معه البتة، إلا من حيث أجرى اللَّه العادة حتى إذا شاء خرقها، وأنفذ قدرته كيف شاء، خلافًا للفلاسفة ومن ضارع مذهبهم من المعتزلة، فإن شق الجوف وإخراج الحشوة وإخراج القلب وشقه ومعاناته وغسله وإخراج شيء منه كل ذلك مقتل في العادة، وسبب يوجد معه الموت لا محالة، وقد اجتمعت هذه كلها في هذه القصة، ولم يمت صاحبها؛ إذ لم يرد اللَّه موته ولا قضاه، بل كانت هذه المهالك في حق غيره أسبابًا لحياة نفسه وقوة روحه وكمال أمره، ويحتمل أن تكون هذه العلقة التي استخرجت من قلبه هي أحد أجزاء القلب المختص بها حب الدنيا والنزوع للشهوات التي منها يأتي الشيطان، أو ما تختص بها عوارض السهو والغفلة، كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم -وهي الأبواب التي يأتي منها الشيطان- فطرحت عنه فلا يجد الشيطان إليه سبيلًا، كما طرح عن يحيى شهوة النساء، أو تكون تلك العلقة -إذا كانت في القلب- هي القابلة لوسواس الشيطان والمحركة للنفس بما ركب اللَّه فيها من القوة لما يوافقه، فأزيحت عنه ﷺ ليسلم من دواعيه الخبيثة، ونقي القلب وغسل منها حتى لا يبقى لها أثر في القلب جملة»[3].

---

(١) المفهم (١/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٢) إكمال المعلم (١/ ٥٠٥).

(٣) إكمال المعلم (١/ ٥٠٧).

قال الحافظ: «خص الطست لكونه أشهر آلات الغسل عرفًا، والذهب لكونه أعلى أنواع الأواني الحسية وأصفاها، ولأن فيه خواص ليست لغيره، ويظهر لها هنا مناسبات، منها: أنه من أواني الجنة، ومنها: أنه لا تأكله النار ولا التراب، ولا يلحقه الصدأ، ومنها: أنه أثقل الجواهر، فناسب ثقل الوحي، وقال السهيلي وغيره: إن نظر إلى لفظ (الذهب) ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه، ولكونه وقع عند الذهاب إلى ربه، وإن نظر إلى معناه فلوضاءته ونقائه وصفائه ولثقله ورسوبته، والوحي ثقيل؛ قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[1]، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2]، ولأنه أعز الأشياء في الدنيا»[3].

قال الحافظ: «قال ابن أبي جمرة: الحكمة في شق قلبه مع القدرة على أن يمتلئ قلبه إيمانًا وحكمة بغير شق الزيادة في قوة اليقين؛ لأنه أعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان أشجع الناس، وأعلاهم حالًا ومقالًا، ولذلك وصف بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[4]»[5].

قال النووي: «وأما جعل الإيمان والحكمة في إناء وإفراغهما مع أنهما معنيان، وهذه صفة الأجسام، فمعناه -واللّه أعلم- أن الطست كان فيها شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة وزيادتهما، فسمي إيمانًا وحكمة لكونه سببًا لهما»[6].

قال الحافظ: «وهذا الملء يحتمل أن يكون على حقيقته، وتجسيد المعاني جائز، كما جاء أن سورة (البقرة) تجيء يوم القيامة كأنها ظلة، والموت في صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال، وغير ذلك من أحوال الغيب»[7].

* * *

---

(١) المزمل: الآية (٥).
(٢) الأعراف: الآية (٨).
(٣) فتح الباري (٧/ ٢٦٠).
(٤) النجم: الآية (١٧).
(٥) فتح الباري (٧/ ٢٦١).
(٦) شرح مسلم (٢/ ١٨٨).
(٧) فتح الباري (٧/ ٢٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

وضعْنا: حططنا.

وزرك: ذنبك. والوزر أيضا: الحِمْل والثقل.

أنقض: أثقله حتى سمع نقيضَه، أي: صوتَه. ومنه: سمعتُ نقيض الرحل، أي: صَرِيرَهُ. قال جميل:

وحتى تداعتْ بالنقيض حِبَالُه ... وهَمَّتْ بَوَانِي زَوْرِهِ أَنْ تَحَطَّمَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية سالم: «وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ والوضع يكون للحط والتخفيف، ويكون للحمل والتثقيل، فإن عدي بعن كان للحط، وإن عدي بعلى كان للحمل، في قولهم: وضعت عنك: ووضعت عليك، والوزر لغة: الثقل، ومنه: حتى تضع الحرب أوزارها، أي ثقلها من سلاح ونحوه. ومنه الوزير: المتحمل ثقل أميره وشغله، وشرعًا: الذنب، كما في الحديث: «**ومن سنَّ سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[1]، وقد يتعاوران في التعبير كقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾[2]، وقوله مرة أخرى ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[3]. وقد أفرد لفظ الوزر هنا وأطلق، ولم يبين ما هو وما نوعه، فاختلف فيه اختلافًا كثيرًا؛ فقيل: ما كان فيه من أمر الجاهلية، وحفظه من مشاركته معهم، فلم يلحقه شيء منه. وقيل: ثقل تألمه مما كان عليه قومه، ولم يستطع تغييره، وشفقته ﷺ بهم، أي كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٨-٣٥٩) مسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧). النسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣) ابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٣) مختصرا من حديث جرير بن عبد الله.

(٢) النحل: الآية (٢٥).

(٣) العنكبوت: الآية (١٣).

يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾[١]، أي أسفًا عليهم. وقال أبو حيان: هو كناية عن عصمته ﷺ من الذنوب، وتطهيره من الأرجاس. وقال ابن جرير: وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها. وقال ابن كثير: هو بمعنى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٢]. فكلام أبي حيان: يدل على العصمة، وكلام ابن جرير يدل على شيء في الجاهلية، وكلام ابن كثير مجمل. وفي هذا المجال مبحث عصمة الأنبياء عمومًا، وهو مبحث أصولي تحققه كتب الأصول لسلامة الدعوة، وقد تقدم للشيخ رحمة اللّه تعالى علينا وعليه بحثه في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[٣]، وأورد كلام المعتزلة والشيعة والحشوية، ومقياس ذلك، عقلًا وشرعًا، وفي سورة ص عند قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾[٤]، ونبه عندها على أن كل ما يقال في داود عليه السلام حول هذا المعنى، كله إسرائيليات لا تليق بمقام النبوة. اهـ

أما في خصوصه ﷺ، فإنا نورد الآتي: إنه مهما يكن من شيء، فإن عصمته ﷺ من الكبائر والصغائر بعد البعثة يجب القطع بها، لنص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٥]، لوجوب التأسي به وامتناع أن يكون فيه شيء من ذلك قطعًا. أما قبل البعثة، فالعصمة من الكبائر أيضًا، يجب الجزم بها لأنه ﷺ كان في مقام التهيؤ للنبوة من صغره، وقد شق صدره في سن الرضاع، وأخرج منه حظ الشيطان، ثم إنه لو كان قد وضع منه شيء لأخذوه عليه حين عارضوه في دعوته، ولم يذكر من ذلك ولا شيء فلم يبق إلا القول في الصغائر، فهي دائرة بين الجواز والمنع، فإن كانت جائزة ووقعت، فلا تمس مقامه ﷺ لوقوعها قبل البعثة والتكليف، وأنها قد غفرت وحط عنه ثقلها، فإن لم تقع ولم تكن جائزة في حقه، فهذا المطلوب. وقد ساق الألوسي رحمه الله في تفسيره: أن عمه أبا طالب قال لأخيه العباس يومًا: «لقد ضمته إليّ وما فارقته ليلًا ولا نهارًا ولا ائتمنت عليه أحدًا»، وذكر قصة بنيه ومنامه في وسط أولاده أول الليل، ثم نقله إياه محل أحد أبنائه حفاظًا عليه، ثم قال: «ولم أر منه كذبة ولا ضحكًا

---

(١) الكهف: الآية (٦).
(٢) الفتح: الآية (٢).
(٣) طه: الآية (١٢١).
(٤) ص: الآية (٢٤).
(٥) الأحزاب: الآية (٢١).

ولا جاهلية، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون» وذكرت كتب التفسير أنه ﷺ أراد مرة في صغره أن يذهب لمحل عرس ليرى ما فيه، فلما دنا منه أخذه النوم، ولم يصْحُ إلا على حر الشمس، فصانه اللَّه من رؤية أو سماع شيء من ذلك. ومنه قصة مشاركته في بناء الكعبة حين تعرى ومنع منه حالًا، وعلى المنع من وقوع شيء منه ﷺ بقي الجواب على معنى الآية، فيقال واللَّه تعالى أعلم: إنه تكريم له ﷺ كما جاء في أهل بدر قوله ﷺ: «**لعل اللَّه اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1] مع أنهم لن يفعلوا محرمًا بذلك، ولكنه تكريم لهم ورفع لمنزلتهم. وقد كان ﷺ يتوب ويستغفر ويقوم الليل حتى تورَّمت قدماه، وقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[2]. فكان كل ذلك منه شكرًا لله تعالى، ورفعًا لدرجاته ﷺ. وقد جاء: «**نعم العبد صهيب، لو لم يخف اللَّه لم يعصه**»[3]، وهو حسنة من حسناته ﷺ. أو أنه ﷺ كان يعتد على نفسه بالتقصير، ويعتبره ذنبًا يستثقله ويستغفر منه، كما كان إذا خرج من الخلاء قال: «**غفرانك**»[4]. ومعلوم أنه ليس من موجب للاستغفار، إلا ما قيل شعوره بترك الذكر في تلك الحالة، استوجب منه ذلك. وقد استحسن العلماء قول الجنيد: حسنات الأبرار سيئات المقربين، أو أن المراد مثل ما جاء في القرآن من بعض اجتهاداته ﷺ، وفي سبيل الدعوة، فيرد اجتهاده فيعظم عليه كقصة ابن أم مكتوم، وعوتب فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝﴾[5] الآية،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٧٩-٨٠)، والبخاري (٦/ ١٧٦-١٧٧/ ٣٠٠٧)، ومسلم (٤/ ١٩٤١-١٩٤٢/ ٢٤٩٤)، وأبو داود (٣/ ١٠٨-١١٠/ ٢٦٥٠)، والترمذي (٥/ ٣٨١-٣٨٣/ ٣٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٧/ ١١٥٨٥)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٥)، والبخاري (١١/ ٣٦٧/ ٧٤٧١)، ومسلم (٤/ ٢١٧١/ ٢٨١٩)، والترمذي (٢/ ٢٦٨-٢٦٩/ ٤١٢)، والنسائي (٣/ ٢٤٢/ ١٦٤٣)، وابن ماجه (١/ ٤٥٦/ ١٤١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) قال الشيخ الألباني في الضعيفة (٣/ ٥٦/ ١٠٠٦): «لا أصل له»، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٤٩/ ١٢٥٩): «اشتهر في كلام الأصوليين وأصحاب المعاني وأهل العربية من حديث عمر، وذكر البهاء السبكي أنه لم يظفر به في شيء من الكتب، وكذا قال جمع جم من أهل اللغة، ثم رأيت بخط شيخنا أنه ظفر به في مشكل الحديث لأبي محمد بن قتيبة لكن لم يذكر له ابن قتيبة إسنادًا».

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٥)، وأبو داود (١/ ٣٠/ ٣٠)، والترمذي (١/ ١٢/ ٧)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (١/ ١١٠/ ٣٠٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) عبس: الآيتان (١و٢).

ونظيرها ولو كان بعد نزول هذه السورة، إلا أنه من باب واحد كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[١]، وقصة أسارى بدر، وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[٢]، واجتهاده في إيمان عمه حتى قيل له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٣]، ونحو ذلك. فتحمل الآية عليه، أو أن الوزر بمعناه اللغوي، وهو ما كان يثقله من أعباء الدعوة، وتبليغ الرسالة، كما ذكر ابن كثير في سورة الإسراء عن الإمام أحمد من حديث ابن عباس ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**لما كان ليلة أُسري بي فأصبحت بمكة فظعت، وعرفت أن الناس مكذِّبي، فقعدت معتزلًا حزينًا، فمرَّ بي أبو جهل**»، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، وقصّ عليه الإسراء[٤] ففيه التصريح بأنه ﷺ فظع، والفظاعة: ثقل وحزن، والحزن: ثقل. وتوقع تكذيبهم إياه أثقل على النفس من كل شيء، والله تعالى أعلم. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾، أي ثقله مشعر بأن للذنب ثقلًا على المؤمن ينوء به، ولا يخففه إلا التوبة وحطه عنه»[٥].

قال ابن عاشور: «أما وضع الوزر عنه فحاصل بأمرين: بهدايته إلى الحق التي أزالت حيرته بالتفكر في حال قومه، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾[٦]، وبكفايته مؤنة كلف عيشه التي قد تشغله عما هو فيه من الأنس بالفكرة في صلاح نفسه، وهو ما أشار إليه قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾[٧]»[٨].

* * *

---

(١) التوبة: الآية (٤٣). (٢) آل عمرن: الآية (١٢٨).

(٣) القصص: الآية (٥٦).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٩)، ابن أبي شيبة (٧/ ٣٣٤/ ٣٦٠٧٢)، البزار (كشف الأستار ١/ ٤٥-٤٦/ ٥٦)، النسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٧-٣٧٨/ ١١٢٨٥) وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٦٤-٦٥) وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح». وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٧/ ٢٥٣).

(٥) تتمة الأضواء (٩/ ٣١١-٣١٦).

(٦) الضحى: الآية (٧). (٧) الضحى: الآية (٨).

(٨) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٢).

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية سالم: «وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، لم يبين هنا بم ولا كيف رفع له ذكره، والرفع يكون حسيًّا ويكون معنويًّا، فاختلف في المراد به أيضًا. فقيل: هو حسي في الأذان والإقامة، وفي الخطب على المنابر وافتتاحيات الكلام في الأمور الهامة، واستدلوا لذلك بالواقع فعلًا، واستشهدوا بقول حسان ﷺ، وهي أبيات في ديوانه من قصيدة دالية:

أَغَـرُّ عَـلَـيْـهِ لِـلـنُّـبُـوَّةِ خَـاتَـمٌ ... مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ

وضَمَّ الإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

وشَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُوا العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

ومن رفع الذكر معنى أي من الرفعة، ذكره ﷺ في كتب الأنبياء قبله، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه. وقد نص القرآن أن اللَّه جعل الوحي ذكرًا له ولقومه في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1] ومعلوم أن ذكر قومه ذكر له، كما قال الشاعر:

وكم أب قد علا بابن ذرى رتب ... كما علت برسول اللَّه عدنان

فتبين أن رفع ذكره ﷺ إنما هو عن طريق الوحي سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾[2] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾[3] ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾[4]، والتصريح باسمه في مقام الرسالة: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[5]، أو كان في فروع التشريع، كما تقدم في أذان وإقامة وتشهد وخطب وصلاة عليه ﷺ، واللَّه تعالى أعلم»[6].

---

(١) الزخرف: الآيتان (٤٣-٤٤).
(٢) المائدة: الآية (٤١).
(٣) الأنفال: الآية (٦٤).
(٤) المدثر: الآية (١).
(٥) الفتح: الآية (٢٩).
(٦) تتمة الأضواء (٩/ ٣١٦-٣١٨).

قال الرازي: «واعلم أنه -أي رفع ذكره ﷺ- عام في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسموات.. وأنه يذكر معه في الشهادة والتشهد، وأنه -تعالى ذكره- في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه ختمت به النبوة، وأنه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل، وعند الختم وجعل ذكره في القرآن مقرونًا بذكره: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾[1]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[2]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[3]، ويناديه باسم الرسول والنبي حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى، وأيضًا جعله في القلوب بحيث يستطيبون ذكره، وهو معنى قوله تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[4] كأنه تعالى يقول: أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعه سنة، فهم يمتثلون في الفريضة أمري، وفي السنة أمرك، وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[5] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[6] لا تأنف السلاطين من اتباعك، بل جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون وعظك بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك، ويسلمون من وراء الباب عليك.. ويرجون شفاعتك، فشرفك باق إلى يوم القيامة»[7].

قال الشوكاني: «وبالجملة فقد ملأ ذكره الجميل السموات والأرضين، وجعل اللّٰه له من لسان الصدق والذكر الحسن والثناء الصالح ما يجعله لأحد من عباده، وذلك فضل اللّٰه يؤتيه من يشاء، واللّٰه ذو الفضل العظيم، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان»[8].

قال ابن القيم: «شرح اللّٰه صدر رسوله أتم الشرح ووضع عنه وزره كل الوضع، ورفع ذكره كل الرفع، وجعل لأتباعه حظا من ذلك، إذ كل متبوع فلأتباعه حظ ونصيب من حظ متبوعهم في الخير والشر، على حسب اتباعهم له، فأتبع الناس لرسوله ﷺ أشرحهم صدرا وأوضعهم وزرا وأرفعهم ذكرا، وكلما قويت متابعته

---

(١) التوبة: الآية (٦٢).
(٢) النساء: الآية (١٣).
(٣) المائدة: الآية (٩٢).
(٤) مريم: الآية (٩٦).
(٥) النساء: الآية (٨٠).
(٦) الفتح: الآية (١٠).
(٧) التفسير الكبير (٣٢/ ٥-٦).
(٨) فتح القدير (٥/ ٦٦٥).

علما وعملا وحالا وجهادا قويت هذه الثلاثة حتى يصير صاحبها أشرح الناس صدرا وأرفعهم في العالمين ذكرا، وأما وضع وزره فكيف لا يوضع عنه ومن في السموات والأرض ودواب البر والبحر يستغفرون له، وهذه الأمور الثلاثة متلازمة، كما أن أضداها متلازمة، فالأوزار والخطايا تقبض الصدر وتضيقه وتخمل الذكر وتضعه، وكذلك ضيق الصدر يضع الذكر ويجلب الوزر، فما وقع أحد في الذنوب والأوزار إلا مِن ضيق صدره وعدم انشراحه، وكلما ازداد الصدر ضيقا كان أدعى إلى الذنوب والأوزار، لأن مرتكبها إنما يقصد بها شرح صدره ودفع ما هو فيه من الضيق والحرج، وإلا فلو اتسع بالتوحيد والإيمان ومحبة اللَّه ومعرفته وانشرح بذلك لاستغنى عن شرحه بالأوزار، ولهذا أكثر من يواقع المحظور إنما يدفع به عن نفسه ما فيها من الهم والغم والضيق، وكثيرا ما تبرد شهوته وإرادته، ومع هذا يحرص على المعاودة تداويا منه بزعمه، كما أفصح عن هذا شيخ الفسوق أبو نواس بقوله:

وَكَأْسًا شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ ... وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

فإذا حمل العبد الأوزار أوجب له ذلك ضيق الصدر وخمول الذكر، ثم خمولُ الذكر يوجب له ضيق الصدر، فلا يزال المعرض عن طاعة اللَّه ورسوله مترددا بين هذه المنازل الثلاث، كما لا يزال المطيع لله ورسوله الذي باشر قلبه روح التوحيد وتجريده ومحبة اللَّه ورسوله وامتثال أمره دائرا بين تلك المنازل الثلاث، وإذا ثقل الظهر بالأوزار منع القلب من السير إلى اللَّه، والجوارح من النهوض في طاعته وكيف يقطع مسافة السفر مثقل بالحمل على ظهره، وكيف ينهض إلى اللَّه قلب قد أثقلته الأوزار، فلو وضعت عنه أوزاره لنهض وطار شوقا إلى ربه، ولانقلب عسره يسرا، فإن ضيق الصدور وحمل الوزر وخمول الذكر من أعظم العسر، ومعه يسر يقلبه إليه وهو تجريد التوحيد، وتجريد الطاعة بمتابعة الرسول وهما الأصلان اللذان ختم بهما السورة فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾[1] فالنصب التفرغ للعبادة والطاعة والرغبة إلى اللَّه وحده وتجريد توحيده، فمتى قام بهذين الأصلين حصل له من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر بحسب ما قام به، وبُدِّلَ عُسره يسرا»[2].

---

(١) الشرح: الآيتان (٧-٨).

(٢) الكلام على مسألة السماع (ص: ٤٠١-٤٠٣)، نقلا عن بدائع التفسير (٥/ ٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: إن مع الضيقة والشدة يسرا، أي: سعة وغنى. ثم كرر فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ فقال قوم: هذا التكرير تأكيد للكلام، كما يقال: ارم ارم، اعجل اعجل، قال اللّه تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾[1]، ونظيره في تكرار الجواب: بلى بلى، لا، لا. وذلك للإطناب والمبالغة، قاله الفراء، ومنه قول الشاعر:

همممت بنفسي بعض الهموم ... فأولى لنفسي أولى لها

وقال قوم: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه، فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره.

وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر، قاله ثعلب. وقال ابن عباس: يقول اللّه تعالى: خلقت عسرا واحدا، وخلقت يسرين، ولن يغلب عسر يسرين. . وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، لو كان العسر في حَجَر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه، ولن يغلب عسر يُسرين.

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم، وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر ﷺ: (أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة، يجعل اللّه بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن اللّه تعالى يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾[2])[3]. وقال قوم منهم الجرجاني: هذا قول مدخول، لأنه يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفا، إن مع الفارس سيفا، أن يكون

---

(١) التكاثر: الآيتان (٣-٤).

(٢) آل عمران: الآية (٢٠٠).

(٣) سيأتي تخريجه.

الفارس واحدا والسيف اثنان.

والصحيح أن يقال: إن اللَّه بعث نبيه محمدا ﷺ مقلا مخفا، فعيره المشركون بفقره، حتى قالوا له: نجمع لك مالا، فاغتم وظن أنهم كذبوه لفقره، فعزاه اللَّه، وعدد نعمه عليه، ووعده الغنى بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾، أي: لا يحزنك ما عيروك به من الفقر، فإن مع ذلك العسر يسرا عاجلا، أي في الدنيا.

فأنجز له ما وعده، فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز واليمن، ووسع ذات يده، حتى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، ويعد لأهله قوت سنة.

فهذا الفضل كله من أمر الدنيا، وإن كان خاصا بالنبي ﷺ، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء اللَّه تعالى.

ثم ابتدأ فضلا آخر من الآخرة وفيه تأسية وتعزية له ﷺ، فقال مبتدئا: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ فهو شيء آخر.

والدليل على ابتدائه، تعريه من فاء أو واو أو غيرها من حروف النسق التي تدل على العطف.

فهذا وعد عام لجميع المؤمنين، لا يخرج أحد منه، أي: إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسرا في الآخرة لا محالة. وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة»[1].

قال السعدي: «قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه؛ كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[2]، وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا»[3] وتعريف العسر في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير اليسر يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين. وفي تعريفه بالألف واللام الدال على الاستغراق والعموم، دلالة على أن كل عسر وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ، فإنه في آخره التيسير ملازم له»[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٠٧-١٠٨). (٢) الطلاق: الآية (٧).

(٣) طرف من وصية النبي ﷺ لعبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما أخرجها أحمد (١/ ٣٠٦-٣٠٧) وغيره.

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٤٦).

قال ابن عاشور: «وسياق الكلام وعد للنبي ﷺ بأن ييسر اللَّه له المصاعب كلما عرضت له، فاليسر لا يتخلف عن اللحاق بتلك المصاعب، وذلك من خصائص كلمة «مع» الدالة على المصاحبة، وكلمة «مع» هنا مستعملة في غير حقيقة معناها، لأن العسر واليسر نقيضان، فمقارنتهما معا مستحيلة، فتعين أن المعية مستعارة لقرب حصول اليسر عقب حلول العسر أو ظهور بوادره، بقرينة استحالة المعنى الحقيقي للمعية، وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ في سورة الطلاق، فهذه الآية في عسر خاص يعرض للنبي ﷺ، وآية سورة الطلاق عامة، وللبعدية فيها مراتب متفاوتة»[1].

وقال: «وتنكير ﴿يُسْرًا﴾ للتعظيم، أي مع العسر العارض لك تيسيرا عظيما يغلب العسر، ويجوز أن يكون هذا وعد للنبي ﷺ ولأمته؛ لأن ما يعرض له من عسر إنما يعرض له في شؤون دعوته للدين ولصالح المسلمين»[2].

قال القاسمي: «وفي كلمة «مع» إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنه مقارن للعسر، فهو استعارة شبه التقارب بالتقارب، فاستعير لفظ «مع» لمعنى «بعد»»[3].

* عن ابن عباس ﷺ قال: «كنت رديف النبي ﷺ فقال: **يا غلام! -أو: يا غليم!- ألا أعلمك كلمات ينفعك اللَّه بهن؟ فقلت: بلى، فقال: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه اللَّه عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه اللَّه عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٣).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٤).
(٣) محاسن التأويل (١٧/ ١٨٨).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٧) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٦٦٧/ ٢٥١٦) وقال: حسن صحيح. والحاكم (٣/ ٥٤٢) وقال ابن رجب في رسالته «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس» (ص: ٢٠٦): «إسناده حسن لا بأس به».

* عن زيد بن أسلم قال: «كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعًا من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر بن الخطاب: أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل اللَّه بعده فرجًا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وأن اللَّه تعالى يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[1]»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «فإن مع اليسر يسرًا»: «هو منتزع من قوله تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾[3]، وقوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴿٦﴾﴾.. ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب والعسر باليسر أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى حصل للعبد إياس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبه باللَّه وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على اللَّه، وهو من أعظم الأسباب التي تطلب به الحوائج؛ فإن اللَّه يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[4]..

وأيضًا فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج وآيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه، ولم يظهر عليه أثر الإجابة، يرجع إلى نفسه باللائمة، وقال لها: إنما أوتيت من قبلك، ولو كان فيك خير لأجبت، وهذا اللوم أحب إلى اللَّه من كثير من الطاعات؛ فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه، واعترافه بأنه أهل لما نزل به من البلاء، وأنه ليس بأهل لإجابة الدعاء، فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله.. ولبعض المتقدمين في هذا المعنى:

عسى ما ترى ألا يدوم وأن ترى ... له فرج مما أَلَجَّ به الدهرُ

عسى فرج يأتي به اللَّه إنه ... له كل يوم في خليقته أمرُ

(١) آل عمران: الآية (٢٠٠).

(٢) أخرجه: مالك في الموطأ (٢/ ٤٤٦)، وفيه انقطاع بين زيد بن أسلم وأبي عبيدة، لكن وصله الحاكم (٢/ ٣٠٠-٣٠١) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٣٥) من طريق هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه، ومن طريقهما ابن عبد البر في الاستذكار (١٤/ ٤٤).

(٣) الطلاق: الآية (٧).

(٤) الطلاق: الآية (٣).

إذا لاح عسر فارج يسرا فإنه ... قضى اللَّه أن العسر يتبعه اليسرُ»[1].

ومما قيل في هذا المعنى من الشعر:

إذا اشتد بك العسر ... فَفَكِّرْ في أَلَمْ نشرحْ

فعسر بين يُسْرين ... إذا أبصرته فافرحْ

وقال آخر:

تَصَبَّر إنّ عقبى الصبر خيرٌ ... ولا تجزع لنائبة تنوب

فإن اليسر بعد العسر يأتي ... وعند الضيق تنكشف الكروب

وقال آخر:

فلا تجزع وإن أعسرت يومًا ... فقد أيسرت في الزمن الطويلِ

ولا تظنن بربك ظن سوء ... فإن اللَّه أولى بالجميلِ

ولا تيأس فإن اليأس كفر ... لعل اللَّه يُغني عن قليلِ

فإن العسر يتبعه يسار ... وقيل اللَّه أصدق كل قيلِ

وقال آخر:

مفتاح باب الفرج الصبر ... وكل عسر بعده يسر

والدهر لا يبقى على حالة ... والأمر يأتي بعده الأمر

* * *

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٩١-٤٩٥).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾

★ غريب الآية:

فانصب: النصب التعب، أي: أتعب نفسك بالعبادة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: فإذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربك في الدعاء، وسله حاجتك.. وقال آخرون: بل معنى ذلك ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من جهاد عدوك ﴿فَٱنصَبْ﴾ في عبادة ربك.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: فإذا فرغت من أمر دنياك، فانصب في عبادة ربك.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: إن اللّه -تعالى ذكره- أمر نبيه أن يجعل فراغه من كل ما كان به مشتغلا، من أمر دنياه وآخرته، مما أدى له الشغل به، وأمره بالشغل به إلى النصب في عبادته، والاشتغال فيما قربه إليه، ومسألته حاجاته، ولم يخصص بذلك حالا من أحوال فراغه دون حال، فسواء كل أحوال فراغه، من صلاة كان فراغه، أو جهاد، أو أمر دنيا كان به مشتغلا، لعموم الشرط في ذلك، من غير خصوص حال فراغ، دون حال أخرى»[1].

قال القاسمي: «والأظهر عندي، اعتمادا على ما صححناه من أن الآية مدنية، وأنها من أواخر ما نزل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي: فرغت من مقارعة المشركين، وظفرت بأمنيتك منهم، بمجيء نصر اللّه والفتح، فانصب في العبادة والتسبيح والاستغفار، شكرا لله على ما أنعم، وارغب إليه خاصة ابتغاء لمرضاته، فتكون الآيتان بمعنى سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[2] ثم رأيت ابن جرير نقل مثله عن ابن زيد عن أبيه قال: فإذا فرغت من

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٢) النصر: الآية (١).

الجهاد، جهاد العرب وانقطع جهادهم، فانصب لعبادة اللَّه، وإليه فارغب، وهو ظاهر. نعم لفظ الآية عام فيما أثرناه جميعه؛ إلا أن السياق والنظائر -وهو أهم ما يرجع إليه- يؤيد ما قاله ابن زيد واعتمدناه. واللَّه أعلم»[1].

قال عطية سالم: «وفي قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ حل لمشكلة الفراغ التي شغلت العالم، حيث لم تترك للمسلم فراغًا في وقته، لأنه إما في عمل للدنيا، وإما في عمل للآخرة. وقد روي عن ابن عباس: «أنه مر على رجلين يتصارعان فقال لهما: ما بهذا أُمرنا بعد فراغنا». وروي عن عمر أنه قال: «إني لأكره لأحدكم أن يكون خاليًا سبهللا، لا في عمل دنيا ولا دين» ولهذا لم يَشْكُ الصدر الأول فراغًا في الوقت. ومما يشير إلى وضع الصدر الأول، ما رواه مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة ﵂ -وأنا يومئذٍ حديث السن-: «أرأيت قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾[2] فما على الرجل شيء ألا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: كلا لو كان كما تقول لكانت، فلا جناح عليه ألا يطوف بهما». فانظر رحمك اللَّه وإياي، فيم يفكر حديث السن، وكيف يستشكل معاني القرآن، فمثله لا يوجد عنده فراغ»[3].

قال ابن العربي: «من المبتدعة من قرأ هذه الآية (فأَنْصِب) بكسر الصاد والهمزة في أوله، وقالوا: معناه أنصب الإمام الذي يستخلف، وهذا باطل في القراءة، باطل في المعنى، لأن النبي ﷺ لم يستخلف أحدا، وقرأها بعض الجهال (فانصبّ) بتشديد الباء، معناه: إذا فرغت من الغزو فجد إلى بلدك، وهذا باطل أيضا قراءة لمخالفة الإجماع، لكن معناه صحيح، لقول النبي ﷺ: «السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نهمته فليعجل الرجوع إلى أهله»[4]، وأشد الناس عذابا وأسوأهم مآبا ومباء، من أخذ معنى صحيحا، فركب عليه من قبل نفسه قراءة أو حديثا، فيكون كاذبا على اللَّه، كاذبا على رسوله، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[5] »[6].

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ١٨٨-١٨٩).
(٢) البقرة: الآية (١٥٨).
(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٣١٨-٣١٩).
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاري (٣/ ٧٩٤/ ١٨٠٤)، مسلم (٣/ ١٥٢٦/ ١٩٢٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٢/ ٨٧٨٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٦٢/ ٢٨٨٢)، من حديث أبي هريرة ﵁.
(٥) الأنعام: الآية (٢١).
(٦) أحكام القرآن (٤/ ١٩٤٩-١٩٥٠).

قال الألوسي: «نسب إلى بعض الإمامية أنه قرأ (فأنصب) بكسر الصاد، فقيل: أي فإذا فرغت من النبوة فانصب عليًّا للإمامة، وليس في الآية دليل على خصوصية المفعول فللسني أن يقدره أبا بكر -رضي اللَّه تعالى عنه-، فإن احتج الإمامي بما وقع في غدير خم، منع السني دلالته على ما ثبت عنده على النصب وصحته على ما يرويه الإمامي، واحتج لما قدره بقوله ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»[(١)]، وقال إنه أوفق بإذا فرغت لما أنه صدر منه -عليه الصلاة والسلام- في مرض وفاته، قيل: وفاته ﷺ بخلاف ما كان في الغدير، فإنه لا يظهر أن زمانه زمان فراغ من النبوة، ظهور كون زمان الأمر كذلك، وإن رجع وقال: المراد فإذا فرغت من الحج، فانصب عليا ورد عليه أمر مكية السورة مع ما لا يخفى، وقال في الكشاف: لو صح ذلك للرافضي لصح للناصبي أن يقرأ هكذا، ويجعله أمرا بالنصب الذي هو بغض علي كرم اللَّه تعالى وجهه وعدواته، وفيه نظر، ومن الناس من قدر المفعول خليفة، والأمر فيه هين، وقال ابن عطية: إن هذه القراءة شاذة ضعيفة المعنى، لم تثبت عن عالم»[(٢)].

قال عطية سالم: «وعلى كلٍّ إذا كان الشيعة يحتجون بها، فيكفي لرد احتجاجهم أنها شاذة، وتتبع الشواذ قريب من التأويل المسمى باللعب عند علماء التفسير، وهو صرف اللفظ عن ظاهره، لا لقرينة صارفة ولا علاقة رابطة، ومن اللعب في التأويل في هذه الآية، ما يفعله بعض العوام: رأيت رجلًا عاميًا عاديًا، قد لبس حلة كاملة من عمامة وثوب صقيل، وحزام جميل مما يسمونه نصبة، أي بدلة كاملة، فقال له رجل: ما هذه النصبة يا فلان؟ فقال له: لما فرغت من عملي نصبت، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾. كما سمعت آخر يتوجع لقلة ما في يده، ويقول لزميله: ألا تعرف لي شخصًا أنصب عليه، أي آخذ قرضة منه، فقلت له: ولم تنصب عليه؟ والنصب كذب وحرام. فقال: إذا لم يكن عند الإنسان شيء، ويده خالية فلا بأس؛ لأن اللَّه قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾، وهذا وأمثاله مما يتجرأ عليه العامة لجهلهم، أو أصحاب الأهواء لنحلهم»[(٣)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٩)، البخاري (٢/ ٢٦٢/ ٧١٦)، مسلم (١/ ٣١١/ ٤١٨).

(٢) روح المعاني (٣٠/ ١٧٢).

(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٣٢٠-٣٢١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن النشاط للعبادة لا يكون إلا بالفراغ من أمور الدنيا وأشغالها

* عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافع الأخبثان**»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعشاء**»[٢].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا قدم العشاء، فابدؤوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشائكم**»[٣].

* عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا وضع عشاء أحدكم، وأقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعشاء، ولا يعجل حتى يفرغ منه**»[٤].

★ غريب الأحاديث:

الأخبثان: الغائط والبول.

★ فوائد الأحاديث:

أورد الحافظ ابن كثير هذه الأحاديث في تفسيره لبيان أن النصب في العبادة، والقيام إليها بنشاط وفراغ بال، لا يكون إلا بالفراغ من أمور الدنيا وأشغالها، وقطع علائقها.

قال ابن رجب: «فهذه الأحاديث كلها تدل على أنه إذا أقيمت الصلاة، وحضر العشاء، فإنه يبدأ بالعَشاء، سواء كان قد أكل منه شيئًا أو لا، وأنه لا يقوم حتى يقضي حاجته من عشائه ويفرغ منه»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٣و٥٤و٧٣)، ومسلم (١/ ٣٩٣/ ٥٦٠)، وأبو داود (١/ ٦٩/ ٨٩).
(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٠-٥١-١٩٤)، والبخاري (٢/ ٢٠٢/ ٦٧١)، ومسلم (١/ ٣٩٢/ ٥٥٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٠-٢٤٩)، والبخاري (٢/ ٢٠٢/ ٦٧٢)، ومسلم (١/ ٣٩٢/ ٥٥٧)، والترمذي (٢/ ١٨٤/ ٣٥٣)، والنسائي (٢/ ٤٤٦/ ٨٥٢)، وابن ماجه (١/ ٣٠١/ ٩٣٣).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٣)، والبخاري (٢/ ٢٠٢/ ٦٧٣)، ومسلم (١/ ٣٩٢/ ٥٥٩).
(٥) فتح الباري لابن رجب (٦/ ٩٨).

قال النووي: «في هذه الأحاديث كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله؛ لما فيه من اشتغال القلب به، وذهاب كمال الخشوع، وكراهتها مع مدافعة الأخبثين، وهما البول والغائط، ويلحق بهذا ما كان في معناه مما يشغل القلب، ويذهب كمال الخشوع»(١).

وقال الخطابي: «قوله: «فابدؤوا بالعشاء» لفظه عام، والمراد به خاص، وإنما رخص في ذلك للصائم الذي تاقت نفسه إلى الطعام، أو الجائع الذي قد بلغ منه الجوع الضعف؛ لأنهما إذا قاما إلى الصلاة وفي أنفسهما الحاجة إلى الطعام، لم يستوفيا شرائط الصلاة وحقوقها من الخشوع والإخلاص؛ لمنازعة النفس الطعام، ولم يكن من عادة القوم الاستكثار من الأطعمة، ونقل الألوان، فتطول مدة الأكل، ويفوت معها وقت الصلاة، إنما كانوا يتناولون الخفيف من الطعام؛ شربة لبن أو كف تمر، أو نحو ذلك»(٢).

قال ابن الجوزي: «اعلم أن هذا ورد في حق الجائع الذي تاقت نفسه إلى الطعام، أُمر بذلك لئلا يشتغل قلبه في الصلاة بذكر الطعام عن الخشوع والفكر، وقد ظن قوم أن هذا من باب تقديم حظ العبد على حق الحق، وليس كذلك، وإنما هو صيانة لحق الحق؛ ليدخلوا في العبادة بقلوب مقبلة غير مشغولة بذكر الطعام»(٣).

قال ابن رجب: «وحاصل الأمر أنه إذا حضر الطعام كان عذرًا في ترك صلاة الجماعة، فيقدم تناول الطعام إن خشي فوات الجماعة، لكن لا بد أن يكون له ميل إلى الطعام، ولو كان ميلًا يسيرًا، صرح بذلك أصحابنا وغيرهم، وعلى ذلك دل تعليل ابن عباس والحسن وغيرهما، وكذلك ما ذكره البخاري عن أبي الدرداء، فأما إذا لم يكن لهم ميل بالكلية إلى الطعام، فلا معنى لتقديم الأكل على الصلاة»(٤).

وقال أيضًا: «ومتى خالف وصلى بحضرة طعام تتوق نفسه إليه، فصلاته مجزئة عند جميع العلماء المعتبرين»(٥).

قال ابن عبد البر: «قد أجمعوا أنه لو صلى بحضرة الطعام، فأكمل صلاته ولم

---

(١) شرح مسلم (٥/ ٣٩).
(٢) أعلام الحديث (١/ ٤٧٧).
(٣) كشف المشكل (٢/ ٥٢١).
(٤) فتح الباري (٦/ ٩٩).
(٥) فتح الباري (٦/ ١٠٤).

يترك من فرائضها شيئًا ، أن صلاته مجزية عنه ، فكذلك إذا صلاها حاقنًا ، فأكمل صلاته . وفي هذا دليل على أن النهي عن الصلاة بحضرة الطعام من أجل خوف اشتغال بال المصلي بالطعام عن الصلاة ، وتركه إقامتها على حدودها ، فإذا أقامها على حدودها خرج من المعنى المخوف عليه ، وأجزأته صلاته لذلك»[1] .

* * *

(١) التمهيد (٢٢/ ٢٠٦) .

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإلى ربك يا محمد فاجعل رغبتك، دون من سواه من خلقه، إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد»[١].

قال ابن عاشور: «تقديم ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على ﴿فَٱرْغَب﴾ لإفادة الاختصاص، أي: إليه لا إلى غيره تكون رغبتك، فإن صفة الرسالة أعظم صفات الخلق، فلا يليق بصاحبها أن يرغب غير اللَّه تعالى. وحذف مفعول «ارغب» ليعم كل ما يرغبه النبي ﷺ، وهل يرغب النبي إلا في الكمال النفساني وانتشار الدين ونصر المسلمين»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٨).

فهرس الموضوعات

سورة التكوير

سورة الانفطار

سورة الانشقاق

سورة البروج

سورة الطارق

سورة الأعلى

سورة الغاشية

سورة الفجر

سورة الشمس

سورة الضحى

سورة الشرح

* * *